جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها



الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير



إعداد
بومدين كروم

بإشراف
د. عمر موسى باشا

دمشق ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الاهـــــداء

إلى كل محب لهذه الأمـة وساع باخلاص في خدمـة تراثها وحضارتها أهدى هذا العمل المتواضع

بسم الله الرحمن الرحيم

==========

مقدمة

الطبيعة هي هذا الكون الفسيح ، بما فيه من ليل ونهار ، وسماء وأرض ، بما في الليل من ظلام ، وقمر ونجوم ، وما في النهار من شمس مشرقة ، وضياء ساطع ، وما في الأرض من جبال وسهول ، ورياض ومروج ومفازات ، وأنهار وبحار ، وما فضائه الواسع من غيوم ورياح ونسائم وأمطار ، وبرق ورعد ، وما بث الله فيه من حياة وأحياء وحركة وسكون وتوازن وتناسق ، وجمال ، وما يعتريه من تغير وتبدل ، وانبعاث وفناء ، هي هذا كله ، بما ينطوي عليه هذا الكل من شمول واتساع ، ومعان وأسرار .

ثم ان الفنان ، وهو الانسان المتمرد على الإلف والعادة ، بما وهب من احساس مرهف وشعور رقيق ، وذوق سليم ، مؤهل أهلية كافية لأن يحس بهذا الكون ، بكل مظاهره ومجاليه ، وأن ينفذ الى ما وراء هذه المظاهر والمجالي ليدرك ادراكا واعيا ما تنطوي عليه من أسرار ، وما تخفيه في أعماقها من معان وألغاز ، ثم يفرز تلك التجربة الشعورية في عمل فني ، فيه من الطبيعة كواقع ، بقدر ما فيه من الذاتية كأحاسيس ومشاعر ورؤى وخواطر ونظرات وأفكار .

والطبيعة بهذه الصفة هي أم الفنون ، قل أن نجد عملا فنيا مبدعا يخلو من عناصرها ومعطياتها ، وآثارها ، فقد كانت ولا تزال ، ملهمة الفنانين من شعراء ورسامين وموسيقيين ، ينشدون في أحضانها وسائل فنهم ، ويجدون في ظواهرها وأسرارها منبعا ثرا لأحاسيسهم وأفكارهم وتصوراتهم ، وإن اختلفت تلك الأفكار والتصورات ، عمقا وضحالة ، تبعا لاختلاف مستويات التجربة الفنية عند كل منهم .

وانطلاقا من هذه القيمة التي تحظى بها الطبيعة في بناء العمل الفني ، أولا ، ومن الحب لها - بحكم النشأة في ربوعها الفاتنة ، ثانيا - كانت رغبتي في دراسة الطبيعة في الشعر العربي ، والطبيعة في شعر ابن خفاجة الاندلسي على الخصوص ، لاعتماده الطبيعة أساسا في الاعراب عن مشاعره ، وأحاسيسه ، ونظراته وأفكاره ، واشتهاره بذلك قديما وحديثا ، وكان لابد من التقديم لهذه الدراسة بمقدمات ضرورية بدأتها بمدخل أضأت به عصر الشاعر من حيث حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ،

ثم أتبعته بالباب الأول ، وهو مختص ، بفصوله الثلاثة لدراسة حياة الشاعر ، من حيث نشأته وثقافته ، وشخصيته ، وعلاقاته وأسفاره ، ويليه الباب الثاني ؛ وهو من أربعة فصول ، وقد خصص لدراسة الطبيعة وتتبعها ، بكيفية سريعة ومكثفة ، في الشعر العربي منذ الجاهلية والى عصر ابن خفاجة ، ثم يأتي الباب الثالث ، وهو بيت القصيد من هذا البحث ، لدراسة الطبيعة في شعر ابن خفاجة ، وقد وزعته على عشرة فصول : درست في الفصل الأول طبيعة شرق الأندلس وعلاقة الشاعر بها ، وفي الفصل الثاني : الروضيات ، وفي الثالث : الشجريات والثمريات والزهريات ، وفي الرابع : الربا والبطاح والجبال ، وفي الخامس : المائيات ، وفي السادس : الظواهر الكونية ، وفي الفصل السابع : الطبيعة الحية ، وفي الثامن : الطبيعة المصنوعة ، وفي الفصل التاسع : الطبيعة والأغراض الشعرية المتنوعة ، وقصرت الفصل العاشر على الدراسة الفنية ، ثم أنهيت البحث بخاتمة ، أجملت فيها ما توصل اليه البحث من نتائج .

ومما تجدر الاشارة اليه بهذا الصدد ، أنني اعتمدت الأصول أساسا في بحثي ، ثم استعنت بعد ذلك بكل ما عثرت عليه من مراجع ، مؤيدا أو مناقشا ، وقد أكثرت الرجوع الى بعضها لأهميته ، كما أنني لم أتبع منهجا واحدا بعينه ، أقتصر عليه دون غيره من مناهج الدراسة الأدبية ، وانما استعنت بأكثر من منهج ، بالمنهج الفني ، والمنهج التاريخي ، والمنهج النفسي ، وتوسلت بها مجتمعة في ابراز قيم عمل ابن خفاجة الفنية والشعورية .

والحقيقة أن هذا البحث لم يكن ليبرز بهذا الشكل ، ولم يكن ليبلغ نهايته على النحو المطلوب لولا إرشاد كل من أستاذي الكريمين : الدكتور محمد رضوان الداية ، استاذ الأدب الأندلسي في جامعة دمشق ، الذي لم يدخر جهدا في مساعدتي وتوجيهي في معظم أقسام هذا البحث ، والدكتور عمر موسى باشا رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق ، الذي تفضل مشكورا ، وقبل الاشراف على هذا البحث بعد أن حالت أمور دون استمرار الاشراف الأول ، فإليهما أقدم خالص شكري وتقديري .

ومن الله تعالى ألتمس العون والرشاد .

مدخـــــل

الـى

عصـر ابن خفاجـــــــــــة

الحيـــاة السياســـية

" ١ "

انتظمت بلاد الاندلس في سلك دولة واحدة ، قرّ قرارها ، وبلغت من القوة والمنعة مبلغا ارتفعت منها الى ... الأطماع ، وتهيأت لها أسباب الرقي والتقدم ، فأضحت قرطبة مركز اشعاع حضاري أثر بفعالية في طلاب العلم الوافدين من الشرق والغرب . حدث هذا كله في القرن الرابع ، في عهد عبد الرحمن الناصر (- ٣٥٠هـ)[١] وابنه الحكم المستنصر (- ٣٦٦هـ)[٢] ، والمنصور بن أبي عامر ، الذي أستبد بالحكم من دون هشام بن الحكم لصغر سنّه[٣] . ولكن لم يكد هذا القرن يقترب من نهايته ، حتى انتثر سلك الخلافة ، وانعدم الامن ، واستشرت الفتن ، واحتدم الصراع على السلطة ، وجرت خطوب وأهوال فتت في عضد الدولة ومزقتها هزعا وأشتاتا ، وقد وصف ابن حيان طرفا من هذه الأحداث ، حين أرّخ لمدة حكم أبي أيوب سليمان بن الحكم لقرطبة ، فقال :

" وكانت كلها ، (أي سنوات حكمه) ، شدادا نكدات ، صعابا مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ; لم يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتمال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وظعن الأمن ، وحلول المخافة : دولة كفاها ذما أن أنشأها شانيه ، فقسمها "أرمقند" ، وشتتها الجلالقة ، ومزقتها الافرنجة ، ودبّرها فاجر شقي ، ووزر لها خبّ دني ، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت بمن أتي بعدها الى ما كان أعضل وأدهى ، ما طوى بساط الدنيا ، وعفّى

---

١)- جذوة المقتبس : ١٢
٢)- نفسه : ١٣
٣)- نفسه ١٧ ، طبقات الامم : ١٠٢

رسمهـا ، وأهلك أهلها .[١] ولم يعد رسم الخلافة بعدئذ - الا شعارا ممحوا مرعلبـا وتلاشى في سنة (٤٢٢ هـ) بثورة الجند على آخر خليفة هو هشام بن محمد (المعتد بالله) ، وقيام حكم الجماعة بقيادة الوزير أبي الحزم جهـور بن محمد بن جهور[٢] ، وطويت صفحة الحكم الأموي في الاندلس منذ ذلك الحين ، وما رفع شعار الخلافة في اشبيلية باسم هشام بن الحكم الا اخلوقة اختلقها صاحبها ابن عباد ، ليستأثر بالحكم ، ويرد أطماع الحمود يين المضيقين عليه ، والطالبين به أيضا .[٣]

" ٢ "

واستغل ضعف الخلافة في قرطبة رؤساء الطوائف ، وكبار الجند ، وأصحاب الشرطة ، والقضاة ، وغيرهم ، فاستقل كل بما تحت يده ، وأعلنوا انفصالهم عن دار الخلافة ، وبنوا الحصون ، واتخذوا العساكر ، وتنافسوا في أسباب الملك وطمع كل منهم بما في يد [illegible] ، حبا في التوسع والسيطرة[٤] ، فنشبت بينهم حروب أهلكت الحرث والنسل ، [illegible] عت أهل الاندلس ترويعا شديدا ، وعرف هذا [illegible] في تاريخ الأندلس - بـ [illegible] الطوائف ، وذلك لأن الأندلس قد انقسمت بسببهم الى دويلات كـ [illegible] ساسوها أسوأ سياسة ، وحكموا فيها أهواءهم ،

---

١)- الذخيرة لابن بسام ١/ ١ : ٣٦ ، جذوة المقتبس : ١٧ وما بعدها .

٢) - نفسه ١/ ٣ : ٢٥ [illegible] ما بعدها ، جذوة المقتبس: ٢٨ - ٢٩

٣)- نفسه ١/ ٢ : ١٧-[illegible] ٣٧-٣٨ جذوة المقتبس: ٢٩ - ٣٠

٤) - التبيان (مذكرات الامير عبدالله): ١٨ ، أعمال الاعلام : ١٤٤ .

وأشعلوا الفتن في جنباتها ، وقد اشتهرت منها دولة بني جهور في قرطبة وهم من موالي الأمويين : حكموا الى سنة (٤٦٢ هـ) ، حيث ضمت قرطبة الى حاضرة اشبيلية ، دولة العباديين ؛ «وهي - قرطبة - أول دولة تسقط من دول الطوائف منذ قيامها مدة أربعين عاما[1]» ودولة بني عباد اللخميين أصحاب أشبيلية ، وهي أخطر دول الطوائف وأقواها وأوسعها رقعة ، وأعلاها شأنا ، حكموا اشبيلية سنة (٤١٤ هـ) ، بعد خروج بني حمود منها ، وظلوا في حكمهم لها الى سنة (٤٨٤هـ) ، وجرت لهم وقائع مع جيرانهم من بني الافطس ، والحموديين وعلى رأسهم يحيى بن حمود (المعتلي)[2] . وبنو الافطس أبناء بني سلمة ملكوا بطليوس بأعمالها الكثيرة ورقعتها الواسعة من سنة (٤١٣) الى سنة (٤٨٨هـ)[3] . وبنو ذي النون وهم من الموالي العامرية من أصل بربري ، واستقروا في عاصمة الثغر الاوسط طليطلة ، التي توسعت رقعتها في عهد المأمون بن ذي النون ، وامتدت شرقا حتى بلنسية ، فتنوعت بذلك - مواردها ، وكثرت أرزاقها ، ونعم الناس فيها بهدوء ورخاء الى حين . وحدثت في عهد يحيى بن ذي النون الحفيد "القادر" - ثورة أهلية عارمة ، اضطر اثرها الى الفرار بأهله[4] والتحصن بحصن "وبذة" ، واستدعى الاهالي "المتوكل بن الافطس" لحكم المدينة فدخلها وحكمها خمسة عشر شهرا خرج أثرها فارا الى بطليوس ، ودخلها القادر مدعما بألفونسو ملك قشتالة ؛ وكان قد وعده بتخلية المدينة له اذا بلغه

---

١) - دول الطوائف : ٢٧

٢) - الذخيرة ١/٢ : ١٢ ومابعدها . دول الطوائف: ٣٦-٤٣ .

٣) - نفسه ٢/٢ : ٦٤١ . نفسه : ٨٠ ومابعدها .

٤) - المغرب ٢ : ١٣

أمله في دخولها ، بعد أن فتكوا فتكا شنيعا بمن خرج من الاهالي للدفاع عن المدينة ، ولم يكف ألفونسو عن المطالبة بها ، مضيقا ومشددا ، حتى أيأس أهلها ، واضطرهم الى التسليم ، بعد حصار أجهدهم ، واستنفد أقواتهم ، وبعد أن أسلمهم ملوك الطوائف ، الذين انكشفت نواياهم في التواطؤ مع العدو ومساعدته ، فدخل الفونسو المدينة فبي سنة (٤٧٨هـ) وسام أهلها الخسف والذل ، " واستقر - ابن ذي النون - بمحلة أذفونش منفرد الذمة ، مذال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب " . وخرجت المملكة منذئذ من يد المسلمين الى الابد .(١)

وأما بنو هود فقد استقروا بسرقسطة عاصمة الثغر الأعلى - منذ وقت مبكر ، واستمروا في حكمها الى سنة (٥٠٣ هـ) .(٢) واستولى بنو زيري الصنهاجيون - كغيرهم - على غرناطة ثم على مالقة ولبثوا فبي حكمهم الى سنة (٤٨٣هـ) . كما ظهرت على الساحة - دويلات أخرى منها من لم تعمر ، كبني حمود أصحاب مالقة و " الجزيرة الخضراء " ، وبني برزال أصحاب قرمونة ، وبني مزين في " شلب " ، ومنها من عمرت بعض الوقت لبعدها عن صراعات الدول القوية وأطماعها ، كبني رزين أصحاب السهلة الذين حكموا الى سنة (٤٩٧ هـ) وبني القاسم الفهري في " البونت " ، وحكموا الى سنة (٤٩٥ هـ)(٣)

---

١)- الذخيرة : ٤/١ : ١٤٩ وما بعدها ، أعمال الاعلام : ١٨٠-١٨١ .
دول الطوائف : ٩٤ وما بعدها .

٢)- دول الطوائف : ٢٥٤ وما بعدها .

٣)- الذخيرة : ٣/١ : ١٠٩ وما بعدها - أعمال الاعلام : ٢٠٥ وما بعدها .

" ٣ "

وأما شرق الاندلس ، فقد كان بحواضره المتعددة ، بلنسية ، مرسية ، شاطبة دانية ، المرية ، والجزائر الشرقية ، ميورقة ومنورقة ، ويابسة ... من أضعف مناطق الطوائف وأكثرها عرضة لهجمات النصارى المتتالية[1] ، وقد استقر في هذا الجانب من الاندلس موالي العامريين الفارين من قرطبة بعد سقوط الدولة العامرية ، فحكم مجاهد منهم دانية والجزائر الشرقية زهاء ثلاثين عاما ، وخلفه ابنه علي اقبال الدولة ومكث الى سنة (٤٦٨ هـ) ، حيث انتزع منه المقتدر بن هود مملكة دانية وضمها الى سرقسطة . وغلب لبيب منهم ، وبعده مقاتل على طرطوشة[2] ، ومبارك ومظفر على بلنسية ، ونبيل علي شاطبة ، وخيران على المرية ومرسية وأوريولة[3] ، وبعد موت خيران العامري وقتل زهير نائبه في معركة له مع أمير غرناطة حبوس بن ماكسن ، أصبحت المرية تحت امرة بني صمادح التجيبيين الذين ثاروا على عبد العزيز بن ابي عامر صاحب بلنسية وملكوها الى سنة (٤٨٤ هـ) ، كما ثار بنو طاهر عليه بمرسية واستخلصوها لانفسهم حتى سنة (٤٧١ هـ) ؛ وقد أنهى سلطانهم محمد بن عمار ، وزير المعتمد بن عباد ، الذي لم يلبث أن اغتصبها منه عبد الرحمن بن رشيق الثائر ، ونزل عنها بدوره للمرابطين في سنة (٤٨١ هـ)[4] .

---

١) - Histoire des Musulmans d'espagne . t.3 : 131 - 132 .

٢) - البيان المغرب ، ٣ : ٢٢٤ .

٣) - أعمال الاعلام : ١٧١ ، تاريخ ابن خلدون : ٤ : ١٦٢

٤) - الذخيرة ، ٣/١ : ٢٥-٢٦ دول الطوائف : ١٥٦ وما بعدها .

وكان انقسام الاندلس الى هذه الدويلات المتعددة ، المتفاوتة الاطماع والمشارب سيء الأثر على حياة المسلمين كلهم في شبه الجزيرة ، اذ لم يلبث أمراء تلك الدول أن أشعلوها حروبا أهلية شاملة وطاحنة ، استنزفت الطاقات ، وأوهنت العزائم ، وجعلت الاندلس الاسلامية طعما سائغا لحركة الاسترداد او الاستغلاب (Reconquista) ، النصرانية التي رفع لواؤها حينئذ ، فاشبيلية تحارب بطليوس ، وبطليوس تحارب طليطلة ، وطليطلة تحارب سرقسطة ، والمرية تعلن الحرب على غرناطة واشبيلية تعتزم الاستيلاء على غرناطة ، هذا فضلا عن الصراع الذي شب بين الاخوة في اطار الدولة الواحدة ، كما حدث في سرقسطة بني هود[1] ، وغرناطة بني زيري ، وبطليوس بني الافطس ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل استعان بعضهم على بعض بالنصارى ، كما فعل كل من المأمون بن ذي النون وابن هود ، اذ انتقم كل من الآخر بالتحالف مع ملوك النصارى ، ملوك " قشتالة " ونافار "[2] . واستعان القادر بن ذي النون بالفونسو السادس للاستيلاء على بلنسية ، كما اشترك كل من المستعين بن هود و"السيد الكمبيطور" في في الاستيلاء على بلنسية أيضا ، وكان "السيد" بطبيعة الحال هو الفائز في النهاية . واستعان المعتمد بن عباد كذلك بالفونسو السادس في السيطرة على مرسية ، ثم على غرناطة ، فكشفوا بذلك على ضعفهم للعدو ، وأطلعوه على ثغراتهم ، فكان أن اجتاحتهم

---

1) - المصدر السابق ١/٢ : ٤٢٢

٢) - دول الطوائف . ٩٧ - ٩٨ .

قواته جميعا ، وارغمتهم على دفع جزى ثقيلة - كخطة اولى لعملية الاسترداد -[1]
أرهقوا بها كاهل الرعية وأفقروها . وأحس الواعون من أهل الاندلس بخطورة الموقف
فاستصرخوا - عامة وخاصة - يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين الفتية ، ودافع
لواء الجهاد في المغرب ، واشتد ضغطهم على أمرائهم بعد أخذ طليطلة ، فاضطر
هؤلاء الى الاستنجاد ، وأرسلوا رسلهم الى العدوة ، يعرضون الأمر على يوسف بن
تاشفين[2] ، فأجاب الامير يوسف صريخ هؤلاء ، لا تساق ذلك مع دعوته الى
الجهاد ، وجاز الجواز الأول سنة (٤٧٩ هـ) وخاض معركة الزلاقة[3]
قرب بطليوس - بالاشتراك مع جيوش الدول الاندلسية متحدة ، وكان النصر
فيها ساحقا على جيوش النصارى بقيادة الفونسو السادس ، لم ينج منها الا
القليل ، ورجع بعدها أمير المسلمين الى المغرب لسماعه بخبر وفاة ابنه ابي بكر
سير .[4] ثم جاز الجواز الثاني برسم الجهاد في سنة (٤٨١ هـ) وقصد
شرق الاندلس ، وانضمت اليه جيوش أمراء الطوائف ، فحاصرت القوات مجتمعة
حصن لييط (Aledo) وشنوا الغارات عليه بالتداول . ولكن
دون جدوى لحصانته ومنعته ، واستصرخ النصارى المعتصمين بالحصن سلطانهم
فهب لنجدتهم ، وأخلى الحصن وأحرقه ، وكانت جيوش المسلمين قد تنحت عنه
فأمنت المنطقة بعد ذلك شره ، واستراحت من غاراته ، وقبل انصراف أمير
المسلمين الى العدوة[5]
وجه جيشا بقيادة محمد بن تاشفين الى بلنسية لمواصلة الجهاد ، عرف أمير
المسلمين في جوازه قوة هؤلاء الامراء ، وانكشف له منهم أثناء حصن لييط من تنافسهم
وحقد عم على بعضهم ، وموالاتهم لعدو الاسلام[6] ما حمله بجور جوازه الثالث في سنة

---

١)- Histoire des Musulmans d'Espagne t.3 : 118

٢)- مذكرات الامير عبد الله : ١٠٣ الحلل الموشية : ٣٨ ، دول الطوائف : ٩٠

٣)- الروض المعطار : ٢٨٨ . - الحلل الموشية : ٥٣ - ٦٦ .

٤)- الحلل الموشية : ٦٦ - ٧٠

٥)- المصدر نفسه : ٦٦

٦)- مذكرات الامير : ١٤١ .

(٤٨٣ هـ) لحربهم والقضاء عليهم ، وكان استفتى فقهاء الاندلس في ذلك فرأى منهم ومن عامة الاندلس كل تأييد ، فاتجه - بعد الرجوع من طليطلة ، وكان حاصرها وعاث في أطرافها - الى غرناطة ، فاستنزل صاحبها عبد الله بن بلقين ، ثم الى مالقة ، وكان بها تميم بن بلقين أخو عبد الله ، ورجع الى مراكش . وفي سنة (٤٨٤ هـ) وجه جيوشه الى الاندلس لاستنزال ملوك الطوائف ، فأخضعهم الواحد تلو الآخر ؛ ولم يبق منهم غير المستعين احمد بن هود صاحب سرقسطة لبعده واظهاره الخضوع والاعتراف بالدولة الجديدة من جهة ، ولكونه من جهة ثانية أدرى بجهته ، وبالممالك النصرانية المحيطة به ، فترك حاجزا بينهم وبين بقية بلاد الاندلس ، ولكن أهل سرقسطة نقموا على ابنه عبد الملك - لضعفه ومداخلته النصارى - وأخرجوه ، واستدعوا عامل علي بن يوسف ، فدخلها في سنة (٥٠٣ هـ)[1] وصارت الاندلس - اثر ذلك - ولاية موحدة ، تابعة لامارة مراكش ، دار الملك ، يمثلها أمراء يعينهم أمير المسلمين كلهم من لمتونة . وتوفي أمير المسلمين يوسف في سنة (٥٠٠ هـ) وخلفه ابنه علي بن يوسف ، وكان قد أخذ له البيعة في سنة (٤٩٦ هـ) في جوازه الرابع الى الاندلس برسم التجول والنظر في مصالح المسلمين[2] ، فحكم الى سنة (٥٣٧ هـ) حيث توفي وخلفه ابنه تاشفين الذي هلك في حربه مع الموحدين في سنة (٥٣٩ هـ)[3] ، وبانتهاء ولايته ، يبدأ عهد جديد بالاندلس .

---

١)- الحلل الموشية : ٧١ - ٧٦ المغرب في حلى المغرب ٢ : ٤٣٧
أعمال الاعلام : ١٧٥

٢)- الحلل الموشية : ٧٧ - ٧٨ .

٣)- المصدر السابق : ١٢٤

" ٥ "

واستقلت بلنسية رسميا عن قرطبة - مقر الخلافة - منذ بدء الصراع على الخلافة في بداية القرن الخامس ، وان كانت مستقلة - حقيقية - منذ وقت مبكر ، اذ لم يكن لها شأن يذكر في تاريخ سياسة بني أمية في الاندلس[1] استولى عليها مجاهد العامري في بداية الامر ، ثم انفرد بحكمها اثنان من الفتيان العامرية ، هما " مبارك " و " مظفر " ، ساساها معا الى أن مات مبارك وثار أهل بلنسية "بمظفر" وولوا عليهم فتى يدعى " لبيب العامري " ولكن لم يلبث هذا الاخير في الحكم مدة طويلة ، فقد اضطر الى الفرار ، والاحتماء " بريمندة " ملك برشلونة النصراني ، خوفا من نقمة العامة عليه ، لانصرافه ومداخلته العدو ، ولنفس السبب نقم عليه أهل طرطوشة ، بعد أن ولوه أمر بلادهم ، فنتلوه ، واستقدموا ابن هود لنجدة المدينة ، ولكنه اصطدم بمجاهد العامري الطامع فيها ، ونشبت بينهما حرب هوجاء ، ثم آل الامر في تلك النواحي - بعدئذ الى حفيد المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي عامر[2] ، فحكم الى أن توفي في حدود سنة (٤٥٢ هـ) وخلفه ابنه عبد الملك (المظفر) ، وكان ضعيفا ، مغلوبا على أمره ، وحكم الى سنة (٤٥٧ هـ) حيث أنزله صهره المأمون ابن ذي النون عن بلنسية ، وأناب عليها أبا بكر بن عبد العزيز الكاتب ، وبقيت ولاية تابعة لطليطلة مدة حياة المأمون ، وبعد موته مباشرة ، أي في سنة (٤٦٧ هـ) أعلن أبوبكر استقلاله ، وحكم الى سنة (٤٧٨ هـ) . وقد ساد فترته الامن ، لعدله وحسن تدبيره[3] ، وتولى الحكم بعده ابنه ابو عمرو عثمان ابن ابي بكر ، لكن القادر بن ذي النون ، انقض عليه - مدعوما بقوات الفونسو

---

١)- دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ٤ : ١١٩

٢)- الذخيرة ٣/١ : ٢٠-٢١ ، ٢٤٩ وما بعدها .

٣)- البيان المغرب ٣: ٣٠٣-٣٠٤ - الحلة السيراء : ٢ : ١٢٦

السادس - وأنفذ منه . بلنسية كبديل موعود به ، مقابل طليطلة التي تنازل له عنها سنة (٤٧٨ هـ)[1] ، ولم يطل حكم القادر لبلنسية ، فقد عرف أهلها سيرته ، وكرهوا حياة الذل في ظل حاميته النصرانية ، فثاروا عليه في سنة (٤٨٥ هـ) بقيادة القاضي احمد بن جحاف ، وقتل القادر ، وانتهبت أمواله ، وفي هذه الفترة وجه ابن هود - احمد بن يوسف المستعين - صاحب سرقسطة أنطار " رذريق " الفارس النصراني المغامر المعروف بـ " السيد " - الى بلنسية ، وأمده بالأموال والعتاد ، لهوى في نفسه ، فحمل " السيد " على المدينة حملات عنيفة وشدد الخناق عليها بغاراته المتكررة ، فنسف زروعها ، وضيق أرزاقها ، وتمكن - بعد اعمال الحيلة - من دخولها ، وعاثت جيوشه فيها فسادا ؛ وكانت نهاية ابن جحاف مأساة تزلزلت لها الجزيرة ، وذلك بأن أحرقه حيا مع جملة من الأعيان . على مرأى من أهله الذين نجوا من نفس المصير بصعوبة . وتصبح بلنسية - بدءا من سنة (٤٨٨ هـ)[2] ولاية نصرانية تستمر الى سنة (٤٩٥ هـ) حيث افتكتها الجيوش المرابطية من أيدي النصارى ، وحررتها من سيطرتهم وجبروتهم ، وذلك أن المسلمين بشرقي الاندلس قد استصرخوا - كغيرهم - يوسف بن تاشفين ، وأنفذوا اليه الرسل في ذلك ، لاشتداد وطأة النصارى على ذلك الاقليم لضعفه ، فكان أن وجه - استجابة للأمر - الى بلنسية جيشا بقيادة داود بن عائشة ، وأردفه بجيش آخر بقيادة محمد بن تاشفين ، بعيد الانتهاء من فتح حصن لييط مباشرة ، وكان ابن جحاف قد استعان بهم - بالمرابطين - في ثورته على القادر بن ذي النون والحامية النصرانية ، ولكن السيد شرط عليه ابعاد المرابطين مقابل الكف عن المطالبة

---

١)- الذخيرة ٣/١ : ٩٣

٢)- نفسه : ٣/١ : ٩٧ وما بعدها . البيان المغرب ٣ : ٣٠٥ - أعمال الاعلام : ٢٠٣-٢٠٤ - دول الطوائف : ٢٢٢ ومابعدها .

بلنسية ، فأبعد هم ابن جحاف ، الا ان " السيد " غدر به . واستولى على المدينة وأما مرسية فقد دخلت تحت امرة المرابطين منذ سنة (٤٨١ هـ) أي منذ القاء القبض على صاحبها والثائر بها عبد الرحمن بن رشيق أثناء محاصرة حصن ليبط ، وكانت شاطبة لحكم المرابطين في سنة (٤٨٥ هـ) ، وتبعتها شقورة ودانية في نفس العام . واشتد حصار المرابطين لبلنسية ولاحقوا قوات " السيد " بها ، وألحوا في طلبها ، فاضطرت " خمينا " - زوجة السيد - أن تغادر المدينة فخرجت منها ، بعد تنفيذ أمر ألفونسو بتخريبها ، واضرام النار فيها[1]. وأما السيد فكان قد توفي قبيل ذلك أي في سنة (٤٩٢ هـ)[2]

ودخل المرابطون بلنسية في سنة (٤٩٥ هـ) بقيادة محمد مزدلي فجددوا بناءها ، وعاد اليها أهلها ، فرجعت اليها الروح الاسلامية من جديد . ثم تداول الامر فيها - بعدئذ - من عمال المرابطين : ابو عبد الله بن عائشة (القائد) وأبو بكر ابراهيم بن تيفلويت ، وابو الطاهر تميم بن يوسف ، وعبد الله بن فاطمة ، وابو عبد الله محمد بن الحاج ، وابراهيم بن يوسف المعروف بابن تاعيشت[3]، وغيرهم ، خضعوا لسياسة المرابطين الولائية ، وانسجاما مع حركة الجهاد المستمرة .

---

١) - الذخيرة ٣/١ : ١٠٠-١٠١ - البيان المغرب ٣: ٣٠٦
الروض المعطار: ٩٧ - دول الطوائف : ٣٥٨

٢) - أشباخ : ١/ ١١٥

٣) - قيام دولة المرابطين : ٣٥٠ .

الحياة الاقتصاديـــة

تميزت الاندلس منذ القديم - والى الآن - بكثرة وديانها وأنهارها ، وصلاحية قسم كبير من أراضيها للزراعة بأنواعها ، وقد أسهم المسلمون بدور كبير في توسيع هذه الأراضي وتنميتها . وتصريف المياه اليها ، ولم يكتفوا بهذا المصدر الطبيعي المهم ، بل تنبهوا - أيضا - لثروات طبيعية أخرى ، سواء منها الحيوانية أو المعدنية ، فاعتنوا بتربية الحيوانات ، ونقبوا عن المعادن ، وأفادوا منها في بناء نهضة حضارية رائدة في القرون الوسطى ، وكان لموقع الاندلس المهم ، بين أوربا وافريقيـا أثره الفعال في تعميق هذه النشاطات الحضارية وتنويعها :

ولكي يتضح ذلك ، ينبغي أن نلقي نظرات اجمالية على قطاعات الاقتصـاد الحيوية من زراعة ، وصناعة ، وتجارة معتمدين في ذلك على ماجاء في كتب الجغرافية والتاريخ من أخبار عن هذه الفترة .

" ١ "

الزراعة :

اشتهر الاندلسيون بحبهم لبلادهم ، وهيامهم بها هياما شديدا ، استمر معهم حتى بعد خروجهم منها ، وما ذلك الا لانهم بذلوا جهدهم في اصلاحها واعمارها ، فغدت جنة في أعينهم لم يفارقوها الا مرغمين ؛ استصلحوا الاراضـــي ، فحولوها الى بساتين وحقول . وشقوا اليها سواقي تمدها بماء الأنهار ، وغطـــوا المرتفعات بأنواع الأشجار والكروم ، وذلك بطرق فنية علمية لم تزل تشهد على براعتهم حتى الآن ، وتؤكد نبوغ علماء الزراعة الاندلسيين وتقدمهم في هذا المجال ، والذين برز منهم في القرن الخامس ابو عبد الله بن بصال الطليطلـي صاحب كتاب " الفلاحة " وأبو عبد الله محمد بن مالك الطغنري الغرناطي في أواخر هذا القرن ، وله كتاب سماه " زهر البستان ونزهة الاذهان " ، وابن العوام الاشبيلي في القرن السادس ، وله كتاب في الفلاحة أيضا - وكلا الكتابين " الفلاحة لابن بصـال ، والفلاحة لابن العوام يمتاز بنزعة علمية قوية ، وباستيعابه لمختلـــف

المسائل والفنون الزراعية غير بعيد عن مستوى الزراعة الحديثة ، وهو أثر من آثار الطابع العلمي الواضح الذي اتخذته الفنون الزراعية على يد علماء الزراعة الاندلسيين[١] .
وقد ظهر أثر هذا النبوغ واضحا من خلال الكمية الكبيرة من الأوصاف التي تناقلتها كتب الجغرافية والتاريخ لهذه الفترة ، فكورة بلنسية " ذات مسافة بعيدة ، ومنافعهاالأهلها عظيمة ، جمعت البر والبحر ، والزرع والضرع ، ولها السهل والجبل . . . وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون[٢] "وهي على نهر جار ينتفع به ويسقي المزارع ولها عليه بساتين وجنات وعمارات متصلة[٣] " و جزيرة شقر . . . حسنة البقاع كثيرة الاشجار والثمار والأنهار "[٤] وأما جيان " فقد " جمعت تناهي طيب الأرض ، وكثرة الثمر واطراد العيون " ، وأرض كورة البيرة[٥] " سقيا ، غزيرة الأنهار ، كثيرة الثمار ، ملتفة الأشجار ، يحسن فيها شجر الجوز وقصب السكر[٦] " . وجزيرة " يابسة ، جزيرة حسنة كثيرة الكروم والاعناب[٧] " ، وجزيرة منورقة " من أخصب بلاد الله تعالى أرجاء ، وأكثرها زرعا ورزقا وماشية ، وهي على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها ، يصل فاضل خيرها الى غيرها ، اذ فيها من الحضارة والتمكن والتحضّر وعظيم البادية ما يغنيها ، وفيها من الفوائد مافيها[٨] " ، ومدينة سرقسطة أطيب البلدان بقعة ، وأكثرها ثمرة ، لكثرة الفواكه في بساتينهم حتى لا يقوم ثمنها بمؤونة نقلها لرخصها "[٩] ، واشتهرت اشبيلية كذلك بطيب

---

١)- مجلة العربي ع : ١٤٤ / ١٩٧٠ : ٨٨-٨٩ - المغرب ٢ : ٩
٢)- فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، قطعة منه : ١٦
٣)- صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس : ١٩١
٤)- نفسه : ١٩٢
٥)- فرحة الانفس : ١٥ الروض المعطار : ص ١٨٣ .
٦)- نفسه : ١٤
٧)- الادريسي : ٢١٤
٨)- رسالة الشقندي : ٥٩
٩)- الادريسي : ١٩٠ - الروض المعطار : ٣١٧

تربتها وكثرة مياهها ، وجبلها المعروف بجبل الشرف ذي البقعة الشريفة ، والتربة الكريمة ، والخضرة الدائمة ، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه . واشتباك غصونه [١].

وقد ساعد على هذا النماء الزراعي سياسة المرابطين في الغاء المكوس غير المشروعة وتوفير الأمن ، واقطاع المخلصين من الجند أراضي لاستثمارها ، فكان أن أقبل الفلاحون على الأراضي ، وشموها من وقتهم وجهدهم ، وصيروها جنات خضراء ، يانعة الثمار ، غزيرة العطاء [٢].

" ٢ "

الصناعة والتجارة :

ازدهرت صناعة السفن في مناطق متعددة من شرق الاندلس ، في طرطوشة ودانية ، ولقنت ، وبجانة والمرية ، وكان لهذا الازدهار دور ايجابي في ترويج الصناعات المختلفة وتطويرها ، فلمعت المرية بصناعاتها الكثيرة ، " كان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز ، يعمل بها الحلل والديباج ، والسقلاطون ، والاصبهاني والجرجاني ، والستور المكللة ، والثياب المعينة ، والخمر ، والعتابي ، والمعاجر ، وصنوف انواع الحرير . . . ويصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات ما لا يحد ولا يكيف . . واليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا ، وعدت - لأهميتها - في أيام المرابطين مدينة الاسلام .

واشتهرت بلنسية بأسواقها وتجاراتها ، ونسيجها الذي يسفر لاقطار المغرب ، وبرخاوة الاسعار وكثرة الخيرات [٥]، وشاطبة بصناعة الورق الذى لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب [٦]، و " جيان " بالحرير ، لتربية

---

١)- الروض المعطار : ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٣

٢)- الاستقصا في اخبار دول المغرب الاقصى : ٣ : ٧٣-٧٤ ، قيام دولة المرابطين : ٤٠٤ - ٤٠٥

٣)- الادريسي : ١٩٠ (١-٩٦) - فرحة الانفس : ١٤

٤)- الادريسي : ١٩٦ - نفسه : ١٤ ، الروض المعطار : ٥٣٨ - قيام دولة المرابطين (٤٠٠- ٤٠١)

٥)- الادريسي : ١٩١ - فضائل الاندلس واهلها : ٥٩ - الروض المعطار : ٩٧ .

٦)- الادريسي ————— Encyclopedie de l'Islam , t.4 : 748

دوده بكثرة في براديها وحواضرها ، ومالقة بالنسج ، شبها ، " تنشج الحلل الموشية التي تجاوز أثمانها الآلاف ، ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم ، وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى ".[1][2] كما عرفت " مرسية " بصناعة البسط التنتلية التي تسفر لبلاد المشرق ، وبالحصر التي تغلف بها الحيطان المبهجة للبصر[3] ، وعرفت اشبيلية بكثرة وطيب زيتها ، الذي يتجهز به الى الآفاق برّا وبحرا ، وقطنها الذي يعم بلاد الاندلس ، ويتجهز به التجار الى افريقية وسجلماسة وما والاها ، وقرطبة بأسواقها العامرة وصناعاتها الكثيرة ، ودلت رسالة ابن عبدون الاصلاحية على المدى الذي وصلت اليه ضروب النشاط الاقتصادي الاخرى ، من صناعات مختلفة ، وحركة أسواق[4] ، وكانت سرقسطة تمثل الدور الكبير في " ترويج التبادل التجاري والمهني ، بين الشرق والغرب ، - اذ كانت - تستقبل شطرا كبيرا من تجارة المشرق وتجارة الاندلس والمغرب ، وتعمل على تصريفها الى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية وثغور ايطاليا "[5] .

هذا في الاندلس واما في المغرب دار الامارة ، فقد كان النشاط الاقتصادي في أوج قوته ، خاصة ، وأن أكثر العلماء ، وكبار الصناع ، قد التحقوا بأمير المسلمين ، وعرضوا عليه مواهبهم ، ونواحي ابداعهم ، فاشتهرت " مراكش " في ذلك الحين ، بصناعة الصابون والمغازل ، وفاس بصناعة الدباغة وتسبيك الحديد والنحاس والزجاج والكاغد ، كما غدت سجلماسة أهم مركز تجاري في أطراف

---

١)- الادريسي : ٢٠٢ - فضائل الاندلس وأهلها : ٥٥
٢)- فضائل الاندلس وأهلها : ٥٨
٣)- نفسه ----------- : ٥٩
٤)- الروض المعطار : ٢١ ، ١٥٣ - (رسالة ابن عبدون : ٣٤ وما بعدها)
٥)- دول الطوائف : ٢٨٥ .

الصحراء [1] ، وكان لموقع الاندلس والمغرب الجغرافي ، دوره في تطوير عملية التسويق على نطاق واسع ،اذ كانت موانئها تشهد حركة تجارية دولية نشطة .

وبازدياد هذه الحركة التجارية الدولية ، ازدادت الثقة بالدينار المرابطي فقويت قيمته ، وراج في الاسواق ، حتى كاد يصبح عملة دولية [2] ؛ وقد انعكس هذا النشاط الاقتصادي على المجتمع الأندلسي في مدنه المختلفة ، وفي غالب الاحوال ، وخاصة في ظل الاستقرار والامن الذي وفرته الدولة المرابطية - في صدر حكمها وعزّ سلطانها ، بالرفاهية والرخاء [3].

---

١)- تمام دولة المرابطين : ٤٠٠ ، ٤٠١ .
٢)- نفســــــــه : ٤٠٣ - العربي (مجلة) ع٢٧٦٠٤ / ١٩٨١ : ١٠٨ - ١١٢ .
٣)- الاستقصا : ٣ : ٧٣ - ٧٤ .

الحيـاة الاجتماعيـــــة

بلغت الاندلس في القرنين الخامس والسادس مستوى حضاريا راقيا في كافة مجالات الحياة ، من علوم وصنائع وفنون : الأمـر الذي كان من شأنه أن يغطي مطالب المجتمع الاندلسي كله ؛ الا أن انقسام الاندلس الى دويلات متناقضـة ومتصارعة قد حرم غالبية الرعية نعيم ذلك التطور ، وجعلها مصدر جباية تفنن ملوكها في استحداث أساليبها ، وذلك لغرضين :

الأول : لدفع غرامات سنوية ثقيلة فرضها عليهم ظهور العدو النصراني في ذلك الحين مستغلا فرقتهم ونزاعهم وانصرافهم عن وسيلة بقائهم واستمرار وجودهم ، عن الجهاد الذي انعكس مفهومه في عهدهم ، وتحول الى حروب أهلية ، تعلن لأتفه الأسباب بدلا من أن يكون سـدا بين بلاد الاسـلام وأطماع النصارى المتوثبين .

الثانـي : لتغطية النفقات التي اقتضتها عملية التنافس المستمرة بين اولئك الملوك في قضايا هامشية ، استدعتها شهوة الملك ، والظهور بمظهر العظمة والتسلط فقد أقبلوا على تشـييد القصور ، وانشاء الحدائق والمتنزهات ، والاسراف في الحفلات واقامة المجالس اللاهيـة ، كما سـارعوا الى اقتناء كل غال ونفيس من وسائل التزيين والترفيه ، فروى أن المعتضد بن عباد (-٤٦١) صاحب اشبيليـة ، أنه " كان يحتفظ بسـرب من الحظايا يضم سبعمائة أو ثمانمائة امرأة " وأنه كان ينفق أموالا عظيمة على الابنيـة الشامخة ولا سيما القصور والقلاع ، مهملا - في مقابل ذلك - المسـاجد اهمالا شديدا .[1] ووصف اسماعيل بن ذي النون المتربع على طليطلة " بالبخل بالمال ، والكلف بالامساك ، والتقتير في الانفاق ،[2] كما وصف ابنه المأمون بالاسراف في تشييد القصور النادرة ، والبذخ في اقامـة الحفلات والافراح[3] . ومن عجيب ما يروى عنه أنه دخل عليه - بعد هجوم الطاغية

---

١)- الذخيرة ١/٢ : ٢٦ - أشباخ ١ : ٤٣
٢)- نفسه ١/٤ : ١٤٣ .
٣)- نفسه ١/٤ : ١٢٦ وما بعدها .

فرناند وعلى ملكة بطليموس وعباث‍ـــه فيها سبيا وتخريبا ، فوجد في حالة مـــن الغضب شـــديدة ، فظن أنه قد ســـاءه ما حل ببطليوس ، الا أنه اكتشف ـ بعدئذ ـ أن مصدر ذلك الغضب كله دعوتهاون الصانع ومماطلته في بناء القصر العجيب الذي كلـف بانشـائه[١].

وأما أبو الحزم بن جـهور ، على الرغم مما وصف به من حســن السياسة والتدبيـر ، والتخفيف من المكوس ، فقد كان أيضا ـ مهتما بنفسه ، جمع مالا كثيرا ، وحاطه ببخل شـديد ومـنع خالص . وينطبق الوصف نفسه على ابن رزين صاحب السـهلة مع زيادة ولعه بالجواري ، ولهثه في شرائهن ولو بأرفع الاسعار ، يحكى أنـــه اشـترى جارية أبي عبد الله المتطبب بن الكتاني ، بعد أن أحجمت الملوك عنهـــا لغلاء سعرها ، فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار فملكها ... ، وطلبهن بكـل جهة ، وجعل ذلك ديدنـــــــه ، حتى اجتمع عنده منهن مائة وخمسون حظيـة[٢]. وهذا غيض من فيض ، والا فقد عمت هـذه الظاهرة ملوك الطوائف فلم يشـذ منهم أحد ، وكان تشـييد القصـور ، وجمع الأموال والنفائـس ، واقتناء وسائل البذخ والترف " موضة " اجتاحت العصر كله ، وكان أثرها على الرعيـة سـيء العـواقب ، ثقيل التبعات . واما بلنسية وما حولها ، فقد كانـت الحياة فيها هادئة وعادية لبساطة العيش فيها . واعتماد اكثر أهاليها علـــى الزراعة والتجارة والتي رخصت فيها أسعار البضائع لوفرتها ، ولكن هذا الاستقرار لم يكن مطردا ، فقد تعرضت بلنســـية بأعمالها ـ لفتن وخطوب حرمت أهلهـــا نعمة ذلك الاستقرار ، وأصابهم ما أصاب غيرهم من سكان الاندلس ، بل أكثـر .

---

١)- المصدر السابق : ١/٤: ١٤٧-١٤٨ .

٢)- نفســـه : ١/٣: ١١١-١١٢ - ابن خفاجة : ١٧

أنعمت بلنسية في عهد مبارك ومظفر العامريين مصدر جباية عظيمة ، " بلغت مئة وعشرين ألف دينار في الشهر ، سبعين ببلنسية وخمسين بشاطبة ، تستخرج بأشد العنف من كل صنف "[1] ، فوقعت الرعية من جراء ذلك في بلاء عظيم حتى اضطر أكثرها " للبس الجلود والحصر ، وأكل البقل والحشيش واضطر غيرهم للجلاء عن مثواهم ، والتخلي عن قراهم[2] . كل ذلك ومبارك ومظفر لاهيان " قد انغمسا في النعيم الى قمم رؤوسهما ، وأخلدا الى الدعة ، وسارعا في قضاء اللذة ، حتى أربيا على من تقدم وتأخر "[3] ثم خفت الوطأة قليلا - على أهل بلنسية ، بعد أن حكمها عبد العزيز بن ابي عامر (-٤٥٢) ، ولم تتحسن حالتهم كثيرا في عهد ابنه عبد الملك (المظفر) ، الذي كان " منهمكا في الشرب غاريا عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة ، ونقص المروءة ، وكثرة الاستهمال والانحطاط في مهاوي اللذات لا يصنع (كذا) لوعظ واعظ ، ولا يقبل لنصح ناصح لكنهم نعموا بنوع من الاستقرار والرخاء في عهد ابي بكر بن عبد العزيز (-٤٧٨هـ) ، فقد وصف بالعدل وحسن السياسة والتدبير ، وبعده توالت حملات النصارى على بلنسية ، واشتد حصار " السيد " لها في سنة (٤٨٧) . فعاشت - ابان ذلك - محنة قاسية ، فقد " هلك أكثر الناس جوعا وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ... ، وكثر الغلاء ، وتفشى الوباء ، وفتك فيهم الجوع حتى اقبلوا على الجيف من بني آدم يترمقون بها[6] .

---

١)- الذخيرة ١ ، ٣ : ١٥-١٧

٢)- نفسه : ١٩

٣)- نفسه : ١٨

٤)- البيان المغرب ، ٣ : ٣٠٢

٥)- نفسه : ٣٠٤

٦)- نفسه : ٣٢-٣٩

ولم تسلم المدن والقرى التابعة لها ، فقد تعرضت شقر ، وشاطبة للهجمات مماثلة انتسف فيها الزرع وروعت الانفس ، وتغلب " السيد" على بلنسية ، فأذل أهلها ، وأذاقهم مرارة الحرمان ، فهجر أكثرهم من وطنه ، ولم يعودوا اليها الا بعد أن أخرج المرابطون النصارى منها راغمين ، فكانت فرحتهم بهذا الانتصار كبيرة ، رغم ما أصاب المدينة من الحرق والهدم على أيدي النصارى أثناء خروجهم منها في سنة (٤٩٥ هـ) .

وانعكس انحراف ملوك الطوائف عن الجادة ، انعكاسا سيئا على الرعية ، فدب اليها الفساد ، وتفشت فيها عوامل الانحطاط والتدني ، فصار شرب الخمر أمرا عاديا ، وانتشرت مجالس اللهو والرقص والطرب هنا وهناك ، فقد ذكر ابن سعيد أن وادي اشبيلية لم يكن " يخلو من مسرة ، وان جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لا ناه عن ذلك ولا منتقد ، مالم يؤد السكر الى شر وعربدة [1] . وأن بأبذة * من أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فانهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدف واخراج القرون والمرابط والمتوجه " [2] . وانسحب ذلك على غيرها من الاماكن والمدن وساعد على انتشاره انقطاع حركة الجهاد وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد نكبت الرعية في حياتها كما يقول ابن حيان - في هذا القرن - بفساد ملحها " فالامراء قاسطون ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، خائض في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم [3] "

---

١)- فضائل الاندلس وأهلها : ٥١

٢)- نفسه : ٥٦

٣)- الذخيرة ١/٣ : ١٨٠ - ١٨١ - البيان المغرب ٣ : ٢٥٤

* أبذة : مدينة صغيرة أندلسية ، تقرب من بياسة وهي على مقربة من النهر الكبير وبها مزارع وغلات .

الا أن هؤلاء الفقهاء القلة قد تحركوا ، وتحركت معهم العامة ، فمالت قلوبها الى غير ملوكها .

وكان دخول المرابطين الى الاندلس في أواخر القرن الخامس نقطة تحول في حياة الاندلس كلها ، فقد توحدت ، وأصبحت ولاية تابعة لمراكش دار الامارة ، يمثلها أمراء يعينهم أمير المسلمين ، كلهم من لمتونة ، يمارسون سلطة شبه مطلقة على الكور التي كلفوا بتدبير شؤونها ، وسارت الأمور على مايرام بين الاندلسيين وحكامهم الجدد ، محبة وتقديرا ، وتعاونا مشتركا ، وضمانا لازما بمسيرة الجهاد والاصلاح المستمرة ، وقد أسهمت مراقبة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وابنه علي ابن يوسف ، في صدر ولايته ، والغائهما المكوس والضرائب غير المشروعة في تعميق هذا التكافل الاجتماعي الرفيع.(1)

لكن حدثت بعض ظواهر عكرت صفو هذه العلاقة ، وكادت أن تقلبها الى ضدها ، فقيام دولة المرابطين على أساس ديني خول للفقهاء استلام مركز الصدارة في السلطة ، خاصة وأنهم هم الذين مهدوا لدخول المرابطين ، فكان أن كثروا كثرة مذهلة ، وظهروا بكيفية لم يكونوا قادرين عليها من قبل ، وكان إيثار أمير المسلمين لهم على غيرهم ، وعدم بته في الأمور الا باستشارتهم(2) ، قد أطلق سلطتهم ، فاجتهدوا بآراء ضيقوا بها على أهل الأندلس الذين اعتادوا الانطلاق في زمن الطوائف ، وكان اقبال بعضهم على الدنيا وجمع الأموال مثار نقمة فئة من أهل الأندلس ، وعلى رأسهم الشعراء الذين هجوهم بأقذع الكلمات ، حتى أن شاعرنا ابن خفاجة لم يسكت عنهم فقال فيهم :

---

1)- الانيس المطرب : ١٦٧ ، قيام دولة المرابطين : ٤٠٢

2)- المعجب : ١٧١ .

د رسـوا العلوم ليملكوا بجد الهم — فيها صدور مراتب ومجالس

وتزهدوا حتى أصابوا فرصـة — في أخذ مال مساجد وكنائس[1]

وكان بروز المرأة اللمتونية على الساحة الاندلسية ، ومشاركتها في الحياة بكيفية لم تعهدها الأندلس من قبل ظاهرة أخرى ، انعكست على الوجود المرابطي في الاندلس ، فقد" استولين - كما يقول المراكشي ، ولعله قد بالغ - على الأموال ، وأسندت اليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر المتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ".[2] وقد اشتهرت منهن مريم بنت ابراهيم وكانت كما يقول ابن دحية : فاضلة[3] ، وقد مدحها ابن خفاجة[4] وحواء مدوحة الأعمى التطيلي[5] ، كما تعرض غيرهن من نساء الامراء والوزراء - لنفوذهن - لاطراء الشعراء ومدحهم . وأسهمت ظاهرة الشعور بالغلبة والتفوق لدى المرابطي ، واستغلال اللثام - شعار المرابطين - من طرف العبيد وأصحاب الأهواء لقضاء المآرب والتعدي على الاموال والأعراض[6] ، في تقلب الشعور بالحب الى كراهية عصبية بغيظة ، كما كان لفتور مراقبة السلطة العليا للولاة في الاندلس ، أن مال هؤلاء الى الاستقرار ، وخففوا من حركة الجهاد وركن بعضهم الى الدعة ، وعقد المجالس اللاهية ، فقربوا الشعراء والمغنين[7] ،

---

١)- الديوان : ٣٦٦

٢)- المعجب : ١٧٧ - قيام دولة المرابطين : ٤١٦-٤١٧

٣)- المطرب : ٢٠١

٤)- الديوان : ٩٦

٥)- الديوان : ١٦-١٨

٦)- ثلاث رسائل في الحسبة : ٢٨

٧)- قيام دولة المرابطين : ٤٢٢ - ٢٣ .

واستهوتهم الحياة ، فمالوا الى الأموال يجمعونها ، وسلطوا الجباة على الرعية وأحدثوا فيها ألوانا من المكوس تعسفوا بها الأمة ، وأرهقوا بها كاهلها ، حتى أن ابن خفاجة اشتكى غير مرة من هؤلاء العمال [1] ، وأن ابن عبدون قد هاله ما رأى من الفساد ، فصور ذلك كله في رسالته ، التي تعد خطوة رائدة في مجال الاصلاح الاجتماعي في القرنين الخامس والسادس ، وقال في عبارة ختامية تفيض تشاؤما ويأسا : " .... وبالجملة فان الناس قد فسدت أديانهم وانما ... الدنيا الفانية والزمان على آخره [2] " . فكان نتيجة لذلك أن هانوا على عدوهم وزالت تلك الهيبة التي كانت لهم في القلوب ، فأخذ النصارى منهم سرقسطة في سنة (٥١٢ هـ) وثارت بهم قرطبة في سنة (٥١٥ هـ) وكان لظهور المهدي وثورته عليهم في المغرب بدءا من سنة (٥١٤ هـ) وانصرافهم لمحاربته واهمالهم الاندلس أثر كبير في ذلك الهبوط السياسي والاجتماعي الذي أصاب الاندلس بعد ذلك [3] ، فقد تشتتت قوتهم بين العدوتين ، وكثرت عليهم الفتن والثوار ، واغتنم العدو حالتهم هذه ، فصدمهم بقواته ، واستولى على أجزاء كبيرة من البلاد ، وعلى الرغم مما بذله كل من أبي الطاهر تميم و تاشفين بن علي من بعد ، من جهود في تهدئة الأحوال ، وكبح جماح الفتن ، فان قلوب أهل الأندلس قد مالت الى القوة الجديدة ، قوة الموحدين ، التي انتصرت في عدوة المغرب على المرابطين فاستصرخوها ، وثاروا بالمرابطين في بلادهم ، حبا في الادالة وتبدل الملوك - كما يقول ابن الخطيب - وقل أن رأوا أيالة أنفع أو أجرأ في قتال العدو من لمتونة [4] . وتفرق شرق الاندلس ، وعاش فترة طوائف جديدة ، منذ ثورته على المرابطين في سنة (٥٣٩ هـ) ، وبقي على تلك الحال الى أن دخل تحت طاعة الموحدين في سنة (٥٦٧هـ) .

---

١)- ديوان ابن خفاجة : ٦١ ، ١٧٠ ، ٢٩٥ - المعجب : ١٤٨ - أعمال ١: ٢٠٧

٢)- ثلاث رسائل : ٦٠

٣)- المعجب : ١٧٧

٤)- اعمال الاعلام : ٢ : ٢٦٥ .

الحياة الفكرية

ازدهرت العلوم والآداب في قرطبة في القرن الرابع الهجري ازدهارا عظيما : فقد كانت كما يقول ابن بسام : " قرارة أهل الفضل والتقى ، ووطن أولي العلم والنهى ، وقلب الاقاليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام وحضرة الامام ، ودار صواب المعقول ، وبستان ثمرة الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشأت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ...[1] ، وخاصة في زمن خلافة الحكم المستنصر بالله (٣٦٦ هـ) فقد كان عالما مثقفا ، محبا للعلم مؤثرا لاهله ، مولعا بالكتب ، جمع منها مالم يجمعه أحد من الملوك قبله هناك ، أرسل في طلبها الى الأقطار ، واشتراها بأغلى الأثمان ،"ونفق ذلك عليه وحمل اليه"[2].

فكان هذا العصر لذلك عصرا ذهبيا في جميع مجالات الحياة ، وفر لما بعده من عصور رصيدا ضخما من الكتب ، وعددا جما من العلماء الذين وزعتهم الفتنة في أرض الأندلس والمغرب وغيرها ، فأثروها بتآليفهم ، وتلاميذهم الذين غدوا نجوما تألقت بهم سماء القرنين الخامس والسادس ، وازدانت بهم مجالس أمراء الطوائف فيما بعد[3] ، فقد صارت كل مملكة - بعد اضمحلال الخلافة - " قرطبة " جديدة في رسوم الملك ، وأبهة السلطان ، والاقبال على أهل العلم والأدب والفن ، والمبالغة في اكرامهم وتقريبهم . - على اختلاف في درجة هذا الاقبال على هذا العلم او ذاك باختلاف ميول هؤلاء الأمراء ، والتي كان لها دور كبير في نوعية

---

١)- الذخيرة ١/١ : ٣٣

٢)- جذوة المقتبس : ١٣

٣)- ابو الطيب المتنبي (دراسة في التاريخ الأدبي)، د. ر. بلاشير: ٥٠٢ .

تلك الاختلاف كما وكيفا . فقد برزت إشبيلية في ميدان الأدب من شعر ونثر ، وكان المعتضد بن عباد شاعرا ، وكان المعتمد ابنه - كما يقول المراكشي - غزير الادب ، شعره كأنه الحلل المنشرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصرا من العلوم على الادب ، وما يتعلق به وينضم اليه[1] وكان سخاء بني عباد واغداقهم على الشعراء والأدباء هو الذي جعل ابن سعيد يخصهم بذكره ويجعل من أيامهم أعيادا[2]. فكثر لذلك قصادهم ، وأمّهم كبار شعراء العصر كابن زيدون ، وابن عمار ، وابن اللبانة ، وابن حمديس ، وعبادة القزاز ، وعبد الجليل بن وهبون ، وغيرهم . وقد نافس أسرة بني عباد الشاعرة ، أسرة أخرى ، اشتهرت بميولها الأدبية والشعرية ، تلك هي أسرة بني صمادح أصحاب المرية : فقد كان المعتصم وبنوه من الشعراء ، وكان كما يقول ابن بسام :

" رحب الفناء جزل العطاء ، حليما عن الدهماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعملت الى حضرته الرحال ، ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت كأبي عبد الله بن الحداد ، وأبي الفضل ابن شرف ، وابن عبادة - المعروف بابن القزاز - وابن الشهيد (ابو حفص عمر) وغيرهم ممن لم يعلق بسواه سببا ، ولا شد الى غير ذراه كورا ولا قتبا[3] .

ولم يقتصر ابن صمادح في مجلسه على الأدب وحده كما فعل المعتمد ، بل نجده يعقد في كل يوم جمعة مجلسا يتناظر فيه الفقهاء والخواص في كتب التفسير والحديث[4]. كما انضم الى مجلسه أبو عبيد البكري (- ٤٨٧ هـ)

---

١)- المعجب : ١٠١ .

٢)- فضائل الاندلس وأهلها : ٣٢ .

٣)- الذخيرة ٢/١ : ٧٣٣ .

٤)- الحلة السيراء ٢ : ٨٢ - يوسف أشباخ ١ : ١٠٣ .

الجغرافي المشهور[١]. وأما المظفر صاحب بطليوس، فقد كان: " أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم " بالتذكرة" والمشتهر اسمه أيضا "بكتاب المظفر"، في خمسين مجلدة، يشتمل على علوم وفنون من مغاز وسير، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب، أبقاه في الناس خالدا.[٢] وكان عالما أكثر منه شاعرا او كاتبا، وكان يتتبع الشعراء ويحصد أغلاطهم، وينتقدهم انتقادا شديدا، ويرى أن من لم يصل بشعره الى درجة شعر المتنبي او شعر المعرى فالسكوت أولى به[٣]. وواصل ابنه عمر المتوكل حماية هذا النشاط العلمي والأدبي، مشاركا هو أيضا في المنثور والمنظوم[٤]، يؤثر مجالسة العلماء والشعراء على كل ما عداها[٥]. وقد برز في دولتهم الشاعر الناثر المجيد عبد المجيد بن عبدون، وهو الذي خلد آثارهم بمرثيته المشهورة، وبنو القبطرنة: أبوبكر بن عبد العزيز البطليوسي وأخواه أبو محمد وابوالحسن، وكلهم شعراء، وابن السيد البطليوسي ومن كتابهم أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي، وابوبكر بن قزمان - عم ابن قزمان الزجال - وابوعبدالله محمد بن أيمن وغيرهم[٦]. وأقفرت ساحة اسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة من الشعراء والادباء لبخله وتقتيره؛ " فما اعلمت اليه مطية، ولا حملت أحدا نحوه ناقة، ولا عرج عليه أديب

---

١)- دول الطوائف : ١٦٧ .
٢)- الذخيرة ٢/٢ : ٦٤٠ - ٦٤١ .
٣)- نفسه : ٦٤١ .
٤)- المغرب ١ : ٦٤١ .
٥)- أشباخ : ١٠٢ .
٦)- الذخيرة ٢/٢ : ٦٦٨ ، ٧٥٣ ، ٧٧٤ ، ٦٥٢ - دول الطوائف: ٨٨ .

ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل ، ولا حظي أحد منه بطائل[1] . وأما المأمون ابنه، وعلى الرغم من اشتهاره بالبخل هو أيضا - فقد احتفل بلاطه على العديد من الشعراء والكتاب منهم ابن شرف القيرواني ، وابن خليفة المصري ، وابو الفضل البغدادي ، وابن أرفع رأسه الوشاح الطليطلي المشهور ،كما ألف له بعض الكتب ، وأهدى له ابن حيان أحد كتبه التاريخية[2] . وكان نصيب ابن رزين صاحب السهلة من أهل الادب مثل نصيب اسماعيل بن ذي النون ، فقد كان - على حد قول ابن بسام : " ضيق الفناء ، جهم اللقاء ، أحذق الناس بحرمان من قصده . . وكان الشاعر اذا وفد عليه ، او مثل بين يديه ، أخذ يناقشه الحساب ، ويغلق دونه الابواب ، وينتحيه بضروب نقده ، ويصب عليه من شآبيب برده ، حتى يخرج بين الحائط والباب ، ويرضى من الغنيمة بالاياب"[3] .ولم يشتهر عن بني القاسم أصحاب "البونت" نشاط يذكر في المجال العلمي والادبي ،الا أن ابن حزم وصف عبد منهم بأنه حافل بأصناف الآداب ، وآهل بأنواع العلوم[4] . كذلك كان بنو زيري في غرناطة قليلي الاهتمام بالادب والاحتفال بأهله ؛ وقد ذكر صاحب البيان المغرب وزير ، باديس بن ماكسن ابن النغرالة اليهودي ، ووصفه بالظرف والادب كما عده ابن الخطيب من اعلام الادباء والافراد[5] ، وكان أبو اسماعيل ، كما يذكر ابن حيان - من أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء ... ، وكان دائم التفكر ،

---

١)- الذخيرة ١/ ٤ : ١٤٣ .

٢)- المغرب ٢ : ١٨،١٢ - تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين : ٧٥ .

٣)- الذخيرة ١/ ٣ : ٤٩-٥٠ .

٤)- فضائل الاندلس واهلها : ٥ .

٥)- البيان المغرب ٣ : ٢٦٤ - ٢٦٦ - الاحاطة ١ : ٤٤٠ .

بساط للكتب[١] . ووزير هذا شأنه ، قد يكون - بلا ريب - مقصد الشعراء المادحين ، وقد اشتهر منهم الاخفش التهذاقي[٢] . وأما قرطبة ، فلم يعد لها ذلك البريق الجذاب ، وتلك الحركة العلمية النشيطة ، فقد بزتها بلاطات جديدة في تلك الحركة الثقافية المتنوعة في القرن الخامس ، ومع ذلك فلم يكن بلاطه بني جمهور يخلو من شاعر مجيد او كاتب لامع ، وقد انجبت قرطبة من الشعراء ابن زيدون وولادة بنت المستكفي ، ومن الكتاب والعلماء ابن حيان المؤرخ ، وأباالحسن بن سراج ، وابن حزم القرطبي ، الفقيه الاصولي والعالم المتفنن في شتى المعارف والفنون وغير هؤلاء كثير . واما اذا اتجهنا شرقا الى مرسية ، في عهد أميرها عبد الرحمن ابن طاهر ، فستجدها مقصد الشعراء والكتاب ، لا سيما وأن أميرها ، فارس من فرسان الكتابة ، وامام من أئمتها المتفننين في ميادينها[٣] . ومما زاد من الاقبال عليه جوده وكرمه ، حتى أن ابن عمار انتجعه في بداءة أمره[٤] . ولم يكن للنشاط الادبي حظ كبير في سرقسطة بني هود اذا ما قورن بحظ الدراسات الفلسفية والرياضية التي شهدت تطورا ملحوظا في ذلك الوقت ، فقد كان المقتدر من العلماء ، شغوفا بالفلسفة والرياضة والفلك ، كما كان ابنه المؤتمن قائما على العلوم الرياضية وله فيها تآليف مثل " الاستهلال " و " المناظر "[٥] ، وقد وزر له من الكتاب المشاهير ابو عمرو بن القلاس ، وابوالفضل بن حسداي وابوالمطرف بن الدباغ ، كما نشأ ابن باجة الفيلسوف الرياضي في حضرتهم ، وعاش المفكر السياسي ابوبكر الطرطوشي صاحب " سراج الملوك " في ظل دولتهم

---

١)- الاحاطة ١ : ٤٣٨-٤٣٩ .
٢)- المغرب : ٢ : ١٨٢
٣)- الذخيرة ١/٣ : ٢٥
٤)- نفسه : ٢٥
٥)- تاريخ ابن خلدون ٤ : ١٦٣ .

رنحا من الزمان ، وقصدهم من المداح ابن خير التاجلي وابراهيم بن معلى الدارسوني[1] ، وطرزت باسمائهم كتب ، منها كتاب في العروض لنصر بن عيسى[2] . وتميز ابو الجيش مجاهد صاحب دانية والجزائر الشرقية بتضلعه من علوم الشريعة ، فقد ذكره ابن حيان فقال انه كان " يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل ، من أشفها العلم والمعرفة اللذان لم يكن في الاحرار ولا في الموالي أثبت قدما منه فيهما ، يكاد يربي على متقلديهما من اكابر العلماء في وقته ، لا سيما علم العربية ، فانه تحقق به الى ما يتصرف من علم القرآن ، قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره ، قد عني بطلب ذلك من صباه الى اكتهاله فكان في النهاية من البصرية ، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه ، وأتت اليه العلماء من كل صقع ، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقتهم ، كابي عمرو المقرئ ، وابن عبد البر ، وابن معمر اللغوي ، وابو الحسن بن سيدة ، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه ، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون في فنون من العلم ، يجملونه بها ويشرفون دولته[3] " ، الا أنه وعلى الرغم مما وصفه به ابن حيان من أنه كان أديب ملوك عصره لم يكن للشعر في فنائه دولة ، فقد كان " من أزهد الناس في الشعر وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشده ، و لا يزال يتعقبه عليه كلمة كلمة ، كاشفا لما زاغ فيه من لفظة وسرقة ، فلا تسلم على نقده قافية ثم لا يفوز المتخلص من مضماره ، على الجهد لديه ، بطائل ، ولا يحظى منه بنائل ، فأقصر

---

١)- المغرب : ٢ : ٤٥٠ -٤٥١ ، ٤٥٧ .

٢)- التكملة : ٢ : ٧٤٦ .

٣)- أعمال الاعلام ٢ : ٢١٧ - ٢١٨ .

الشعرا لغلبه على طبعه ، وخلا الشعر من ذكره[1]» - وفي جزيرة ميورقة جرت المناظرة بين ابن حزم القرطبي ، وابي الوليد الباجي بين يدي واليها من قبل مجاهد ، ابي العباس احمد بن رشيق الكاتب البارع والعالم الاديب[2] .

واستمرت هذه الحركة العلمية مع ابنه علي بن مجاهد - اقبال الدولة - فقد كان هو أيضا محبا للعلم والعلماء يتذوق الشعر ويناصره .

وحظيت مملكة بلنسية بفترات من الامن والاستقرار ، في عهد عبد العزيز العامري (-٤٥٢ هـ) ثم في عهد ابن وزيره ابي بكر بن عبد العزيز[3] ، ساعدت على نشوء مراكز علمية ذات شأن ، أقامها العلماء الوافدون على بلنسية من شتى نواحي الاندلس وكان الطابع العلمي هو الغالب على أكثر هذه المراكز إن لم نقل على كلها في النصف الاول من القرن الخامس على الرغم من أن عبد العزيز العامري قد أتحف مجلسه بأربعة من مشاهير الكتاب سماهم الناس الطبائع الأربع ، وهم : ابن طالوت وابن عباس ، وابن عبد العزيز المعروف بـ " ابن روش القرطبي " ، وابن التاكرنسي[4] .... ولم تحتل الحركة الأدبية العامة بالأهمية والرواج الا في النصف الثاني منه ، والى ما بعد حكم المرابطين لبلاد الاندلس ، فقد كان ابو بكر بن عبد العزيز (- ٤٧٨ هـ) عالما ، حازما ، فقيها عادلا ، متصدرا للفتيا[5] » ، " ماضي اليراعة ، مشهور البراعة ، متحققا بالأدب ، ينسل اليه من كل حدب[6] " . واذا فقد كان المجال خصبا

---

١) - الذخيرة ١/ ٣ : ٢٣

٢) - الحلة : ٢ : ١٢٨ - ١٢٩ .

٣) - Encyclopedie de l'Islam t.4 : 1128

٤) - الذخيرة : ١/ ٣ : ٢٥٠

٥) - البيان المغرب : ٣ : ٣٠٣ .

٦) - قلائد العقيان : ١٨٦

أمام النشاط العلمي بفروعه وخاصة العلوم الشرعية واللغوية التي برز فيها علماء كبار كأبي عمر بن يوسف بن عبد البر (- ٤٦٣) في الحديث ورجاله . وعلي بن خلف ابن بطال المعروف بابن اللجام (- ٤٧٤) في الحديث أيضا ، وفي القراءات أبي داود المقرئ (- ٤٦٦) وفي الفقه والحديث أبو الوليد الباجي (- ٤٧٤) وابن بطال البكري (- ٤٥٤ هـ) ، وابوالمطرف بن ابي تليد (- ٤٧٥) وفي اللغة تمام بن غالب بن عمر المعروف بابن التياني (- ٤٣٦) واسماعيل بن سيدة والد ابي الحسن بن سيدة وتوفي بعد الاربعمائة . . . وغير هؤلاء .

هذه جملة نصوص ، بل هي جملة من الحقائق ، تلقي الضوء على الحياة الفكرية بتفرعاتها في عصر الطوائف أوردناها لنستدل بها على[1] :

* أن الحركة الفكرية لم يصبها ما أصاب الناحية السياسية والاجتماعية من انهيار وهبوط ، فقد نمت وازدهرت على نحو يدعو الى الاعجاب في تلك الفترة القلقة من حياة الاندلس المسلمة .

* وان طبيعة اهتمامات الامراء كان لها الدور الفعال في ذلك التباين الواضح والتنوع المنصب في الدراسات التي اشتهرت بها كل دولة .

* وأن الشعر لم يكن له بين تلك الاهتمامات مجال يذكر الا في ثلاث بلاطات : بلاط بني الافطس في بطليوس ، وبلاط بني صمادح في المرية ، وبلاط بني عباد في اشبيلية ، وقد وجد الشعر في هذا الاخير ميدانا فسيحا ، وتربة خصبة وجد حكاما شعراء ، يتذوقون الشعر ويثيبون عليه ، فكان من البداهة أن تكون اشبيلية قبلة الشعراء من كل صوب ، لاسيما المنتجعون منهم ، فينال بنو عباد - تبعا لذلك - شهرة واسعة ، وجاها عريضا ، وسمعة طيبة في أوساط الشعراء والادباء الذين استظلوا بظلهم ، وآثروهم بحبهم وتقديرهم ، بل وتقديسهم ،

---

(١) - قارن هذا بـ : تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين : ٧١ - ٨٠ .

وكان لهذه الظاهرة أثرها السلبي على العصر التالي : عصر المرابطين ، من حيث القيمة التاريخية على الاقل ؛ ففي الوقت الذي تمرغ فيه هؤلاء الشعراء وغيرهم للاعلاء من شأن ممدوحهم ، وصاحب نعمتهم المعتمد ؛ توجهوا بالملائمة على المرابطين عامة ، ويوسف بن تاشفين خاصة ، واستغلوا جهله بالعربية ، وعدم فهمه العميق لمعانيها ، فلفقوا حكايات ، ونسجوا قصصا ، ضمنوها وقائع مفتعلة دعاهم اليها روح انتقامية عمياء ، وحقد دفين على هذا الذي عكر صفوهم ، وحرمهم نعمة ذلك الفردوس " المعتمدي " وقد أورد الشقندي في رسالته بعضا من تلك المفيالات[1] ، مستعينا بها في اثبات فضل بلده الاندلس على عدوة المغرب ، ولا يخفى - على ذي عقل - افتقار هذه الرسالة ، وغيرها في بابها - الى الموضوعية والانصاف العلمي . ونحن لم يؤلمنا ايراد الشقندي لها ، فهي تناسب موضوعه ، وتملأفراغا من رسالته ، ولكننا نأسف لان ما أورده الشقندي أخذه بعض الباحثين كمسلمات بنوا عليها أحداثا جانبت الصواب في كثير من الاحيان فقد وصف " دوزي " - بناء على ذلك - المرابطين بالجهل والهمجية[2] ، كما جعل " بالنثيا " عصر سيادتهم على الاندلس عصر تأخر وانكماش للثقافة الاندلسية[3] ، ولم ير فيه " غرثية غومث " أي شيء يثني الادب بل عده محنة سلطت على القيم الجمالية في الاندلس[4] الى غير ذلك من الآراء التي[5] يظهر تطرفها واضحا كلما رجعنا الى كتب التراجم الحافلة بأسماء العلماء والادباء الذين نبغوا في هذا العصر . وتسنموا صهوة الشهرة ، وتركوا آثارا تدل على تقدمهم وتبريزهم . وهي حقيقة فرضت نفسها

---

١)- فضائل الاندلس واهلها : ٣٢ - ٣٣ .

٢)- *Histoire des Musulmans d'Espagne t. 4 : 434 - 435*

٣)- تاريخ الفكر الاندلسي : ١٣١ .

٤)- مع شعراء الاندلس والمتنبي : ١٣١ .

٥)- أبو الطيب المتنبي : ٥٠٥ - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢ : ٤٢٢ ، ٢٥٠ .

على " غرثية غومث " وجملته يرد آراء " دوزي " ، ويعدل عن آرائه المتطرفة الى آراء اكثر اعتدالا في كتابه " الشعر الاندلسي " ونحن نعترف - بحق - أن مسحة من الفتور أصابت النواحي الأدبية بعامة - والشعر على الخصوص ، وأن وهج القصور الذي كان يذكي المشاعر الرسمية قد زال الى حين ، ولكن لذلك أسبابه : فالاستقرار وهو من أهم عوامل ازدهار الثقافة كان شبه معدوم عند السلطة التي كانت لا تستقر على حال ، استجابة لحركة الجهاد المتواصلة ، ودخول المرابطين الى الاندلس ، واحداثهم ذلك التغيير الحاسم الشامل في بنية المجتمع الاندلسي ، والذي تطلب شعرا يواكب المرحلة شكلا ومضمونا ، وهو ما يعسر تحسينه في الواقع في بداية أية دعوة من الدعوات ، ولا ننكر أنه وجدت بوادر ، ولكنها لا تعد اذا قيست بذلك الكم الهائل من أشعار الذين وصفهم يوسف بن تاشفين على حد قول الشقندي " بمريدي الخبز ".[1] وأدوار الشعراء ، في بلاطات الملوك ، ومواقفهم المستخذية من تصرفاتهم ، ونفخهم فيهم روح الكبرياء والغرور ، ربما هي التي جعلت امير المسلمين ينظر اليهم نظرته الى ملوكهم ، ويحملهم مسؤولية ما حدث بالامة من وهن ، وتخاذل ، جرّأ عدوها على اقتحام حماها ، فحرمهم كما حرم ملوكهم متاع تلك الحياة اللاهية . والحقيقة ، كما يقول " غرثية غومث " " أن الشعر الاندلسي لم يمت في عصر المرابطين ، وكل ما حدث أنه كيف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي احاطت به ".[2] فلم يمض وقت طويل ، حتى عادت الحياة الى مجراها الطبيعي ، واحتل الشعر مركزه ضمن الاختصاصات الاخرى في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين الذين " لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة القاهر ، وأصبحوا أقرب الى الاندلسيين منهم الى الافارقة ،[3] فعقدوا المجالس ،

---

١)- فضائل الاندلس وأهلها : ٣٣

٢)- الشعر الاندلسي : ٥٧

٣)- نفسه : ٥٨ - قيام دولة المرابطين : ٤٤٤ - ٤٤٥ .

واستمعوا الى الشعراء ، بل وشاركوهم في تذوقه ونظمه ، كما حفلت دواوين انشائهم بالكتاب البارعين ، فنشطت الحركة الادبية - تبعا لذلك - وانبعثت فيها حياة جديدة ، وكان للاستقرار والامن الذي عمّ الاندلس في معظم مدة حكمهم دوره في تعميق هذه الحركة الادبية والعلمية ، وتوسيع نشاطها ، كما فسح المجال للتعاون الاجتماعي بين بلاد المغرب والاندلس على نحو أشد فاعلية[1] .

وكان قيام دولة المرابطين على أساس المذهب المالكي ذا اثر في تعميق الدراسة في اصوله وفروعه ، وبروز علماء جلة في فقه المالكية كان لهم دور في دولة المرابطين وأثر فعال في توجيه سياستها في الاندلس والمغرب ، واشتهر منهم في الاندلس أبو الوليد بن رشد الجد (- ٥٢٠) . تولى منصب قاضي الجماعة . وابوعبد الله ابن حمدين (- ٥٠٨) وابوبكر بن العربي (-٥٤٣) . وفي المغرب لمع اسم القاضي عياض اليحصبي (- ٥٤٤) وكانت له حظوة في دولة المرابطين ، وسمعة حسنة بين العامة والخاصة ، لفقهه ، وتأليفاته الحسنة في الفقه والسيرة وعلم الرجال ، كما برز في علم الرواية والحديث بشكل كل من أبي علي الصدفي (- ٥١٤) وابي علي الغساني ، وابي عمران بن ابي تليد (-٥١٧) ، وهم اندلسيون ، وغير هؤلاء كثير . وأما الفلسفة وعلم النجوم فلم يحظيا بالعناية الكافية ، لاجتماع أكثر الفقهاء ومن ورائهم العامة ، ويساندهم الحكام في أغلب الاحيان ، على حربهما وملاحقة كل من اشتغل بهما ، بدوافع شتى ، من أندرها الانطلاق في ذلك من دافع الحرص على إيمان الأمة مضمن تفشي الشكوك والريب المفضية بالعامة من المسلمين الى الزندقة والالحاد ، وهي ظاهرة قديمة في الأندلس ، وكان لميول السلطان

---

(١)- La Civilisation Arabe en Espagne : 29
ابن خفاجة : ٢٠ ، قيام دولة المرابطين : ٤٢٦ وما بعدها .

والأحداث العامة في الأندلس من فتن وصراعات داخلية وخارجية أثر في استمرارها ظهورا واختفاء[1] ، ولم يقف بهم الامر عند هذا الحد ، بل تجدهم يقفون في وجه كل مذهب فقهي غير المذهب المالكي[2] ، خاصة المذهب الحنفي لاعتماده الرأي أساسا في تقرير المسائل واستنباط الاحكام ولعل ابن حمدين - قاضي الجماعة - وغيره ممن أفتوا بوجوب حرق كتاب الاحياء[3] قد استندوا الى هذا الأساس مضافا اليه حشو صاحب "الإحياء" كتابه بالكثير من الاحاديث الواهية والضعيفة ، ومع ذلك فقد كان لهذه الظاهرة منكرون من بين الفقهاء انفسهم ، فضلا عن الخواص الذين ظلوا - مستخفين - يهتمون بدراسة الفلسفة والتعمق في مسائلها ، فخلفوا لنا رسائل ذات قيمة كبيرة ، وفي مقدمة هؤلاء الفيلسوف الموسيقي الشاعر أبوبكر بن الصائغ المعروف بابن باجة (-٥٣٢) صاحب كتاب " النفس " " وتدبير المتوحد " ، ورسالة " الوداع " وغيرها ، كما أثر عنه مؤلف مهم في الموسيقا[5] ، كان عليه الاعتماد في الاندلس .

وقد وزر ابن باجة للامير المرابطي ابن تيفلويت ، ورثاه بعد موته ، كما نبغ في هذا الاختصاص ، صديق ابن خفاجة ، وربما أستاذه ، ابن السيد أبو محمد البطليوسي (-٥٢١هـ) وله كتاب في " المسائل والأجوبة " ، وأبو الصلت الداني (-٥٢٨هـ) ومالك بن وهيب ، وكان من أئمة الفلسفة المقربين الى علي ابن يوسف[6] ، وأبو العلاء بن زهر ممدوح ابن خفاجة ، وأدرك هذا العصر

---

١)- تاريخ علماء الاندلس : ت : ١٢٠٤ - طبقات الامم : ١٠٢-١٠٣
- فضائل الاندلس : ١١-١٢ ، البيان المغرب : ٢ : ٦٢ - ٦٣ .

٢)- تاريخ الفكر الاندلسي : ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٣)- الحلل الموشية : ١٠٤ -١٠٥ - الاستقصا : ٢ : ٧٥ .

٤)- فضائل الاندلس وأهلها : ١١ - ١٢ .

٥)- نفسه : ٢٧ - المغرب ٢ : ١١٩ .

٦)- قيام دولة المرابطين : ٤٣٦ .

شاها ابن طفيل (-٥٨١) صاحب " حي بن يقظان " ، وابن رشد الحفيد ، فيلسوف الاندلس وابعدهما في رشده . ونبغ في الرياضة أبو الصلت الداني وكان أوحد في العلم الرياضي [1] ، وابو عبد الله بن عائشة صديق ابن خفاجة ، وابن مسعود (-٥٢٦) وجابر بن أفلح الاشبيلي [2] وغيرهم .

وأما علم الطب ، فقد شجع لضرورته ، فتقدمت دراسته ، وظهر فيه اطباء نالوا شهرة واسعة منهم ابو العلاء عبد الملك بن زهر (-٥٢٥) وابنه ابومروان ابن ابي العلاء بن زهر (-٥٥٦) ، وقد جمع الى البراعة في صناعة الطب البراعة في الأدب واللغة وفن التوشيح [3] ، ومنهم أيضا ابن باجة ، ويعد من الأفاضل في صناعة الطب [4] ، وابو الصلت الداني (-٥٢٦) الذي بلغ في صناعة الطب مبلغا لم يصل اليه غيره من الاطباء [5] ، وابن طفيل (-٥٨١) ، وابوعامر ابن ينَّق الشاطبي الشاعر تلميذ أبي العلاء بن زهر ، وغيرهم .

وأما الدراسات اللغوية ، فقد كانت ديدن الاندلسيين ، أولوها من عنايتهم القدر الكافي لعلاقتها المباشرة بالدراسات القرآنية والفقهية ، فبلغت في هذا العصر مستوى عاليا ، وصنفت فيها كتب ذاع صيتها ، وبرز في هذا الميدان ابن السيد البطليوسي ، واحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري ، ومحمد بن أطلب ابن أبي الدوس ، وعبد المجيد بن عبدون ، وفي النحو : ابن الباذش الغرناطي (-٥٤٠) ، ومحمد بن حكم بن محمد بن باقي الجذامي ، وابن الطراوة والسهيلي (-٥٨٣) وغيرهم .

ولم يتخلف علم التاريخ عن سير هذه الحركة العلمية وتقدمها ، فحظي هو أيضا

---

١)- عيون الانباء : ٥٠١ .

٢)- ابن خفاجة : ٢٢ .

٣)- عيون الانباء : ٥١٧ - ٥٢٢ .

٤)- نفسه : ٥١٦ .

٥)- نفسه : ٥٠١ .

باهتمام العلماء ، وتوبلت مصنفاتهم فيه بالقبول والتشجيع ، واشتهر منهم ابن بسام (- ٥٤٢هـ) صاحب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " وابن خاقان (-٥٢٩هـ او ٥٣٥هـ) صاحب قلائد العقيان ، ومطمح الانفس ، ومحمد بن خلف بن علقمة (-٥٠٩هـ) صاحب " البيان الواضح في الملم الفادح"[1] ، وابوبكر يحيى بن الصيرفي الغرناطي (-٥٥٧)[2] وله مؤلف تصره على الدولة اللمتونية ، واشتهر في علم الجغرافية ابن غالب الغرناطي (محمد بن أيوب) صاحب فرحة الأنفس ، والشريف الادريسي صاحب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " كما أدرك هذا العصر الجغرافي الاندلسي الشهير أبو عبيد البكري (-٤٨٧هـ) صاحب " المسالك والممالك " .

وأما الادب فقد بلغ بشقيه الشعر والنثر درجة عالية في هذا العصر ، ونبغ فيه الكثير من فطاحل الكتاب وفحول الشعراء ، فمن الادباء ابن بسام (ابو الحسن علي الشنتريني) ، وابو نصر الفتح بن خاقان ، ومن الكتاب : عبد المجيد ابن عبدون ، وابو عبد الله بن ابي الخصال (-٥٤٠) واخوه ابو مروان ابن أبي الخصال[3] ، وابو الحسن غلام البكري ، وابو القاسم بن السقاط ، وابو بكر بن القصيرة (-٥٠٨ هـ) . واشتهر من الشعراء ابن خفاجة ، وابن اخته ابن الزقاق ، والاعمى التطيلي ، وابو الصلت الداني ، كما بلغ فن التوشيح نهايته القصوى علي يد الاعمى التطيلي ، وابن بقي ، وأبي بكر بن الأبيض ، وابي مروان بن زهر وغيرهم ، كما لمع في ميدان الزجل

---

١)- التكملة ١ : (١١)-٤١٢

٢)- المغرب ٢ : ١١٨ مع الهامش .

٣)- المغرب : ٢ : ٦٦ - ٦٨ .

٤)- المعجب : ٩٢ - عيون الانباء : ٥٢١

ابو بكر بن قزمان (- ٥٥٤) إمام الزجالين في عصره[1] .

واذا ويمد هذا العرض الموجز للحياة الفكرية في الاندلس - في عصر الطوائف والمرابطين - نرى أنه من الشطط في الحكم تحميل المرابطين وحدهم ما أصاب الحركة العقلية في عصرهم من غبن وتضييق ، أبرز مظاهر لها حرق كتاب "الإحياء" لابي حامد الغزالي ، مع أنهم لم يكونوا في هذا الا مؤيدين ، وان السبب الرئيس في الحادث افتاء بعض فقهاء الاندلس وعلى رأسهم ابن حمدين بوجوب ذلك ، لكراهية توارثوها للفلسفة ودعاتها منذ زمن بعيد ، أو ما أصاب الحركة الأدبية من فتور ، لأنهم أرادوا منها أن تتخذ موقفا آخر يتلاءم والواقع الجديد في تلك الفترة الحرجة من حياة الاندلس الاسلامية ، وهو أمر كان يمكن وقوعه لو أنها كانت تنطلق من أرضية متينة ، وتجربة شعورية عميقة ، غير أنها لم تكن كذلك في أغلبها ، وكأن الشعر لا ينمو أو ينشط الا في جو الابهة السلطانية ، ووهج القصور ، ولا ازدهار له في غير هذه الأجواء .

---

١)- أزهار الرياض في اخبار القاضي عياض : ٢ : ٢١٦ ، المغرب ١ : ١٦٧

ابن خفاجة : ٢٤

الباب الاول

في حياة الشاعر وشخصيته



الفصل الأول

في نشأته وثقافتـــــــه

ولد ابو اسحق ابراهيم بن ابي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري في جزيرة "شقر" من اعمال بلنسية في سنة (٤٥١ هـ) ، وهو وقت من أشد أوقات شبه جزيرة الاندلـــس حرجا واكثرها فتنا واضطرابا[1]. لكن بلنسية ، في عهد ابي بكر بن عبد العزيز خاصة ، قـــد نعمت ـ كما ذكرنا[2] ـ بفترة من الامن والاستقرار قضى خلالها ابن خفاجة طفولة ناعمة ، ونشــأ نشأة هادئة مطمئنة ، الا أن ذلك لم يدم طويلا ، فلم يكد يبلغ السادسة والعشرين من عمره حتى بدأت الحياة في بلنسية تأخذ مجرى جديدا ، وتنحو منحى لم تعهده في سابق عهدها ؛ فبدأت تشهد حوادث دامية ، ومعارك طاحنة ، تشعل نارها اطماع الممالك المجاورة ، أو هجمات النصارى المتتالية ، والتي تطورت الى حصار طويل المدة ، أتلف الانفس والامـــوال ، وقلب الحياة المطمئنة الهادئة الى جوّ من الرعب والقلق ، عجل برحيل الكثير من أهالي المملكة ، ونفر غير البقية التي آثرت البقاء ، حبا في الوطن ، واستماتة في الدفاع عنه ، لكن قوتهـــا الواهنة لم تكن لتصمد طويلا امام هجمات النصارى وحصارهم القاسي ، فلم يفتأ هؤلاء ان استولوا على المدينة ، فعاثوا فيها فسادا ، وحكموا فيها اهواءهم وآراءهم ، ولم يغادروها الا بعـــد أن اشتدت عليهم وطأة الجيوش المرابطية في سنة (٤٩٥ هـ) في جو أشرنا الى هوله وروعته (٣)

هذه الفترة العصيبة في حياة بلنسية أثرت ـ بلا ريب ـ في حياة ابن خفاجة الشاب ، وتركت بصماتها في نفسيته الرقيقة واضحة جلية ، فقد أرغمته على مغادرة وطنه ، ومرتع صباه ، الى مناطق أخرى غريبة عليه ، حيث لا صديق يؤنس ، ولا مجالس للهو تقام ، وحتى إن أقيمت فبمـــذاق مختلف ، تفسده الغربة ، ويمره الحنين .

وقد نشأ ابن خفاجة محبا للعلم ، ولعل لاسرته في هذا الميل أثرا ، لما وفرته له مـــن أسباب مادية ومعنوية كانت اكبر عون له على تحصيل العلوم والتفرغ لطلبها ، والمواظبة على حضور مجالسها دون أن يشغله عنها شاغل ، تلقى تعليمه الاول في بلده شقر ، ثم لم يلبث أن تطلـــع الى ما وراء هذا الوطن الصغير ، فقصد شاطبة ومرسية وبلنسية ، فحضر مجالسها العلميــــة ، وأفاد منها فوائد جمة ، فقد جالس ابا عمران بن ابي تليد ، الفقيه الاديب الشاعر (-٥١٧هـ) (٤)

---

(١) ـ التكملة ١ : ١٤٣ - ١٤٤ - ابن خفاجة : ٧ .
(٢) ـ انظر هذا البحث : ٩
(٣) ـ نفســــــــه : ١٠-١١
(٤) ـ الصلة ٢ : ٦١٠

ى أبا علي الصدفي (١) القاضي المحدث (- ٥١٤ هـ) بمرسية ، وروى عن ابي بكر عتيق بن أسد
حافظ الاديب (- ٥٣٨ هـ) ، كما تتلمذ على الاستاذ ابي اسحق بن صواب ،" وكان من أهل
معرفة بالعربية واللغة والاداب" ، كثير التنقل بهدف التعليم ، استقر بالعدوة أخيرا وتوفـــي
با (٢) وقد ارتبط ابن خفاجة باستاذه هذا وأحبه ، فهو لا يترك فرصة تمر دون أن يبلغه سلامه ،
أن يرسل اليه ، مجددا عهده به ، فقد كان شوقه اليه قويا ، لو باشر الصخر لانفجر ، اوباشر
جلمود لفارق العمود (٣) . وتخصيص هذا الاستاذ بالذكر دليل على أن أثره في تلمذه كان قويا
، وربما كان سببا فاعلا في تحول اهتمام ابن خفاجة الى الادب ، وتفتق موهبته الشعرية . ودرس
فقه على قاضي شاطبة ابي يوسف يعقوب بن طلحة وهو احد رواة شعره ، وعنه أخذه ابـــن
شكوال (٤) . كما درس العلوم الرياضية ثم لم يلبث ان رغب عنها وزهد فيها بابيات قالها (٥) ، وهي
لابيات التي وقف عندها احد الباحثين (٦) ، وحكم على ابن خفاجة بضحالة الثقافة ، والتزهيـــد
ي طلب العلم ، وعدم الحض عليه ، وهو حكم تظهر مبالغته واضحة اذا وقفنا على المناسبة الـــتي
يلت فيها تلك الابيات ، وكذلك على الابيات التي قالها الشاعر نفسه في الحث على طلب العلم
التنقل به (٧) . كما يمكن أن يكون قد حضر - في اثناء تردده على بلنسية - مجالس ابي محمد
ن السيد البطليوسي (- ٥٢١ هـ) فقد كان هذا الاخير "عالما بالاداب واللغات مستبحرا فيها ،
قدما في معرفتها واتقانها ، يجتمع الناس إليه يقرؤون عليه ويقتبسون منه ، وكان حسن التعليم ،
يد التلقين ، ثقة ضابطا" ،(٨) فقد وصفه هو نفسه بالاستاذ ، كما جرت بينهما مخاطبات شعرية (٩)
يمكن أيضا أن يكون حضر غير هذه المجالس ، وأخذ عن غير هؤلاء الاعلام ، فشرق الاندلس فـــي
صره كان في أوج نشاطه العلمي . ولعل اختلاف من ترجموا له ، في النظرة اليه ، وان اجمعـــوا
لى شاعريته ، أكبر دليل على طول باعه ، ومشاركته في فنون العلم المختلفة . فقد ذكره ابن سعيد
ي باب العلماء (١٠) .

---

(١) - التكملة ١ : ١٤٣ : الصلة ١ : ١٤٤ - ١٤٦ .
(٢) - نفسه ١ : ١٤٣ .
(٣) - الديوان : ٦٣ .
(٤) - الصلة ٢ : ٩٩
(٥) - الديوان : ١٦٤
(٦) - ابن خفاجة الاندلسي ، عبد الرحمن جبير : ٢٨ - ٢٩
(٧) - الديوان : ٣٦٢ -
(٨) - الصلة ١ : ٢٩٢ - ٢٩٣
(٩) - الديوان : ٩٨
(١٠) - المغرب : ٣٦٧

أن لابن خفاجة تآليف لغوية " (١) ، ونعته الصفدي
لسهوالي عن ابن الزبير في صلة الصلة " ان لابن خفاجة تآليف لغوية " (١) ، ونعته الصفدي
سة والفصاحة وذكر أن له تآليفا في اللغة غيرها (٢) . كما وصفه ابن بسام بالاديب.(٣) ، وعده
خاقان في القلائد من نبهاء الادباء وفحول الشعراء (٤) ، وعده صاحب المطرب - أيضا - من
الشعراء (٥) . ولمشاركته في علم الحديث عده ابن الابار من جملة اصحاب ابي علي الصدفي ،
ر اسمه لانصرافه على هذا العلم فقال : إنه " حدث في ديوان شعره عن ابي بكر بن أسد
وغيره من شيوخ ابي علي (٦) .
، ولم يكن الحديث شأنه ، ولو عني به لامكنته الرواية عن الصدفي وغيره من شيوخ ابي علي
ابن خفاجة انصرف عن تلك العلوم بعد أن أخذ قسطه منها ، ومال بجمعه الى الادب ، شعره
ره ، وانكب على كتبه ودواوينه المتوفرة ، فكان ان صادفت هوى في نفسه ، فأقبل عليها انهمال
بن النجم ، فالى منها الكثير ، قرأ شعر الرضي الموسوي ، ومهيار الديلمي ، وعبد المحسن
صوري ، والمتنبي ، وابي تمام والبحتري ، والمعري وابن الرومي وابي نواس وغيرهم .
ا يحتمل أن يكون قد اطلع على اشعار الصنوبري - وان لم يصرح بذلك - فقد كان شعره معروفا
الاندلس منذ القرن الرابع الهجري عن طريق ابي الحسين بن الفارس الراوية ، الوافد على المستنصر
الله (٧) . كما يدل ديوانه على اطلاع واسع في اشعار الجاهليين والاسلاميين (٨) ، والمام - ذي
ال - بالنقد الادبي واتجاهاته ، وعلمي العروض والبلاغة ، وغيرها من العلوم التي أفادته في تكوين
ثقافته الادبية وتمكينها . هذا ، ولم يقصر الشاعر همه على شاعر واحد يقلده ويترسم اثاره ، وانما
اعجب بشعراء كثر ، ذكرنا اسماء بعضهم ، وجميعهم من شعراء العصر العباسي ، وذكرنا بلفظ
صري انه تأثر طرائق بعضهم في بداءة تجربته الشعرية ، فقد تصفح شعر الشريف الرضي ، ومهيار
الديلمي ، وعبد المحسن الصوري ، وأخذ بما في اغزالهم من رقة ، وورعة ، وما في الفاظهم من
شفافية (٩) . كما أعجب بطريقة ابي الطيب المتنبي في لف الغزل بالحماسة (١٠) ، ولكنه عرف كيف

---

(١) - بغية الوعاة ١ : ٤٢٢
(٢) - الوافي بالوفيات ٦ : ٨٣
(٣) - الذخيرة ٣ / ٢ : ٥٤١
(٤) - القلائد : ٢٦٦
(٥) - المطرب : ١١١
(٦) - المعجم : ٥٨ ، التكملة ١ : ١٤٣
(٧) - فهرست ابن خير : ٤٠٨
(٨) - الديوان : ٢٠، ٦٢، ٨٧، ٣١٣، ٣١٦، ٣٢٢ .
(٩) - نفسه : ٦ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤
(١٠) - نفسه : ١٦ .

يوان تلك السمايات في تكوين طريقة خاصة به ، اشتهر بها ، وتركت آثارها واضحة في الكثير من الشعراء في حياته وبعد موته .

((٣))

ولقد اسعفته ثقافته الادبية بالقول - في معرض الدفاع عن مذهبه الفني - ببعض الاراء النقدية ومن نظرات ، وان لم يشذ فيها عن المألوف في النقد الادبي العربي القديم ، الا أنها تدل على تمكن الشاعر من صناعته ، وسعة اطلاعه ، وسلامة ذوقه . فالشعر - في نظره - يتألف من معنى ولفظ وعروض وحرف روي (١) وتقديمه المعنى على اللفظ له دلالته وقيمته ، خاصة اذا وقفنا على تذمره من نظرية الجزالة السائدة في عصره ، فهو يرى أن الكلام لا يكون جزلا في كل موقف ، وانما يختلف باختلاف الموضوعات ، رقة وجزالة ، ولينا وقوة ، وعليه ، فاللفظ يتلاءم ومعناه ، يتزيا بزيه ويتصف بصفاته ، ففي الغزل ينبغي أن يكون ، مرهفا دقيقا ، واما في المدح فيكون قويا جزلا ، ويكون غير ذلك في الهزل - (٢) .

وهو يقول بالوحدة النفسية ، كبديل للوحدة الموضوعية ، يلتمس هذا في قوله : "فلعل قائلا يقول : ما لرب هذا الشعر ما رثى حتى تغزل ، ولا جد حتى هزل ، ثم تغنى بالمدح فأتى بالمفاخر في الآخر ؟ ، فالجواب عنه : انه لما كان بين المادح والممدوح اشتراك في معنى هذا الرثاء واشتباك ، ولاجتماعهما في خلة بعض تلك الجلسة ، افتتح الشعر بالرثاء على جهة من المساهمة والتعزية ، ثم اردف بالمدح على نحو من التأنيس والتسلية ، ولما أشار الى ما يذكره عليه من مصاب ، ويرجى اليه من أوصاب ، انكفأ عليه الكلام في ذلك انكفاء ، فانهزق عنه كرم عشرة ووفاء" (٣) ، وفي معرض الدفاع عن شخصه وفنه ، والذي يصمن الانتقاص والنقد ، يقول بفكرة التخييل ، وهي عنده تعني عدم مطابقة الحقيقة للكلام ، أو الفعل للقول ، أي تعني الكذب ، ومن ثم فليس من وراء قوله "إني فعلت أو "إني صنعت" شيء من الحقيقة ، وانما هو ضرب من

---

(١) - الديوان : ٩-

(٢) - نفسه : ١١- ١٢

(٣) - نفسه : ٢٠٢- ٢٠٤

الاساليب مجاز في صناعة الشعر لا في صناعة النثر (١) . والقول بفكرة التخييل في الشعر قاده الى القول بشيء آخر هو الرمز ، فما أورده في شعره من أسماء أعلام وبقاع وما تنتسب اليه من صفات ، ليست الا أسماء جردت من مسمياتها الحقيقية ، وأفرغت من محتواها الاصلي ، واضحت أقرب الى التخييل منها الى الحقيقة والصدق . " فهي انما جيء بها على أنها خيالات تنصب ، ومثالات تضرب ، تدل على ما يجوز مجراها من غير أن يصرح بذكراها ، توسعا في الكلام ، يكتفى بها دلالة عليها وعبارة ، ويستحسن ايماءة واشارة " (٢)

والشعر عنده " صناعة " ولكنها تعتمد على حوافز وميول طبيعية ، اي على موهبة . وهي بذرة الابداع الفني ، ولكنها لا تنمو ، وتترعرع ، وتؤتي أكلها ، الا اذا تعهدت بالتصحيح والتثقيف ، وتوبلت بما يلزم من العناية والتروي والتروية (٣) . كما أن عطية الابداع " لا تطرد جودتها على نظمه وانما تمر في خط بياني قد يرتفع الى الجودة ، وقد يهبط الى درك الضعف ، وقد يأتي وسطا ، تبعا لدرجة المعاناة الشعرية واطاعة المواد التعبيرية . " فالشعر ، وان أحتفل به واعتمل فيه ، ليس يخلو جيده من سقط ، وانقسام الى طرفين ووسط ، فان الاذهان باخرة تكل ، والمواد من الفاظ وقوات تقل " (٤) . ونفس التقسيم نجده عند قدامة تقريبا ، فهو أيضا يعد الشعر صناعة ، والصناعة اي صناعة . " لها طرفان ، احدهما غاية الجودة ، والاخر غاية الرداءة ، وحدود ما بينهما تسمى الوسائط " (٥) .

هذه النظرات قال بها الشاعر ، معتمدا فيها على الموروث من آراء النقاد ونظراتهم ، الجأته اليها ضرورة الدفاع عن مذهبه الشعري ، وطريقته التي ارتضاها لنفسه ، واما الشيء الذي اختص به ، وبرز فيه ، فهو جعله الطبيعة مصدرا أساسا لاستعاراته وتشبيهاته ، ومعينا لا ينضب لصوره ومعانيه ، وما ذلك الا لان الطبيعة الجميلة ملكت عليه مشاعره واحاسيسه فانبرى يرسم مشاهدها ، ويصور مظاهرها بتفاعل حي ، ومشاركة وجدانية صادقة ، وهي الظاهرة التي شهرته في عصره ، ولفتت انظار المؤرخين والشعراء اليه ، فعرفت قدره أولئك ، واقتفى اثره الكثير من هؤلاء .

---

(١) - الديوان : ١٠ - ١١

(٢) - نفسه : ٢٠٤

(٣) - نفسه : ٦١ ؟

(٤) - نفسه : ٩

(٥) - نقد الشعر : ١٨

الفصل الثاني

في شخصيته وحياته الاجتماعية

((١))

ان المتأمل في ديوان ابن خفاجة - بغض النظر عن عملية التحوير والتبديل ، والزيادة والنقص التي أحدثها الشاعر في شعره عند جمعه ، وبغض النظر ، أيضا ، عن عدم ترتيبه ترتيبا زمنيا الا في النادر - يلاحظ أن الشاعر مرّ بمرحلتين في حياته تختلفان اختلافا بينا ، فكرا وتصورا ، مرحلة الشباب ومرحلة الشيخوخة .

فقد عاش المرحلة الاولى من حياته ، عيشة لهو وصخب ، وفسق ومجون ، يغازل النساء من جوار وقينات ، بل يغازل الغلمان أيضا ، ويشرب الخمر ويعقد لها المجالس ، ويؤم مجالس التهتك والطرب ، ليلا ، وقد كان العيش في نظره " مداما أحمر ، يستنبه غلام أحور "(١) ، وان " بغض العيش انما هو في صرخة العزف ، وجر الذيل في منزل القصف "(٢) . فتلك هي الحياة ، وذلك هو العيش ، مجالس للهو تعقد ومواطن لغفلة سادرة تقام ، واحتيال للفرص ، واقتناص للذات بأنواعها . وهو بهذه النظرة انما يجسد صورة حية عن الحياة الاجتماعية في تلك الفترة من تاريخ كورة بلنسية ، فترة حكم ابي بكر بن عبد العزيز (- ٤٧٨ هـ) فقد كان عادلا ، ولكن عدله لم يقف دون تيار اللهو والتفسخ الاجتماعي الذي اجتاح الاندلس ، بحكم مشاركته الحكام في مده بسلوكهم ، ومساهمة العلماء في ذيوعه - الا القليل - بصمتهم ومشاركتهم في أغلب الاحيان . وهي ظاهرة فطن لها الشاعر نفسه ، فأعرب عنها ، مسوغا بها انحرافه ولهوه قائلا :

لعمري لو أوضحت في منهج التقى	لكان لنا في كل صالحة نهج
فما يستقيم الامر والملك جائر	وهل يستقيم الظل والعود معوج (٣)

---

(١) - الديوان : ١٢٥

(٢) - نفسه : ٢٤٢

(٣) - الديوان : ٣٦٩

وقد زين لابن خفاجة تلك الحياة الطاجنة امور ، منها الاكتفاء المادي بما ورثه من أهلـــه من ضياع كانت تدر عليه مالا وفيرا ، لما وفر عليه الكثير من الوقت ، وساعده على أن ينعم بفترة من الفراغ طويلة صادقت هدوءا نسبيا في حياة الأندلس السياسية ، وجو ساعد للانغمـــاس في اللذات والمتع ، فكان ما كان من سلوكه الاجتماعي في شبابه . وقد لاحظ حديثه الفتـــح ابن خاقان هذه الناحية من حياته فسجلها في قلائده قائلا : " كان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه ، كثير الوسن ، من صفا الانتهاك وجنونه ، لا يبالي بمن التبس ، ولا بأي نار اقتبس ".[1] ولكن هذه الحياة الهـــ الهادئة من عمر الشاعر مرت كأن لم تكن ، مخلفة فـي نفس الشاعر حنينا مرا ، وأنينا موجعا ، فقد أفاق الشاعر اثرها من غفلته ، وثاب اليه رشـده ، وأقلع عن غيه ، وودع تلك الحياة اللاهية ، وأقبل على حياة جديدة ملؤها الايمان والتنـــون ، والزهد والعفاف ، والاحساس الواعي بما يجري حوله من احداث وما يعانيه بلده من أزمـات بما شهده من معارك طاحنة ، وما امتلأت به ساحاته من جثث وأشلاء القتلى ، وما شهـــده من حصار ، وانتشار وتخريب ، وهي احداث ، كانت كفيلة بهز ذلك القلب الحساس والتأثير وبقوة في تلك النفسية المرهفة ، وبالتالي ، نقلها من جو الى جو آخر ، ومن سلوك حياتي الى آخر مغاير ، ولكن الشاعر ، ذكر في ديوانه غير مرة أن السبب في ذلك التحـــول الواضح في حياته الاجتماعية والنفسية ، انما هو الشيب ، الذي أشعل رأسه بياضا ، وأعلمه بقرب الرحيل . وقد أحس ابن خاقان بهذا التحول في سلوك الشاعر فسجله بقوله : " الا انه نسك اليوم نسك أذينة وغض عن ارسال نظره في اعقاب الهوى عينه "[2] . ولكننا نحس ، ونحن نقرأ شعره ، وعلى الرغم من ذلك التحول السلوكي المهم ، أن جو المرحلة الاولى من ... باته ظل قويا جارفا ، قد غرس وجوده في عالم الشاعر النفسي ، واجبره على الحنين الدائم الى تلك الحياة ، والمهين المستتر بلذاتها وروعة سحرها وجمالها .

---

(١) - قلائد العقيان : ٢٦٦

(٢) - نفسه : ٢٦٦

وقد وصف الضبي الشاعر بحب الهجاء (١)، ولنا - في ديوانه دليلان على ذلك، ولكنهما جاءا في معرض دفاع الشاعر عن نفسه، مما يدل على أن هذه الظاهرة لم تكن أصيلة في طبعه، ولم يكن لها جذور عميقة في نفسية المسالمة، والا فقد كان الشاعر خفيف الظل، لطيفا، حبيب العشرة، حسن المعاملة، جذابا، التف حوله الكثير من الاصدقاء والعديد من الاصحاب.

((٢))

ويظهر لنا ابن خفاجة - من خلال ديوانه، ومن خلال الاخبار التي حفظتها لنا كتب التراجم عن حياته، انسانا مرهف الحس، دقيق الشعور، شديد التأثر، قوي الانفعال، يهتز للجمال، ويندفع الى كل ما هو حسن فيها، سليم الذوق، انتقائيا، فقد روى الضبي أنه كان يأتي الى الصالح الذي يبيع الفاكهة فيساومه، فاذا سمى له عددا أو وزنا نقصه من ذلك العدد او الوزن على شرط أن يختار ما أحب بيده "(٣). وظاهرة الانتقاء هذه صفة لازمته في حياته الخاصة والعامة، فهو كما ينتقي ما يناسبه من الملبس والمطعم، ينتقي اصدقاءه أيضا، وكما ينتقي في ميدان الفن اللفظة الرقيقة، والصورة الموحية والاسلوب الملائم، ينتقي الشعراء الذين يتناسبون واحساسه المرهف، يتأثر روائعهم وينسج على منوالهم. ولعله في هذا الانتقاء، لم يقتصر على الاعجاب بالروائع الفنية لهؤلاء الشعراء، بل تعداه الى صفاتهم النفسية والاخلاقية ايضا، لما بينه وبينهم من تلاق واتفاق، فقد كان المتنبي قوي الشخصية، طموحا بالحب ولا بالطلب، كما كان الشريف الرضي عفيفا، عالي الهمة، طموحا الى المعالي، لا يقبل صلة من احد ولا جائزة "(٤)، مما قوى شخصيته، وعمق احساسه بكرامته، وبمثته الانسانية، ونمى في اعماقه تلك الهمة الرفيعة (٥)، والنزاهة النفسية التي حالت بينه وبين أن يستجدي أحدا، أو يمدحه متكسبا أو مستنيلا (٦). وقد تركت هذه الظاهرة أثرها في تجربة الشاعر

---

(١) - بغية الملتمس : ٢١٧

(٢) - الديوان : ١٠ ، ١٩ ، ٣٥٢

(٣) - بغية الملتمس : ٢١٧

(٤) - تاريخ الادب العربي : عمر فروخ ٣ : ٥٩ - ٦٠

(٥) - بغية الملتمس : ٢١٧ ، الديوان ٦٠ ، ٣٢

(٦) الديوان : ٨ ، ٢٢ ، التكملة : ١ : ١٤٣

الغضبة ،غير أن هناك ظاهرة اخرى لا تقل عنها أهمية وتأثيرا في نفسية الشاعر وفنه ،فهو على شىء ضرورة لم يتزوج قط (١) . وهي قضية لها شأنها في القاء الضوء على ذلك التوتر النفسي الحاد الذي أرهقه ، وأقض مضجعه ، وألجأه الى الطبيعة ، يبثها شكواه ، ويشركها في آلامه واحزانه . وهو لا يحدثنا ، كما أن المصادر لا تحدثنا على أهله وأسرته ،الا في النادر؛ فقد رثى الشاعر في ديوانه ابن أخت له توفي بالعدوة ،على خلاف في ما أورده ابن خاقان وما جاء في الديوان في مناسبة هذه القصيدة (٢) . ما تذكر مصادر ترجمة الشاعر ابن الزقاق؛ انه ابن أخت ابن خفاجة ، وهو الاخر توفي قبل خاله بمدة يسيرة ، واما فيما يتصل بنسبه فلا نجد أكثر من أنه : ابراهيم بن ابي الفتح بن عبد الله بن خفاجة "الهواري" (٣) ،مع انعدام أي خبر عن هواتهم وشخصياتهم * .

---

* ونجد عند الضبي (٥٩٩ هـ) انه " ابراهيم بن الفتح بن عبد الله بن خفاجة ،ابو اسحاق الخفاجي " ، واغلب كتب التراجم المتأخرة تنقل عنه ،ولكن باضافة "أبي" ، الى الفتح ، فتسير النسبة كالتالي : ابراهيم بن ابي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الخفاجي ابو اسحق ، وينفرد ابن الابار في كتابيه "التكملة" و"المعجم" بذكر عبيد الله بدل عبد الله وباضافة نسبة الهواري الى سلسلة نسب الشاعر ،ولعل غارسية غومث اعتمد هذه النسبة في تقريره اصل ابن خفاجة البربري ،علما بأن بيوتات بربرية تنتمي الى هوارة ،عاشت قريبا من بلنسية ، وكان لها شأن في تاريخ الاندلس عموما ، وفي عصر ملوك الطوائف خصوصا ، منهم بنو ذي النون في طليطلة ، وبنو رزين في " السهلة " كما عرفت شاطبة من اعمال بلنسية عائلة بربرية من الهاصة هي عائلة بني عمرة ، وهذا يؤكد نسبة " الهواري " التي اضافها ابن الابار . ولكننا لو رجعنا الى جمهرة انساب العرب لابن حزم ،والحلة السيراء لابن الابار ، والبيان المغرب للمراكشي ،لوجدنا اخبارا تتصل بفرع من فروع بني خفاجة ، وهم بنو الاغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي ، وكانوا اصحاب قوة ومنعة ،ملكوا القيروان واطرابلس الغرب ، وصقلية جزءا من القرن الثاني وقرابة القرن الثالث الهجري وفي نهايته ضعفت قوتهم ، وانتهى ملكهم في افريقية على يد عبيد الله الشيعي ،كما انتهى ملكهم في صقلية أيضا . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد

---

(١) _التكملة ١ : ١٤٣

(٢) _الديوان : ٢٦٧ ،القلائد : ٢٧١ - ٢٧٢

(٣) _التكملة ١ : ١٤٣

هذه الظاهرة في حياة الشاعر كان من الممكن ان تدفعه الى الزواج ، وهو سهل عليه ، ولكنه لم يفعل ، لماذا ؟ لا ندري يقينا ، فربما كان السبب في ذلك شدة اعتزازه بحريته ! رأى في الزواج ما في اي عمل آخر من تقييد وانضباط ، وتحمل لمسؤولية شغلا تتنا رقى ورقة احساسه .

أن مدائنة بلنسية قد تعربت سريعا ، مما يدل على أن جماعة وفيرة من العرب الفاتحين قد استقرت بها منذ وقت مبكر ، ونحن نعلم أن هؤلاء العرب الفاتحين كانوا غالبهم من قبائل عربية شتى ، واكبر الظن انه كان من بينهم نفر من العقيليين الذين منهم بنو خفاجة بن عمرو ، ويعضد هذا الظن امران : الاول : ورود نسبة العقيلي في كتب التراجم الاندلسية لرجال عاشوا في الاندلس كعلي بن محمد بن علي العقيلي الغرناطي ، ومحمد بن عمر بن عبد الله بن محمد العقيلي البلنسي (المتوفي بعد سنة (٥٢٠ هـ) . والثاني : ما اورده ابن حزم في جمهرته عن ولد عمرو بن عقيل فقد ذكر أن من ولد عمرو بن عقيل : خفاجة ، وان منهم النحوي القرطبي محمد بن سارة المعروف بالعقيلي ، وذكر مرة اخرى ان من بني خويلد بن سمعان بن خفاجة ، بني الحسين بن الدجن ابن عبد الله "بمنتيشة" بالاندلس ، ودارهم "جيان" ، ووادي آش" فيحتمل أن يكون احد بني الاغلب الخفاجيين او اكثر ، قد تمدوا شرق الاندلس في القرن الثاني أو الثالث او بدايات الرابع للهجرة ، واتخذوا من بلنسية واعمالها ، موطنا لهم ، حيث الامن والهدوء ، والرزق الموفور ، فاشتروا الاراضي . واندمجوا في المجتمع ، وصاهروا بني هوارة ، او الصدفي ، واذا صح هذا الاحتمال تكون النسبتان الى درجة اننا لا نقدر أن نجزم باثبات احداهما دون الاخرى ولا نملك في هذه الحال غير ترجيح احدى النسبتين على الاخرى ، ونميل الى ترجيح نسبة الخفاجي ، أي نقول بعروبة الشاعر من جهة أبيه وذلك اعتمادا على ما يلي :

١ - لأننا لم نعثر على اسم خفاجة فيما ذكره ابن حزم وغيره من الاسر البربرية التي عاشت في الاندلس ، وفي اسر قبائل "هوارة" ، ولكننا نجد هذا الاسم يتكرر عند ذكر بني الأغلب وغيرهم من بني عقيل وهم من العرب .

٢ - ان ابن بشكوال صاحب الصلة ، وهو الذي اثبت للشاعر هذه النسبة قبل غيره كان معاصرا لابن خفاجة ، فقد عاشر بين سنتي (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ) ، وهو بهذا يستحق - مع كونه حافظا ضابطا ، التقديم على غيره من حيث استقاء الاخبار والمعلومات المتعلقة بالشاعر .

٣ - وان ابن عميرة الضبي (- ٥٩٩ هـ) الذي اثبت للشاعر هذه النسبة أيضا ، بتفصيل اكثر عاش قريبا من عصر الشاعر ، فهو أيضا مقدم في هذا المجال على ابن الابار المتوفي سنة (- ٦٥٨ هـ) ، وعلى هذا فان ما أورده هذا الاخير يمكن ان يكون زيادة ايضاح في نسب الشاعر اي أن ابا اسحق كان ثمرة تمازج بين اسرتين عربية ، وبربرية ، وهي التفاتة ذكية منه يجلي بها بعض الغموض الذي اكتنف اصل الشاعر ، والذي ضرب عنه صفحا فيما أثر عنه من شعر ونثر .

وشفافية نفسيته ، فلم يقدم عليه ، او انه رأى من نفسه ، وقد تقدمت به السن ، عجزا عن اعباء الزوجية حقها ، وهو ما أفصح عنه في احدى قصائده الغزلية (١) ، ومع ذلك فلا يهمنا كون هذا السبب او ذاك هو الفاعل في ذلك ، بقدر ما تهمنا الظاهرة نفسها ، وتأثيرها في نفسية الشاعر ، وانعكاسها على فنه ، ان عدم الزواج يعني معاكسة الفطرة وبالتالي تعريض شخصية الانسان - في الغالب - الى التأزم النفسي ، والصراع الباطني الحاد ، وهو ما عانى منه شاعرنا ، ولكنه وجد له متنفسا في الطبيعة ، وجد فيها تعويضا لما فقده ، فأسقط عليها مشاعره واحاسيسه الدفينة ، واتخذ من جمالياتها رموزا نفخ فيها من روحه ، وهو أمر أكسب علاقة المرأة بالطبيعة عنده . والعكس ، الى درجة كبيرة ، فالمرأة تعني الامر ، كما تعني امتداد الحياة ، والطبيعة بما فيها من تغير وانبعاث ، وحركة وسكون تعني ذلك أيضا فهما من هذا الوجه متقاربتان ولذلك لم يجد حرجا في خلع صفات الواحدة منهما على الاخرى ، لا نهما في نظرة شيء واحد ، لا شيئان منفصلان ، وهو في عموم وصفه لهما ، يعبر تعبيرا واضحا عما في قرارة نفسه من حب للحياة ، وتعلق لما فيها من لذائذ ومتع ، لم تعد تحلو بذهاب الشباب رمز الحيوية والقوة والنشاط .

ثم ان هذا الركون الى الطبيعة ، والاقبال عليها ، الذي الشاعر من كثب ، على تغيرها وتعاقب ظاهرة الحياة والموت في ظواهرها ، كما أن طول عمره ، ومعايشته لواقع وطنه المضطرب سياسيا واجتماعيا ، من كثرة حروب وتفاقم فتن ، وسقوط مملكة وقيام اخرى ، ورحيل اصحابه واحدا بعد واحد ، كشف لعينه وبصيرته الحياة على حقيقتها فأعرب عن قصرها ، وسرعة زوالها وهو احساس بالزمن ، تجاوز فيما بعد الى احساس بالموت ، فقد روى الضبي عن بعض أشياخه أن الشاعر كان يخرج من جزيرة شقر ، وهي كانت وطنه ، في اكثر الاوقات ، الى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده ، فكان اذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا ابراهيم تموت ، يعني نفسه ، فيجيبه الصوت ولا يزال كذلك حتى يخرّ مغشيا عليه" (٢) . وقد ازداد حب الشاعر للحياة بقدر ما تعاظم فرقه من الموت ومن مصيره النهائي المحتوم ، وهو احساس كان له شأنه في تعميق نظرة الشاعر الى الكون والحياة ، وتعميق نظرته الى الطبيعة ، وقراءة ما وراء حجابها الحسي من معان وأسرار .

← فابن خفاجة اذاً سليل أسرتين احداهما عربية والأخرى بربرية فهو ليس عربيا خالصا ، كما انه ليس بربريا خالصا ، ولعل في هذا توضيحا وبيانا للنسبة التي أوردها ابن الأبار ، والتي كانت سبب هذا النقاش . (انظر في هذا : جمهرة انساب العرب : ٤٩٩ - ٥٠٠ الصلة ١ : ٩٩ بغية الملتمس : ٢١١-٢١٧ ، المعجم : ٥٨ التكملة ١ ، ١٤٣ - الحلة السيراء ٢ : ٦٨ - ٦٩ ، ١٧٦ - ١٨٥ ، البيان المغرب ١ : ٩٢ - ١٤٦ أعمال الاعلام القسم الثالث : ١١٤ - ١٢٠ خريدة القصر ٢ : ١٤٧ الوافي بالوفيات ١ : ٨٣ بغية الوعاة ١ : ٤٢٢ مع شعراء الأندلس ١٢٨ - قصة الأدب في الاندلس ، ٥ : ١٧ - ١٨ تاريخ الأدب العربي في صقلية : ٤٠ الفن ومذاهبه : ٤٤٤ ، Encyclopedie de l'Islam t 3 . 305-308

(١) الديوان : ٨١ ٢- بغية الملتمس : ٢١٧ /

الفصل الثالث

في علاقات الشاعر وأسفاره

((١))

لقد كان الشاعر بهذه الشخصية الفذة والروح المرحة ، والهمة العالية مدعاة لان يعقد صداقات جمة وصلات ترتبط أناس كثيرين من مختلف المستويات الاجتماعية والثقافية ، فقد صادق الادباء والشعراء واللغويين والفلاسفة ، والفقهاء والقضاة ، والوزراء والامراء ، مما يدل دلالة واضحة على غنى شخصية ابي اسحق وتعدد اهتماماته ورحابة صدره . وتنقسم علاقاته من حيث نوعيتها الى فترتين ، فترة الشباب ، وفترة الكهولة والشيخوخة ، ففي الفترة الاولى انصرف ابو اسحق - كما ذكرنا - الى لهوه وسمراته ، وقد حفلت مجالسه بنوعية خاصة من الاصدقاء ، يشاركونه أفراحه واتراحه ، واغلب هؤلاء من الشعراء والادباء ، وقد ذكرنا بعضهم ، منهم أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي (- ٤٨٢ هـ) الاديب الشاعر ، صاحبه ورفيقه في سفره الى العدوة ، ذكره ابن خاقان بقوله هو "احد الفحول ، البريء من الطارق والمنحول" ، وقال عنه أيضا : "انه كان كلفا بالغلمان ، هائما بهم ، ويجري وراءهم ، حتى اشتهر امره ، ومقت من أجل ذلك" (١) . ومنهم أيضا ابو عبد الله بن عائشة الاديب الشاعر ، و منهم كل من ابن بسام والحجاري برقة الاداب (٢) ، وذكره ابن خاقان وقال : "كان له ادب واسع المدى ، يانع كالزهر بلله الندى ، ونظم مشرق الصفحة ، عبق النفحة" (٣) . ويتضح من ديوان ابن خفاجة ان الوشيجة التي ربطت بين الرجلين كانت قوية ، فهو قد خبره فوثقه ، وسبره فومقه (٤) ، ثم تطورت تلك العلاقة الى ان اصبحت محبة خالصة ، ووداد دائما ، جعلت الشاعر يغلي في ابتياع وداد صاحبه لو كان الوداد يباع (٥) ، كما رأى فيه لاخلاصه وصدقه ، الكاتب الثاني والعين الثالثة (٦) فهو صديق لا غنى عنه وقد استمرت هذه الصداقة حتى بعد أن استدعي ابن عائشة الى العدوة ليقوم بأمر

---

(١) - القلائد : ٢٧٦-٢٨٠

(٢) الذخيرة : ٢/٢ : ٨٨٧ المغرب : ٢ : ٢١٤ - ٢١٥

(٣) - الذخيرة : ٢/٢ : ٨٨٩ . (عن المطمح لابن خاقان)

(٤) - الديوان : ٦٥

(٥) - نفسه : ٢٢٥

(٦) - نفسه : ٢٢٦

الـ سابات في بلاد المغرب كلها (١). وكان محمد بن احمد بن عثمان (- ٥٢٣ هـ) من اصحابه، وكان من جلة الادباء ومشاهير الشعراء (٢). وكذلك كان الفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح احد اصحابه، وكانت بينهما مكاتبات، وهو الذي أثبت في قلائده بعض ما صدر عن ابي اسحق من عتبات اقلع عنها، فعاتبه على ذلك عتابا شديدا (٣). وفي الديوان قصيدة مدح في أبي الحسين بن الربيع، صاحب اعمال قرابة تدل على صداقة قديمة (٤).
وأما علاقته بأبي محمد عبد الله بن ربيعة، فكانت قوية، فقد جمعت بينهما اذمة الشباب وعهود الفتاء وقرابة الصداقة والادب ... من الانتماء والالتحام، بحيث لا يريان ينفصلان (٥) وقد خلف موته في نفس شاعرنا أثرا عميقا، فرثاه بقصائد مؤثرة، تفيض أسى وتنضح حزنا.
وقد جمعته ايام الصبا بغير هؤلاء، ممن اتسموا بالظرف والادب، فعاشر وإياهم تلك الايام على احسن ما يرام، وأطيب عشرة وحلاوة حياة، لبث يردد صداها في شعره مدة طويلة، ويتمنى عودتها، ويتحسر على انقضائها في شعر رقيق، يفيض عذوبة ومعاني.
وقد تميزت هذه الفترة من حياته باستقلاله، ومجافاته لملوك عصره، فلم يعرف عنه أنه تعرض لهم بمدح، او تقرب إليهم بغية الطلب والانتجاع، رغم اشتهار بعضهم بالادب وتقدير أهله (٦). فقد أخلص الشاعر فنه للاعراب عن خلجات نفسه، وسلك طبيعة ولذة الغناء، منزها اياه عن ان يكون وسيلة كسب، مكتفيا بما لديه من مال ولكننا نجد ابن الابار يذكر في الحلة السيراء أن الشاعر انتجع تميم بن المعز صاحب افريقية في صباه (٧). وهو خبر انفرد به لم نجده عند سواه، كما نجد في الديوان قصيدة في مدح المعتصم بن صمادح الملك الشاعر صاحب ألمرية، والمناسبة أن هذا الاخير "احضر مجلسه في بعض الليالي اترجة صورة رفيعة من ريحان في هيئة جارية، ثم اهيت وقلدت، وامر من حضر من الشعراء بوصفها"، فقال ابن خفاجة في ذلك شعرا تعرض فيه لمدح المعتصم في بيتين من ثمانية أبيات (٨)، ولكننا لا ندري

---

(١) - المغرب ٢ : ٣١٥
(٢) - التكملة ١ : ٤٣٦
(٣) - الديوان : ٢٠٥ - ٢٠٦، القلائد : ٢٦٧ - ٢٧٢
(٤) - الديوان : ١٤٤
(٥) - نفسه : ١٧٨
(٦) - الذخيرة : ٢/٣ : ٥٤٢
(٧) - الحلة السيراء : ٢ : ٢٢
(٨) - الديوان : ١٥٥

فيما اذا كان الشاعر قد انتجع المعتصم حقا أم انه قال ذلك على سبيل التفوق والتبريز في مجال اختص فيه ، على غرار ما قاله في وصف فعل جارية المعتمد بن عباد "جوهرة" عند ما خاطبته وهو محاصر حاسن "البيظ" ، وقد أثبتت اسمها في الحنونة تحت الخاتم لئلا تقع عليه عين" (١) .

الا أن هذه الفترة من حياة اللهو والاستقلال لم تطرد ، اذ سرعان ما كسر الشاعر ذلك الطوق أو بالحري مرّت بواقعه حوادث وأزمات وتلاحقت ساعدته على كسره ، وأخرجت الشاعر من عزلته ونبهته من غفلته وتلهت حياته رأسا على عقب ، فتحول ابراسحق ، من المجون الى الاستقامة ، ومن الغفلة الى الوعي ، ومن العزلة الى الالتزام ، وكانت دعوة المرابطين ، وهي الدعوة ذات الاساس الديني ، والقائمة على الزهد والجهاد ، متفقة مع اتجاهه الجديد ، وكان سلب النصارى لوادبه اشد على نفسه بالقدر الذي كان اخراجهم منه راغمين خير دافع له على الالتزام بهذه الدعوة ، والارتباط بمن يمثلونها ؛ ألم يعيدوا للاسلام مجده ، وللمسلمين عزتهم ، بعد أن وزعتهم الفرقة ، وأنهكتهم الفتن ، وأذلهم النصارى وأخرجوهم من اوطانهم ؟ ثم ألم يكن لاحدهم وهو الامير ابراهيم بن يوسف الفضل في رجوع موهبة الشاعر الى تمة نشاطها بعد أن فترت مدة من الزمن ؟ ، لقد وجد الشاعر فيهم وفي دعوتهم النموذج الذي افتقده من قبل ليجسد من خلاله طموحاته وآماله ، فوالاهم وأضحى من شيعتهم ، وصنيعة لهم (٢) ، مدح امراءهم ووزراءهم ، وقواد جيوشهم وقضاتهم ، معجبا ، مواليا و "مصانعا لا متجعا ، ومستميلا لا مستنيلا" (٣) . فصار شاعر الدولة الجديدة ، يلتزم بقضاياها ، ويسجل انتصاراتها ويخلد مآثرها في شعره ، ومدح من ابناء يوسف بن تاشفين : علي بن يوسف عرضا وبعث اليه برسالة

---

(١) ـ الديوان : ٢٧٩

(٢) نفسه : ٢٠٥

(٣) ـ نفسه : ٨ ـ الذخيرة ٢/١ : ٥٥٩

نثرية (١)، وابا اسحق ابراهيم بن تاعيشت، وكانت له به علاقة خاصة، مما جعله يخصه بأكثر مدائحه. كما مدح ابا الطاهر تميم بن يوسف بنصيب منها، وأفرد الشاعر في مدح ابي بكر ابن تيفلويت صهر علي بن يوسف قصيدة طويلة، كما مدح بأخرى مريم زوج الامير ابي الطاهر تميم ونعتها بأنها كانت حرة فاضلة، وقائمة على كثير من الخير، تحفظ جملة وافرة من الشعر، وتحاضر به وتثيب عليه (٢). ومن الذين مدحهم من قوادها ابو بكر بن الحاج لصلة كانت تربطهما (٣)، ونوّه كثيرا بالقائد ابي عبد الله محمد بن عائشة. وكان من اصدقائه أيضا أبو بكر بن الصائغ (ابن باجة) الفيلسوف والطبيب الشاعر المشهور، ووزير ابي بكر بن تيفلويت. ومدح من الوزراء أبا العلاء بن زهر (٤) (- ٥٢٥ هـ) الفقيه الطبيب الاديب، ذا المكانة المرموقة في دولة المرابطين، وذا الوزارتين الاديب الذائع الصيت أبا عبد الله محمد بن ابي الخصال (- ٥٤٠ هـ)(٥). كما كان الوزير ابو عامر بن ينق الاديب الشاعر، تلميذ ابي العلاء بن زهر في الطب صديقا للشاعر وكانا يتراسلان (٦). وأما الفقهاء والقضاة فقد ربطته ببعضهم علائق متينة، كابن ميمون، ابي اسحق ابراهيم، الفقيه الوزير (٧)، وابن اخيه ابراهيم بن عصام (- ٥١٦ هـ) قاضي قضاة شرق الاندلس، وكان مقبلا على الشاعر، بارّا به، مراعيا لحقه، مما جعل ابن خفاجة يكثر من مدحه، ويخصه بخمس قصائد من ديوانه، احداها في رثاء والدته. كما كانت له مكاتبة مع كل من

---

(١) - الديوان : ١٦٦، ١٦٠

(٢) - الديوان : ٦٦ - المطرب : ٢٠١

(٣) - الديوان : ١٨٤

(٤) - نفسه : ١١٦، ١٩٨ - عيون الانباء : ٥١٧

(٥) - الذخيرة ٢/٣ : ٧٨٦ - القلائد : ١٩٩

(٦) - الديوان : ٢٨٧ - القلائد : ٢١٢ - التكملة ٢ : ٤٧٩

(٧) - الديوان : ٢٤٥ - ٢٤٦

القاضي ابي بكر بن عفوز (١) (- ٥٠٠ هـ) وقاضي الجماعة بترطبة ابي عبد الله محمد بن محمد بن (٢) (- ٥٠٨ هـ) بغرض تحقيق مصلحة عامة أو خاصة . وكانت له اتصالات ومخاطبات مع غير هؤلاء ، ذكر أسماء بعضهم وأغفل ذكر البعض الآخر لعدم اشتهارهم ، وبروز مكانتهم الاجتماعية ، ... ولم يكن ابن خفاجة بمداح للشر ... ، غيض الطرف في سبيل ذلك عما يمكن أن يصدر عن ... الصدو... ... تجاه الرعية بل نجد الشاعر بالمرصاد لكل هذه الظواهر التي ... شأنها أن تسيء الى سمعة هذه الدولة الفتية في نظر الاندلسيين ؛ فكان يدافع عن المظلوم ، ويشكو الظالم الى ولي الامر ، سواء تعرض له أو لغيره (٣) .

وبهذا نكون قد ألقينا الضوء على علاقات الشاعر ، والتي من خلالها تتضح لنا مكانته وشخصيته الاجتماعية في عصره وخاصة في ظل دولة المرابطين التي أضحى أحد شعرائها ، بل ودعاتها المخلصين .

((٢))

ويتضح من خلال الديوان أن ابن خفاجة كان يميل - في غالب احواله - الى الاستقرار يستثقل الاسفار والانتقال من مكان الى آخر ، وخاصة اذا كانت المسافة بعيدة . فقد عاش مرتبطا ببلده ، لا يكاد يفارقه حتى يحن اليه حنين المحب الى محبوبه ، وتصاعده في الحنين الى ربوع الوطن قليلة ، ولكنها قوية في عاطفتها ، مما يدل على أن الشاعر قالها ، وقد طال سفره ، وبعدت الشقة بينه وبين هذا الوطن الجميل ، ومما لا شك فيه أنه جاب بلاد شرق الاندلس ، بلنسية ومرسية وشاطبة ، وغيرها في شبابه ، وفترة الطلب ؛ واستمر يتردد عليها ، خاصة بعد أن اشتهر أمره ، وكوّن صداقات ، هنا وهناك في تلك المدن القريبة من مسقط رأسه " شقر " . كما يحتمل أن يكون

---

(١) - الديوان : ١٧٦ ، ٢١٢

(٢) - نفسه : ٢٢٨ - القلائد : ٢١٩ - ٢٢٠ - بغية الملتمس : ١١٣

(٣) - نفسه : ٩١ ، ١٧٠ ، ٢٩٥ ، ٣١٤

قد أم سرقسطه ، حيث صاحبه وممدوحه الامير ابو بكر ابراهيم بن تيفلويت ، ومديته الفيلسوف الشاعر ابن باجة . ويظن أيضا أنه اتجه الى حضرة المعتصم بن صمادح في "المرية" (١) . كما قصد المغرب ثم قفل راجعا منها في سنة (٤٨٣ هـ) . بصحبه عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد (٢) . ولعله في خلال هذا السفر يكون قد جاز على حضرة تميم بن المعز بن باديس بن بلقين (-٥٠١هـ) على حد قول ابن الابار . فقد صرح لنا انه انتجعه في صباه (٣) . ولكن السفر الطويل الذي ارغم عليه الشاعر ، كان من سنة (٤٨٥ هـ) الى سنة (هـ) ، اى مدة استيلاء السيد الكمبيادور على بلنسية واحتلالها بما فيها شتى ، واشاعته الرعب والهلع في قلوب أهلها ، فقد ترك الشاعر واديه ، والالم يعصر قلبه ، والاسى يملأ جوانحه ، وهام على وجهه فرارا من هذا الجو المرعب الذي ساد بلنسية مدة عشر سنوات او تزيد . وهي مدة كافية لان يجوب ابن خفاجة مدن الاندلس ، وربما المغرب للمرة الثانية أيضا . وقد تعلم ابن خفاجة في خلال هذه الاسفار أشياء كثيرة ، فقد اطلع على وضع الاندلس المزرى ، فرأى بأم عينه ويلاتها ومآلها الكثيرة وهي تخضع لسلطان القوة الجديدة ، قوة المرابطين التي كانت تمثل في رأي الشاعر وغيره من الواعين ، وغالب أهل الاندلس الدولة الموحدة ، والمنقذة في آن ، وقد كانت لذلك في معظم مدة هيمنتها على الاندلس ، مما زاد من علاقة الشاعر بها ، وجعله يثق بها ، ويستبشر قبل الاوان بارجاع واديه بلنسية (٤) ، وانتزاعها من أيدي النصارى ، ويتحقق أمله في سنة (٤٩٥ هـ) ، فيفرح فرحته الكبرى بعودته الى واديه ، على الرغم من أنه لم يجد بلنسية كما عهدها وانما وجدها انقاضا ، ولم يجد ذلك الوجه الجميل ، وتلك المنتزهات الرائعة التي ألفها من قبل ، بل وجد منظرا شاحبا ، قد تضافر الهدم والنار على محو محاسنه ، الشيء الذي أثر في نفسيته الرقيقة ،

---

(١) - الديوان : ١٥٥

(٢) - نفسه : ٣٦٧

(٣) - الحلة السيراء ٢ : ٢٢

(٤) - الديوان : ٢٠٨

فداوى بتلك الابيات الزاخرة المحجرة (١) . ولم تلبث المدينة أن عادت الى جمالها ، وحيويتها وأمنها واستقرارها ، وعاد الشاعر الى جزيرته الجميلة ، ولكن بتصور جديد ، ونظرة الى الحياة والكون جديدة ، والغالب الآن أن الشاعر بعد هذه السنة لم يتجاوز شرق الاندلس الا نادرا ، ثم استقر نهائيا بعد سنة (٥١٠ هـ) في مسقط رأسه ، شقر ، حيث جمع شعره في ديوان ، نزولا عند رغبة أصحابه ومحبيه ، فأخذوه عنه ، ونشروه في الامصار ، وعاش الشاعر على تلك الحال تتناوشه الالام والاسقام بين الحين والحين الى أن توفي سنة (٥٣٣ هـ) (٢) .

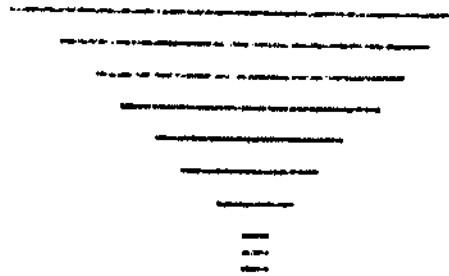
---

(١) ـ الديوان : ٣٥٤

(٢) ـ الصلة ٢ : ٩٩ - بغية الملتمس : ٢١٧ - التكملة ١ : ١٤٤

((الباب الثالث))

الجهاد في الشعر العربي



الفصل الاول

الطبيعة في الشعر الجاهلي

((١))

احتلت الطبيعة الحية مركز الصدارة من اهتمام الشاعر الجاهلي ، فقد كان الفرس والناقة نقطة الارتكاز والمحور في معظم صور الطبيعة التي رسمها لنا من خلال شعره ، فلم تكن الطبيعة الصامتة الا اطارا جميلا لصورة فرس او ناقة في بعض أحوالها ، كما أن عناصر الطبيعة الحية الاخرى لا تعدو أن تكون مصدر تشبيه أو استعارة في مجال الحديث عن الفرس والناقة ، وهذا أمر بديهي ، فارتباط الشاعر الجاهلي ، بل والعربي الجاهلي عموما ، بهذين الكائنين الحيين كان ارتباطا حياتيا ومصيريا في آن ، فالفرس وسيلته في حربه وسلمه ، وصاحبه في نزهته وصيده ، ومؤنسه في أسفاره ورحلاته المختلفة ، كما كانت الناقة ، لطاقتها و تحملها ، وصبرها أفضل وسيلة له في أسفاره الطويلة المضنية ، يعتلي على متنها الفاوز ، ويخوض بها غمار الصحراء في نهارها اللاهب، وليلها المظلم المخوف ، وهي صحبة لها أثرها ونتائجها وانعكاساتها في نفسية العربي الجاهلي ، فقد أعجب العربي بهذا الحيوان الطاوع ، الصابر ، القوي ، والجميل أيما اعجاب ، وهو اعجاب كثيرا ما كان يتطور الى حب ، يصل أحيانا الى درجة التقديس والفناء ، فهو عندما يتعرض لوصفه ينسى نفسه ، وتتوارى ذاتيته ، وكأنه رأى فيه صورة أخرى له ، ولمشاعره وأحاسيسه وأفعاله ، أو أنه وجد في صفاته وأحواله تعويضا لذلك الشعور بالضعف والخوف والقلق وغيرها مما كان يساعده في تلك الحياة القاسية ، وسط صحراء الجزيرة العربية الواسعة ، فاسقط عليه مشاعره ، ونسب اليه أفعاله . واستطاع الشاعر العربي بهذا الاحساس العميق بالحيوان ، والحب القوي له أن يرسم له صورا تفيض حياة وحركة وواقعية .

قد أحب امرؤ القيس فرسه ، ومن منطلق هذا الحب، والتفاعل الحي معه رسم له صورا واقعية غنية، جملة حينا ، مفصلة حينا آخر ، يرسم الصورة العامة للفرس في حركاته وسكناته ، في اقباله وادباره ، جريه وصولته ، في الصيد أو في الحرب ، ثم لا يلبث أن يجره اعجابه بفرسه الى أبعد من ذلك ، يتجاوز الصورة الاجمالية الى التفصيل التجزيئي للمنظر العام الذي رسمه قبلا . وقد وجد في الطبيعة من حوله معينا ثرًّا لتشبيهاته واستعاراته فقرن كل جزء من أجزاء فرسه بما يشبهه – كليا أو جزئيا – في الطبيعة من عناصر حية وصامتة ، فذكر من الطبيعة الحية الظبي ، والبقرة الوحشية

والنعامة ، والجرادة ، واللقوة والثعلب والذئب والوعل ، وغيرها ، ومن الطبيعة الصامتة عثكول النخلة وسعفها ، والصخرة الصلدة المورسة ، والخذروف والمرآة والبرق والريح وغيرها من عناصر الطبيعة ، حشدها الشاعر ، واستلهم معطياتها في رسم صورة لفرسه ، بث فيها من الحركة والصوت واللون ما جعلها أكثر جمالا وأقرب الى الواقع المحسوس (١) .

وحظيت الناقة (٢) بأقل مما حظي به الفرس من اهتمام امرئ القيس ، وان كانت عنايته بها هي أيضا كبيرة ، لحاجته اليها في معاشه وأسفاره البعيدة ، فقد وصفها هي أيضا ، ورسم لها صورا عامة قلما وقف عند عناصرها الجزئية ، مستمدا - في ذلك كذلك - بما يحيط به من عناصر الطبيعة ، وهو موفق - دائما - في استلهام الطبيعة في تصميم الصور ورسم المشاهد الرائعة لراحلته . وقد يقف عند صور بعينها ، يكررها في شعره ، وكأنما احس أنها قد استهلكت ادواتها كما أحس بذلك الشعراء الذين أتوا من بعده ، ورددوا أوصافه ، وجمدوا عند طريقته يحتذونها وقل أن أضافوا اليها جديدا . ومما تجدر ملاحظته هنا أنه كثيرا ما تتداخل هذه الصور وتتماثل في أشعار امرئ القيس ومعاصره علقمة ، ولعل للرواة في ذلك أثرا كبيرا . وفي معرض التدليل على قوة راحلته ، وسرعتها التفت الشاعر الى الطبيعة ، فوجد في حمرها وأبقارها الوحشية ثم في طيرها وحيوانها أمثلة حية تجسد مميزات ناقته ، فاستطرد بوصفها ، ولاحقها بآلته التصويرية الدقيقة ، واستطاع أن يلتقط لنا صورا ومشاهد رائعة لحيوان الصحراء على اختلافه ، بل وتكاد كل صورة أو مشهد أن يكون شريطا من الصور الملونة ، العامرة بالحركة والحياة ، وهو تصوير كثيرا ما تتجلى فيه اسقاطات الشاعر النفسية والاجتماعية ، ولكن بطريقة عفوية تلقائية ، فهو عند ما يستطرد من وصف الراحلة الى وصف الحمار الوحشي ، يوجه عنايته الى تصوير صفاته الجسمية والنفسية ، في قوته وبسالته ، وصبره وتحمله ، وحرصه ويقظته ، على انفراد أو بين أتنه في حياة أسرية ملؤها الرعاية والولاية ، وهو تصوير يعكس - فضلا عن حيويته ، وحركيته وجماله - جانبا من حياة العربي في بيئته حيث يكون للأسرة رب يحميها ، ويسهر على راحتها (٣) .

---

(١) الديوان : ١٩-٢١ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٩ ، العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف : ٢٢٣ ، ١٦٣ ، ١٧٣ .

(٢) الديوان ٦٣ - ٦٤ ، ١٦٩ .

(٣) نفسه : ١٠١ - ١٠٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٠ - ديوان علقمة : ٧٩ - شعر الطبيعة : ٤٥

ويمضي علقمة في وصف الناقة ، وتصوير الخرق المخوف الذي قطعته به في الهاجرة ، في خفة وسرعة كأنها بقرة مذعورة . ويخلص من وصفها في تمهيد ذكره الى وصف الظليم ، فيصوره لنا أحمر القوائم أزعر ، قوب التنانير ، لا يسمع الاصوات لصغر أذنيه وضيقهما ، يرعى الحنظل ، يكسر حبه ، ويقطع ما تطاول من أغصانه ، ثم لا يلبث أن يتذكر بيضه ، وقد أحس بدنو المطر ، فيترك المرعى ، ويتجه مسرعا الى حيث بيضه وفراخه وزوجه ، ثم يصور لنا سرعته المذهلة ، فهو يقارب ما بين ظفره ورأسه حتى يكاد ظفره يصيب مقلته فيشقها ، ويصل الى وكره ، حيث تستقبله زوجه في احتفال وتكريم فتداعبه ويخاطبها ، ويتحادثان في وئام يدل على حياة أسرية سعيدة ، وهي صورة أخذ العقل منها نصيبه ، كما أخذ الفن التصويري نصيبه أيضا ، مما أكسبها جمالا ، وأفاض عليها روعة وابداعا وهي صورة فريدة في شعر علقمة لا نجد لها نظيرا يعدلها في تصويرها وبعدها الانساني (١) .

كما نجد عند عبيد بن الابرص مشهدا رائعا ، وصورا فنية محكمة لمعركة تدور بين اللقوة والثعلب تجسد فيها معنى الصراع ، وكشفت النقاب عن ظاهرتين متضادتين ، ظاهرة العدوان والغطرسة والجبروت التي تمثلها اللقوة ، وظاهرة الذلة والخنوع ، والتخاذل والهلع ، ويمثلها الثعلب ، فاللقوة تلاحق الثعلب ، ثم تدركه ثم تجدله لوقارعه ، وتكدمه وتمزقه بمخالبها ، ثم ترفعه وترسله وهو يعوي من شدة الالم ، خائف ، مرتعد ، قد انقلب حملاق عينه من شدة الرعب ، مستسلم لا يبدي أدنى مقاومة ، انها صورة حية بلغ التصوير فيها أوجه وتجسدت من خلالها نفسية الظالم والمظلوم والقوي والضعيف ، وهي ظاهرة اجتماعية عاشتها البيئة العربية في الجاهلية ، ورسمتها هذه الصورة بطريقة رمزية رائعة (٢) .

ويخص طرفة بن العبد قسما مهما من معلقته لوصف ناقته ، فيصفها وصفا دقيقا ، لا يترك فيها عضوا الا ويصفه مشبها اياه بما يماثله ويناسبه في الجاهلية ، سواء منها الحي أو الصامت ، وقد أكثر في تشبيهاته واستعاراته من استخدام وسائل الانسان الحضارية ، كالمرآة ، والسفينة ، والقنطرة والسندان ، والتابوت ، والقرطاس ، والصرح وغيرها ، وقد يتجاوز الوصف المادي للناقة الى صفاتها النفسية والمعنوية فيبرزها ، فهي حساسة ، ذكية ، نشيطة ، طواع ، تتبختر في سيرها ، مما يدل على

---

(١) ـ ديوانه : ١٥ ـ شعر الطبيعة في الادب العربي : ٦٣

(٢) ـ ديوانه : ٢٣ ـ شعر الطبيعة : ٦٧

أن الشاعر صور في أوصافه لناقته عن حب عميق ، وعاطفة صادقة جياشة (١) وأما شعراء المديح ، كالاعشى ، والنابغة وزهير وغيرهم ، فعلى الرغم من أن المدائح استغرقت قسما كبيرا من أشعارهم فاننا نجد لديهم بعض الاهتمام بالطبيعة ، حيها وصامتها ، فقد كانوا يقطعون المسافات الشاسعة ، ويخوضون قفار الصحراء ، متحملين ما فيها من مخاطر وأهوال ، في ليلها المدلهم الصامت المخوف ، ونهارها القائظ الملتهب ، فصوروا ذلك كله ، وشبهوا نوقهم التي تحملهم الى الممدوح في قوتها وسرعتها ونشاطها بالبقرة الوحشية تارة ، وبالحمار الوحشي اخرى ، مقدمين بذلك صورا طريفة مليئة بالحركة والحياة ، فقد استطرد الاعشى من وصف رحلته وناقته الى وصف الثور الوحشي ، فقدم لنا صورا حية عن هذا الحيوان ، في قوته وبسالته ، ودفاعه عن نفسه ، فهو يفر من الصياد والكلاب في بادئ الامر ، متألقا كالنجم ، ويختفي وراء الكثبان ، ولكن الكلاب تلحق به مسرعة كانها نشاب الصائد ، حتى اذا أصابته ، انتفض ، وانبرى يدافع عن نفسه ، فخاضوا معركة ضارية مع الكلاب ، يكر بقرونه ، وهي سلاحه الوحيد يطعن بها يمينا وشمالا ، فيشق صدور الكلاب ويدمي أجسادها وهو في حال من الغضب شديدة ، فتحس الكلاب أن لا قبل لها بهذا الثور العاتي ، فتولي هاربة منهزمة ، تلطم جراحها ، وينصرف هو من المعركة منتصرا ظافرا (٢) . وقد يعني الشاعر بالثور نفسه ، أو يعني به شيخ القبيلة وبالكلاب أعداء ممدوحه (٣) ، ولكن المهم أنه لم يسلم ثوره للكلاب تفعل به ما تشاء ، ولم يجعل نهايته على أيديها ، وانما جعله محبا للحياة ، مدافعا عن نفسه بكل ما يملك من قوة وهو موقف له مغزاه في حياة العربي في جاهليته ، وخاصة من كان مثل الاعشى جوّاب آفاق يرمي بنفسه في صحراء ، كل ما فيها يهدد بالموت ، وينذر بالزوال ، فيجسد حبه للحياة ، وكراهيته للموت ، في انتصار الثور ، رمز الحياة ، وانهزام الصياد وكلابه رمز الموت والفناء ، وهي صورة طريفة بلا شك ، شارك العقل فيها بقسط وافر ، وامتزجت فيها المعاني الانسانية بالفن ، فجاءت ممتعة ، زاخرة بالحركة والحياة ، وتقابلنا صورة اخرى للثور ، في شعر النابغة الذبياني ، وهي تشبه في خطوطها العامة صورة الاعشى ، وأما لبيد ، فنجد عنده صورة طريفة للطبيعة الحية ، فهو أيضا يصف البقرة الوحشية في معرض وصف الناقة

---

(١) - ديوانه : ١٠ - ٢٦ ، ٢٨

(٢) - ديوانه : ٢٦١ - ٢١٢ . صناجة العرب الاعشى الكبير : ١٧٠-١٧١

(٣) - الطبيعة في الشعر الجاهلي : ٢٨٧

ونراه لا يقف طويلاً عند مظهرها الحسي ، وانما يركز اهتمامه على الجوانب النفسية من خوف وحزن واضطراب وعدم استقرار ؛ فهي بقرة ثكلى أكل السبع وحيدها وهي بعيدة عنه ، فيحز ذلك في نفسها . فتحزن عليه حزنا شديدا ، وتمضيه بكاء مرّا ، حتى أن الامطار زادت لعالها فبدت لياليها وشاتها حزنها ، وتحس بلذعة البرد ، فتلجأ الى جذع شجرة حيث تقضي ليلتها ، حزينة فزعة ، ثم يهول الشاعر من مصابها فيصورها عرضة لهجوم مباغت من كلاب الصائد ، وهي لا تسمح لها ، وتذود عن نفسها بقرونها القوية الحادة ، وتقحمت في الدفاع رغبة في البقاء ، وتضرب يمنة ويسرة عليها ضربة قوية تدميها ، فترتد الكلاب منهزمة ، متألمة يائسة وتنجو البقرة من موت محقق (١) .

ورسم الشنفرى في اللامية المنسوبة اليه صورة حية للذئب وجماعته ، فقد شبه نفسه في اكتفائه بالقوت القليل ، وصبره على القفار ، وملازمته الجبال ، وافتراشه التراب ، بذئب هزيل ، جائع ، يقطع الفلوات وجيوب الاودية والمفازات بحثا عن الطعام وسعيا وراء القوت ، يعود يائسا ، متألما ، فلا تجيبه غير جماعته ، وهي أسوأ حالا منه ، فهي منهكة ، مهلهلة ، قد شابت وجوهها ، وكشفت عن اشداق كشقوق العصي ، كالحة ، عابسة ، كريهة المنظر ، مرعبة ، تضج لصياحه ، وتشكو لشكاته ، يضج فتضج ، ثم يرعوي فتأسى به ، وتعتصم بالصبر ، وترجع طاوية لا تلوي على شيء ، وهو تصوير عبر من خلاله ذاتيته ، ومواقفه النفسية والاجتماعية ، بطريقة عفوية ، تلقائية ليس فيها قسر ولا اقحام صارم وذلك هو الفن (٢) . كما نجد صورا اخرى لغير هذه الحيوانات ، فقد كان الشاعر العربي محبا لبيئته ، مضرما بما فيها من حيوان ، كلفا بتصويرها في مظاهرها المختلفة ، لذلك زخر شعره بالصور ، وامتلأ بالمشاهد الحية الواقعية لمهجة الصحراء وحيوانها الاليف والابد ، وهو أمر يطول بنا الحديث عنه لو أننا حاولنا الاحاطة به من جميع أطرافه ، فاقتصرنا على هذه الصور ، وهي غيض من فيض ، لبروزها وتكاملها من جهة ، ولاتضاح

---

(١) ـ شرح الديوان : ٦٨ ـ ٦٩ ، الوصف : ٢٠ ـ ٢١

(٢) ـ اعجب العجب في شرح لامية العرب : ٢١ـ٢٣ ، الوصف : ٢٦ ،
مقالات في الشعر الجاهلي : ٢٠٩ وما بعدها .

وتقف الشاعر من الطبيعة من خارلها من جهة ثانية ، ولانها - من جهة ثالثة - ترسم
راحل التطور في شعرا الطبيعة في هذا الدور من تاريخ الادب العربي القديم ، فهو
ن كان الوصف ماديا ، يعنى بظاهر الموصوف ، يعتمد تشبيهات مستقاة من الطبيعة في
الظواهر المختلفة ، نجده يركز على الجانب النفسي منه ، فيجليه بخلفية تثير فيها الاحساس
بالتعاطف أو النفور منه بطريقة فنية را ئعة (١) .

((٢))

وفتن الشاعر الجاهلي بالطبيعة الصامتة بدرجة أقل مما فتن بالطبيعة الحية ، فوقف
على الاطلال ، ووصف الصحراء برمالها وسرابها ، وشجرها ورياضها ، وراقب الغيث وتاقت
اليه نفسه ، وهفا اليه قلبه ، فصور السحاب ، والبرق يومض من خلاله ، ووصف سقوط المطر ،
وتعقب مسيرته الى أن يتحول الى سيول تجرف ما تجده في طريقها من نبات واشجار وأبنية
وسباع ، ورسم للارض بعد نزوله ، ونجوم العشب ، وتفتح الزهر صورا فاتنة رائعة ، ووقف على
الطلل ، رمز المحبة والحياة الهادئة السعيدة ، فوصفه ، وقد تعاورت عليه عوامل الهدم
من رياح وأمطار ، وقد أعشبت ساحاته ، وسرحت في جنباته الظباء والابقار ، وصفا حيا مؤثرا .

لقد احتفل امرؤ القيس ، شاعر الطبيعة الاول في هذا العصر ، بالطبيعة أيما احتفال ،
وفتن بها فتنة تظهر بجلاء من خلال الصور المتنوعة الحية التي زخر بها ديوانه ! وتقف
في مقدمات قصائده على الطلل وقفة انسانية مؤثرة ، فناجى الرسوم ، وبعث الحياة في أرجائها ،
واستحضر الماضي السعيد لهذه الديار التي تعاورت الرياح والامطار على طمس معالمها ،
ويستسلم لاحلام اليقظة ، فتتداعى الصور أمامه لذيذة حلوة ، ولكنه سرعان ما يفيق على
ذلك الصمت الرهيب الذي يلف المكان ، وعلى بعر الارام المتناثر هنا وهناك كحب الفلفل ،
فيغتم لذلك غما شديدا ولا يجد له متنفسا في غير البكاء فيبكي وأبكى (٢) . ووتحفيزه من
الشعراء على الاطلال ، ولكن وقفاته ظلت متميزة بذلك الدفق الشعوري ، والتفاعل الحي

---

(١) - العصر الجاهلي : ٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣١

(٢) - ديوانه : ٨-٩ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ١٦٨
شعر الطبيعة : ٤٧ وما بعدها .
العصر الجاهلي : ٢٦٥ .

الصادق مع تلك الرسوم من دون غيرها من الوقفات . فقد وقف بها عبيد بن الابرص وزهير ولبيد وغيرهم ، فمثلها زهير وقد درست معالمها وعفت عليها الامطار والرياح بقية وشم في المعصم (١) ، وشبه لبيد ما تبقى من آثار الديار ، وقد كشفت عنها الريح بكتابة كادت تمحي حروفها فجدد الكاتب سطورها ، أو هي كوشم تقادم عليه العهد فاعادت المرأة شكله بذر الكحل عليه (٢) . كما ترك ثعلبة بن عمرو العبدي ، وصفا رائعا للديار الخالية ، يتلخص في أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الارض تشبه فعل الاصباغ في زخارف البيوت او تشبه رسم الكاتب يخلف رسوما دقيقة وأشكالا منمقة بدواته ، وهو يرفع يده ويضعها في هدوء وسكون لا تطرف عينه ولا يتحرك جفنه ، كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتعبير» (٣) .

وكما وقف امرؤ القيس وقفته الصادقة على الطلل ، وقف وقفة اخرى أمام الليل ، بظلمته ورعبته ، فشبهه لذلك ببحر متلاطم الامواج ، واستطاله حتى خيل اليه أن نجومه شدت بحبال الى جبل ، وثرياه ثابتة لا تبرح مكانها ، كأنها شدت هي أيضا بأمراس من كتان الى صخور راسخة صماء . ثم يجسم هذا الطول في أول الليل ووسطه بصورة منتزعة من واقع بيئته ، فيرى فيه جملا ثقيل الصدر ، ممتد الظهر ، كما يظن أن الليل انما جاء بصفته تلك ليختبره ويمتحنه ، فيخاطبه في ثبات : انجل عن الصبح ، وليس الصبح أفضل منك عندي ، فهمومي لا تفارقني ليل نهار (٤) وفي هذا الوصف يبدو واضحا أن الشاعر يفلسف الطبيعة ، ويصورها على غرارة ، ويسكب فيها فكره ، وفي ايضاح هذه الفلسفة استخدم وسائل الفن البياني أدق استخدام فبدا الهم مجسما في الالفاظ والمعاني» (٥) .

---

(١) - الوصف : ٣٠

(٢) - ديوانه : ١١٨ - ١٢٠ (١٣٨) (الوصف : ٣٠

(٣) - الوصف : ٣١

(٤) - ديوانه : ١٨ - ١٦

(٥) - شعر الطبيعة : ٤٧

وتردد وصف الليل بالطول عند شعراء الجاهلية ، ونظروا الى النجوم على أنها ثابتة لا تتحرك ،واختلفوا في رسم ذلك ،فمنهم من رأى - وهو النابغة - كان الراعي الذي يسوق النجوم الى ثابتها قد ترك القاطع وذهب الى غير رجعة مصربطا بذلك - عن بطء سير الليل وبعد صباحه ،ومنهم من رأى - وهو مهلهل - في تصوير ذلك ،كأن كواكب الجوزاء نوق تتجمع حول ولدها الكسير فلا تبرح مكانها ، أو يتصور الفرقدين يدي رجل مقامر بغيسف لا تنفكان عن الحركة حول القمار ولا تتجاوزانه (١) .

وأما الليل عند الاعشى ميمون بن قيس فمخوف ، شديد الظلمة ، يستوي في خوضه المبصر والاعمى ، وقد خاضه وحيدا ، وهو يغذ في السير الى ممدوحه لا يؤنسه فيه غير نئيم البوم والضوع* ، وأصوات الجنادب ،وهو لا يلهث مدة حتى يستبد به الخوف ، وتتنازعه الهواجس والاوهام ،فيخيل اليه أنه يسمع اصوات الجن وعزيفها ،فوفق في اداء هذا الرسم لليل ، وبعث الرعب في السامع بما استخدم من ادوات ووسائل سخرها بنجاح في بناء صورته الرائعة (٢) . وقد افتن أيضا في وصف الصحراء برمالها وقيظها وسرابها ، فرسم لها لوحات رائعة ،جعلت احد الباحثين يرى فيها ملامح رمزية وسريالية (٣) .

وأما البرق ،فذكره في ديوان الشعر الجاهلي فكثير ، فقد اكثروا من وصفه ، ووقفوا يرقبونه ، ويتتبعون مواطن لمعانه ،لما له من أهمية،وفي حياتهم من دور . وقد رسم امرؤ القيس وهو من أكثر شعراء الجاهلية احتفالا به ،للبرق صورا كثيرة ، تتبع في بعضها البرق منذ لمعانه من بعيد بين السحاب المركوم كانه لمعان يدين تتحركان بسرعة ، أو كمصباح راهب غذاه بزيت كثير قوى من نوره وزاد من ضوئه ،الى أن يشمل السحاب الجهات ويغمرها ، ثم يصف لنا المرحلة الثانية المتمثلة ، وهي سقوط المطر بغزارة وشدة ، حتى يتحول الى سيل جارف يقتلع الاشجار ويغرق السباع ، ويهدم الديار ،لا يثبت منها في وجهه الا الابنية القوية ،المشيدة بالحجارة والصخور ،ويتابعه بالوصف الى أن يحل صحراء الغبيط ،ويلقي بحمولته هناك ،فيروي تلك الارض الجرداء ،فتنتعش لذلك ، وتهتز ، فتخضر وتزهر فتبدو وكأنها تاجر يمان قد نشر أثوابه الملونة المزركشة وبدا جبل ثبير وقد تكاثف عليه القطر ، كشيخ مسن ، قد تزمل والتف في كساء مخطط ، كما بدا جبل خيمر ، بما علق به من بقايا السيل الذي استدار به ،كفلكة مغزل . وهو تصوير ، حي ،مشخص ، يفصح عن حب صاحبه للطبيعة ،

---

(١) - الوصف : ٣٢ - ٣٣

(*) - الضوع : طائر من طيور الليل ،يشبه الغراب او الكروان ،او ذكر البوم .

(٢) - ديوانه : ٣٧٣ - ٣٧

(٣) - صناجة العرب الاعشى الكبير: ٨٣ ، ٤١ ،الديوان: ٣٧٣ ، ٣٧ ، ١٨٩ .

عجابه الكبير بهذه الظاهرة الكونية ، كما يفصح عن مقدرته على الرسم والتصوير الحسـي الملون لمظاهر الطبيعة المختلفة . (١) . وله صورة أخرى طريفة في وصف المطر ، وفـق فيها في رسم مشهد جميل ليوم جميل ، ارتسمت فيه الفرحة والاستبشار على ظواهر الطبيعة فيها وما تبعها نزول المطر ، ذلك المطر الذي لم يكن ، رغم غزارته وكثرته ، مؤذيا ولا مدمـرا ، وانما كان لطيفا ، بل رؤوس الشجر برفق ، وما من فيه الفسيح الشرق ، فيصبح فرحـا مبتهجا ، ويوم كهذا لا بد أن يؤثر في نفس الشاعر ، فيخرج ممتطيا فرسه ، يتملى المطـر الجميل ، ويستمتع بالطبيعة الخلابة (٢) .

يرسم عبيد بن الابرص صورة جميلة لسحاب وهو يدنو من الارض ، حتى كان اليـد تلمسه ، مشبها صوت رعوده بأصوات العشار المصوحة ، ومصورا نزول قطره الذي يعـم الارض ، فيملأ القيعان ويخضر الروض (٣) . وكان الاعشى يرقب المطر أيضا ، وهو أمـر جعله يرسم للبرق صورا عديدة في شعره ، فهو رمز المطر ، وعلامة الغيث ، يبدو وميضـه من خلال السحب كأنه الشعل في وصفها (٤) .

وافتتن الشاعر الجاهلي بنبات صحرائه أيضا ، فوصف النخيل ، والدوم ، والشجر ، كمـا ذكر البساتين والجنات ، والازهار والرياض ، ولكنه لم يفصل في وصفها على نحو ما فصـل في وصف الطبيعة الحية ، والصحراء والسحاب والبرق ، فما يستحلى لنضرة تلك الصـورة التي رسمها في معلقته لديار صاحبته ، وكان قد مر بها يوما بعد ظعن أهلها ، فوجـد عشبها قد طال ، وزهرها قد تفتح ، وخلا الذباب فيها يترنم ويغني كأنه سكران (٥) . كما يصف الاعشى الروض وصفا فيه اعجاب وفتنة ، ولكن لا لذاته ، وانما ليبرز محاسن صاحبتـه ويفضلها على محاسن هذا الروض الذي جاده الغيث ، فاخضر عشبه ، وفاح عطره ، وضاحكت أزهاره كواكب السماء ونجومها (٦) .

---

(١) - الديوان : ٢٤ - ٢٦ - شعر الطبيعة : ٤٨
(٢) - الديوان : ١٤٤
(٣) - ديوانه : ٥٢
(٤) - ديوانه : ٥٧
(٥) - الديوان : ١٠١
(٦) - ديوانه : ٥٧

لقد ارتسمت الطبيعة بصحرائها الواسعة ، ورمالها المحرقة ، وسمائها ونجومها ، وسحبها وبرقها ومطرها وحيوانها وطيورها ، ونباتها وشجرها وزهرها في شعره ارتساما ماديا ، حيا ، فيه من الحركة واللون والصوت ما جعله أقرب الى الواقع ، منه الى الخيال الشعري ، حتى ان القارئ لهذا الشعر وكأنه يستعرض شريطا تسجيليا لطبيعة الجزيرة العربية في تلك الحقبة من الزمن ، الا أنه قد يحس حيال ذلك كله احساسا غريبا ، انه شعر تتعدد فيه الموضوعات ، وتتزاحم الاغراض ، وتجتمع المتناقضات ، وتتقارب بطريقة عادية وهو شعور تزول غرابته اذا علم أن الشاعر الجاهلي كان ينظر الى صحرائه الواسعة نظرة شمولية ، ينظر اليها "كوحدة تندرج تحتها هذه الموجودات الطبيعية المختلفة ، وهو حريص كل الحرص على أن يمتلك كل ما يحيط به جملة ، ولذلك يفتتن بالراحلة الطاوعة التي تيسر له الالمام السريع بمناحي بيئته وتبلغه أغراضه منها . ويلازم وصف الراحلة عنده أوصاف الطبيعة البدوية المتنوعة المظاهر" (1) . لقد أحس في مهمه صحرائه بضعفه ، بضآلته بغريزة أذكى أوارها عدم استقراره ، فكان لا بد أن ينجذب الى الطبيعة ، أن يرتبط بها ، أن يحبها ويعجب بما على ظهرها من كائنات تعويضا لما يختلج في أعماق نفسه من اضطراب واغتراب وشعور بالزوال في كل لحظة . هذا الشعور بالالفة والوحدة مع عناصر الطبيعة المختلفة هو الذي يجعله يصادق حيواناتها ، ويعطف عليه ، ويفسح له في شعره ، ويصفه وصفا أعرب من خلاله بعفوية عن الكثير من مشاعره وأفكاره الانسانية (2) .

لقد أسهم امرؤ القيس ومعاصروه ، بنصيب له قيمته في شعر الطبيعة في أدبنا العربي ، وهي مشاركة كان ينبغي أن تنمو وأن تعمق مواكبة لتطور الفكر ، ولكن الامر كان على خلاف ذلك ، فقد أضحى شعر الطبيعة في أبرز جوانبه صورا مكرورة ، يرددها الشعراء في أواخر العصر الجاهلي والعصر الاسلامي واكثر الاموي ، تباعا وبطريقة شكلية جامدة قل أن حاولوا التجديد فيها ، والاضافة اليها ، وأكثر محاولاتهم التقليدية هذه لا نلمس فيها ذلك الاحساس العميق بالطبيعة أو التفاعل الحي مع ظواهرها المختلفة .

---

(1) - شعر الطبيعة : ٥٣

(2) - نفســـه : ٦٧

الطبيعة في الشعر الاسلامي والأموي

شهدت الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي حدثا عظيما ، فقد كانت بعثة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام برسالة الاسلام انقلابا جذريا في حياة العرب ، وقلبا شاملا وعميقا للمفهومات والتصورات والافكار التي كانوا يتبنونها . وكانت الصدمة شديدة ، واللطمة عنيفة ، اهتزت لها وعنف نفوس المشركين المكابرة ، فهبوا لمحاربة هذه الدعوة ، وضيقوا الخناق عليها وعلى معتنقيها ، وأعلنوها حربا شعواء استخدموا فيها كل الوسائل ، مادية ومعنوية ، وكانت هذه الاخيرة أشد وأعتى ، فقد انبرى شعراؤهم يهجون الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، وسلطوا ألسنتهم عليهم ، وألصقوا بهم كل نقيصة ، مقابل الاشادة بزعمائهم والتنويه بأصنامهم واوثانهم ، فكان على المسلمين أن يواجهوا المشركين من قريش وغيرها من قبائل العرب بنفس السلاح ، وان يدافعوا عن الدعوة الاسلامية بكل ما أوتوا من قوة ، ويردوا كيد الاعداء الى نحورهم ، فكان حسان ابن ثابت الانصاري ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك الانصاري رواد هذه المعركة الاعلامية ، خدموا الدعوة بشعرهم خدمة جليلة في تلك المرحلة الحرجة من تاريخها ، فمدحوا الرسول الكريم ، وهجوا المشركين ، وسفهوا احلامهم ، وشنعوا عليهم عاداتهم وعاداتهم ، وطعنوا في أنسابهم على طريقتهم في هجو المسلمين ، مع اختلاف في التصور العام ، وتضمين للشعر بالمفهومات الاسلامية الجديدة من ذكر الجنة والنار ، والايمان والكفر ، والثواب والعقاب ، ومعاني التوحيد وقضايا العقيدة ، وهو أمر شغل بال الشاعر المسلم واستغرق اهتمامه فكان شعره مسايرا لحركة الدعوة الاسلامية ، يستجيب لمطالبها ، وينافح عنها ضد أعدائها ، ولذلك ، ومن البداهة ، ألا نجد في أشعاره تلك الوقفة العميقة المتملية لأسرار الكون ، والنظرة المستجلية لنواحي الجمال والابداع في مظاهر الطبيعة المختلفة ، لأن هذه النظرة وتلك الوقفة تتطلبان قدرا من الاهتمام والتركيز اللذين لا ينمون الا في ظل الاستقرار الذي لم يكن متوفرا في تلك المرحلة

القلقة في حياة الدعوة الاسلامية .

هذا عن الشعر ، واما القرآن الكريم فقد حفل بالمشاهد والصور الطبيعية، لا تكاد تخلو الكثير من سوره من مشهد او مشاهد للطبيعة معروضة بطريقة فنية رائعة ، قد تأتي في معرض القسم ، فنجده تعالى يقسم بمظاهر الطبيعة المختلفة من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، ونجوم وسماء ، وغيرها ، لبيان مالها من أهمية ، ولتوجيه الحس والعقل البشريين الى ادراك ما فيها من جمال ، واستشفاف لما تنطوي عليه من اسرار ومعان خصبة ، في جو من الالفة والمشاركة الوجدانية الحسية كما أنها قد ترد في مجال التدليل على قدرة الخالق سبحانه او التعبير عن المشاعر والخلجات والمعاني النفسية والفكرية والاجتماعية ، فيصورها تصويرا يفيض حركة وحياة ويبرزها للعيان على نحو يقرع الحس ويهز القلب ، ويدفعه الى التملي وتلمس العبرة في مشاهد الطبيعة المحيطة به ، وكأنه يشعر بها لأول مرة[1] .

ولكن ما رصيد الشعر الاسلامي من هذا الفن ؟ لم يستفد الشعر الاسلامي ، بل والشعر العربي في مجموعه ، من هذه الظاهرة القرآنية التي تستلفت النظر وتستوقف القارىء مرات ومرات ، وهو يتلو كتاب الله ، تلاوة المتدبر الواعي بما فيه من معان وأسرار ، الا نادرا ، فقد اقتصر على ترداد الصور القديمة ، وتكرار المواقف الجاهلية في جمود عقيم لا جديد فيه ولا حياة ، وقف بالاطلال يناجيها ، ويبكي أيامه الخالية ويستدعي ذكرياته بين ربوعها مع أحبته الذين غادروها وتركوها نهبا للريح والانواء تبليها وتعفي على آثارها . ووصف الناقة والفرس ، وحيوان الصحراء في معرض وصف الرحلة على طريقة الجاهليين ، وتغزل على طريقتهم أيضا ، ولم يخرج عن سننهم في البناء الشكلي للقصيدة بل تأثرهم فيه بدقة وان خالفهم في المعاني والتصورات التي اقتضتها النقلة البعيدة التي احدثها الاسلام

---

١)- القـرآن الكريم : الانعام ٩٥ - ٩٩ ، فاطر : ٢٧-٢٨ ، يس : ٣٧-٤٤ ، الفرقان : ٤٥ - ٤٧ ، يونس : ٢٢-٢٤ ، البقرة : ٢٦٤-٢٦٦ النور : ٣٥ ، ٣٩ - ٤٠ ، ابراهيم : ٢٤ - ٢٦
التصوير الفني في القرآن : ٣٢ ومابعدها .
منهج الفن الاسلامي : ٢١٢ - ٢٢٨ .

في حياة العربي فكرا وسلوكا .

ثم مكن الله للاسلام ، وشمل رقعة واسعة من المعمورة ، ودخل الناس فيه أفواجا ، وعرف الشاعر المسلم بيئات جديدة وطبيعة غناء ، فيها من غناء الاطيار وأنواع الازهار ، وكثرة الانهار ، وجمال القصور ، وروعة الحدائق والرياض الشيء الكثير ، ولكن هل اندمج هذا الشاعر في بيئته الجديدة وتفاعل معها ، ومنحها من فكره وقلبه وحسه ، ما يجليها ويبرزها ويخلدها ؟ ، تصفحت دواوين الشعر العربي لفترة الخلافة والعصر الاموي فلم اجد ما أعتمده للاجابة عن هذا السؤال اجابة شافية ، فلو استثنينا ما جاء في شعر ذي الرمة ورجز العجاج وابنه رؤبة من وصف للصحراء وحيوانها لا نكاد نعثر على شعر يمثل الطبيعة الجديدة بجمالها وسحرها ، فلم تترك روح العصبية التي اججت نيرانها النزعات القبلية وبوادر الشعوبية مجالا للاهتمام بالطبيعة والاحساس بها ، فقد استنفدت الاهاجي طاقات شعراء العصر البارزين ، وشغلتهم عن وصف الطبيعة وصفا يستغرق مظاهرها ، ويتعمق أسرارها ، وحتى ما جاء فيها من اوصاف لا يعدو أن يكون صورا مكرورة ليس فيها ما يمت الى العصر وبيئته بصلة ؛ فأنت تستعرض شعر جرير والأخطل والفرزدق ، فلا تشم فيه غير رائحة الصراع العنيف ، والنزعات القبلية المقيتة ، والهجاء المقذع مفتتحا او متخللا بأوصاف تقليدية للطلل والراحلة والصحراء برمالها وسرابها وحيوانها ، وكأنهم لم يدخلوا قصور الشام ، ولم ينعموا بظلال حدائقها الغناء ، فعاشوا فيها بأجسادهم ، وبقوا مشدودين بعقولهم وقلوبهم واحساساتهم الى جزيرة العرب ، يولعون بطبيعتها ، حيها وصامتها لا يجدون فتورا في وصفها ، ورسم الصور المختلفة لمظاهرها المتنوعة ، وان لم يخرجوا فيها كما ذكرت ، على القاعدة المتبعة ، ولم يكسروا طوق التقليد ولم يحاولوا التصرف في الموروث الشعري بما يوافق بيئتهم وعصرهم[1] . وكان لحركة جمع اللغة ، والتقعيد

---

(١)- العصر الاسلامي د.شوقي ضيف : ٣٨٦

لظواهرها اثر الى اثر في توجيه الشاعر الى غريب اللغة وشاذها ، فقد سخر شعره ورجزه لخدمة اللغة ، وتلبية مطالب النحاة واللغويين الذين كانوا يحجبون بهذا النوع من الشعر . وكان العجاج وابنه رؤبة ، رائدا فن الرجز في هذا العصر يحتفلان باللغة ، ويعنيان بجمع غريبها ، ولكن قصائدهما لم تخل من تصوير حي لمظاهر الطبيعة الصحراوية ، فقد كانت موضوعات الوصف عند العجاج " لا تقف عند جانب من الطبيعة دون آخر ، فقد صور الطبيعة بعناصرها المتحركة وعناصرها الصامتة ، ولكن شاهده، على اختلافها كانت لا تخلو من الروح والحركة ، حتى ولو كانت تصور الجماد الذي لا يتحرك .[1] " وقد عني باستخدام الالوان ، والاكثار من استعمال الافعال ، والتصرف في اللغة من حيث الاشتقاق ، مما ساعده على تقديم صور حية للصحراء بحيوانها[2] ، وعلى الرغم من أن هدفه كان لغويا لا فنيا ،فان " الصورة الفنية في رجزه تطالعنا دائما بالروعة والجمال والحيوية بما فيها من تكامل في اركانها الفنية المختلفة "[3] ، وقد تأثر ابنه طريقته ، وولع بالصحراء ولعه بها ، واكثر من وصف مظاهرها الحية والصامتة ، كل ذلك سعيا وراء غريب اللفظ ، وحوشيّ الكلام ، لا قصدا للفن في ذاته ، كما سار في نفس هذا الطريق ابو مرقال الزفيان مع سهولة ملحوظة في اللفظ والاسلوب[4] .

ولم يحفل شعراء الغزل في هذا العصر بالطبيعة الا نادرا ، فقد شغلهم وصف الحبيب ، والتغني بمحاسنه عن تملي جمال الطبيعة ، والاحساس بها ، غير أننا نجد في الشعر المنسوب للمجنون بعض الاهتمام بمظاهر الطبيعة ، ولكنه اهتمام عابر ، ونظرات عجلى لا تقف طويلا عند المشهد الطبيعي ، وكان يتوقع منه ، وهو المحب المحروم ، ذو القلب الرقيق ، والاحساس المتوقد أن يجد

---

١)- العجاج حياته ورجزه : ٣١٢

٢)- ديوانه : ١ : ١٥٥-١٦٢ ، ٢٦٦-٢٦٧ ، ٣٦٤-٣٧٧ ، ٣٨١-٣٩٨ ، ٥٢٠-٥٢١ — ٢ : ٢٢-٦٣ ، ٩١ - ١٠٦ ، ١٥٩ - ١٦٠ ، ١٨٢-١٨٤ ، ٢١٩-٢٤٨ .

٣)- العجاج . حياته ورجزه : ٣٢٤ .

٤)- شعر الطبيعة : ١٤٢ .

في الطبيعة ، التي هـام على وجهه في احضانها ، رصيدا ثرّا من المعاني والاسرار التي تعينه على تعميق احساسه ، وتوسيع نظرته الى الحياة والكون والانساني ، ولكنه اقتصر في هذا المجال ، كما أسلفت ، على الاشارة ، دون التركيز فقد شكا الى سرب القطا ما به من جوى ، وطلب من طائره أن يعيره جناحيه ليطير بهما الى حبيبته التي نأت عنه وتركته نهبا للهواجس والآلام ، فتجيبه القطا الى طلبه ، ولكنه يقنع منها بأن تحمل عنه رسالته ، وتبلغها الى حبيبته[1] . وهو يحس بالحب تجاه كل ما يثير في ذهنه صورة محبوبته ، ولذلك فهو يناجي الحمائم[2] ، ويلومها على أنها لم تحزن لحزنه ، ولم تشاركه همومه ، كما يطلق سراح الظبية التي اصطادها لا لشيء الا لأنها تشبه ليلى[3] . ولعل الجهد الذي يسجل له في مجال شعر الطبيعة هو مناجاته لجبل التوباد ، وتشخيصه له ، وبثه الحركة والحياة في جوانبه ، فهو يهلل للمرحمن ، ويناديه الشاعر ، ويخاطبه ويخبره كانه شخص يحس ويشعر[4] .

وأما رائد الوصف في هذا العصر بلا منازع فهو ذو الرمة الشاعر ، فالمطلع على ديوانه الضخم يلحظ ظاهرة الوصف غالبة على شعره ؛ مما يدل على حب وهيام بالطبيعة بجميع ظواهرها ، وتفاعل حي مع عناصرها الحية والصامتة ، فقد رسم لذلك كله لوحات فنية تشهد على براعته وتفوقه ، ودقة احساسه ، استكمل فيها عناصر الفن التصويري ، من حركة وصوت ولون ، كما استنطق عليها مشاعره وأحاسيسه مما اكسبها الدفء والروعة والجمال ؛ فقد كان شاعر الحب والصحراء في عصره[5] ، وجد في الطبيعة

---

١)- ديوانه : ١٣٧
٢)- نفسه : ٢٨٣
٣)- نفسه : ١٦٥
٤)- نفسه : ٢٧٥
٥)- ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ١٤٦ ٢٧ ـ العصر الاسلامي

صورة محبوبته التي نأت عنه ، فهام بها ، وخلا في أحضانها يناجيها ويجسد أحاسيسه وانفعالاته من خلال مظاهرها المختلفة ، ويرسم لها الصورة تلو الصورة لا يفتر ، قد ساوى في مخيلته بين ظواهرها ، وقرب من متباعدها و وحد متنافرها في نظرة شمولية موحدة ؛ وهي نظرة وجدنا لها شبيها عند شعراء الجاهلية ، ولكنها عنده اعمق واشمل تدل على أن ثقافة العصر التي نماها التصور الاسلامي للكون والانسان والحياة ، قد تركت اثرها في عقلية ونفسية الشاعر ، وفتحت عينه على ما في هذا الكون من آيات وأسرار . وارتباط ذي الرمة بصحرائه قوي متين ، وحبه لظواهرها عارم طاغ؛ يحب لها النماء والحياة ، ويكره لها الفناء . ومن ثم فهو يمقت الصياد ، ويصفه بابشع الصور ، لأنه يمثل الفناء والدمار لهذه الطبيعة الحية التي أنس بها وأحبها حبه لمحبوبته ، ولذلك فان صياده لا يصيب الطريدة أبدا ، فهو يفشل دائما في رميه ، الذي تنطلق اثره الحمر الوحشية كالسهم فارة تزلزل الارض وتقدح الشرر بأظلافها ، ثم تختفي في سرعة مذهلة ، ويبقى هو حبيس الحسرة والندم [٢] وهو تصوير لا يقف عند ظاهر الموصوف - الحمر الوحشية - فحسب ، بل يتوغل في أعماقه ، ليصف لنا نفسيته ، وهو خائف يترقب ، ويتسمع الأصوات ، ويتقدم في حذر شديد ، وكأنه يحس بخطر يوشك أن يدهمه ولكن خرير الماء يغريه ، فيتقدم الى المعين ليشرب ، ولكن ما يكاد يرشف الرشفة التي لا تبلغ حلقه حتى يسدد اليه الصياد نشابه ، فيخطئه ، وينطلق كالسهم ناجيا .

كما أن ظاهرة التجسيم كثيرة في شعره ، فهو لا يفتأ يجسم المعنوي ، ويصوره تصويرا حسيا ، يبرزه ويجليه [٣] .

---

١)- التطور والتجديد في الشعر الاموي : ٢٦٤ - ٢٦٥

٢)- ديوانه : ١ : ٦٢

٣)- العصر الاسلامي : ٣٩٤

هذه نظرة موجزة عن اسهام ذي الرمة في وصف الطبيعة ، وهي مساهمة وان لم تخرج في مجملها عن سنة الشعر العربي قبله في هذا الفن ، الا أن جهده المتميز في هذا الميدان ، المنطلق من منطلق الحب العميق للطبيعة المستغرق لاجزائها كلها ، حية وصامتة ، بلا ادنى تفريق ، يجعله والعجاج الراجز رائدي حركة الاحياء ، إحياء الموروث البدوي القديم وبعثه من جديد وسط بيئتها الحضرية الاسلامية التي اخذت تميل الى التأنق وترنو الى الترف وهي ظاهرة غريبة حقا ، ولكن غرابتها تزول اذا درسنا العصر الاموي دراسة متأنية تتناول نواحيه السياسية والاجتماعية والفكرية ، ووقفنا على الاسباب البارزة والخفية التي كانت وراء بروز هذه الظاهرة ونشوئها

ومع ذلك فهي خطوة اخرى في الطريق ، واسهامة موفقة ، مهدت لما بعدها ، ولكن بطريقة عكسية ، فقد ولدت هذه العناية بالبادية لغة وطبيعة ، نوعا من الصراع بين دعاة هذا الاتجاه ، ودعاة التجديد الذين أرادوا أن يتحرروا من ربقة التقليد للقدماء ، وينطلقوا في فنهم من واقع بيئتهم لغة وطبيعة وجو حياة .

الفصل الثالث

الطبيعة في الشعر العباسي

" ١ "

انتقلت الخلافة من دمشق الشام الى بغداد ، ومن الأمويين الى العباسيين ، فازدهرت الحياة الثقافية في بغداد ، وحواضر العراق على نحو فطى ما كانت دمشق تنعم به من نشاط علمي بفروعه المختلفة ، خاصة الشعر ، لارتباطه القوي -غالبا في ذلك الحين- بالمدح ، واعتماد الشاعر في حياته على هبات ممدوحيه من أمراء وحكام ووزراء ، مما جعل بلاط العباسيين يزخر بالشعراء والكتاب ، كما اسهمت الترجمات للمصنفات العلمية والفكرية والفلسفية اليونانية والهندية والفارسية في مد هذا النشاط الحضاري بشكل أو بآخر بطاقة جديدة ساعدت على قيام حضارة القرن الرابع المزدهرة .

وقد انقسم الشعراء في هذا العصر فئتين ، فئة نصرت القديم ، وكانت عونا على استمراره في القرن الثاني الهجري ، في بلاط بني العباس ، حيث النعمة والترف ، والحدائق والبساتين والدور والقصور ، والبرك والوديان والأنهار ؛ وفئة أعلنت الثورة على هذا القديم ، وحاولت الانطلاق في فكرها وتصورها ، وفنهما من الواقع الحضاري المعاش ، وان لم تتخلص من القديم نهائيا ، فقد استمر الاهتمام باللغة في هذا العصر أيضا ورفع لواءه في الرجز عقبة بن رؤبة بن العجاج ، وهو فن وجد طريقه الى اعلام شعراء العصر كبشار وابن المعتز ، وابي نواس والبحتري ونظموا فيه قصائد ، وصفوا فيها الطبيعة ، حيها وصامتها ، كما وصفوا من خلالها رحلات الصيد والطرد . ونسج انصار القديم منهم على منوال امرىء القيس وشعراء الجاهلية ، فوقفوا بالاطلال وبكوا فراق الاحبة ، ووصفوا الديار والدمن ، والفرس والناقة ، وكرروا صور القدماء ومعانيهم حينا ، وتصرفوا فيها تعديلا وتطويرا حينا آخر ، نجد هذا في وقفات ابن الرومي الطللية المليئة بالصور والمفعمة بالحركة

والتي يحتل الخيال فيها مكانة ملحوظة تجعل قارئها يشعر وكأنها من ابداع الشاعر واختراعه[١] . ولكن هذه الوقفات المكرورة لم تحظ بالقبول عند شاعر آخر هو أبو نواس ، فقد شنّ عليها الحرب ، وسخر منها ، وأعلن أنها لا تصلح لعصره ، ولا تلائم حياته الراقية المترفة ، حياة اللهو ، والطرب والخمرة في جو الطبيعة الساحرة ، فهذه الاجواء ، اللهو ، الخمر ، الطبيعة ، هي التي تصلح أن تكون مقدمات ، كما تصلح ان يقف عندها المرء وأن يمنحها من عنايته وعاطفته مايجليها ويدعو اليها[٢].

لقد ملكت الخمرة على ابي نواس حسه ومشاعره ، فهو لا يفتأ يذكرها ، ويصفها ، ويمجدها ، حتى ان الطبيعة لا معنى لها ولا سر اذا افتقرت الى الخمر ، فالخمر تدعو الى الطبيعة ، والطبيعة الغنّاء ليست الا اطارا تعقد في احضانه مجالس الشرب والطرب . وليس غناء الاطيار ، ولا صياح الديك[٣] عنده ، في تلك اللحظات الرائعة ، لحظات تنفس الصبح ، وانسلاخ النهار من الليل ، الا دعوة الى الاصطباح ، كما أنه لا يلفت انتباهه ، ويجذب نظره من مظاهر الطبيعة الا ما كان منها ذا علاقة بالخمر ، فقد وصف الربيع ، وفتن به ، ووصف من الطبيعة النابتة الكروم[٤] والنخيل[٥] ، كما وصف العسل[٦] ، لا لشيء الا لأنها مصدر الخمر ومادتها

---

١)- ديوانه ١ : ٢٩٢ - ٢٩٣ — شعر الطبيعة : ١٦٦
٢)- ديوانه : ٥٧ - ٥٨ ، شعر الطبيعة : ١٦٧
٣)- ديوانه : ١ .
٤)- نفسه : ١٠٢
٥)- نفسه : ٢٠٩ - ٢١٠ .
٦)- نفسه : ٢٤

الخمام ، كما افتتن في وصف الديك لأنه يوقظه مبكرا ، ويذكره صياحه بالاصطباح ،
لقد قضى ابو نواس حياته بين اصطباح واغتباق يصف الطبيعة وصفا حسيا ، لا ينفذ
الى اعماقها ، وأنى لمن خدر حسه ، وغاب عقله ، وغفل عن حقيقة حياته
ووجوده أن يعي ذلك ويقوى عليه .

وفتن ابو تمام بطبيعة بيئته ، فرسم لها مشاهد جميلة ، مليئة بالحركة
والحياة ، مفيدا من ثقافته القرآنية والفلسفية والادبية ، في تعميق نظرته
الى الطبيعة واسباغ روح من الالفة والمحبة على مظاهرها الحية والصامتة ،
فجاءت اوصافه مزدحمة بالصور ، كثيرة المعاني ، تعمى احيانا حتى تصعب على
الفهم ، وهو ماعابه عليه نقاد عصره ، كما عابوا عليه إثقاله أشعاره بالزينة
اللفظية ، وتهجموا عليه من قبل ذلك ، كما لم يرقهم احتفاؤه بالطبيعة الى حد
جعله يستبدل بوصف الرحلة والراحلة في سيره الى الممدوح ، وصف الربيع
والسحاب والمطر ، والسماء والأرض ، وقد ازينت بالزهر وكسيت بالشجر .

لقد ربط بين الموروث الشعري القديم ، وبين معطيات بيئته الحضارية ،
وزاوج بين الماضي والحاضر ، والفكر والفن ، وقدم الى ديوان الشعر العربي نتاجا
فنيا رائعا ، كان يمكن أن يسهم في تطوير النظرية الشعرية العربية ، لو أنه
شجع وعمق ، ولم تقف النظرية النقدية في وجهه تشهله وتعرقله .

وقد احتفى بالربيع ، ورسم للطبيعة في جوه البديع صورا مملوءة حياة وحركة
ففي رائيته ، وهمزيته ، وداليته ، وميميته وبائيته وارجوزته ، وفي غيرها ، وصف
الغيث والغيم والمطر ، كما وصف الأرض ، وكيف انها تهفو الى المطر ، وتنتظره ،
وتتشوفه تشوف المريض للطبيب ، وتطرب له طرب المحب للحبيب ، حتى أن عيون
نوارها تبكي من الفرح بعد سقوطه . ويصور السحاب في صورة العدو اللدود
للمحل ، يقف له بالمرصاد ويخلص الأرض منه ، ولذلك فان الارض تستبشر به ،
وتهتز له ، وتعبر عن فرحتها بأن تكتسي بالشجر وتتحلى بأنواع الزهر ، ويفوح عطرها ،

وتمني اظهارها ، انه لمنظر بديع ، يدل على صنعة الخالق ، وقدرته وحسن تدبيره .(1)

وأما ابن الرومي فقد جمع في طريقته بين معاني القدماء والمحدثين ، وأعاد صورهم ولكن في ثوب جديد ، وعرض جذاب ، تخاله من صنيع الشاعر وابداعه فقد وصف الروض والأزهار ، والسحاب ، والبحر والطير وصفا يظهر فيه أثر القديم كما يظهر اثر ابي تمام فيه واضحا أيضا ، ولكن غلبة الصنعة ، والعناية بالجمال اللفظي ، غطى ما كان ينتظر من ابن الرومي الشاعر الحساس من نتاج في شعر الطبيعة ، ذلك الشعر الذي لا يقف عند الظواهر المحسوسة للموصوفات ، وانما يتعداه الى الاحساس بها ، والتفاعل معها ، وهو شيء لا نظفر به في شعره الا نادرا .

صحيح انه لم يجعل الطبيعة مسرحا لمجالس الشرب ، ولم يسخر الطبيعة لها على نحو ما فعل ابونواس ، ولكن فنه الذى برز فيه ، فن الهجاء ، غزا شعر الطبيعة عنده ، فقد اقام المفاضلة بين الازاهر ، يفضل بعضها ، ويهجو البعض الآخر ،(2) في شعر تقريري ، شكلي لا روح فيه ، وهو بهذه السنة جنى جناية كبرى على شعر الطبيعة ، امتدت آثارها الى شعراء القرن الرابع في الاندلس ، وشغلتهم عن التملي العميق لطبيعتهم الساحرة فترة من الزمن طويلة . ولكن هذا لا يعني انه ليس له في هذا الباب الى النظم ، بل شارك هو أيضا في هذا البناء ، واسهم بدوره فيه ، وان كانت اسهاماته جزئية لا تعد اذا ما قيست بالكم الهائل من القصائد

---

1) - ديوانه : ١ : ٤٦ ، ٢٩٦ ، ٤ : ٥٠١ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٢٦ ، ٥٠٧ ، العصر العباسي الاول : ٢٨١ - ٢٨٢ - شعر الطبيعة : ١٧٣ - ١٧٨ .

2) - ديوانه : ٢ : ٦٤٣ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ — ٤ : ١٤٥٢

والمقطوعات الوصفية في ديوانه الكبير . ففي ارجوزته[1] نجد طرافة في المعنى وبراعة في التصوير على الرغم من احتفاله فيها بصنوف البديع ، وانواع الحلى اللفظية ، كما نحس بالفتنة والحب في بعض أوصافه للروض[2] ، فنشعر بالغبطة معه ، ونشارك اعجابه بهذه المناظر الخلابة ، يدفعنا الى ذلك بقوة تصويره ، ومقدرته على بث الحياة والحركة في موصوفاته[3] وهذه من محاسن ابن الرومي ، ولكنها لم تطرد في شعره ، ولم تشتهر بحيث يبنى عليها حكم عام يقضي له بالاسبقية في هذا الميدان كما ذهب الى ذلك احد الباحثين حيث قال :

« لقد تجاوز ابن الرومي - شعراء العربية فنفذ الى ماوراء الظواهر في الطبيعة بشيء اسمه الحنين الصوفي الى الالتقاء بالموجودات »[4] .

لقد نعم شعره بجمال اللفظ ، ورقة الموسيقا التي ساعد على توفيرها وتنظيمها رهافة احساسه ، ودقة شعوره وقدرته على استخدام المحسنات اللفظية استخداما موفقا ، ولكن اذا وازنا بين فنون الشعر عنده وجدنا فن الهجاء يغطي فن وصف الطبيعة ، واذا سبرنا عالم المعاني وجدنا أكثرها مطروقا ، حفل بها ديوان الشعر العربي في عصره وقبل عصره[5] ، قد عرضها بطريقته الفنية الخاصة .

وبدت الطبيعة اكثر جمالا في شعر البحتري ، شاعر السليقة والطبع الفياض في هذا العصر ، فقد صدر في شعره عن حب للطبيعة ، وفتنة عارمة بمظاهرها ومشاهدها ، تدل على هذا أوصافه للرياض ، والغيث والسحاب[6] ، حيث

---

١)- ديوانه : ٣ : ١١٧٦
٢)- نفسه ٢ : ٦٨٣-٦٨٤ ، ٣ : ١١٤٠-١١٤١
٣)- العصر العباسي الثاني : ٢٣٤
٤)- ابن الرومي في الصورة والوجود : ١٥٧
٥)- شعر الطبيعة : ١٧٨-١٨٢
٦)- ديوانه : ١ + ٥٦٧ ، ٩٢٢ — ٢ : ٩٥٠ ، ١١١٦ — ٤ : ٢٤٤٤ ،

التصوير البارع والحي لهذه المظاهر المختلفة ، فكل شيء في اوصافه يتحرك ، ويهتز ، ويتكامل ويتفاعل ، على نحو يكسب صوره جمالا وروعة ، وهي خاصية تميز بها وصفه ، فقد اعتمد التشخيص لمظاهر الطبيعة اسلوبا في بث الحياة ، وبعث الحركة في موصوفاته .

لقد استحوذت الطبيعة على الشاعر ، وملكت مظاهرها عليه حسه ولبه ، فهو لا يفتأ يذكر طبيعة الشام ، ويصفها وصفا جمله الحب والحنين ، كما يصف طبيعة العراق ويرسمها في لوحات تفيض حركة وحياة وجمالا . وهو وان لم يبدع في هذا المجال الا قليلا ، فقد استطاع أن يتمثل الشعر القديم ، وشعر معاصريه ، وان يخضع ذلك كله لحسه وطبعه وشخصيته ، ويسوغه بأسلوبه وعلى طريقته [١] . فقد تأثر البحتري أبا تمام في همزيته [٢] ، ودا ليته [٣] ، في تصوير الغيث وكيف أن الأزهار تستبشر به وتتزين له . ويسلك طريق ابي نواس في الدعوة الى الشراب والطرب في جو الطبيعة البديع كما ينهج سبيل الاقدمين وخاصة في قصيدته التي وصف فيها الذئب [٤] . وعلى العموم ففتنة الشاعر بالطبيعة كبيرة ، وحبه لها عظيم ، وهيامه بها شديد ، ووصفه للربيع اكبر دليل على ذلك [٥] . وكما افتتن البحتري في وصف الطبيعة الطبيعية افتتن في وصف الطبيعة المصنوعة كذلك ، وسينيته في وصف "الايوان" [٦] مثال رائع على هذا

---

١) - شعر الطبيعة : ١٨٣-١٨٤

٢) - ديوانه : ١ : ٥

٣) - نفسه : ١ : ٥٦٧

٤) - نفسه : ٢ : ٧٤٢

٥) - نفسه : ٤ : ٢٠٨٧

٦) - نفسه : ٢ : ١١٥٢

تنبيه

لقد حدث سهوا خطأ في ترقيم صفحات هذا البحث وذلك بدءا من الصفحة (٢٣٤) التي كانت في الاصل تحمل رقم (٢٣٣) فارجو من القارئ الكريم ان ينقص رقم واحد (١) من رقم الصفحة المذكورة (٢٣٤) وما تلاها من الصفحات بما في ذلك الفهارس حتى يحصل الترقيم الصحيح

وشكرا

النفوس والنجاح في هز الثوابت ، وتحريك السعادات ، وبعث الحياة في عناصر الصور المرسومة مستعينا بأسلوب الاستعمار والتشخيص ، حتى لكأن القصر لم يخل من اهله ، ولم يبرحه قطانه ولم يتقادم به العمر ، ويحتوره البلى والخراب .
وهو تصوير رائع ، بلغ فيه الشاعر الذروة في الفن ، وخلد في ديوان الشعر العربي صورا فنية ممتازة عكس من خلالها مشاعره وأحاسيسه ، وآلامه وأحزانه ، على نحو يندر وجود مثله في هذا الديوان ، وعلى كل حال " فقد امتثل البحتري الصور القديمة ، وأداها في اسلوب شعري بديع ، وأضفى عليها من روحه الرقيقة ، وبدت في شعره عناصر الحب والروعة والجمال "[1].

وتفتن الطبيعة ابن المعتز ، فيهيم بظواهرها الحية والصامتة ، ويصورها تصويرا حسيا في مجمله . يعنى فيه بالتشبيهات ويهتم بالصورة والشكل ، مما جعل شعره معرضا للصور البصرية الملونة ، ففي السماء وصف النجوم والهلال والقمر والشمس كما وصف الليل والنهار ، وفي الارض وصف الروض والنّور والزهر ، وصف السحاب والمطر ، كما وصف من الطبيعة الحية الفهد والفرس والناقة وحمار الوحش ، جامعا في ذلك بين طريقة القدماء وأساليب المحدثين . ولكنه قد رطبع ذلك بأسلوبه الخاص ، فقد تطرق الى الطبيعة من حوله من خلال حياته الملوكية ، وأجوائه المترفة ، فأكثر من التشبيه بالذهب والفضة ، والزئبق والجواهر ، والعطور ، واستخدمها في اوصافه للهلال والزهر والثمر[2] ، فجاءت صوره بصرية حسية ، عامرة بالألوان والضياء ، ولكنها خالية من المعنى العميق الذي يفلسف المرئي ، ويتفاعل معه ، وهو على العكس من ابي نواس يؤثر الاغتباق ويفضل الشراب في هدأة الليل وضوء النجوم والقمر ، ولكن الصبح يستهويه أيضا ، فيحيي الليل ، ويمد مجلس الشرب والطرب الى الصباح ليجمع بين جمال الصبح وروعة الغروب[3].

---

(1)- شعر الطبيعة : ١٨٦
(2) - ديوانه : ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٧٧ .
(3)- نفسه : ٤٤ ، ١٣٦ ، ١٧٦ ، ٢٧٦ .

وأنّى لمخدر الحس أن يطلع على أسرار الكون ، ويستلهم معانيه العميقة ويفلسف الحياة ، فقد عني ابن المعتز بتجميل الطبيعة وتزويق ظاهرها بالحلي والحلل ، ولم يحاول أبدا أن يخترق ذلك الظاهر ويتجاوزه الى الأعماق ليطلع بعين بصيرته على ما تنطوي عليه الطبيعة من تناسق وجمال ، ولذلك بقي أسير الحس المادي ، وعبد الظاهر يلتقط بحاسة بصره الصورة تلو الصورة ، ثم يذيب عليها من ماء الفضة والذهب ، وانواع الحلي ما يجعلها في نظره أكثر جمالا وأشد اثارة . لقد استهوته الطبيعة جميعها ، وأثارت احساسه ، واستلفتت نظره بعناصرها كلها فوزع عليها اهتمامه ، وشملها بنظرته المستشعرة للجمال المحبة له ، في السماء والارض ، في الشجر والزهر ، في الحيوان والانسان . ولكنه لم يتعد المتعة الحسية في استجابته لهذا الجمال ، ولو تعداه الى الاسرار والاعماق لكان خدم شعر الطبيعة في عصره خدمة جليلة ، لما كان لديه من مؤهلات واستعدادات [1] .

هذه وقفات سريعة عند أبرز شعراء هذا الدور في تاريخ أدبنا العربي ، أبرزنا من خلالها دور هؤلاء الشعراء في بناء شعر الطبيعة ، وقد رأينا كيف أنهم زاوجوا بين القديم والجديد ، وأنهم مالوا الى الجديد ونصروه تدريجيا ، بالثورة على القديم ، والاحتكام الى ذوق العصر ، والثقافة الجديدة ، والانطلاق من واقعهم المختلف عن واقع البادية شكلا ومضمونا ، ومع ذلك فقد لازمهم القديم ، بحكم ثقافتهم العربية ، ولكن طبيعة الحياة كانت تقضي بغلبة الجديد ، وتحتم التعبير عن الواقع ، والاستعداد من المستوى الحضاري الذي بلغته الدولة الاسلامية في ذلك العصر الذي يمثل برصيده الشعري مرحلة الانتقال من التقليد الى النهوض في شعر الطبيعة ، والذي يمثله شعراء القرن الرابع والخامس في الشام

---

١)- شعر الطبيعة : ١٨٦ وما بعدها — العصر العباسي الثاني : ٣٢٣ .

والاندلس وغيرهما من البيئات والحواضر الاسلامية المتعددة.[1]

• ٢ •

في الشـــام :

أسس الحمدانيون دولتهم في حلب الشام ، ومكنوا لها في الارض ، وبلغوا بها مبلغا عظيما من القوة والعزة والمنعة دفع عنها أطماع النصارى المتربصين بها ، وجعلها تتوفر على الأمن والطمأنينـــة فترة حكم زعيمها سيف الدولة الحمداني ، فقد كان أميرا شهما ، شجاعا ذا حزم وعزم ، كما كان كريما يحيط نفسه بكوكبة من ألمع وأشهر علماء وأدباء وشعراء القـــرن الرابع الهـــجري ، فكان يحيط به من الشعراء المتنبي وأبو العلاء المعري ، وأبو بكر الصنـــوبري ، وأبو الفتح كشـــاجم ، والســـري الرفاء ، والـــوأواء الدمشقي ، وأبو الفرج الببغاء ، والناشي والزاهـــي وغيرهم ، كما كان هو أيضا أديبا شاعرا ، وكان أبو فراس الحمداني فارسا شاعرا وعلى العموم فقد شهدت دولته نشاطا ادبيا وفكريا عظيما ، كما وجد وصف الطبيعة في مدتـــه جوًّا ملائمـــا للنماء والازدهار ؛ فقد استهوت طبيعة الشام الجميـــع، وخلبت ألبابهم وفتنتهم بجمالها وسحرها ، فاندفعوا يصورونها ، ويرسمـون مشاهدها الرائعة ، يحدوهم في ذلك حـــب عميق وانجذاب شـــديد الى جمالها وسحرها الآســـر ، وان تفاوتوا في مستوى ونوعية ذلك الحب وهذا الانجذاب . فالمتنبـــي لم يحفل بالطبيعة في ذاتها ولذاتها الا نادرا ، فاكثر وصفه لها تقليدي ليس فيه ابداع ، فقد وصف الناقة والليل والرحلة و الفرس والمهمه والشمس والقمر على طريقة

---

١)- شعر الطبيعة : ١٩٥-١٩٦ .

٢)- نفســه : ١٩٧

القدماء ، وفاضل بين مظاهر الطبيعة وصفات ممدوحه وفضله عليها[١] . وهو اذا قصدها بالوصف لذاتها اسبغ عليها جوّا حربيا ، فيخيل اليك وأنت تقرأ وصفه ، أنك تشهد معركة حصي وطين لا مشهدا طبيعيا جذابا كما في وصفه لبحيرة طبرية[٢] . ولكن وصفه لشعب بوان[٣] يتسم بالطرافة ، ويدل على احساس الشاعر بما حوله من جمال الطبيعة وروعها ، وهي ظاهرة ايجابية في هذا الباب ، ولكنها لم تطرد في شعره[٤] .

ويشارك ابو فراس في شعر الطبيعة مشاركة شكلية ، يقتفي فيها أثر ابن المعتز في أوصافه الحسية[٥] ، واما المعرى فيسلك درب أبي الطيب في تقليد القدماء وان كان اكثر من ذكر الكواكب والنجوم ، والاسهاب في وصفها وتشبيه الممدوح بها ، كما يطوعها لتأملاته وأفكاره وأهدافه اللغوية[٦] .

ويحتفي الوأواء الدمشقي بالطبيعة احتفاء كبيرا ، فهي تغزو مدحه وغزله ، وما جاء فيها بالقصد لا يعدو المقطوعات التي اهتم فيها بوصف الازاهير ورسم المشاهد الاجمالية والسريعة . ويتضح من خلال أوصافه نوع من الحب العارم لمظاهر الطبيعة وخاصة ما كان منها مرتبطا بالخمر ومجالس الشرب التي يرى أن من لم يقسم لاحيائها وقت انبلاج الصبح ، وغناء الاطيار يكون قد ارتكب محرما . وعلى الرغم

---

١)- ديوانه : ١٢٤ .

٢)- نفسه : ٨٧ - ٨٨ .

٣)- شرح ديوان المتنبي . ٢ : ٤٨١ — ابو الطيب المتنبي :٤٢٧

٤)- شعر الطبيعة : ١٦٧ - ١٦٩

٥)- نفسه : ١٦٩

٦)- نفسه : ٢٠٠

٧)- الديوان : ١٢٤ .

من الظاهرة الحسية التي تطغى على اغلب شعره في هذا المضمار ، فانه استطاع أن يزين طبيعته ، وأن يبعث فيها جوانبها الحركة والحياة ، وان استسلم في ذلك للموروث الشعري وخاصة شعر ابي نواس في تسخير الطبيعة للخمر ، والدعوة للاصطباح ، وابن المعتز في وصفه الحسي ، وعنايته بالتشبيهات وانواع الزينة اللفظية . ولكون الروض أجمل اطار لمجالس الشرب ، فانه احتفى به ، وفتن به ورسم له في ديوانه صورا ومشاهد عديدة [1].

وأما ابو الفرج عبد الواحد الببغاء فقد استهوته الطبيعة هو الآخر برياضها وسحبها وقارها ، فوصفها وصفا ينم عن اعجاب ، وهو يكون أشد ما يكون اعجابا بها اذا اقترنت بالخمر ومجالسها ، فهو يهتف بها في اجوائها ، حيث النور والزهر ، والظل البارد ، والماء السائح ، وغناء الطير ، فالطبيعة الصامتة تفتنه بلا ريب ، ولكنها فتنة سطحية ، حسية ، تولع بالألوان والنماء والقشور لا بالخفايا والاسرار ، والطبيعة الحية تفتنه كذلك ، فمصورها تصويرا ينم جمال وألفة ، يتتبع حركات الحيوان وأحواله ، ويخلع عليه من حميد الصفات ما يلائمه ، ويدل عليه ، فعني بوصف الببغاء عناية فائقة ، كما وصف السنجاب والثعلب والفرس والبغلة والهرة والعقاب ، ووزع عليها اهتمامه وأسبغ عليها من الشيات والصفات والالوان ما جعلها تبدو في أحسن مظهر وأبهى صورة [2].

وتحلو الطبيعة في نظر أبي العباس أحمد بن محمد النامي ، وتأخذ مكانها في قلبه واحساسه ، فهو يسقطها آلامه ، وأحزانه ، ويفيض عليها في مشاعره وعواطفه ويغمرها بمسحة من التأمل تطفو على شعره ، ولولا غلبة المدح عليه ، لكان يمكن أن يقدم رصيدا ذا أهمية في هذا الشأن [3].

وأما الزاهي علي بن اسحق فقد عني في الطبيعة برسم الشكل كما عني في تجميل اللفظ ، والتأنق في الاسلوب ، حتى تضخم ذلك لديه وطغى على المعنى [4].

---

١)- نفسه : ٦٧ ، ٧١-٧٢ ، ١٩٥ ، ٢١٤-٢١٥ — شعر الطبيعة : ٢٠٣
٢)- يتيمة الدهر ١ : ٢٥٣ ، ٢٦٣- ٢٧٠ — شعر الطبيعة ١ : ٢٠١-٢٠٣
٣)- نفسه ١ : ٢٢٨ ، ٢٣١ — شعر الطبيعة : ٢٠١
٤)- نفسه ١ : ٢٢٤-٢٢٥ — نفسه : ٢٠١

وأما الشاعر الذي استأثرت الطبيعة بأكبر اهتمامه ، فهو أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبري ، الشاعر المغرم بالطبيعة ومشاهدها ، المفتون بسحرها وجمالها ، المصور البارع لمظاهرها المختلفة ، فهو صاحب المدرسة في وصف الطبيعة في القرن الرابع والتي تركت آثارهـا في العديد من الشعراء في عصره وبعده ، وجعلت مؤرخي الادب قديما وحديثا يشهدون له بالبراعة والتبريز في هذا الفن : فقد أحب الصنوبري وطنه وطبيعة بلده خاصة الى درجة أنه كان يفضل الخلوة في أحضانها بنفسه على الاجتماع بالناس ، يعني بحديقته ، يتعهدها بالسقي والزرع ، ويمضي في ذلك أكثر وقته ، وهي خلوة لابد الا أن تورث نوعا من العلاقة المتينة بالطبيعة ، والاحساس الصادق بها ، وهو ما حدث فعلا ، فقد كان حب الصنوبري للطبيعة قويا صادقا ، ولا أدل على ذلك من هذه الخلوة المحببة في أحضانها ، ومن تهجمه العنيف على أولئك الذين يسعون فيها تخريبا وفسادا ، فهم لئام في نظره ، ولو كان يملك القدرة عليهم لما تركهم يطأون بساطها.[1] هذا الحب للطبيعة ، وهذه الفتنة بها أهلته لأن يكون شاعرا ناجحا في شعر الطبيعة ، فقد استلهم الموروث الشعري ، كما استلهم طبيعة بلاده الغناء في صوغ طريقة شعرية عرف بها في عصره ، ولعل حظه الوافر من وصف الطبيعة هو الذي جعل آدم متز يعده أول شاعر للطبيعة في الادب العربي.[2] وهو حكم على الرغم مما فيه من جزم ومبالغة ، يدل على أن مساهمة الرجل في هذا الباب كانت خطيرة .

لقد فتن بالربيع كغيره من الشعراء ، ورأى فيه محركا وباعثا للحياة في الطبيعة وكاشفا لاسرارها ومظاهر الجمال فيها ، فتغنى بالطبيعة في جوه الرائع ، ودعا الى شرب الراح ، ومقارعة الكؤوس على بساط الطبيعة الملون ، وجو الحديقة البديع ،

---

١)- ديوانه : ٣٥٨ ، ٤٣٠ ، ٤٥٤ ، ٤٩٨ .

٢)- الحضارة الاسلامية ١ : ٤٨٥ - شعر الطبيعة : ٢٨٥

ـــ العصر العباسي الثاني : ٣٦٣

فكل شيء فيها يذكره بالخمرة ، ويبعث في أعماقه الحنين اليها ، والخمر عنده تمتزج بالطبيعة ، ويتحد بريقها بألوانها الزاهية ، البراقة [1]. واحتفى بالورود والازهار كذلك ، وأقام بينها المناظرات ، وكان هو الحكم فيها ، ولكن ذوقه يغلبه ، فيفضل الورد على النرجس ضمنا على المكسر من ابن الرومي الذي فضل النرجس وهجا الورد بمنسف [2].

وكما حظيت الازهار والأشجار باهتمام الشاعر ، جذبت المائيات نظره ، وشدت اليها بصره أيضا ، فأكثر من وصفها ، وكان لنهر "قويق" حظه الوافر من تلك الاوصاف ، فقد أحب الشاعر هذا النهر كما أحب الطبيعة من حوله ، وخلده في شعره بجميع أطواره وحالاته ، في امتلائه ونضوبه ، في هدوئه وهياجه ، وأوصافه فيه تفيض حبا وهياما ، فهو يدافع عنه ويقلب ما ينسب اليه من عيوب محاسن ، وحتى ان هجاه ، فان هجاءه فيه ينضح بالاعجاب والحب [3] . وتستهويه الطبيعة وقد غطاها الثلج ، وعمها الضياء ، فيهتف بالخمرة في هذا الجو الفضي المتلألىء [4]. وهو لا يكتفي في وصفه بالطبيعة الصامتة ، بل يتعداها الى الطبيعة الحية ، فقد أعجب بالطير وطرب لغنائها وتغريدها ، واستغنى بها عن سماع نغمات الاوتار ، فوصف الورشان وصور الديك على طريقة ابي نواس كما وصف المهر وغيره وصفا فيه احساس واعجاب . وكثيرا ما تجتمع هذه الجزئيات لديه لتكون كلها الروض ، فروض الصنوبري حافل بالحركة ، عامر بالحياة ، روض اهتزت أشجاره ، وتفتحت ازهاره ، وغنت أطياره ، ورق نسيمه ، وفاح شذاه وعطره ، تجد فيه الحواس

---

١)- الديوان : ٣٦٩ ، ٤٥٤ .
٢)- نفسه : ٤٩٨ ، شعر الطبيعة : ٢٠٠ ، ٢١١ ـ العصر العباسي الثاني: ٣٦١
٣)- نفسه : ٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٥١ .
٤)- نفسه : ٢٣٠ ، ٢٥٠ ، ٢٦١ ، ٤١٩ ، ٤٦٦ .
٥)- نفسه : ٣٧ ، ٦٧ ، ٤٧٣ ، ٤٩٨ .
٦)-

متعتها ، وتحس النفس في أجوائه بالراحة والطمأنينة ، ولكن روض الصنوبري يبقى ناقص الرونق والجمال اذا لم تقم في أحضانه مجالس الانس والطرب[(1)] . واذا ، فقد استطاع الصنوبري بدقة شعوره ورهافة احساسه وقوة شاعريته أن يجعل لطبيعة بلده ، حيها وصامتها ، وان يصورهما تصويرا فيه حياة وروعة وجمال ، ولو أنه جاوز المتعة الحسية ، واللذة الآنية - وهي ظاهرة تستولي على معظم شعره - الى التأمل العميق في أسرار الكون والحياة ، لكان - ربما - أعطى لهذه الموضوع الخطير في ديوان شعرنا العربي القديم وجها آخر[(2)] .

واما ابو الفتح محمود بن الحسين كشاجم فقد استهوته الطبيعة هو ايضا ففسح لها في شعره مجالا واسعا ، فوصف الرياض وصفا فيه حركة ونشاط ، كما وصف الزهر على طريقة ابن المعتز ، وافتن في وصف السحابة والغيث والمطر[(3)] ، وتغنى بالطبيعة وقد كساها الثلج بالبياض[(4)] . كما وصف نهر قويق[(5)] . في معرض ذكر الحبيب ، والتغزل به ، ولذلك جاء وصفه خلوا من العاطفة على عكس مانجده عند الصنوبري الذي أحب هذا النهر ووصفه وصفا بديعا في شعره . كما وصف الفاكهة والثمار وصفا حسيا في عمومه منطلقا من واقع عمله كطباخ ، ووصف النار وقرن بينها وبين الروض في اللون والبريق[(6)] . ووصف من الطبيعة الحية الفرس على طريقة القدماء ، كما وصف البازي والصقر والنمر والذئب ، ووصفه لهذا الجانب من الطبيعة ينضح اعجابا وحبا ، ومرثيتاه في القمري والطاووس خير دليل على ذلك[(7)] .

---

(1)- الديوان : ٥٠-٥١، ٥٥، ٥٩، ٧٥، ٧٧، ١٥٥، ٢٤٩، ٢٦٠، ٣٨٥، ٤٣٠، ٤٥٤ .

(2)- شعر الطبيعة : ٢٠٤-٢١٣ .

(3)- الديوان : ٢٧، ١٥١، ١٦٢، ١٦٤، ٣٧٢، ٤٠٠، ٤١٦ .

(4)- نفسه : ٢١١، ٣٧٨ .

(5)- نفسه : ١٧٥-١٧٩ .

(6)- نفسه : ٩٥، ١٩٦ .

(7)- نفسه : ٣٣، ٩٧، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٧٧، ٣٤٧، ٣٧٩، ٤٥٢ .

لقد اقتفى كشاجم اثر صديقه الصنوبري كما اقتفى اثر غيره من شعراء العصر العباسي كابي نواس وابن المعتز وابي تمام ، ولكن اثر ابي نواس في شعره واضح جلي ، فقد جعل الطبيعة في خدمة الخمر ، تذكره بها ، وتدفعه الى احياء مجالسها ، فهي عنده خداج مالم تكن مرتبطة بالراح ، ولا يكتمل جمالها الا بها . وهو في وصفه يطرب للطبيعة ويهتز لجمالها ، ولكن بطريقة حسية تقف عند السطح في الغالب . وقلما تجاوزه الى الاعماق حيث الاسرار والمعاني الدفينة التي اذا كشف الشاعر عنها ، وتفاعل معها حكم له بالابداع ، ولشعره بالخلود[1] . فالطبيعة تستهويه بلا شك ، وتأخذ بمجامع قلبه دون ريب ، ولكن نوع الاستجابة لم يكن في مستوى التجربة الشعرية التي مر بها الشاعر ، فبدلا من أن يتوجه اليها في حضور ووعي ، ويقبل عليها بفكره وقلبه لاكتشاف عن أسرارها ، واستقرائها معانيها ، واسباغها المشاعر والاحاسيس على نحو يزيد في عمق التجربة الشعورية نجده يهرب منها وهو في أحضانها ، يهرب منها بوعيه ليعيشها لحظات حسية مزيفة ، تطفو على السطح ، وتفتتح بالقشور ، وهذه النفسية الهروبية تمثل ظاهرة عامة في شعرنا العربي في هذا المجال ، ولم يختص بها هو وحده .

ويسير على نفس النهج الشاعر الموصلي السري بن احمد الرفاء الكندي ، فهو أيضا يتأثر طريقة كشاجم ، ويجعل من الطبيعة في جمالها وروعتها مسرحا للخمر ، ومدعاة لعقد مجالسها ، مؤتما في ذلك بأبي نواس . فقد تغنى بطبيعة الشام والموصل ومصر ، وصور مشاهدها تصويرا بديعا ، ولكنه تصوير حسي في مجمله ، وبرز في وصف المائيات ، ووصف رحلات صيد السمك والطير التي كان يبكر لها على نحو ما فعل القدماء في صيد الآرام والحمر الوحشية ، ولكن هذا التعلق بالماء ، والولع به ليس لذاته وانما لكونه أفضل جو تعقد فيه مجالس اللهو والطرب . وقد أخذ بما في الطبيعة من ألوان وضياء وبريق ، ولم يستفد

---

(١)- الديوان : ١٣ ، ٧٧ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢٤٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٤٤٤ — شعر الطبيعة : ٢١٣-٢١ .

من ثقافة عصره في ميدانه الا قليلا ، مؤثرا السير في الطريق الممهدة ، وقانعا بظاهر الطبيعة ، ولم يأبه بغير ذلك ، فانساق في هذا التيار الحسي الذي أخذ بخناق الشعر العربي في معظم أطواره ، ولم يدع له مجالا للتنفس خارج أجواء هذا التيار ، وطبعه بطابع التسطح ، الذي يغري الحواس أكثر مما يغري العقل أو يدفعه الى التأمل والبصر بالحياة والكون على نحو عميق يضيف الى التجربة الانسانية شيئا جديدا .[1] وعلى كل حال فقد استطاع شعراء الشام بما لهم من شاعرية ، ورهافة أحاسيس ، ودقة مشاعر ، أن يحسوا ببيئتهم احساسا متفاوتا ، وان كانت الحسية عليهم اغلب ، وعلى مشاعرهم اكثر استيلاء ، فقد اغرتهم طبيعة بلادهم ، فأقبلوا عليها بقلوبهم وأحاسيسهم ، وسخروا فنهم للتعبير عنها ، فصوروها تصويرا زادها جمالا وروعة ، ولو أنهم نحوا بهذا الجهد العظيم الى الكوامن والأسرار لكانوا أسهموا ، وبفعالية ، في تطوير شعر الطبيعة في أدبنا العربي ، ودفعوا بعجلته قدما عمقا وشمولا . وعلى الرغم من هذا ، فأن أثرهم وأثر الشعراء من قبلهم بدا ملحوظا في شعراء عصرهم وما بعده لمدة طويلة .[2]

---

١)- ديوانه : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٤٤ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢١١-٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ .
ـــ يتيمة الدهر ٢ : ١١٧ وما بعدها . شعر الطبيعة ٢٢٠-٢٢٦ .

٢)- شعر الطبيعة : ٢٢٧- ٢٢٨ .

" ٣ "

* في العراق والاقاليم الشرقية :

واما الشعراء الذين عاشوا في الجانب الشرقي من البلاد الاسلامية ، فقد أدلوا بدلوهم هم أيضا ، وشاركوا في شعر الطبيعة بنصيب معظم ما فيه نسج على طريقة القدماء والمحدثين مع ميل في بعضه الى الثقافة العقلية التي كانت نشطة في تلك البقاع ، فاصطبغت أشعارهم ، بصورة جزئية ، بروح من التأمل لا تخفى ، ولكن السطحية الحسية التي تسلطت على الشعر العربي الوصفي اربت على هذه المحاولة التأملية في شعر الطبيعة .

عرفت طبيعة البلاد الشرقية بجمالها وروعتها ، ولكن هذه الروعة وذلك الجمال لم تحركا في شعرائها غير الاحاسيس المادية ، ولم تلهمهم طبيعتهم الفناء الا بمعان سطحية يخلو كثير منها من العاطفة الصادقة ، فقد نظروا الى الخمر من خلالها وجعلوا مشاهدها الرائعة معبرا لوصف الخمرة وتصوير مجالسها ، وكأن الطبيعة لا جمال لها ، ولا قيمة الا والخمر حاضرة إ، وهو تصور للطبيعة قد سبقوا اليه ، وقد سبقت الاشارة اليه .

كما اسقطوا على الطبيعة معاني العشق وأغراضه ، ومزجوا بين ألوان الازاهير وما يعتري العشاق من احمرار واصفرار ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل تعدوه الى حد الالغاز في اوصافهم للطبيعة الصامتة والحية ، وقد بلغ هذا اللون المتلي من الوصف اوجه على يد مهيار الديلمي (1) الذي سلك هذا الطريق في جل شعره الطبيعي وهو منحى جمد بشعر الطبيعة ، وحال بينه والتطور الذي كان ينبغي أن يواكب به مستوى الرقي والتقدم الذي بلغته الحضارة الاسلامية في ذلك الحين .

ومع هذا فقد وجدت الطبيعة بجميع مظاهرها وعناصرها في شعرهم مجالا ملحوظا ، فارتسمت برياضها واشجارها وازهارها ، وثمارها ومياهها وثلوجها وسمائها ونجومها

---

1)- ديوانه : ١ : ٨ ، ١٥٢ ، ٣٤٤ — ٢ : ٧٥ ، ٢٨٧ — ٣ : ١١٧

وليلها ونـــهارها ، وليرها وحيوانها ارتساما فنيا يسمو حينا ويهبط احيانا ، ويدمن حينا ويتسامح في أحايين أخرى . وقد سلكوا في تصويرهم لها أساليب القدماء والمحدثين ، ولعلها صدروا في ذلك عن بيئتهم الحضارية في روعتها وسحرها وعمقها النثري ، فقد كانت البادية تنسيهم حاضرتهم ، وربالها وجمالها وقيظها بساتينهم وانهارهم ، يتجلى هذا المنحى بوضوح في شعر الشريف الرضي ومهيار الديلمي وصرّدرّ وغيرهم من شعراء الاقليم الشرقي ، وهذا الولع بالقديم والتعلق الشديد ببادية العرب وصحرائهم قد يكون مرده الى العاطفة الدينية والتشيع لآل البيت ، كما قد يكون للحياة السياسية والاجتماعية في بيئتهم أثرها في ذلك أيضا ، فقد كان الشاعر يخاطب بشعره الخاصة لا العامة ، وكانت العربية تمر بفترة حرجة في بيئة أخذت تشهد تحولا اجتماعيا وفكريا وسياسيا في غمرة الصراع الشعوبي بين أنصار كل من العربية والفارسية والذي كان لصالح الفارسية في آخر المطاف ، ولذلك لا نعجب اذا ألفينا ظاهرة التقليد بارزة في نتاج هؤلاء الشعراء الذين انتجوا ما انتجوا من شعر في فترة صراع دفاعي لا فترة استقلال ابداعي[1] . ولعل اكثارهم من ذكر الاماكن الحجازية والنجدية والشامية ، ولهجهم بها ، وبثهم اياها الالام والاشجان يرجع الى تلك الاسباب مجتمعة[2] .

وتفتن طبيعة العراق الخالديين ابا بكر محمد بن هشام (-٣٨٠ هـ) وابا عثمان سعيد بن هشام (-٣٧١هـ) ، فيصوران مشاهدها في شعرهما ، ويبرزان محاسنها ، وهي فتنة تبدو واضحة في اشعارهما الخمرية والغزلية ، فتجدهما يصفان الصباح وانسلاخه من الليل ، وسواد السحاب ولمعان البروق لا لذاتها ، ولكن لكونها الاطار الملائم لتعاطي الراح ، وعقد مجالس الانس مع الندماء والاصحاب ، وأكثرا لذلك من ذكر الاديرة ، وصورا طبيعتها ، وأشادا بمجالس اللهو في ربوعها ، حيث

---

(١)- شعر الطبيعة : ٢٣٠ - ٢٤٥ .

(٢)- ديوان مهيار: ٣ : ٢٤ ، ١٢٤ ، ١٦١ - ٤ : ١١٨ — ديوان الشريف الرضي : ١ : ٢٢٤ ، ٢ : ٢٧٦ ، ٤٤٨ ، ٤٧٥ ، ٥٠٤ ، ٥٥٦

الرياض الموشاة ، والغصون المهادة المزهــرة ، وشـد والاطيار وغناء الحمائم يذكر بالاحباب ، ويلهب لواعج الاشـــواق في الاعماق ؛ ورقة النسائم وزقزقــة المياه ، فيغدو الكل وقد توجوا بأكاليل الـبهار ، ودارت عليهم الكؤوس كأنهـــم انو شروان في مجلســـه ، بل وفضل الصهم ، وهم في تلك الحال كأنهم في سماء ذات أبراج[1].

وابو اسحق الصابي يفتـــن بالطبيعة أيضا ، ويجد في عناصرها ومعطياتها عونا له وسندا للافصاح عن مشاعره ، وتصوير محاسن محبوبه ، فيكثر من ذكـــر الغصن ، والورد ، والقمر ، والبـــرد في موضوع الغزل ، وينادي بالخمر في جو الطبيعة ونت تولي الليل ، وتنفس الصبح ، وصياح الديك . واما قصـد الطبيعة لذاتها بالوصف فقليل ، وهو وصف - على قلته - مادي ، تختلط فيه أوصاف الطبيعة باوصاف المحبوب ، وكان الشاعر تســـارت في ميزانه الطبيعـة والمحبوب ، فاستدل باحدهما على الآخر ، فالوردة حين تطلع بحسنها وطيبها تتمتع بها النفس وتنتشـي لها ، وتنال منها ما تناله العين من متعة حين تنظر الى الحبيب . والطبيعة لا تجسد أوصاف المحبوب ، عنده ، فحسب ، بل وتمثل في نضرتها ، وروعتها ، نضرة الشباب وحيويته وجماله ، فهو يتسلى بالورد اذا طلع ، ويرى فيه شبابه وحيويته ، فيتمتع ، وهو ينظر اليه ، وان ادرك الشيخوخة . ويصف النرجس والكافور والـ... ختته . ويصف من الطبيعة الحية الجمل والغلال ، وهو في وصفه يعني بالشكل مع ميل الى التأويل ، ولكن الاحساس بالموصوف والتفاعل معه ، وسبر اغواره فلا تكاد تجده في شعره[2] .

---

١)- يتيمة الدهـر ٢ : ١٨٣ وما بعدها .

٢)- نفســـــــه ٢ : ١٦٢ - ٢٦٧ .

وأما القاضي التنوخي فقد عني بوصف الليل والنجوم ، ذكر الليل وطوله ، وظلمة ووحشته ، وشبهه بجليس ثقيل الظل ، كريه المنظر ممل الكلام ، أو كأن نجومه قد غلبها النعاس فنامت . وذكر النجوم في الليل البهيم ، وهي تتلألأ في السماء ، فشبهها بالخيمة الموشاة تـــارة ، وبالسّـــنن تحيط بها البدع تارة أخرى ، والنجوم تحكي في اشراقتها الحجج الفاصلة التي تبكت الخصم وتفحمه ، وهي تشبيهات تظهر فيها ثقافة التـنوخي الفقهية بكل وضوح . كما أوحت اليه ظاهرة انبلاج الصبح في الليل بصورة الأســود المبتسم . وكما كان الليل بظلامه ونجومه مسرحا لتأمل الشاعر ، فقد كان أيضا مسرحا للهوه ولربه فاستطاب الشرب فيه .

وقد زينه غيم وبرق ونجوم ولآل لم تثقب وبدر كالسيف المذهب . ووصف الروض وتساقط الطل عليه ، وتمانق أزهاره وغصونه ، وغمره بأنواع التشبيهات الحسية والمعنوية ، وان كانت معاني العشق وصفاتها عليها أغلب . كما وصف البرد والمطر والنهر أوصافا يختلط فيها الحسي والمعنوي ، وتظهر فيها ثقافته ، وصور من واقعه الاجتماعي بجلاء ووضوح [1] .

وعني ابو الحسن محمد بن عبد الله السلامي (- ٣٩٤هـ) بالطبيعة في شعره ، ولكن ضمن أغراض أخرى كالغزل ووصف الخمرة . وأوصافه فيها حســية تزدحم بالصور الملونة ، ولكنها تخلو من كل محاولة تجاوب وتفاعل عميق مع مظاهرها المختلفة ، بل وحتى قصيدته " الفينية " التي قالها في شعب بوان تحت رغبة عضد الدولة ليس فيها ما يدل على علاقة صادقة بالطبيعة واندماج حي في جو المشاهد المصورة [2] .

---

١)- يتيمة الدهر ٢ : ٣٣٥-٣٤٤ .

٢)- نفســــه ٢ : ٤٠٢ وما بعدها .

" ٤ "

في مصر :

ولم تتخلف مصر عن بقية الحواضر الاسلامية في هذا العصر في الادلاء بدلوها في مجال شعر الطبيعة ، فقد عرفت هي أيضا شعراء أشادوا بذكرها ، وجعلوا طبيعتها في اعجاب شديد . فهذا ابن وكيع التنيسي تفتنه مغاني بلاده فيصورها في شعره تصويرا حسيا في مجمله ، يعنى بالمظاهر ولا ينفذ الى الاعماق . فهو يصف الغدير[1] . كما يصف الشجر والثمر ، ولكن اشد اعجابه بالطبيعة يكون في فصل الربيع ،[2] ولذلك أشاد بذكره في شعره ، ورسم لطبيعة بلاده في ظلاله صورا شتى ، تمتلئ بالحياة ، وتضج بالألوان والانوار ، فمن زهور مفتحة كأنها الدراهم والجواهر ، ومن طير صادح ، وجو بهيج الى رياض[3] تحكي في جمالها وحركتها العرائس المتجملات التبخترات في انواع الحلى والحلي ، وهو في وصفه هذا يعنى بظاهر الموصفات ، ولكنه أحيانا يشيع فيها الحركة ، ويسبغ عليها صفات انسانية ،على نحو ما فعل في وصفه للسحاب والثرى ، ووصفه للازهار ، من ورد ونرجس وسوسن وغيرها . وهو جهد ملحوظ للشاعر في مجال وصف الطبيعة ، وبخاصة وجهها الضاحك الباسم ، في جو الربيع الذى تعلق به ، وفتن به فتنة كبيرة جعلته ينشئ أرجوزة[4] طويلة في فصول السنة ، مدح فيها الربيع ، ونسب اليه كل مزية ، وهجا بقية الفصول ، وألصق بها كل العيوب ، ونسب اليها كل قبح ، حتى انه تمنى عدم عودتها ليدوم له ربيعه الجميل ، لأنه موطن مسراته وعوامل ملذاته ، فيه يطيب له اللهو ويحلو له الشراب . لقد أحب ابن وكيع الربيع ، كما تعلق بالطبيعة في أجوائه ولكنه حب نفعي ، وتعلق سطحي ، مشروط بقضية أهم هي الخمر ، فلولا الخمر ، ماحلت الطبيعة في عين ابن وكيع ، فليست الطبيعة غير اطار جميل لمجلس الشراب

---

١)- ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر : ٣٩

٢)- نفسه : ٥٨-٦٠ ، ٦٣-٣٤

٣)- نفسه : ٧٥-٧٨ ، ٩٢ ، يتيمة الدهر ١ : ٣٦٩-٣٧١ ، ٣٧٦-٣٧٧ .

٤)- ابن وكيع شاعر الزهر والخمر : ٦٥-٧٤ ، يتيمة الدهر : ١ : ٣٦٣-٣٦٨ .

ولعل هذه العلاقة العضوية بين الخمر والطبيعة في شعره هي التي جعلت احد الباحثين يلقبه بشاعر الزهر والخمر[١] . لقد اجتمعت في شعر ابن وكيع طرائق عديدة فهو يولع بالتشبيهات الحسية على طريقة ابن المعتز[٢] ، كما يفاضل بين الازاهير على نحو ما فعل كل من ابن الرومي[٣] والصنوبري، ويربط الخمر بالطبيعة ، ويفضلها عليها اذا اقتضى الامر ، وهذه نفحة نواسية ، واما النفحات "التمامية" فتتجلى في تلك العلاقة الودية العاطفية التي يقيمها الشاعر بين الارض والسماء ، وبين الروض والسحاب ، ومع هذا فابن وكيع يعد من حسنات مصر في هذا المجال في عصره[٤] .

ويفتتن ابو القاسم احمد بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا (- ٣٤٥هـ) بالطبيعة جفتة كغيره من الشعراء ، ولكن فتنته بالسماء ونجومها في جو الليل أشد وأعظم ، فقد أنس بالليل ، واستطاب السهر في جوه ، يتأمل النجوم ، ويصورها تصويرا ينم في معظمه عن تعلق وثيق وحب صادق ، فهو على عكس غيره من الشعراء يحب الليل ، وينفر من الصباح ، حتى انه لو ملك من القدرة والسلطان على أن يحول بينه وبين الظهور لفعل ، ولكنه يدرك عجزه عن ذلك فيتجه اليه

---

١)- ابن وكيع شاعر الزهر والخمر : ٤٠ ، ٥٤-٥٥ ، ٥٧ ؛ ٩٥ ، ٥٨ - ٦٠ .

٢)- نفسه : ٤٠ ، ٥٢ - ٥٣ .

٣)- نفسه : ٩٢ وما بعدها .

٤)- نفسه : ٦٣-٦٤ ، شعر الطبيعة : ٢٨٧ ، ٢٩١ -٢٩٦ .

ويناشده بحرارة أن يفتك بشيبته ، وهي أعز ما لديه ، ويدع الليل ينعم بسواده لأنه مسرح أنسه بنجوم السماء التي لا يطيق لها فراقا . ولا أدل على هذا الحب من أوصافه الكثيرة ، المستغرقة للكثير من نجوم السماء وكواكبها ، ولكنه يعود فيتعاطف مع النهار ، فقد وصف القمر ، ورأى فيه وقد أضاء الليل شمس نهار ووصف الثريا والهلال وهما أيضا يذكرانه بالشمس التي ودع نهارها مكرها ، وسهيلا والمجرة ، والمشتري والزهرة والجوزاء وغيرها ، وهو في وصفه يعنى بالمعاني والأحوال ، كما يأخذ من الوصف الحسي بقسط وافر[1].

وأما تميم بن المعز . فإن الطبيعة بظواهرها تفتنه هو الآخر ، فيتذكر خمرته ، وينادي بها تحت ظل الغمام ، وقعقعة الرعد ، ووميض البرق ، وتهلل الأرض لبكاء السماء ، وكما ترتبط الطبيعة عنده بالخمر ، ترتبط بالحبيب أيضا ، ولكنها لا تفضله ، ولذلك نجد الشاعر يستغني عن الطبيعة في حضرة الحبيب الذي لا يرضى أن يكون البدر شبيهه[2].

---

١)- سرور النفس : ٣٩-٤٠، ٨٠، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٥، ١٥٠-١٥٢
و حلبة الكميت : ٣٣٣، ٣٣٩ .
و شعر الطبيعة : ٢٩٦-٢٩٧ .

٢)- يتيمة الدهر ١: ٤٣٨-٤٣٩ ، ٤٤٠-٤٤١ .

الفصل الرابع .

الطبيعة في الشعر الاندلسي

" ١ "

لكلمة " الاندلس " في قاموس الاسلام شأن عظيم ، فهي تطفح بالمعاني وتزخر بالأسرار ، وما ذلك الا لأنها تترجم بحروفها القليلة تاريخ أمة بكل مافي هذا التاريخ من أفراح وأحزان ، وآمال وآلام في حقبة زمنية تشهد للمسلمين في معظم فتراتها بعظيم ما أدوا للانسانية من خدمات ، بما ابتدعوه من علوم وبما انجزوه من حضارة أضاءت باشعاعها ليالي القرون الوسطى المدلهمة . وكما اقترن هذا اللفظ في ذاكرة التاريخ بهذا العطاء الانساني الخير ، اقترن أيضا ، بطبيعة شبه الجزيرة الغناء ، وأشار الى ما اختصت به تلك البقعة من سحر وجمال ، فقد وجد المسلمون في هذا الركن الأوروبي ، أرضا خصبة ، وجوا مناسبا ، فأقاموا به وعمروه ، وأنشؤوا به الحدائق العامة والخاصة ، والبساتين الغناء ، وتعهدوا الأرض بالسقي والزرع ، حتى غدت مروجا خضراء تسر الناظرين ، ولم يكتفوا بهذا بل عنوا بالجبال والهضاب أيضا ، فاستنبتوا بها أنواع الشجر المثمر وغيره ، وكان لهذه العناية بالزراعة دورها في نبوغ علماء في هذا الميدان طبقت شهرتهم الآفاق.(1)

وكانت العناية بالبساتين والحدائق سببا في جلب الكثير من أنواع الشجر والزهر الى شبه الجزيرة ، وقد خلد جغرافيو الاندلس طبيعة هذه الأرض الطيبة وصوروها في اعجاب شديد يدل دلالة واضحة على شدة حبهم وعظيم تعلقهم بهذا البلد الذي طالما جهدوا في عمارته ، فابو عبيد البكري وهو من رجال القرن الخامس الهجري ، يرى أن " الاندلس شآمية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها

---

(1) - انظر هذا البحث : ١٢

واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها"(١) ، ويذكر أيضا أن في الاندلس جبلا ينال له جبل الثلج هو جبل إلبيرة . لا يزال الناس يرون الثلج نازلا فيه شتاء وصيفا ، وهو عال جدا حتى انه يرى من أكثر بلاد الاندلس كما يرى من عدوة المغرب(٢) .

ومما يدل على شدة هذا التعلق أيضا رسالة الشقندي في فضل بلاده الاندلس، فقد تتبع مدنها ، واحدة بعد اخرى ، يذكر فضائلها ، ويبرز خصائصها ، ويصور طبيعتها تصويرا جسم محاسنها ، وكساها حلة زاهية ، فذكر اشبيلية واعتدال هوائها وحسن مبانيها ، واهتمام اصحابها بها ، وتزيينهم اياها ، ثم ذكر نهرها ،فاذا هو يفضل الانهار بكون ضفتيه م[illegible]ن بالمناز[illegible] ، والبساتين والكروم والانسا[illegible] متصل ذلك اتصالا لا يوجد لغي[illegible](٣) .

وقرطبة التي تمتاز الى [illegible] عمارتها المتصلة بوردها النابت بجبالها ، كما أن لنهرها في تقارب بريه ، [illegible]لح غدره ومروجه ، مدتى آخر وحلاوة أخرى ، وزيادة أنس ، وكثرة أمان من ال[illegible] ، وفي جوانبه من البساتين ما زاده نضارة وبهجة(٤)".

وتجمع مالقة بين منظر البحر والبر ، والكروم المتصلة التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع عابر ، والبروج التي شابهت نجوم السماء كثرة عدد وبهجة ضياء ، وتخلل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع في سرر بطحائها ، وتوشيحه لخصور أرجائها"(٥). كما تجد عند الادريسي وابن غالب ، وابن عبد المنعم الحميري ، صورا

---

١)- جغرافية الاندلس وأوروبا : ٧٠
٢)- نفسه : ٨٤ - ٨٥
٣)- فضائل الاندلس وأهلها : ٥٠ - ٥٢
٤)- نفسه : ٥٥
٥)- نفسه : ٥٧

ومشاهد أخرى ، سجلوها باعجاب في معرض وصفهم لبلاد الاندلس ، مما يدل على غنى هذه البلاد بالمشاهد الطبيعية المتنوعة والساحرة في آن واحد . هذه أندلس الجغرافيين ، ولكن ماذا عن أندلس الشعراء ؟ .

" ٢ "

وأما الشعراء والادباء فقد كان ارتباطهم ببلادهم متينا ، يدل على ذلك كثرة تصويرهم لمشاهدها ، وتغنيهم بطبيعتها ، كما تدل عليه أشعارهم في الحنين الى ربوعها ، كلما بعدت بهم الشقة عنها ، أو طال فراقهم لها ، وهي تنضح بالشوق وتمتلئ بالحب لتلك الأرض بطبيعتها الجميلة ، ومغانيها الرائعة ، وقل منهم من لم يحس بهذا الاحساس أو لم يشعر بهذا الشعور .

لقد بدأ الاحساس بهذه الطبيعة الخلابة ، والارتياح اليها منذ دخول المسلمين الفاتحين الى ارض شبه الجزيرة ، ثم نما هذا الشعور وتعمق عبر الزمن ، الى أن أضحى ظاهرة لها ثقلها في الادب الاندلسي عامة ، وعلى الرغم من ضياع معظم الأشعار التي قيلت في هذا الشأن ، وضياع بعض الكتب المختصة بهذا اللون من الشعر ، فان ماوصلنا ، وهو قليل ، دليل واضح على غنى الادب الأندلسي ، شعره ونثره ، بوصف الطبيعة ، وهو غنى شهدت به كتب الاختيارات الشعرية التي قصرت مهمتها على اقتناء ما أبدعه أهل الاندلس من أوصاف ، وما اخترعوه من تشبيهات . ككتاب الحدائق لابن فرج الجياني ، وكتاب التشبيهات لابن الكتاني المتطبب ، والبديع في وصف الربيع لابي الوليد اسماعيل بن عامر الحميري والارتياح بوصف الراح لابي عامر محمد بن مسلمة ، وكتاب الفرائد في التشبيهات لعلي بن الحسين القرطبي[1] ، كما شهدت به كتب تاريخ الادب كالذخيرة لابن بسام ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، والمغرب في حلى المغرب

---

١)- تاريخ الادب الاندلسي عصر سيادة قرطبة : ١٠٦-١٠٧ .

لابن سعيد ونفح الطيب للمقري وغيرها ، بما حوته من اشعار ونصوص وصفية ولا تساعد هذه الظاهرة الأدبية وبيان مراحل نموها وتطورها نرى أنه لا بد من تتبعها من البداية والى عصر شاعرنا ابن خفاجة ، الذي انتهى اليه ذلك الموروث الضخم من شعر الطبيعة ، فعرف كيف يستغله ويبرز فيه .

" ٣ "

لقد ذكرنا أن اهتمام الشاعر الاندلسي ببيئته كان مبكرا ، وخاصة بعد الاستقرار السياسي ، وبعد التمكين للدولة الأموية في الاندلس على يد عبد الرحمن الداخل ، الذي تنسب اليه المقطوعة الشعرية الحية في وصف النخلة ؛ فقد أسقط عليها مشاعره ، وأشركها احساسه بالغربة وحنينه الى بلاده التي أنأته عنها الظروف القاسية ، فرأى في انفرادها وحدته ، وفي غربتها غربته ، وهو نموذج لشعر الطبيعة في هذه الفترة يندر مثله[1] . ولكن هذا الاهتمام يشتد بعد ذلك ، فقد تميزت فترة الخلافة بكثرة الشعراء والادباء الذين يعنون بالطبيعة ويغرمون بها ، ويصفونها مجملة ، في مشاهد كلية أو مفصلة في مشاهد جزئية ، شعرا ونثرا ، مما كون رصيدا ضخما من الأوصاف ، دل على فتنة أصحابها بطبيعة بلادهم ، واعجابهم الشديد بها ، وكان لتمكن حب الطبيعة من قلوبهم أن احتلت مركز الصدارة من قصائدهم ، فالمدح يبدأ فيه بوصف الطبيعة ، كوصف الربيع ، والرياض عامة ، وانواع الازاهير والورود ، أو وصف السحاب والمطر ، وغير ذلك ، وقد يصفونها لذاتها[2] ، وتغلب على شعرهم فيها المقطوعات . ويجدر بنا ونحن نقف أمام هذا الرصيد الهائل من شعر الطبيعة أن نسجل بعض الملاحظات نحدد من خلالها بعض الخصائص .

---

١)- البيان المغرب ٢ : ٦٠ — تاريخ الادب الاندلسي عصر سيادة قرطبة : ٩١

٢)- الادب الاندلسي . هيكل : ٢٣٦ ، ٣١٠

* ان اغلب شعر الطبيعة في هذه الفترة تغلب عليه الصفة الحسية ، وينعدم في أكثره العمق ، والنظر البعيد ، والتفاعل الحي مع الموصوفات ، فقد كانت الصورة الحسية هي الهدف ، ووجد الشاعر في المعادن من ذهب وفضة ، واحجار كريمة معينا لا ينضب لتشبيهاته واستعاراته ، فاكسب موصوفاته اللون والبرق ولكنه افقدها الحركة والحياة ، تجد ذلك في شعر ابن النظام ، وابن القوطية وابي جعفر بن الأبّار وابن دراج القسطلي[1] ، وابن عبد ربّه الذي تأخذ مظاهر الطبيعة عنده بعدا آخر ، فهو يتغزل بها غزلا حسيا ، وكأنه يكني بها عن محبوب أبى أن يصرح باسمه[2]. كما نجد نفس الظاهرة عند ابن هاني الاندلسي ، عندما يناجي المحبوب ، ويرى في البرق شبيها له ، فبياضه يشبه بياض أسنان محبوبه ، وبريقه يحي بريق ظلمها الرقراق ، كما يرى في لمعان البرق خلال الغيوم حركة جذب لخصر موشح ، في سير السحاب الثقال امرأة رادفة ، ثقيلة تتباطأ في سيرها لامتلائها واكتنازها[3].

* ان الاسلوب المنطقي استغرق قسما مهما منه ، فقد انبرى شعراء الاندلس للمفاضلة بين الازاهير ، فوصفوا الورد وعددوا مزاياه ، وفضلوه على النرجس ردا على ابن الرومي الذي فضّل النرجس وألصق بالورد كل عيب ، كما عقدوا المناظرات في المفاضلة بين الخيري والبنفسج ، وبين الخيري الاصفر والخيري النمام[4] ، وهكذا تبذل جهود وتصرف طاقات في طريق مسدود ، يحول بين الشاعر والاحساس الحميم الفعال بالطبيعة من حوله ، فتصبح أوصافه عقيمة ، جافة ،

---

١)- جذوة المقتبس : ٢٨٦ ، ٣٢٠، ٣ - البديع في وصف الربيع: ٢٥
- ديوان ابن دراج : ٣٠-٣١

٢)- ديوانه : ٩٩، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٣٠-١٣١ ، ١٧٦

٣)- ديوانه : ٦٥

٤)- البديع في وصف الربيع : ٥٣ - ٨٥ .

غريبة عن شعر الطبيعة الذي يقتضي الاحساس بعناصر الطبيعة والتفاعل معها على نحو ايجابي حي .

* ان الشعر الذي نلمس فيه نوعا من الحركة والحياة ، هو الذي أسقط فيه الشعراء الصفات الانسانية على مظاهر الطبيعة المختلفة ، فهي تشعر وتنطق ، وتحسد وتغار ، وهي تصفر من الوجد وتحمر من الخجل ، وتذوي وتذبل لفراق الحبيب ، أو من شدة الحسد والغيرة ، والسحابة تبكي ، والروض يضحك[1] وغير ذلك مما يذكرنا ببعض صور ابي تمام في هذا الشأن ، تجد هذا المذهب في شعر الرمادي ، واسماعيل الحميري ، وابي بكر يحيى بن هذيل وابي جعفر بن الابار والحاجب المصحفي ، وابي مروان عبد الملك بن جهور ، وعبادة بن ماء السماء ، وابن عبد ربه وابن شهيد وغيرهم .

* وكانت الطبيعة بجمالها وروعتها ، مدعاة عندهم لشرب الراح ، وعقد مجالسها فهذا الرمادي يهزه منظر الطبيعة الخلاب ، ويدفعه تساقط الطل ، ووميض البرق بين الغيوم الى الشراب ، ويمتزج بريق الخمرة بالطبيعة عند ابن بطال حتى لا يرى فارقا بين الازهار وكؤوس الخمرة ، والغصون وأذرع الندامى في حركتها ومناولتها الخمر للأصحاب[2] .

* وقد يغمر هذا الشعر جو من الحماسة والحرب[3] ، سيرا على طريقة المتنبي ، وأكثر ما تتجلى هذه النزعة في شعر ابن دراج القسطلي ، فقد اكثر من استخدام الالفاظ الدالة على معاني القوة ، وجعل من الحرب بوسائلها مصدرا لتشبيهاته ، واستعاراته في مجال وصف الطبيعة ، وابن هاني الاندلسي يضفي هو الآخر على بعض موصوفاته جوا حربيا ، وخاصة عندما يصف الغيث والريح ، كما يسقط على

---

١)- نفسه : ٦-٧ ، ٤ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ١١٥ ، ١٢١ — التشبيهات لابن الكتاني : ٤٤ - ٤٦ — ديوان ابن شهيد : ١٧٦ ، ٢٣٦ . ديوان ابن عبد ربه : ١١٥ .

٢)- البديع في فصل الربيع : ١٠-١١ ، ١٤ — ديوان ابن دراج : ٣٢ ،

٣)- ديوان ابن شهيد ٤١ ، ٢١٥ — البديع في فصل الربيع : ١١-١٢

الطبيعة صفات الانسان كالوصل والغضب ، لهم ذكر الربيع ، وانصباب المطر ، ولمعان البرق ، والليل والنهار، وبساط الورق ، والارض ، والريح المعطرة بماء الورد ، يذكر هذا كله ليصل الى تصوير أنفاس الممدوح وانى جعل الانواء قاصرة عن الوصول الى درجة كرمه وسخائه ، وهو يبرز في وصف النجوم "فائيته" مثال واضح لذلك[1].

وتأخذ الطبيعة الساحرة بألباب الجميع ، وتفتنهم بمظاهرها الزاهية ، بشجرها ونباتها ، وزهورها وثمارها ، وسواقيها وأنهارها ، وبركها وبحارها ، وحدائقها و... ، كما فتنتهم بحيوانها من خيول وذئاب ، وأنعام وحشرات وزواحف وطيور على اختلاف أنواعها ومن أبرزها الحمام الذي كان لهم به احتفال عظيم ، يصفونه ويناجونه ويبثونه مواجدهم وأحزانهم . وصفوا ذلك كله وصفا فيه اعجاب وحب واستغراق ، ولكن تبقى السطحية ، وتطلب الصورة ، والجري وراءها سمة غالبة على هؤلاء الشعراء ، فقد تنكب الشعر الاندلسي في هذه الفترة - طريق التأمل النفسي والعمق الفكري ، وتعلق بالمحسوسات يدور حولها ، او يتحدث عنها او يصفها[2]. ولعل هذا التسطح في الرؤية الشعرية ، والتصوير الحسي للموضوعات هو الذي يقف وراء ذلك الركام الضخم من شعر وصف الطبيعة بعناصرها المختلفة ، والذي لا تمثل كتب الاختيارات المذكورة الا قسما ضئيلا منه . فقد زود الاندلسيون - في هذا الزمن - رصيد شعر الطبيعة بكمية وفيرة من الاوصاف والتشبيهات ، ولكنهم قل أن أضافوا تجربة شعرية جديدة ، تسهم بعمقها وشمول

---

١)- ديوانه : ١٨٢-١٨٥ ، ٢٠٨-٢٠٩ .

٢)- تاريخ الادب الاندلسي . عصر سيادة قرطبة : ١٢٩ ، الشعر الاندلسي : ٢٥-٢٦ .

نظارتها في دفع هذا الفن - بفعاليـة - الى الامام . وأما العبارة الشعرية ، عندهم ، فتظل - على العموم ، سهلة ، عني فيها باقتنـاء الالفاظ الرقيقة ، وتحوشيت فيها ، ما أمكن ، الالفاظ الحوشية الغريبـة ، ولكنها تبقى مثقلة بأنواع الزينة اللفظية والمعنوية من تشبيه واستعارة ، وجناس وطباق ومقابلة وغيرها ، اقتضاها الصقل المستمر للعبارة ، وتطلبها الجري الدائم وراء الصورة الحسية في الموصوفات [1] . وبقي شعراء المدح المختصون كابن هانئ وابن دراج وابن شهيد أحرص ما يكونون على متانة الاسلوب ، وقوة اللفظ وجزالته ، مع ميل شديد الى المبالغة المفرطـة .

ثم ينتقل هذا الرصيد الشعري المهم ، بعد نشوب الفتنة وزوال الخلافة الى شعراء الطوائف والمرابطين من بعدهم .

" ٤ "

أحس الاندلسيون ، بدخول القرن الخامس الهجري ، وفي مقدمتهم الشعراء ببيئتهم ، واندمجوا فيها ، وصـدروا في أشعارهم في وصفها عن عاطفة جياشـة وحب عارم لطبيعتها المشرقة ، وجوها الالاق، فقد حظيت طبيعة الاندلس ، بعناصرها وجمالياتها المختلفة بعنايتهم واهتمامهم ، فهم إن لم يفردوها بالوصف ، مزجوا اوهامهم فيها بغزلياتهم ومدحياتهم وخمرياتهم ، مما يدل على استيلائها على حواسهم ومشاعرهم ، وهو استيلاء يبدو أظهر ما يكـــــون في باب الحنين ، الحنين الى مرابع الصبا وحياة النعيم ، في ظل الطبيعة مع الاحباب والاصحاب . وقد شهد بداءات هذا القرن الشعراء الذين امتدت حياتهم بعد زوال الخلافة ، وهم شعراء البديع والتشبيهات ، وقد ألمحنا الى مشاركتهم من قبل .

---

(١) - تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة : ١٠٢

وأما الشعراء الذين يمثلون عصر الطوائف ، فهم الشعراء الذين نبغوا فيه وكان لهم دور في احداثه وقضاياه ، وهم كثير ، ونكتفي هنا ، في الحديث المفصل بعض الشيء عن شعر الطبيعة في هذا العصر ، بالوقوف عند جهود المشهورين منهم ، مع الاشارة الى مشاركة غيرهم باجمال .

(١) ابن زيدون : (-٤٦٣هـ)

يعد ابن زيدون من أشهر شعراء هذا العصر وأدبائه ، بل وساسته أيضا ، وهو قد أخذ من شعر الطبيعة بقدر ، ولكن الطبيعة لا تستهويه وحدها ، بل تروقه مع الحبيب الذي تعلق به ، وعشقه من كل قلبه وارتبطت صورته في مخيلته بمشاهد قرطبة ومنتزهاتها الغناء ، والطبيعة والحبيبة تتماثلان لديه ، ولكن الحبيبة أحلى وأجمل ، وقد كان لهذا الارتباط بين الطبيعة والحبيبة أثره في حياته ، وخاصة بعد سجنه ، ثم فراره من السجن الى اشبيلية بني عباد [١] فقد اشتد حنينه الى محبوبته ، والى مرابع صباه ، ومجالس لهوه وخلوته ، في ضواحي قرطبة وساتينها ، وتمثل الطبيعة في هذا الحنين العارم المفتاح الذي يفتح بابا يطل على عالم من الذكريات الحلوة والايام السعيدة ، فكل مافيها يذكر بالحبيب ويعكس صورته ، ويذكي في نفس الشاعر ألم الفراق وحرارة الذكرى .

لقد وفق ابن زيدون في ربط الطبيعة بالحب ، والحب بالطبيعة ، فأسقط على مظاهر الطبيعة مشاعره وأحاسيسه ، وأشركها في آلامه وأحزانه ، وهو معنى يسري في غالب شعره ، ولكنه في قصيدته التي نظمها في الحنين الى الحبيبة ، وهو بالزهراء ، ووسط طبيعتها الغناء ، اكثر جلاء ووضوحا . وهو بهذا النموذج الفني الرائع في سلاسة ألفاظه وعذوبة موسيقاه ، وحيويته التصويرية استحق عند أحد الباحثين المعاصرين لقب " شاعر الحب والطبيعة ، لأنه يشعر بالطبيعة شعور الوله والهيام ، ويتغزّل فيها تغزل الحب والغرام ، في قوة وعمق ووضوح ." [٢]

---

١)- تاريخ الادب الاندلسي . عصر الطوائف والمرابطين : ٢٠٣

٢)- ابن زيدون عصره وحياته وأدبه : ٣٧٤ .

ولم يكن حبه لولادة هو وحده الذى أذكى هذا الحنين الدافق في اعماقه بل كان هناك عامل آخر له شأنه وقيمته ، ذلك هو حبه لوطنه ، ومسقط رأسه قرطبة ، فقد تغنى بمواطنها وذكرها موضعا موضعا ، وتذكر أيام السعيدة ولهوه وعيشه الهادئ الهني فوق ربوعها ، معددا محاسنها ، ومبرزا نواحي الابداع والجمال في طبيعتها ، وشعره في هذا المجال يتسم بصدق العاطفة ، وحرارة الذكرى ، ولوعة الحنين[1] .

(٢) ابن حمديس (-٥٢٧ هـ)

وأما ابن حمديس فقد كان لطبيعة جزيرة صقلية ، [illegible] رأسه ، ومربع صباه ، أولا ، ولطبيعة الاندلس التي رحل اليها ، [illegible] فيها شطرا مهما من عمره ثانيا ، أثر فعال في شاعريته ، وكان يمكن أن [illegible] اعرا ممتازا في شعر الطبيعة لو أنه استمد في وصفه من ذاته ، ومن معين [illegible] ره ، ولكنه لم يفعل ، فهو في وصفه مغرى بالصورة يطلبها في كل ما حوله [illegible] عناصر الطبيعة ، حيها وصامتها ، بل ومصنوعها أيضا فقد تحدث عن الخيل [illegible] ل ، ووصف الزرافة وغيرها ، وتحدث عن الاطلال والديار والرياح والبرق ، والنجو[illegible] سحب والرعد والبرق والغيث والبرد ، والبحر والنهر والروض والزهر وغير [illegible] وصف ذلك كله متأثرا [illegible] الرائق من سبقه ، ومغيرا على بعض صورهم [illegible] وصف الطبيعة في موضوع المدح ، وفضل الممدوح عليها ، ومزج وصف [illegible] يعة بأوصاف الخمرة [illegible] قارنها بها ، كما دعا بالشراب في ظلالها[2] ، ولم يخص الطبيعة بالوصف الا في قصيدة واحدة تحدث فيها عن البرد واستطرد منه الى وصف السحب ، والسيل والبرق

---

١)- ديوانه : ٢٣٠ - ٢٣١ .

٢)- ديوانه : ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٥

والرعد والشمس ، ثم سور الطبيعة ، وانبعاث الحياة في مظاهرها المختلفة بعد أن ارتوت من الماء وعمها الخصب ، فالغصن يتثـــــــنى ، والطائر يغني طربا والشمس تغمر الجميع بنورها الذهبي[1] .

فاشعاره ، وخاصة مائيته ووداليته ، مزدحمة بالصور ، عامرة بالحركة والموسيقا ولكنها مفتقرة الى الاحساس العميق ، والعاطفة القوية ، فقد اجاد النقل ، ولكنه لم ينفخ فيه من روحه ، ولم يطبعه بطابعه الذاتي ، ولذلك قل أن نشعر بالارتياح والتجاوب ، والمشاركة الفعالة عندما نقرأ لابن حمديس في هذا الباب .

وكنا ننتظر من ابن حمديس ، وهو الشاعر الذى خاض غمار البحر ، وعـــاش حالاته ، وكابد شدائده وأهواله ، تصويرا حيا لهذه الظاهرة العظمى من ظواهر الطبيعة الصامتة ، وتعبيرا عميقا عن مشاعره ، وهو وسط أمواجه المتلاطمة تعلو بـه وتنزل ، وتذهب به الريح في كل اتجاه ، الا أننا لانجد في ديوانه عن هذه الظاهرة الطبيعية شيئا خطيـــرا ، فقد وصف البحر فى مقطوعات قليلة ، عكست وجـــه البحر الهائج المخوف[2] ، وهي صورة رددها غيره من الشعراء ، ولعل السبب فـي هذا يرجع الى ندرة وبساطة الوسائل التي تخول للانسان - وقتئذ - نوعا من السلطان على هذه الظاهرة المتميزة ، فهم لم يعرفوا عن البحر ما نعرفه نحن اليوم مـــن حقائق وأسرار ، من حيث كون ذلك الوجه المخيف المروع ، يخفي في حقيقته ، وباطنه عالما من الجمال ، والصور البديعة ، التي تماثل او تفوق في روعتها وجمالها ، ما على اليابسة من مشاهد ومظاهر ، ولو أنهم ملكوا من الوسائل ما نملك ، فربما كان لهم موقف يغاير موقفهم ذلك كما وكيفا .

---

١) ديوانه : ١١٧

٢) ديوانه : ٢٣٠ - ٢٣١ . La Poesie Andalouse : 212

(٣) - ابـــن صـــارة الشـــنتريني (ت ٥١٧ هـ)

وأما ابو محمد عبد الله بن صارة الشنتريني ، الشاعر المفلق ، والشهـــاب المتألق ... الاوصاف البديعة والمعاني المخترعة[1] ، فقد استهوته الطبيعة هو الآخر وفتنته بثمرها وزهرها ، وغيمها ومطرها ، فعبر عن احساسه وتعلقه بشعر سلس اللفظ ، رشيق العبارة ، حفظ لنا كتاب الذخيرة قطعا منه ، وهو فيه يظهر شاعرا حسيا ، تغريه الصورة ، ويجذبه اللون ، فيرسمها رسما واقعيا ، معتمدا في تشبيهاته واستعاراته على ما يحيط به من عناصر طبيعية فيذكر الجمر ، والخد ، والدمع المضـــرّج ، والمدام ، والعقيق ، لا لشيء الا لأنها تشبه النارنج أو يشبهها في اللون ، ولكنه يوفق في وصف الحديقة ، عندما يستخدم الاسلوب القصصي ويسقط على الازهار الصفات الانسانية ، فالنرجس والبهار أخوان ، أمهما الشمس ، وأبوهما القمر ، وأنهما قد شربا من سلاف القطر فسكرا وأدى بهما الأمر الى التراجم ولكن بالأزهار ، ويؤثر الوضع في النـ... ، فيرثي لحالهما ويبكيهما ، وهو تصوير حي ومثير ، وطريف في آن واحد ، كما يو... ـــي رسم صورة مفزعـــة لسحابة ممطرة ، ذات رعد مدو ، وبرق مشتعل كـ... النيران ، وصواعق قويـــة ، تكاد تزلزل به البيت وتهـــده من فوقه ، وقد وقف هـو مشـدوها يستعيذ تارة ويهلل أخرى ، راجيا الخلاص من هذه الظاهرة التي اقضت مضجعه ، وزرعت الرعب والقلق في أعماقه[2].

---

١)- الذخيرة ٢/٢ : ٨٣٤

٢)- نفسه ٢/٢ : ٨٤٠

(٤)- المعتمد بن عباد (- ٤٨٨ هـ)

وتمتزج الطبيعة بالغزل تارة ، وبالخمر أخرى عند شاعر اشبيلية وأميرها المعتمد بن عباد ، ولكن احساسه بها يزداد وحنينه يشتد وهو في الاسر، بعد أن زال ملكه ، وثل عرشه على يد المرابطين ، فهو لا يفتأ يتذكر قصوره، وحياته الملوكية الناعمة ، وسط الطبيعة الغناء ، فيبكي على فقدها ونيا عها ، ويشتد به الخطب ، حتى يخال أن الطبيعة تشاركه مصابه ، فقصوره تبكي لبعده[٢] وتقيم النجوم المآتم حزنا وأسى على فقده ولديه[٣] ، كما يناجي سرب القطا[٤] ، ويقرن حالها بحاله ، فكلاهما له فراخ ، ولكنه أسير وهي حرة طليقة ، تعود الى فراخها ، ولا يعود ، فقد باعدت عوادي الايام بينه وبينهم ، وحال البعد والأسر دون الاجتماع بهم والحنو عليهم ، انها صورة حية ، منحها الشاعر قوة التأثير بما أفاضه عليها من مشاعر وأحاسيس صادقة .

(٥)- ابن عمار (-٤٧٧هـ)

ويأخذ وصف الطبيعة في شعر وزيره ابن عمار تحس المسار ، فهي عنده ترتبط بالخمر حينا فتشكل الاطار الملائم لتعاطيها وعقد مجالسها ، وتسخر حينا آخر لغرض المديح[٥] ، كما يذكرها في لوعة وحنين ، بعد أن قلب له

---

١)- ديوانه : ٧ ، ١٣ ، ٢٨ .
٢)- نفسه : ٩٥ .
٣)- نفسه : ١٠٥ .
٤)- نفسه : ١١٠ .
٥)- الذخيرة ١/٢ : ٣٨٢-٣٨٣ .

الدهر ظهر المجن فعاد الى حياة التشرد والفقر ، بعد الغنى والاستقرار ، وكان لدلموحه واستهتاره اليد الطولى في هذا الانقلاب الحاسم في حياته ، ويحس بعنف الصدمة ، وألم الفراق ، وتنكر الاصحاب ، فلا يجد غير الطبيعة مواسيا ، ولا الى غيرها ملجأ فيهيب بعناصرها ، المتحركة والجامدة ، الحية والصامتة ، بالحمام والغمام والرعد والبرق ، والريح والنجوم ، أن تشاركه مصابه ، وتقاسمه أحزانه وأشجانه فالحمام ينوح عليه ، والغمام يبكيه ، والرعد يصرخ ، والبرق يهز الصارم يريد الثأر له ، والرياح تشق جيوبها لأجله[1] . وهكذا ينجح الشاعر في تهويل الموقف ، وتضخيم الأمر ، مستخدما عناصر الطبيعة المختلفة كوسائل طوّعها لتصوره ، وصبغها بما يوافق مزاجه وحالته النفسية المضطربة القلقة وهي محاولة نادرة في شعره .

(٦) - ابوبكر بن اللّبانة : (-٥٠٧هـ)

واما ابن اللبانة أبوبكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني فقد كان شاعرا مداحا ، متكسبا بشعره ، لزم المعتمد بن عباد مدة عزه وسلطانه ، كما لزمه بعد نكبته على يد المرابطين ، فمدحه ، ورثى ملكه ، وحنّ الى مجالسه معه في ظلال بساتين اشبيلية وعلى ضفتي نهرها الجميل ، ثم انتقل بعدئذ الى ميورقة ، حيث أضحى شاعر مبشر العامري ، ومكث على تلك الحال الى وفاته . وهو وان سخر شعره للمدح ، الا انه لم يخل من وصف الطبيعة في مناظرها ومشاهدها

---

١) - الذخيرة ١/٢ : ٣٧٢ - ٣٧٣ .

المتنوعة ، يتخلل شعره ، ويتصدر قصائده ، مدحا ورثاء ، فقد وصف الروض والازهار من ورد ونرجس وريحان ، ووصف الغيم والطل ، والشمس ، والنهر والبحر والسفن والطائر الشادي ، ولكنه وصف ينم عن متعة بصرية سطحية ، لا تخترق الحواجز الحسية الى المعاني والاسرار للموضوعات الموصوفة[1].

وكما فتنت طبيعة الاندلس أبصار هؤلاء وقلوبهم ، فتنت بجمالها وسحرها أيضا غيرهم من الشعراء ، كعبد الجليل بن وهبون[2] ، وابي مروان بن غصن الحجاري[3] وغالب بن رباح الحجام[4] ، وجعفر بن محمد بن شرف[5] ، وغيرهم ، فتغنوا بجمالها ورسموا مشاهدها في أشعارهم ، مما يدل على حبهم العميق ، وارتباطهم الوثيق ببيئة الاندلس ، وطبيعتها الجميلة الساحرة .

" ٥ "

وتمحي دول الطوائف على يد المرابطين في الاندلس ، ولكن دولة الادب والعلم ظلت قائمة ، واستمر علاؤها قويا بعد الاستقرار السياسي لدولة المرابطين في الاندلس ، فنجم في عصرهم علماء ، وبرز أدباء ، ولمع شعراء ، ذاع صيتهم في حياتهم وبعد مماتهم ، وقد اشتهر منهم ابو اسحق ابراهيم بن خفاجة ، وابن اخته ابن الزقاق ابو الحسن بن عطية والأعمى التطيلي ، وابوعبد الله بن عائشة وغيرهم .

---

١)- شعر ابن اللبانة : ١٣، ١٧-١٨، ٢١، ٢٢، ٢٤-٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٦٠، ٦٤، ٦٦، ٧٢، ٨١، ٩٠، ٩٦ .

٢)- الذخيرة ١/ ٢ : ٥٠٤-٥٠٥ .

٣)- نفسه ١/ ٣ : ٣٣٤-٣٣٥ .

٤)- نفسه ٢/ ٣ : ٨٣٠ وما بعدها .

٥)- نفسه ٢/ ٣ : ٨٦٩ وما بعدها

فاما الأعمى التطيلي (- ٥٢٥ هـ) فلم يفرد الطبيعة بالوصف الا في قصيدة واحدة وصف فيها سحابة ممطرة[١] ، جمع فيها معاني القدماء وصورهم ، وكثيرا ما يأتي ذكرالسحابة والمطر ، والبرق والرعد عنده في سياق الحديث عن الممدوح ، وعد صفاته من كرم وسماحة ،وكثرة عطاء ، فهي عنده ، تخدم المدح كما [illegible] الغزل[٢] ، ومن هذا المنطلق كانت نظرة الشاعر اليها . وأما الطبيعة المصنوعة فقد استهواه منها شيئان اثنان ، اكثر من ذكرهما وأطال في وصفهما ألا وهما السيف والرمح ،وهوعلى الرغم من ذلك لا يعد شاعرا وصافا لضآلة مشاركته في هذا الباب ، ولعل لآفة العمى أثرها في ذلك[٣] .

ويعد الأديب ابو عبد الله بن عائشة من الشعراء المقلين ،ولكنه على اقلاله يظهر شاعرا مولعا بالطبيعة ، مستأنسا بها مأخوذا بما فيها من مظاهر الروعة والجمال[٤] .

وتبدو الطبيعة بظواهرها المختلفة بوضوح أثر في شعر ابن الزقاق ، فقد نشأ في هذا العصر ، وتتلمذ على يد خاله ابن خفاجة ، وتأثر [illegible] نزعته في وصف الطبيعة ولكنه تمكن من أن يخضع هذا الشعر لموهبته ، ويطبعه بطابع تجربته الشخصية وهي تجربة [illegible] ، مكنته في عمر قصير نسبيا ،من انتاج قدرمهم من الأشعار ، دلت على موهبته و[illegible]ه ، وبرهنت على شاعرية متميزة ، وبوأته

---

١)- ديوانه : ٣٧

٢)- نفسه : ١٦-١٨ ، ٨٨ ، ١٠٥

٣)- نفسه : مقدمة المحقق : ق

٤)- الذخيرة ٢/٣ : ٨٨٧ — المطمح : ٨٤ .

٥)- مع شعراء الاندلس والمتنبي : ١٣٥ .

مكانة مرموقة في مجال الابداع التشبيهي والاستعاري فقد استطاع بمخيلته القوية أن يغني أشعاره بالصور الرائقة ، والمعاني اللطيفة ، وهي ظاهرة وقف عليها الشقندي في شعره ، فعدها مفخرة من مفاخر الاندلس ، وحسنة من حسناتها التي لا تدرس . ولمشاركته الوصفية عدّه غارثية غومث شاعرا للطبيعة ، وهو أمر يدعونا الى الكشف عن أثر الشاعر في هذا المجال .

لا شك ان اهتمام ابن الزقاق بالطبيعة عظيم ، وكلفه بها شديد ، ولكنها فتنة بصرية حسية في معظم الحالات ، فالصورة تغريه والمنظر يأسره فينجذب الى الطبيعة مستمتعا ، ويصفها وصفا يكبله الحس ، ويغلب عليه التسطح ، وينزر فيه الاحساس العميق والانفعال بالموصوفات ، فهو يهتف - كغيره - بالخمرة في جو الطبيعة الأخاذ ، فاذا ازينت الطبيعة ، وتذهب الاصيل ولامس السحاب الحدائق ، وعانق الجبال ، وتغنى الحمام ، تذكر خمرته فنادى بها ذهبية كلون الاصيل ، فمشاهد الطبيعة تأخذ بلبه ، وتفتنه بجمالها ، ولكن لينعم بمجالس اللهو في ظلالها ، ويعيشها لحظات مادية لا يتجاوزها الى التجاوب الفعال مع الطبيعة ، أو الاحساس الصادق بها . وتستهويه الطبيعة في مجال الغزل ، فيصف الحبيب من خلالها ، ويتخذ منها ذريعة اليه ، ومن عناصرها وسائل مساعدة لابراز محاسنه وتعداد مزاياه ، فليس هو الذي يشبه الطبيعة ، ولكن الطبيعة هي التي تشبهه ، وهو لا يلثم الوردة أو يشم عبيرها بين الحين والحين الا لانها تحكي وجنة من يهوى وعبيره .[٤] وهذه النزعة ، أي تفضيل

---

١)- فضائل الاندلس وأهلها : ٤٠

٢)- مع شعراء الاندلس والمتنبي : ١٢٨

٣)- ديوانه : ٩٣ ، ١١٥ - ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٧٣ .

٤)- نفسه : ١٢٤ ، ١٧٨ ، ٢٤٢ .

المحبوب على الطبيعة ، طريق مسلوكة ، كما أن اللهج بصفاته المادية من خلال الطبيعة " ظاهرة خفاجية " . حفل بها ديوانه . وقد يوفق الشاعر في بث الحركة والحياة في صوره الطبيعية بما يفيض عليها من أحاسيس ومشاعر انسانية[1] او باستخدام الحوار الذي يطبع شعره بمسحة عقلية شعورية[2] .

واذاً فابن الزقاق شاعر من شعراء الطبيعة ،أفسح لطبيعة حيها وصامتها مجالا واسعا في شعره الرقيق ، ورسم لها مشاهد وصورة تستلفت الانتباه وتمتع الحس ، وتشهد له ، في معظمها بالبراعة وحسن الذوق ، ولكن قارئ ديوانه يدرك أن الشاعر مدين في الكثير من معانيه لطريقة أستاذه وخاله ابن خفاجة ، الذي استطاع بما تميز به من خصائص ومؤهلات ، أن يظفر بعناية القدماء وتقديرهم ، وأن يستحق ، في نظر الباحثين المعاصرين ، لقب شاعر الطبيعة في الأدب العربي القديم ، فماذا اذاً عن الطبيعة في شعر ابن خفاجة الاندلسي ؟ .

---

١)- نفسه : ٢١٦ .

٢)- نفسه : ١٢٤ ، ١٢٥ .

الباب الثالث

الديمة في شعر ابن خفاجة الاندلسي

الفصل الأول

بين الطبيعة وابن خفاجة

لقد اشرنا فيما سبق من كلام الى طبيعة الاندلس عامة ، وما امتازت به تلك الطبيعة من جمال وروعة وبها ، وبينا نوعية العلاقة التي كانت تربط الانسان الاندلسي ببيئته ، وانها كانت قوية الى حد كبير ، وهو امر تفصح عنه اثاره الشعرية والنثرية في وصفها ، والتغني بمعانيها ، والاشادة بما فيها من مشاهد طبيعية رائعة . وسنعرض الآن ، وبشيء من التفصيل ، لطبيعة شرق الاندلس ، وبخاصة كورة بلنسية

يمتد شرق الاندلس من حاضرة المرية جنوبا الى عاصمة الثغر الاعلى سرقسطة شمالا، في بسيط من الارض ، تتخلله جبال شاهقة ، كثيرا ما تمتد لتكون سلاسل جبلية طويلة ، تنحدر منها انهار غزيرة تخترق تلك الاراضي الواسعة ، وتصب في البحر الابيض المتوسط . ومن مدن شرق الاندلس الشهيرة: بلنسية ومرسية ، وشاطبة ودانية ، وطرطوشة ، وسرقسطة ، وجيان وغرناطة ، والمرية هذا عدا المدن الصغيرة والقرى والحصون التابعة لتلك المدن الكبيرة ، وهي كثيرة جدا ، ومع ذلك فقد تتبعها جغرافيو الاندلس ، ووصفوها وصفا ينم عن اعجاب وفتنة غامرة ، مما يدل على ان هذه المدن ، بل وتلك القرى والحصون ، كانت ، من حيث طبيعتها على جانب كبير من الجمال والبهاء ؛ فقد وصفت سرقسطة بأنها مدينة حسنة ، متصلة الجنات والبساتين ، يمر بها نهر كبير هو نهر " ابرة ".[1] وذكرت طرطوشة بحسن بقعتها ، فهي توجد في سفح جبل ، وأن ذلك الجبل وغيره مكسوّ بشجر الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ .

---

١)- الادريسي : ١٦٠ .

٢)- نفسه : ١٦٠ .

كما ذكرت " بريانة " بقربها من البحر ، وبأرضها الخصبة المنبسطة ، وكثـــرة أشجارها وثمرهـا (١). وتكرر ذكر كورة " تدمير" ، وما في حوزتها من سهول خصبة وأنهار وعيون ، وجنات وبساتين ، ذات اشجار وزروع مختلفة ، وهي كورة واسعة ، تضم مدنا عديدة منها مدينة " مرسية " الجميلة المنشأة في مستوٍ من الأرض ، على ضفة النهر الابيض ، وبها هي أيضا بساتين وضياع وعمارات متصلة ، ولهـا كروم وبها من شجر التين كثيـــــــــــــر . كما يوجد بها الموز والبرتقال واللوز واشجار النخيل ، ويكثر بها القطن ، وينمو بها قصب السكر بكميات تذكر . وقد عد الشـقندي في رسالته فضائل هذه المدينة في كلمات شعرية ، بعد ان ذكرها وذكر واديها فقال . " وعليه من البساتين المتهدلة الاغصان ، والنواعير المطربة الالحان ، والاطيار المغردة ، والازهار المتنضدة ما قد سمعت ... وهي من اكثر البلاد فواكه وريحانـــا ، وأهلها اكثر الناس راحات وفرجا لكـون خارجها معينا على ذلك لحسن منظره ."(٢) كما يوجد على نفس النهر مدينة " أريولة " وهي ذات بساتين وجنات ورياض ، استوقفت ابن سعيد بمناظرها الخلابة ، وجملته يضـــرب من اعجابه ، فوصفها وعد حسـناتها في كلمات عذبة ، فوصفها كانها قاسمة من جنة الخلد ، ونهرها سائـــل ، ودواليبها ندارة ، واطيورها شادية ، وأشجارها متعانقة (٣). وعرفت كورة " جيان " بطيب ارضها ، وكثرة ثمرهـا ، واطـراد عيونها ، ووفرة لحومها وعسلها ، وبجبلها الذى يناطح السحاب علـــوا ، وبنهرها الكبيـــر ، ذي المياه الغزيـــرة ، والارحاء الكثيرة جدا ، وهي تضم مدنا

---

١)- نفســـــه : ١٩٣

٢)- نفســـه : ١٩٣-١٩٤ ، فرحة الانفس : ١٥-١٦ ، المغرب ٢ : ٢٤٥-٢٤٦ ، الروض المعطار : ٥٣٩ ، اسبانيا شعبها وارضها : ٢٥ ، Description, Razi : 20

٣)- الادريسي : ١٩٣ ، المغرب ٢ : ٢٨٦

كثيرة منها مدينة " شـقورة " التي تمتاز جبالها بوردها الذكي العطر ، والسنبل الرومي الطيب . والى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة الاندلس ، توجد كورة " إلبيرة " ، التي خربتها الفتنة ، فهجرها اهلها الى " غرناطة " التي عدت بعدئذ قاعدة المدن التي تحيط بها ، وهي ذات ارض خصبة ، سقيا ، كثيرة الثمر والشجر ، يحسن بها شجر الجوز والبندق ، وقصب السكر ، وشجر البرتقال والليمون والرمان والنارنج وغيرها ، كما تمتاز بجبلها " شـلير " والمعروف بجبل الثلج (Sierra Nevada) ، وهو جبل عال جدا ، يرى من اكثر بلاد الاندلس ، كما يرى من عدوة المغرب ، وعرف بذلك لملازمة الثلج له صيفا وشتاء ، ومنه ينبع نهر الثلج " شنيل " ، الذي يسقي جنوب غرناطة . واشتهر هذا الجبل ايضا بأصناف الفواكه ، وكثرة المنازه فكان لذلك مثابة للناس ، يرتادونه للراحة ، لاعتدال مناخه ، واطراد عيونه ، وكثرة عشبه وزهره ، والتفاف أشجاره [٢]. وأما غرناطة فقد وصفها الشقندي بطريقته الخاصة قائلا : " إنها دمشق بلاد الاندلس ، ومسرح الابصار ومطمح الانفس ، ولها القصبة المنيعة ذات الاسوار الشامخة ، والمباني الرفيعة ، وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها واسواقها وحماماتها وارحائها الداخلة والخارجة وبساتينها ، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بسيطها الممتد الذي تنزعت فيه سبائك الانهار بين زبرجد الاشجار ، ولنسيم نجدها ، وبهجة منظر حورها في القلوب والابصار ، استلطاف يروق الطباع ، ويحدث فيها ماشاء الاحسان من الاختراع والابتداع [٣]. "

---

١) - الادريسي : ٢٠٢ ، فرحة الانفس : ١٥ ، الروض المعطار : ١٨٣ ، ٩٤ ، ٣٤٩ ،

٢) - نفسه : ٢٠٣ ، نفسه : ١٤ ، نفسه : ٢٨ ، ٤٥ - ٤١ ، ٣٤٣

٣) - فضائل الاندلس واهلها : ٥٦ .

هذا باختصار ما وصفت به بلاد شرق الاندلس في كتب القدماء ، وهي اوصاف تجلي ما كانت تتميز به تلك الارض ، وما زالت ، من حسن وبهاء، يلفت النظر ويأسر القلب .

" ٢ "

تتميز كورة بلنسية ايضا ، بحسن موقعها ، واتساع رقعتها ، فهي تتوسط شرق الاندلس ، وتقرب من البحر فلا يفصلها عنه غير ثلاثة أميال , كما انها توجد في مستو من الارض الخصيبة ، فهي تعرف بمدينة التراب ، ويمر بها نهر جار ، يسقي مزارعها ، وبساتينها وجناتها (١). وهو لعمقه واتساعه تدخله السفن بسهولة ويسر (٢). مما يساعد على تيسير النشاط الاقتصادي ، كما يساعد على القيام بنزهات نهرية رائعة . ولقد افترص المسلمون هذه الثروة المائية ، فسخروها احسن تسخير ، فاقاموا المزارع ، وأنشؤوا البساتين وشقوا اليها الترع ، وصرفوا اليها الماء ، ونظموا ذلك كله ، تنظيما فنيا مازال يشهد على مهارتهم وتفوقهم حتى الآن (٣) .

ولها الى جانب السهول الواسعة ، والبقاع الفيحاء ، الجبال المعروفة بجبال " بلنسية " ، وهي كلها مفترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون (٤) ، كما ان فيها بحيرة مشهورة ،تنعكس اليها اشعة الشمس فتزيد المدينة رونقا وضياء (٥) .

---

١)- فرحة الانفس : ١٦ ـــ الادريسي : ١٨٦ ـــ Descrption : 21

٢)- الروض المعطار : ٤٧

٣)- اسبانيا شعبها وارضها : ٢٤ ، محكمة المياه ببلنسية : مجلة العربي العدد ١٥١ : ٩٢ - ٩٥

٤)- فرحة الأنفس : ١٦

٥) - المغرب : ٢ : ٢٩٧ ـ فضائل الاندلس وأهلها : ٥٩

ولعل هذا كله هو الذي جعل الحجاري في " مسهبه " ، يجمل نعتها بقوله : إنها " مطيب الاندلس ، ومطمح الاعين والانفس ، قد خصها الله باحسن مكان ، وحفها بالانهار والجنان ، فلا ترى الا مياها تتفرع ، ولا تسمع الا أطيارا تسجع ، ولا تستنشق الا ازهارا تنفح ، وما أجلت لحظاتها في شيء الا قلت هذا أملح شيء .

ويقال ان ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر البلاد ، وجوها صقيل ابدا ، لا ترى فيه ما يكدر خاطرا ولا بصرا ، لان الجنات والانهار احدقت بها ، فلم يثر بأرجائها تراب من سير الارجل وهبوب الرياح ، فيكدر جوها .[1] " وكما اشتهرت بجمال طبيعتها ، اشتهرت ايضا بجمال ورونق قصورها وحصونها وقلاعها ، ومتفرجاتها المختلفة ، فعرفت " برصافتها الموجودة بينها وبين البحر ، وهي كما يقول الشقندي من أحسن متفرجات الارض[2] ، ومتفرجها المعروف " بمنية بن ابي عامر[3] ، وقصرها المشرف على بطحائها وعلى البحر ، في موضع بديع يحار فيه الناظر ، ويقصر عنه الوصف[4] .

كما ان من مدنها وقلاعها " حصن شاطبة " المطل على بطاح وأنهار . ومدينة " أندة " ، وهي كثيرة المياه ، غزيرة الفواكة ، ومدينة " دانية " المحاذية للبحر ، وهي مدينة حسنة عامرة ، كثيرة المنافع ، يكثر بها شجر التين والزيتون ، والكروم ، كما يوجد الى الجنوب منها جبل عظيم ، مستدير ، يظهر من اعلاه جبال " يابسة " في البحر ، ويسمى جبل " قاعون "[5] .

---

١)- المغرب ، ٢ : ٢٩٧

٢)- فضائل الاندلس واهلها : ٥٩ ، الروض المعطار : ٢٦٩ ، المغرب ٢ : ٣٤٢

٣)- المغرب : ٢ : ٢٩٨

٤) - فرحة الانفس : ١٦

٥)- الادريسي : ١٩٢

Description : 22

ومن مدنها الجميلة أيضا ، مدينة " شقر" ، مسقط رأس شاعرنا ، ومسرح أنسه ومربع صباه ، وهي تقرب من شاطبة بحوالي اثني عشر ميلا ، ولا تبعد عن بلنسية ، الا بحوالي ثمانية عشر ميلا . ويحيط بها نهرها الجاري على جوانبها كلها ، فهي لذلك تسمى جزيرة شقر ، وقد اطنب مؤرخو وجغرافيو الاندلس في نعتهـا ، واجمعوا على حسن خطتها ، وجمال طبيعتها ، وكثرة خيراتها . فذكر الادريسي أنها : " حسنة البقاع ، كثيرة الاشجار والثمار والانهار ، وقال عنها الحجاري : أنها عروس الاندلس المقلدة من نهرها بسلك ، المتلفعة من جناتها بسندس ، روض بسام ، ونهر كالحسام ، وبلبل وحمام ، ومنظر يحد على حسو المدام ". ونقل الحميري وصف الادريسي لها ثم اضاف قائلا : " ... وقد احاط بها الوادي ، والمدخل اليها في الشتاء على المراكب ، وفي الصيف على مخاضة " كما ذكرها ياقوت الحموي في معجمه وقال : انها " أنزه بلاد الله واكثرها روضة وشجرا وماء . [(1)] " وقد ذكر صاحب القلائد أيضا أن ابا عبد الله بن عائشة كان " كثيرا ما ينشرح بجزيرة شقر ويستريح ، ويستطيب هبوب تلك الريح ، ويجول في أجارع واديها ، وينتقل من نواديها الى بواديها ، فانها صحيحة الهواء قليلة الادواء ، خضلة العشب ، زاهية الازاهير ، قد احاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الاساور .. والايك قد نشرت ذوائبها على صفحه ، والروض قد عطر جوانبه بنفحه .. " [(٢)] هذه جملة اوصاف لطبيعة بلنسية واعمالها ، احتفظت لنا بها كتب الجغرافيا والتاريخ ، وهي كما نلحظ اوصاف اكتفت بالصورة المجملة ، ولم تتطرق الى الجزئيات الا في النادر ، فهي تحدثنا عن الشجر والثمر ، والرياض والبساتين ، فتفيدنا بان مناطق شرق الاندلس كانت كثيرة الشجر والثمر ، ولكنها لا تذكر لنا الا انواعا قليلة من هذه وتلك ، وكذلك تذكر الرياض والبساتين ، وقلما تفصل او تسمي ما كانت تشمله تلك الرياض والبساتين من ازاهير ومزروعات على اختلافها ، فهي تذكر لنا ان بلنسية وغيرها من مناطق شرق الاندلس عرفت من الشجر : الجوز واللوز والزيتون والتين والكروم ، والبرتقال والليمون ، والنارنج ، ويمكن ان يفهم من قولهم انها كثيرة الثمر ،

---

١)- الادريسي : ٤٢ ، المغرب في حلي المغرب ٢ : ٣٦٣ ، الروض المعطار : ٣٤٩-٣٥٠ معجم البلدان ٣ : ٣٥٤

٢)- سلسل الاندلس ، ٨٥-٨٦ ـــ الذخيرة ٣/٢ : ..

ان تكون قد عرفت أيضا اشجار التفاح والاجاص ، والمشمش والرمان ، بل والنخيل أيضا ، في بلدة " ألِتْشِي " احدى نواحي مرسية[(١)] .

وكانت الجبال الى جانب كونها مفترسة بأنواع الشجر المثمر ، مغطاة أيضا بأشجار الصنوبر ،والسرو ، والخرنوب ، والفلين وغيرها . وذكرت لنا تلك الكتب أن هذه المناطق كانت عامرة بالبساتين والجنات لخصوبة تربتها ، ووفرة مياهها مايدل على انها كانت حافلة بأنواع المزروعات من قمح ، وشعير ، وقطن وكتان ، وقصب سكر وبالاء ، وزعفران وغيرها . وكما عني الاندلسيون بالشجر بانواعه ، والمزروعات على اختلافها ،عنوا أيضا بالازهار ، فأنشــــؤوا الحدائق العامة والخاصة ، واقاموا المفترجات والتنزهات ، وجلبوا اليها أنواع الازاهير ، واستنبتوها بطرق علميــة ، أشرف عليها علماء مختصون ، يحدوهم في ذلك حب عميق ، وتعلق وثيق بجمــال الطبيعة في مجاليها المختلفــة وبخاصة حدائقها ، في ظلها الوارف ، وزهورهــا المفتحة ، ونفحاتها العطرة ، وطيورها المغردة ، وقد احصى المستشــرق " هنري بيريــس " في دراسته القيمة عن الشعر الاندلسي ماعرفته حدائق الاندلس ومتنزهاتها من ازاهيــر تغنى بها شعراء القرن الخامس الهجرى ، فذكر : الآس ،والاقحوان ، والبنفسج ، والنرجس بأنواعه ، والســوسن الازرق والابيض ، والخيري الاصفر ، والخيري النمّام ، والنيلوفر والورد والياسمين[(٢)] . هذا فضلا عما كانت تنضح به بطاح جبالها ، وبساتينها من ورود ، وشقائق ، ونواويــر متنوعة تستوقف النظر ، وتمتع الحس ، وتنطق اللسان بالشكر والاعجاب .

---

(١)- اســبانيا شعبها وأرضها : ٢٥

٢) - La Poesie Andalouse : 168 - 187

لقد ولع الاندلسيون جميعا بطبيعة بلادهم ، بمائها ، وشجرها وزهرها ، ولا أدل على ذلك من دورهم وقصورهم المحفوفة بالشجر والزهر ، والمزينة بالبرك والفوارات البديعة الصنع ، ناهيك عما على انهارها من ارجاء ونواعير وجسور[1] ، وهي كلها تستلفت النظر وتلهم القلب ، وتذكي الخيال .

واذا بحثنا أيضا عما كان في الاندلس من طبيعة حية ، لم نجد شيئا خاصا ، فهذه المصادر كثيرا ما تتعرض لهذا باقتضاب واجمال ، ليس فيه تفصيل ، فيذكر الرازي أن أرض الاندلس كثيرة الانعام ، كثيرة الخيول والبغال ، وأنواع الصيد ، كما ينوه ببلنسية قائلا : إنها ذات زرع وضرع . فيحتمل أن تكون بلنسية وغيرها من مناطق شرق الاندلس قد عرفت تربية الابقار والضأن والماعز ، ومن الدواب : الخيول والبغال والحمير ، والكلاب ، ولما كانت جبالها مفترسة ، فقد تهيأت بذلك لأن تكون مربضا لانواع كثيرة من الحيوانات الوحشية ؛ فمن دون شك أنها كانت كثيرة الذئاب ، والثعالب والخنازير والارانب ، ويحتمل ان تكون ادغالها موطنا للاسود ، والنمور ، والضباع أيضا ، ويستدل ... ال الحدائق والشقندي على أن بساتين شرق الاندلس ، وحدائقه ، قد ... انواعا كثيرة من الطيور كالعصافير ، والبلابل ، والشحارير ، والزرازير ... من انواع الطيور المغردة ، كالقمري والحمام والدراج . وفي جبالها ، بلا شك ... ت انواع الطيور الكاسرة ، كالنسر والعقاب ، والصقر وغيرها ، كما كانت مياه أنهار ... شواطىء بحارها مسرحا لانواع الطيور المائية كالغرنيق والاوز والنورس ، واما انواع الدجاج والديكة ، فلا شك في وجودها والاهتمام بها .

---

١)- فضائل الاندلس وأهلها : ٥٦ ، ٥٨ — المغرب : ٢ : ٢٨٦
الادريسي : ٢٠٥ — الروض المعطار : ٥٣٩ - ٥٤٠ .

٢)- المغرب : ٢ : ٢٩٨ Description : 12

هذا بعض ما اشتملت عليه طبيعة شرق الاندلس عامة ، وكورة بلنسية خاصة من ظواهر طبيعية . حية وصامتة ، وهي على قلتها ، تبين بجلاء ، ما كانت تتمتع به تلك المناطق من تنوع وجمال ، وروعة وبهاء ، مما شد اليها قلوب أهلها ، فأحبوها أصدق حب ، وارتبطوا بها أشد ارتباط ، تدل على ذلك آثارهم الشعرية والنثرية في وصفها والحنين الى ربوعها ، والبكاء على ضياعها [١] .

وقد انطلق ابن خفاجة من القاعدة نفسها ، قاعدة الحب العميق والارتباط الوثيق بطبيعة بلدته شقر ووطنه الاندلس ، فعبر عن مشاعره وأحاسيسه بشعر مفعم بالعواطف ، زاخر بمشاهد الطبيعة في تجلياتها المختلفة ، مما يدل على احساسه العميق بها ، وتجاوبه الحي مع عناصرها وظواهرها ومعطياتها ، وهو شعور افصح عنه هو نفسه بقوله : " اكثار هذا الرجل - يعني نفسه - في شعره من وصف زهرة ، ونعت شجرة ، وجرية ماء ، ورنة طائر ، ماهو الا لانه كان جانحا الى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة ، واما لان الجزيرة كانت داره ومنشاه وقراره ، وحسبك من ماء سائح ، وطير صادح ، وبطاح عريضة ، وأرض أريضة ، فلم يعدم هنالك ، من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرك الى القول نفسه ، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر ، فصار قوله فيه عن كلف لا تكلف [٢] .. " وفضلا فان المتصفح لديوانه يلحظ كثرة الموصوفات ، وازدحام الصور الطبيعية المبثوثة في شعره كله بأغراضه المختلفة ، مدحا ورثاء ، ووصفا وفخرا ، وغزلا وحنينا ، فقد وجد الشاعر في عناصر الطبيعة المتنوعة ، من روضيات وشجريات ، ونوريات ومائيات ، وظواهر الكون المختلفة ، متحركة وجامدة ، حية وصامتة ، زادا خصبا لتشبيهاته واستعاراته ، ومجالا خصبا لبث عواطفه وأشجانه وأفكاره وتصوراته ، فلا نعجب اذا -

---

١)- الروض المعطار : ٦٨ - ١٠١ .

٢)- ديوانه : ٢٩٠ .

وجدنا في شعره مثل قوله :

وما العيش الا بين ريح حديقة ورنّة غرّيد وغُرّة سابح

فنل من جنى هذا وذاك وهذه وجل بين هاتيك الربا والاباطح (١)

فالعيش في نظره لا يحلو في غير احضان الطبيعة الفاتنة ، ولا يطيب في غير أجوائها المقام . كما لا نعجب اذا وقفنا على شعر يفيض بالعاطفة والحنين ، هنا وهناك في ديوانه ، ينم عن علاقة وثيقة ، وصلة بالطبيعة قوية ، تلك الطبيعة التي نشأ في أحضانها ، وترعرع فوق ربوعها ، واستودعها احلى ذكريات عمره ، وأجمل ساعات انسه ، فالاندلس جنة ، لا يكاد يبعد عنها حتى تطمى بالشوق والحنين اليها :

إن للجنة في بالأندلس مجتلى حسن وريا نفس

فسنا صُبحتها من شنَب ودجى ليلتها من لعس

فاذا ما هبت الريح صبا صحتُ واشوقي الى الاندلس (٢)

وهذا المنطلق ، منطلق الحب في التعامل مع الطبيعة ، والاحساس بالجمال والكمال والسحر في جنباتها كان مرتكز الشاعر في اوصافه التي استغرقت الكثير مما وقعت عليه عينه في طبيعة ولنه الغناء برياضها التي ارتسمت في شعره بجمالها وحيويتها ، وأشجارها المنورة والمثمرة ، وأزهارها وهي تميس بألوانها الزاهية وعطرها الفواح ، وجبالها الراسية الشامخة ، ورباها المخضرة ، وسهولها الفسيحة وأنهارها الجارية الهادرة ، وبحرها الممتد في زرقته وهدوئه واضطرابه ، وسمائها ونجومها وغيومها وأمطارها ، وحيوانها ، ووسائلها الحضارية ، حظي كل هذا بعنايته ، ونال قسطه من اهتمامه ، على اختلاف في تلك العناية وهذا الاهتمام

---

١) - المصدر السابق : ٢٩٢

٢) - نفسه : ١٣٦ .

كما وكيفا ، وهو يصور طبيعته تصويرا يمتزج بعواطفه ومشاعره حينا ، ويخلو من العاطفة ، واقعيا ، حينا آخر ، مع ميل واضح الى النظرة الكليـــة في العرض والتصوير ، دون ان يغفل عما فيها من جزئيات وعناصـر تستوقف النظر ، وتثير الاهتمام ، بما فيها من جمال حسـي منظور ، وارتباط وثيق بالصورة الحسية التي بناها الشاعر في مخيلته للمـرأة التي حرم منها كزوجـة ، وشريكة حياة ، وهو أمـر أشرنا اليه من قبل[1] ، كما ستكثـر الاشارة اليه في فصول هذا الباب لاستمرار حضـوره وتجليـه في نصوصـه المختارة .

ولقد تنبه القدماء والمحدثون ، ممن تعرضوا لحياة الشاعر وأدبه بالدراسة والتحليل للمكانة التي احتلتها الطبيعة في شعره ونثره ، فأبدى كل منهم انطباعه ، وأعلن رأيه في هذه الظاهرة ، وهي آراء وانطباعات تنم في مجملها عن تقديـر للشاعر ، واكبار لجهده ومساهمته في هذا المجال ، فقد ذكره معاصروه ومن تلاهم من القدماء[2] ، وشهدوا له بالبراعة والسبق في وصف الرياض والمياه ، وما يتعلق بهما من عناصر الطبيعة المختلفة ، وفخر الشقندي في رسالته بموهبة الشاعر في هذا الفن على اهل العدوة[3] ، ووصـفه ابن سعيد في الرايات بأنه " شاعر الاندلس في وصف الازهار والانهار "[4] ، وأما المقري فقد لـقب الشاعر بلقب شـاعر الشام في وصف الطبيعة ابي بكر محمد بن احمد الصنوبري ، فدعاه "صنوبري الاندلـس" ، لاشتراكهـا في هذا الفن ، ثم نوه بشـهرته ، وذكر أن أهل الاندلس كانـوا يسـمونه " الجنان " لولعه بوصف الأنهار والأزهار[5] .

---

١)- راجع ص : ٤٨ - ٥٠ .

٢)- قلائد العقيان : ٢٦٦ - الذخيرة ٢/٣ : ٥٤٢ - نفح الطيب : ٣ : ١٥٥

٣)- فضائل الاندلس وأهلها : ٤١ .

٤)- رايات المبرزين : ١٢١

٥)- نفح الطيب ٣ : ٤٨٨ .

وكما اشاد الأقدمون بمكانة ابن خفاجة وبقدرته عرف له دارسو الادب في العصر الحديث حقه ، فقد وقفوا على هذه الظاهرة في شعره ، فاقروا له بالسبق والاحسان . فهو عند بعضهم شاعر الطبيعة الذي امتلأت نفسه وعينه من جمال الطبيعة ، فأقبل عليها ، يصفها ، ويناجيها ، ويحملها أشواقه وهواجس نفسه.[1] وهو عند بعضهم الآخرين أشهر وصافي الطبيعة في الاندلس ، بل ، هو قمة شعراء الطبيعة فيها.[2]

ويذهب بعضهم الى أبعد من ذلك . فيرون أن الشاعر قمين بلقب شاعر الطبيعة في أدبنا العربي القديم عامة.[3] وينوه آخرون بأثر بيئته في تكوين شاعريته ، وفي تربية ميله الى الطبيعة ، وتنمية احساسه بها ، فلو لم ينشأ ابن خفاجة في تلك الجزيرة الرائعة ، بمناظرها الجميلة الساحرة ، وحدائقها الفاتنة الخلابة لما نضجت شاعريته ، وبلغت به ذلك المستوى السامق من الشهرة في عصره وبعد عصره.[4] وعلى الرغم من هذا فان الدكتور شوقي ضيف لم يعترف للشاعر بالفضل ، فهو عنده لا يعدو أن يكون مقلدا لشعراء المشرق في كل ما صدر عنه من شعر في مجال وصف الطبيعة ، وان كان له من فضل ، فهو الكثرة ليس الا.[5] ولا يخفى على الباحث المحقق ، ما في هذا الحكم من مغالاة ، تنافي مقتضيات البحث العلمي الجاد . وعلى العكس من الدكتور شوقي ضيف فان د . ميشال عاصي يرى أن في شعر ابن خفاجة ، وان لم يأت بجديد من حيث الاسلوب التعبيري

---

١)- تاريخ الادب العربي . للزيات : ٣٢٩ — ابن خفاجة : ٥٧

٢)- ابن زيدون عصره وحياته وأدبه : ٥١٦ — دراسات في الشعر الاندلسي : ٦٣ — الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه : ٢٦٥

٣)- مجلة المجمع العلمي / ج ٣١ : ٣٩٤ . . . / . . .
تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين : ٢٠٤ .

٤)- ابن خفاجة الاندلسي ، احمد الاسكندري مجلة المجمع / ج ٨١ : ٦٩٧ . . .
حياة وآثار الشاعر الاندلسي ابن خفاجة : ٥٠

٥)- الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٤٤٥ .

نزوعا خاصا الى الاحساس بالطبيعة الاندلسية في مختلف وجوه سحرها وجمالها مما يكسبه نكهة اندلسية يشمس فيها نهر من أصالة ، وملامح من جدة في هذا الباب لا تنكر .[1] واذا فهذا بعض ما قيل عن ابن خفاجة في مجال اختصاصه وصف الطبيعة ، وعن مكانته ومقدار مساهمته في بناء شعر الطبيعة في أدبنا العربي ولكن هل تصدق عليه تلك الأقوال والألقاب والنعوت ذلك ما سنتبينه نفيا او اثباتا ، بدءا من الفصل الآتي الذي نلج فيه روضيات ابن خفاجة محاولين الاستمتاع معه بمنظرها البهيج وجوها البديع .

---

١)- الشعر والبيئة في الاندلس : ٩٤ - ٩٥ .

الفصل الثاني

في الروضيـــــــات

لقد علمنا مما سبق أن شاعرنا ولد ونشأ وترعرع ، وقضى أغلب سني عمره في جزيرة شقـــر تلك البقعة الرائعة ، ذات الانهار والجنات والبساتين ، وعرفنا أيضا أنه كان جلد بهـــا ضياعا ورثها من أهله ، وعكف على خدمتها والاهتمام بها مدة حياته ، فكان ولا بد ، وهـــو الانسان الحساس الذواقة ، من أن تتأكد بينه وبين طبيعتها الفناء أواصر حب نام ، متلـور تصير الطبيعة في خلاله جزءا من كيانه وقطعة من نفسه ، يصورها ممزوجة بنزعاته ، وأحاسيسه الدفينة ، ويسقط عليها في تلقائية واضحة ، مشاعره ورؤاه وتصوراته للكون والانسان والحياة ولا بد وإعجاب الشاعر بالجمال الطبيعي وبالتناسق الرائع ، والوحدة المتلاحمة بين عناصره في شيء مما صور الشاعر أكثر مما بعد وفي روضياته التي قال عنها غارسية غومث إنها " لتفيـــض عذوبة وجمالا ، وإنه ليصورها في فن مصقول ، حافل بالمعاني فتبدو وكأنها مشاهد من عالم الخيال أو مجالس أندر تدور فيها الانوار " (١) . والحقيقة أنها كذلك ، فهي عامرة بالمشاهد حافلة بالصور الطبيعية التي عرف الشاعر كيف يخطها ، بما أسبغه عليها من ظلال وألـــوان وأضواء ، وبما نفخه فيها من حياة وحركة ، فجاءت رائعة ممتعة .

فالروض وقد رقته الغمامة ، وتفتحت كمائم أزهاره ، وطلع عليه الصبح . فكشف عـــن رونقه وبهائه ، يفتن الشاعر ، ويجذبه اليه ، فيمتع ناظره بمحاسنه ، ويصور جماله تصويـــرا يفيض حركة ويمتلىء حياة ، موظفا في ذلك ثقافته الشعرية ، وعاكسا مشاعره الدفينة :

وكِمامةٍ حدَرَ الصباحُ قناعَهـــــا	عن صفحة تَنْدَى من الازهـــارِ
في أبطحٍ رضعتْ ثغورُ أقاحِـــــه	أخلافَ كل غمامـــــــة مِدْرارِ
نثرت بحجْر الروض فيه يدُ الصَّبـــا	دُرر الندى ودراهم النُّـــــوارِ
وقد ارتدى غصنُ النَّقا وتقلَّـــدت	حلي الحَبابِ سوالفُ الانهــــارِ

---

(١) الشعر الاندلسي : ٥٦

فتحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشط بدء عذار

والريح تنفض بكرة لمم الربا* ... والطل ينضح أوجه الأشجار

متقسم الألحاظ بين محاسن ... من ردف رابية وخصر قرار

وأراكة سجع الهديل بفرعها ... والصبح يسفر عن جبين نهار

هزت له أعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوار (١) .

وهو ذي نشعر معه الشاعر بالفرحة التي تملأ جنبات الطبيعة اثر نزول المطر ، كما نحس بالحياة والحركة تنبعث في عناصرها ، فالزهر يتفتح ، والاغصان تورق وتزهر ، والماء يتدفق ، والظلال والربا تكتسي بالخضرة ، وتزدان بالزهور ، انه مشهد الطبيعة في فصل الربيع وجوه الرائق الجميل ، كما نحس بفرحة الشاعر وانفتاح قلبه للحياة في جو الطبيعة الفاتنة ، وهي استراحة عدت به الى الافصاح عما في أعماقه من أحاسيس ومشاعر تجاه المرأة ، فباح بمعاني عفوية ظاهرة ، فالاقاح يرضع بثغوره أخلاف الغمامة ، وللانهار سوالف ، كما أن للشط عذارا ، وللرابية ردفا ، وللقرار خصرا ، والشجرة تطرب لغناء الطير فتهز له عطفها ، وتخلع عليه رداءها ... وهي صفات ووسائل تخص المرأة ، وتتمتع بها ولكن الشاعر خلعها على الطبيعة ووسمها بها – على سبيل التشبيه والاستعارة ، لما أوجده في مخيلته ، وعالمه النفسي من علاقة بين المرأة والطبيعة .

ويصور حال الروض ، وقد غمره الغمام ، وصب عليه من شآبيبه ، وحركت الريح شجره وأمالت غصونه ، ونثرت نواره وزهره ، وغنت أطياره بشرا وسرورا ، تصويرا حيا مشخصا بقوله:

ومجر ذيل غمامة لبست به ... وشي الصبا بمدامع الأنهار

خفقت ظلال الايك فيه ذوائبا ... وارتج ردفا مائج التيار

ملون القضيب هناك جيدا أتلعا ... قد قبلته مباسم النوار

باكرته والغيم قطعة عنبر ... مشبوبة والبرق لفحة نار

والريح تلطم فيه أرداف الربا ... لعبا وتلثم أوجه الأزهار

---

(١) الديوان : ٣٢٦

* لمم الربا : ج لمة : ما يكسوها من نبات وشجر .

وضائرُ الاشجار قد قامت بهـــا   خلفاء مفصحة من الأطيـــار (١)

انه لروض حي ، تغمر الفرحة عناصره ، ويعم السرور كل جهاته ، تهتز أشجاره ، وتتفتق أزهاره وتتغنى أطياره ، معبرة عن فرحتها بقدوم المطر ونزول الغيث ، وكأن الشاعر خلـــع فرحته على الطبيعة ، وأسبغ عليها ما في أعماقه من مشاعر واحاسيس ، فجاء المشهد جميـــلا موحيا ، هذا عدا ما في النص من صور تكاد تنطق بشعور ابن خفاجة الحسي تجاه المـــرأة فقد ازدحم النص بما له علاقة بها من صفات وأشياء ، فذكر الذيل ، والوشي ، والردف المرتج والجيد الاتلع ، والتقبيل ، والمباسم ، ولثم الاوجه ، . . . في سياق الاستعارة ، يفصـــح بجلاء عن المكانة التي تحتلها المرأة في عالم ابن خفاجة الشعوري .

وتفتن الطبيعة الشاعر في شتى مظاهرها ، وتأخذ بلبه ، وقد التحفت بالغمـــام وتساقطت قطرات الندى على شجرها وزهرها ، فتلألأت تحت ضياء الشمس بعد انقشـــاع الضباب ، فيزداد الروض بهاء ، وهو جو لا يلبث الشاعر فيه أن ينادي بالخمـــر ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، فهي عنده عنصر مكمل لهذا الجمال ، وهو في ذلك كله لا ينســـى أن يبث الطبيعة مواجده ، وأن يخرج من خلالها عما تتوق اليه نفسه :

ومجر ذيل غمامة قد نمنمـــت*	وشي الربيع به يد الانـــواء
ألقيت أرحلنا هنـالك بقيعـــة	مضروبة من سرحة فيحـــاء
ونسمت أرج النسيم بين رسـالة	مخضرة وقرارة زرقـــاء
وشربتها عذراء تحسبها أنهـــا	محصورة من وجنتي عـــذراء
حمراء صافية تدايب بنفسهـــا	بغنائها ومخالق الندمـــاء (٢)

ويتغزل ، ويحب ساقيه الذي يناوله كأس الخمر ، ولكنه لا يشرب منها الا بالقـــدر الذي لا ينسيه نفسه ، ويشغله عن تلك المناظر الطبيعية التي يحفل به ، ويغمـــره بضيائه ويمتعه بجماله وروعته :

---

(١) الديوان : ٣٤

(٢) نفســـه : ٢٥٠   * نمنمت : زركشت

سقانا وقد لاح الهلال عشيّة ... كما اعوجّ في درع الكميّ سنانُ
عُقاراً نماها الكَرْمُ فهي كريمة ... ولم تزنِ بابن المزن* فهي حصانُ
وقد جال من جون الغمام أدهمٌ ... له البرق سوط والشمال عنانُ
وضمّخ ردعُ* الشمس نحر حديقة ... عليه من الطلّ السقيط جمانُ*
ونمت بأسرار الرياض خميلة ... لها النّور ثغر والنسيمُ لسانُ (١)

ويحلو له عقد مجلس أنسه في جو الطبيعة الفاتن ، وقت تساقط الطل ، واختلاط ظل الغمام بضياء الشمس ، وتنبه الروض ، وقد هبّ النسيم ، فتحركت السواكن ، وتعطرت الاجواء بأريج زهر الروض ونواره :

ندي النسيمُ وما أرقّ وأعطرا ... وهفا القضيب وما أغضّ وأنضرا
فرففتها بكرا اذا أقبلتها ... ألقت على وجهي قناعا أحمرا
ورفلتُ بين قميص غيم ظلها ... ورداء شمس قد تمزق أصفرا
والريح تنفض من رذاذ لؤلؤاً ... رطبا وتفتق من غمام عنبرا (٢)

وكثيرا ما ينجذب الشاعر الى الطبيعة ، في جوها العاطر بالحركة والضياء ، حيث الظل الوارف ، والماء السائغ ، والأزهار الزاهية الالوان ، فيستسلم لمنظرها الرائع ، ويمتع حسه من عناصرها المتنوعة ، ويرى نظره عليها بنظر الاعجاب والاهتمام ، ويبرز ما اشتملت عليه من حسن وبهاء ، مصورا اياها تصويرا مفعما بالحركة والحياة وذلك كما في قوله :

وأراكةٍ ضربت سماءً فوقنا ... تندى وأفلاك الكؤوس تُدارُ
حفّت بدوحتها مجرّة جدولٍ ... نثرت عليه نجومها الازهارُ
فكأنها وكأن جدول مائها ... حسناءُ شدّ بخصرها زنّارُ
رقّ الزجاج بها ورقّت مدامة ... تُجلى ونوّار الغصون نثارُ

---

(١) الديوان : ٢٣٥
(٢) نفسه : ١٢٦

* المُزْنُ : ج مُزْنَة : السحاب عامة أو ذو الماء منه.
* ضمّخ : لطخ . ردْعُ الشمس : شعاعها الاصفر . الجُمان : الفضة ، نم : أذاع وحدّث .

في روضةٍ بحق الذَّهبِ طلابهـــا وتجشمت نَوْرًا بها الأشجـــارُ
غنَّاء ينشرُ وشيه البزَّازُ لـــي فيها ويفتق مسكه العطـــار
نام الغبارُ بها وقد نضح الندى وجه الثرى واستيقظ النُّـــوَّار
والماء في حَلْي الحَبابِ مقلّـد زرّت عليه جيوبها الأشجـــار (١)

وقد أفصح هذا الوصف عن ذوق الشاعر الرفيع ، ودلّ على ثقافته واسقاطاته الشعورية الدفينة ولكن مخزونه الشعوري لا يظهر في هذه القطعة كما يظهر في صورتها المعدلة التي أبرزت بشكل واضح أحاسيس الشاعر، وعكست ما تنطوي عليه جوانحه من حب حسي للمرأة ، وهيام شديد بها . مما جعل صفاتها تسيطر على نفسية الشاعر ، وتنضغط عليه فيأبى الا أن يبوح بها من خلال الطبيعة في مظاهرها المتنوعة :

ومقلبة النُّوَّار تلوي عاطفهـــا ريحٌ تلفّ فروعها معطـــارُ
عاطي بها الصهباءَ أحوى أحـورٌ سحّاب أذيال الصّبا سحّـار
والنَّوْر عِقْد والغصون سوالـــف والجِزْع زند والخليج ســوار
بحديقة مثل اللَّمى ظلا بهـــا وتبسمت نورًا بها الأنـــوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى وشدا الحمام وصفق التيـــار
غنّاء ألحف عاطفها الورق الندي والتف في جنباتها النُّـــوَّار
فتأملت في كل موقع لحظـــة من كل غصن صفحة وعـــذار (٢)

فالأعطاف والأذيال ، والعقد والسوالف والزند والسوار ، واللمى ، والصفحة والعذار ، أمور تخص المرأة وتتصل بها ، وتتصل اتصالا وثيقة بموضوع الغزل ، ولكن الشاعر اتكأ عليها في وصفه ، وجعل منها مصدرا لتشبيهاته المختلفة واستعاراته المتنوعة مما يدل على أنه كان ينظر الى الطبيعة من خلال المرأة ، فيصفها بصفاتها ، ويسمها بسماتها من دون أن يستشعر أي حرج في ذلك .

---

(١) الديوان : ٣٥١ * البزاز : بائع الثياب ، احوى : من الحوة : سمرة الشفة
أحور : من الحور : وهو شدة سواد المقلة في شدة
بياضها في شدة بياض الجسد ، الجزع : منعطف الوادي
اللمى : سمرة في الشفة تستحسن .

(٢) الديوان : ٢٨١

وقد يتعلق الشاعر بالطبيعة ، ويوغل بما فيها من ألوان وضياء ، ويصور لنا في مظاهرها من حركة وحياة فيصور ذلك كله ، ويضيف الى متعته بهذا الجمال الطبيعي متعة أخرى مثلة ، متعة الخمر ، التي تنافس لونها وبريقها مع ألوان الطبيعة وبريقها :

ويومٍ يجري برقة أشقـــــرًا   يطارد من مزنةٍ أشهبـــا
ترى الارض فيه وقد فُضِّضـــت   ووجه السماء وقد ذُهِّبـــا
وقد ألبس الروض من أيكـــة   سماءً ومن زهرةٍ كوكبـــا
وطرّز أثوابَ خُضْر الغصـــون   ورصّع تيجان هام الربـــا
وقد قبّل الماء كأس المـــدام   فأضحت ثغرا لها أشنبـــا*
وشبَّ المزاجُ بها جمـــرة   تكاد بها الكأس أن تلهبـــا (١)

وهو وصف عامر بالضياء والألوان ، مليء بالحركة والحياة . وتكثر مجالس الرجل في أحضان الطبيعة وتتعدد ، وتحلو له الخلوة في أجوائها ، ويطيب له المقام بين أشجارها وأزهارها ، ورقة أطيارها فيحس بها إحساسا واعيا ، ويقف على أسرارها ، فيترجم احساسه في شعر يصور علاقته بها ، كما يجلي العلاقة الحميمة التي تربط عناصرها ، فالطائر يغني ويطرب ، والغصن يستمع اليه فينثني نشوة وطربا ، والعولة تهتز له أيضا والرعد يرتجز ويطلي ، وراحة البرق تكتب ، لقد عمت الفرحة الكون ، وارتبطت عناصره برباط وديّ وثيق ، وتلتقي في الطبيعة من داخلها وخارجها ، حركة وانسجام ، وتناسق وجمال ، وما كان الشاعر ليحس هذا الاحساس لو أنه لم يكن محبا للطبيعة ، هائما بها لا يجد راحة الا في حضنها ، ولا يخلد الا الى خرير مائها ، ورقّة طيرها ، وطيب روضها :

وقد هزّ من عِطْفَيْ نديم وغُولَـة   رنينُ حمامٍ أو غلام يطـــرِّبُ
ومنّ بأنداء الغمام مفضَّـــض   وذيلٌ عليه للعشيّ مذهَّـــب
وقد جال مِنْ كأس السُّلافةِ أشقرٌ   يسابقهُ من جدول الماء أشهـــب
بروض كأنّ الغصن يزهى فينثني   به وكأن الطير يسقى فيطـــرب

---

(١) الديوان : ٢٩٨   * الأشنب : من الشنب : أي في ثغره بياض وبريق .

قد ارتجز الرعد المُرِنُّ بأفقـــه فأملى وجالت راحة البرق تكتب
كأنَّ لسان البرق فيه عشيّـــةً لواء خضيب أو رداءٌ مذهّـــب (١)

وبهذه الظاهرة ، ان تصوير الشاعر للطبيعة من حيث علاقته بها ، أو علاقة عناصرهـــا بعضها ببعض تتكرر في شعره مما يؤكد صلة الشاعر الوثيقة بالطبيعة ، واحساسه الحي بها .

وقد يخلل الشاعر في وصفه للطبيعة من ذاته ، فيقف على المنظر الطبيعي ، فيتطلـــع جوانبه ، وينظر الى الطبيعي في أنسابه وخريره وصفائه ، فيرى فيه ذاته ، ويخلع عليـــه صفاته وأحزانه ، متضايقا من نفسه ، ما يورثها من آلام وأحزان ، ويرمقها من قلـــق واضطراب :

أمستمعٌ من سجع أورق صـــادح ومرتبعٌ في ظل أزرق سائـــح
يسيل فيحكيني صفاءَ سريـــرةٍ ويجري دموع واضطراب جوانـــح (٢)

يصف الروض وصفا حسيا ، يعنى فيها بالالوان والاشكال ، ويطلب ثقافته ومطالبـــات بيئته تصوير مناظره ، ويبعث الحركة في جنباته مستفيدا من عنصر التشخيص فيقول :

وروضة طلقة جبينهـــــا غنّاء مخضرّة جنابـــا
ينجاب عن نورها كمـــام تنحط عن وجهه نقابـــا
بات بها النسيم الا تاحيـــبي يرشف من ظلها رضابـــا
ومن خفوق البروق فيهـــا ألوية حمّرت خضابـــا
كأنها أنصـــلٌ وراد تحسر وقطر العيا حسابـــا (٣)

ولم يكن الطبيعة تستهويه مغمورة بضياء النهار فحسب ، بل استهوته أيضا في الليـــل حيث الصمت والهدوء ، وضوء القمر ، وتلألؤ النجوم ، فيجانب فرسه العنان ، فيخفف مـــن سرعته ، ويمكنه من تملي الجمال الطبيعي في صورته الكلية ، ويتنقل بين المشاهد المختلفـــة

---

(١) الديوان : ٣٠١
(٢) نفســـه : ٢٩١
(٣) نفســـه : ٣٢٩

ثم يقف عند مشهد رائع، مشهد تنفُّس الصبح، وانبعاث الحركة، وتجدد الحياة في عناصر الكون، وظواهره المتنوعة، فيصف ذلك كله، ويقدم المشهد بصور يرسمها للصبح يستوحي فيها بيئته الحربية :

جاذبتُه فضلَ العنانِ وقد طغى … فانساعَ ينسابُ انسيابَ الأرقمِ*
في قسطلٍ غَمْرٍ بالالاءِ موشَّحٍ … أو رأسِ أقودَ* بالغمامِ معمَّمِ
أو نحرِ نهرٍ بالحبابِ مقلَّدٍ … أو وجهِ خرقٍ* بالضَّريبِ ملثَّمِ
حتى تهادى الغصنُ يا ابنَ متنُه … طربًا لشدوِ الطائرِ المترنمِ
وكأنَّ ضوءَ الصبحِ رايةُ فاتحٍ … نفضَتْ بها الهيجاءُ* نضحًا من دمِ (١)

وكان لتعلق الشاعر ببيئته وإعزازه، وحبه لها، وهيامه بها، أثر عميق في نفسيته المرهفة وغاية ما يصنع أن تنأى به الأسفار، مرغما أو مختارا، عن أجوائها وظلالها، فهو لا يفتأ يحن اليها كلما بعدت به الشقة عنها، ويذكرها في شعر مؤثر، يفيض بالعواطف، ويزخر بالمشاعر الرقيقة، ويصاحب هذا الحنين، غالبا، حنين الشاعر، وقد وخطه الشيب، وأدركته الشيخوخة، وأقلع عن صبواته، الى أيام صباه، ومجالس أنسه التي قضاها وأصحابه وخلانه في أجواء تلك الطبيعة الغناء. فقد كان، مشغولا بدائرتين متشابكتين : دائرة المكان ودائرة الزمان، ولكن تبقى الدائرة الثانية - دائرة [illegible]، هي المسيطرة والأشد الحاحا على الشاعر لما لها من علاقة بسمات الذات [illegible] مزاجه الخاص (٢). فهو لا يمل من ذكر بلده، ووصفها وتعداد محاسنها، ولا يبالي [illegible] عند ما الاعجاب مأخذه أن يمنحها الخلد، ويسمها بسمات لا يقبلها كل الناس:

يا أهلَ أندلسٍ للهِ دَرُّكُمُ … ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنةُ الخلدِ الا في ديارِكُمُ … وهذه كنتُ لو خُيِّرتُ أختارُ

---

(١) الديوان : ٢٤٤ - ٢٤٥

(٢) ابن خفاجة : ٦[illegible] - ٧٠

* الأرقم : من الحيات فيه سواد وبياض .
الأقود : الجبل ، الخرق : الأرض الممتدة
الضريب : الثلج ، الهيجاء : الحرب .

لا تتّقوا بعدها أن تدخلوا سقرا ‏ ‏ ‏ ‏ فليس تُدخَل بعد الجنّة النار (١)

فالاندلس جنة الخلد ، قد كثرت خيراتها ، وندبت ظلالها ، وتأرج جوها ، وتدفقت مياهها ، وابن خفاجة من شدة اعجابه بها ، وعمق حبه لها يفضلها على غيرها ، ويتصور أهلها الذين ينعمون بالعيش في ظلالها يدخلون جنة ، لا يبرحونها الى نار .

ولئن كان الشاعر محبا لوطنه الكبير ، الاندلس ، تواقا الى رياضه ، وجناته ، فانه لوطنه الصغير ، شقر ، أحب وبه أعلق ، فهو مسقط رأسه ، ومسرح طفولته ، ووعاء ذكرياته بما فيها من أفراح ومسرات ، وآلام واحزان ، امتزجت أنفاسه بنسائمه ، وبماؤه بتربته وعرقه بثراه ، فصارت شقر باشجارها ، ورياضها وجبالها وأنهارها وودبانها جزء من كيان الشاعر ، وقطعة من نفسه ، وليفابراوده في يقظته ومنامه ، ان هذا الحب ، وذات التعلق هما أرضية شعره في الحنين الى وطنه والى مغانيه ، وذكرياته في احضانه .

وابن خفاجة وهو الفنان المرهف بأرضه ، العاشق لمساتينه وضياعه ، يرى أن الكل يحب هذه الارض ، وينجذب اليها ويتعلق بها ، حتى فرسه ، يشتد به الحنين الى شقر فيخف على السرى ، ويسارع في الرجوع الى تلك الارض الكريمة ، والمرتع الخصيب ، حيث الماء السائغ ، والنسيم العليل ، والاباطح المخضرة ، والبساتين اليانعة ، وسجنسج الحمائم ، وغناء الاطيار ، انه المنظر الذي كان يقترب منه الشاعر حتى يحس بسحره ، ويفتتن بروعته ، ويهتز من أعماقه طربا عن فرحته ، وارتياحه واندماجه في جو الطبيعة الفتان :

وحنَّ الى شُقْر فخفَّ على السُّرَى ‏ ‏ ‏ ‏ يخوض غليبا أو يجوب كثيبا
يؤُمُّ بها أرضا علي كريمـةً ‏ ‏ ‏ ‏ ومرتعا فيها اليَّ حبيبـا
ونهرا كما ابيضَّ المُقبّل سلسلا ‏ ‏ ‏ ‏ ويرزعا كما اخضرَّ العذار خضيبا

---

(١) الديوان : ٣٦٤ ، نفح الطيب ١ : ٦٨١

(٢) نفســه : ١٢٦

وربَّ نسيمٍ مرَّ يحمل عاطرا ... رقيقَ الحواشي لا يُحَسُّ دبيبها
وجدتُ به من ذلك الماء بلّةً ... ومن نَوْر هاتيك الأباطح طيبها
فما كان إلا أن هتفتْ حمامةٌ ... وساعدت شوقي فاهتززتُ قضيبها
وقد قلّد النوّار جيدَ الربوة ... هناك ونحرا للفضاء رحيبها
وأفصحت الورقاء في كل تلعة ... نشيدا وقد رقّ النسيم نسيبها
وكان على عهد السلوّ تغنّيها ... يُهيّج أطرابي فعاد نحيبها
دعا بغروب الدمع والدار غربةٌ ... فلم أرَ إلا داعيا ومجيبها (١)

ولم تزل ذكريات الشباب على مسرح الطبيعة تتردد أصداؤها في شعره ، وتلاحقه في شيخوخته ، تذكره بأيام صبوته ، وساعات أنسه بين خلانه وأترابه الذين اختطفت المنية بعضهم ، ونأت ببعضهم الأسفار ، انها لأيام عذبة ، لم تفارق حلاوتها قلب الشاعر ، ولم ينسه كر الزمان ، ولا توالي الاسقام ، سعادته الغامرة التي نعم بها في ظل الشباب الغض وظلال الطبيعة الوارفة ، فهو لم يزل يولع بظلال الطبيعة وغدرانها ، ونفح الرياض وخرير المياه ، واهتزاز الشجر ، وغناء الطير ، يصور ذلك كله مضمنا اياه لواعج قلبه وأحر أشواقه .

---

(١) الديوان : ١١٢ - ١١٣

وإنّي وإنْ جئتُ المشيبَ لمُولَعٌ بطُرَّة ظلٍّ فوق وجه غديـــر
فيا حبّذا ماءٌ بمُنعَرَج اللِّــوى وما اهتز من أيك عليه مطيـــر
ونفحةُ ريح للربيع ذكيّـــة ولمحةُ وجه للشباب نضيـــر
ومسعةُ طرف العين من سِنَة الكرى لرجع خرير او لسجع هديـــر
وقد لاح وجهُ الصبح يبدو كأنّه وراء قناع الليل وجهُ بشيـــر
وقد مدّ وجه الثُريّا كأنّـــه ملمعة جيش أو لواء أميـــر (١)

وهو يدعو لارضه بالسقيا ، ويصفها بما يناسبها من نعوت تدل على حقيقتها وفضلها فيقول :

فسقيًا لأرضٍ ألِفتُنا فإنها وإن أكُ فارقتُها جنّةُ الخلـــد (٢)

وهو أسلوب معروف في شعرنا العربي ، كما أن استعماله لأسماء الاماكن النجدية والحجازية على سبيل الرمز في مجال الحن بالواجد ، والتعبير عما يخامر النفس من خلجات واشواق ، نهج مسلكه الشريف الرضي ، ومهيار الديلمي من قبله ؛ ولكن الشاعر صبغها بصبغته ، وطبعهـــا بطابعه الخاص .

ذلك هو الوادي ، وتلك هي طبيعته الغناء ، برياضها العاطرة ، وازهارها المتفتحة الزاهية واشجارها المتهدلة ، وغصونها المائسة ، جذبت الشاعر اليها شابا ، فسكن اليها ، وأنس بهـــا وارتبط بها قلبه ، وتجاوبت معها جوارحه ، ويمر الزمان سريعا ، وتتطور الحياة ، ويؤول الشباب الى المشيب ، وينتقل الشاعر من حياة الى حياة ، ومن طور الى طور ، ولكن تبقى حياة الصبـــا وأيام الشباب ، بما في تلك الحياة ، وهذا العالم من افراح ومسرات ، مرتبطة بالطبيعة ، متعلقة بها ، عالقة بذاكرة الشاعر لا تبرحها ، يذكرها في حرارة ويأسف لضياعها ويتأوه لفراقها ؛

---

(١) الديوان : ١٨١

(٢) نفسه : ٣٤٨

بين شعر وملتقى نهريها ... حيث ألقت بنا الأماني عصاها

ويغني المناء في شاطئيها ... يستخف النهى فحلّت حُباها

مهجة أثملته بشرى هواها ... وارتشفنا لذاتها في كراها

لعبت بالعقول إلا قليلا ... بين تأويبها وبين سراها

فاجتنينا من الغصون غصونا ... مرحا في بطاحها ورباها

ثم ولّت كأنها لم تكد تلبث ... إلا عشية أو ضحاها

فاندب الحزن فالنهيسة فالشطّ ... وقل آهٍ يا محبة سواها

آهِ من غربة ترقرق بشتّى ... آهِ من رحلة تطول نواها

آه من فرقة بغير تلاق ... آه من دار لا يجيب صداها

لست أدري وهي من الحزن رطب ... أبكاها صبابة أم شجاها ؟

فتعالي يا عين نبكي عليها ... من حياة إن كان يغني بكاها

وشباب قد فات إلا تناسيه ... ونفس لم يبق إلا شجاها

ما لعيني تبكي عليها وتلهي ... يتمنى سواده لو فداها (١)

هذا الحد للأماكن التي كان يرتادها وصحبه ، وهذه الآهات المتتالية ، الصاعدة من سويداء قلبه ، ثم هذا البكاء على فراق الصحب ، وذاك الألم الممض ، ألم الغربة والوحشة التي يعيشها في أعماقه ، تدل على إحساسه بالحياة ، وصلته الحية بالطبيعة التي ترعرع ونشأ واكتهل وشاخ في كنفها وأجوائها الندية الساحرة .

---

(١) الديوان : ٢٦٤-٢٦٥

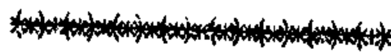
النهى : جمع نهية : العقل ، حباها ، جمع : حبوة : الثوب الذي يحتبى به .

الحزن والنهيسة والشط : أسماء أمكنة . شجا النفس : همها وحزنها .

ومع هذا ، فان نظرة ابن خفاجة الى رياضه تظل نظرة عامة ، يبهره المنظر العام ، وتشغله الصورة الكلية ، فصورها - غالبا - تأتي في عمومها ، تصويرا جملا ، وقد يتطرق فيها الى ذكر الجزئيات مكتفيا بصورها العامة ايضا ، ونادرا ما يلجأ الى التفصيل والتحليل . ويبقى تصويره لها تصويرا حسيا في جملته ، ولكنه تصوير طلي *بالحركة والحياة ، فقد شخص عناصر الطبيعة ، فحرك الجامد ، وانطق الصوامت ، فانبثت الحياة في رياضه ، وملأت الحركة رحابها ، مما جعلها أقرب الى الواقع المحسوس منها الى النسيج الخيالي المجرد ، وان القارئ ليحس وهو يقرأ لابن خفاجة كأن الطبيعة صُوَر نقلت اليه ، فهو ينظر ويسمع ، ويشم ويتذوق ، فيشارك الشاعر استمتاعه بالحياة في جو طبيعته الفاتنة . ولكن لا يعني هذا أن ابن خفاجة لم يكن الا مصورا "آليا" ينقل الصور كما هي في الواقع أمانة دون احساس او تفاعل او مشاركة ، بل ان استقراء النصوص السابقة يفصح عن إعجاب الشاعر بالطبيعة ، واحساسه العميق بها في مظاهرها المختلفة ، فقد ناجاها ، واستنطق الجماد ، وبثها آلامه وأحزانه ، وأسبغ عليها مشاعره ، وعبر بوساطتها عن مكنون نفسه ، وتباريح هواه ، فجاء تصويره لها ممزوجا بعواطفه الانسانية ، متلونا بتصوراته وأفكاره ، الشيء الذي جعلها تكتسي لديه جوا من الانسنة يحس بها قارئ شعره .

ثم ان رياضه اقترنت في بعض الاحيان بالخمر ، ولكن يلاحظ أنها لم تستول على وعي الشاعر ولم تشغله عن المشهد الطبيعي استمتاعا وتصويرا ، فليست الخمر الا وسيلة كمال ، لا غاية تقصد لذاتها ، فتسخر الطبيعة لها ، وتغيب بروعة مشاهدها تحت بريقها ، فالطبيعة في مشاهدها المختلفة هي مقصد الشاعر وغايته ، واما الخمر فتظل خادما مساعدا لها ليس الا .

إن فتنة الشاعر بالرياض شديدة ، ولكن فتنته بالعناصر الطبيعية التي تشتمل عليها تلك الرياض شديدة كذلك ، فهو كما نظر الى الطبيعة كَكُل ممثل في الرياض ، نظر اليها ضمن الصورة الكلية ، أو على انفراد ، وهو أمر سنضيئه في الفصل التالي .



الفصل الثالث

في

الشجر والثمر والزهر

(١)

* الشجر :

لقد كانت روضيات الشاعر لوحات جميلة تضم عناصر طبيعية عديدة رسمها الشاعر ببراعة فائقة ؛ وكان العنصر الأكثر بروزا وشماعا في هذه الروضيات هو عنصر الشجرة ، فقد كان ابن خفاجة وهو الشاعر الجنان ، اللصيق بارضه ، محبا للشجرة ، أيا كانت تلك الشجرة ، يهفو الى ظلها الندي ، ويحتاره بمنظرها ، في اخضرارها وإزهارها [1] واثمارها ، يحس باحساسها وقد لامستها ريح الصبا ، وأطربتها الأطيار فيهتز لاهتزازها ، ويطرب لطربها ، وهو تجاوب أدى به الى الاندماج بها ومشاركتها المشاعر والاحاسيس . والشاعر في وصفه لا يستغرق ما عرفته شقر وما حولها من نواحي شرق الأندلس ، من أشجار ونباتات سهليةوجبلية ، ولكنه يذكر بعضها باسمائها كالأراك ، والآس ، والبان ، والنارنج ، والرند ، والدفلى ، والريحان ، والخيري والسدر والبشام والسَّلم ، ويذكر غيرها باسماء جامعة لانواع من الشجر كالأيك والسرح والدوح ، والدوح وغيرها أو يذكرها ذكراعاما تحت اسم شجرة أو اشجار .

* الاراك :

يرد ذكر الأراك في شعر ابن خفاجة ضمن اغراض آخرى ، كالوصف العام ، والغزل والمدح والحنين ، ولا يأتي منفردا ، مقصودا لذاته ، وتدل كثرة ذكره على أنه ربما كان موجودا بكميات وفيرة في وديان شقر وسهولها وجبالها .

---

(١) القلائد : ٢٧٣ .	La Poesie Andalouse P : 165- 166

* الاراك : الواحدة أراكة . شجر شائك يستاك بفرعه وعرقه لطيب رائحته .

فهو يحس بالطبيعة من حوله ، ويشعر بالرابطة التي تربط الكائنات بعضها ببعض فيجسد ذلك في كل من الغمامة وما يكسو الربا من أراك وبشام .

وبكل مَرْتَبةٍ مَناخُ غمامة	مثل الضَّرِيبِ* بها مجاج لُغَام*
وعدت فرجّعت الرُّغاء* ما بها	لم تدر غير البرق خفق زمام
أوصت هناك الى الربا أن يشربي	بالرِّيِّ فرع أراكة وبَشَامِ* (١)

ويصور رهبة الليل ، وسكونه ، ويستقبل مخاوفه وقلقه على الأراكة في تصوير جميل فيقول :

وبهوٍ عزمٍ قد تماديت والدُّجى	مُكِبٌّ كأنّ الصبح في صدره سِرّ
وقد ألحفتني شملةَ الليلِ شمألٌ	يُقلقل أحشاء الأراك بها ذُعر (٢)

وللأراكة دورها في مجلس أنس الشاعر ، فهي التي تخلع عليه ظلها :

وعشيِّ أنسٍ أضجعتني نشوةٌ	فيه تُمهِّد مضجعي وتدمِّثُ
خلعتْ عليّ به الأراكةُ ظلّها	والغصنُ يصغي والحمامُ يحدِّث (٣)

وهي تشاركه نشوته ومتعته في جو الروض البهيج ، فتنثني وتهتز ، فيزداد بها استمتاعا واليها سكونا :

حُثَّ المدامةَ فالنَّسيمُ عليلُ	والظِّلُّ خفّاقُ الرِّواقِ ظليلُ
والنَّوْرُ طرفٌ قد تنبَّه دامعٌ	والماءُ مبتسمٌ يروقُ صقيلُ
وقد انتشى عِطفُ الأراكة فانثنى	سكْرًا ورنَّح في الغصون هديلُ (٤)

كما قد تكون الأراك مجلسا لمجلس أنسه مع صحبه ، فهي تظلهم بظلها وتنثر عليهم من نورها

---

(١) الديوان : ٨٤
(٢) نفسه : ١٥٠
(٣) نفسه : ٢٨٥
(٤) نفسه : ٢٥٤

---

* الضريب : الثلج . اللغام : الزبد . الرغاء : صوت ذوات الخف . البشام : شجر طيب الريح والطعم .

وهم تحتها يشربون الراح ويديرون الكؤوس في نشوة غامرة . ثم لا ينسى الشاعر ان يسقط عليها رغباته الحسية ، فيرى فيها وقد احدق بها النهر حسناء قد شد بخصرها زنار :

وأراكةٍ ضربت سماءً فرعها — تندى وأفلاك الكؤوس تُدارُ
حفّتْ بدوحتها مجرّةُ جدولٍ — نثرت عليه نجومها الأزهار
فكأنّها وكأنّ جدولَ مائها — حسناءُ شُدّ بخصرها زنّار
زفّ الزجاجُ بها عروسَ مدامةٍ — تجلى ونوّار الغصون نِثار (١)

وأراكة الشاعر تحس وتتفاعل مع ما حولها من كائنات ، فهي تطرب لسجع الطائر ، فتهز له اعطافها ، وتعرب عن فرحتها بأن تنثر عليه نوارها :

وأراكة سجع الهديلُ بفرعها — والصبح يسفر عن جبين نهار
هزّت له أعطافها ولربما — خلعت عليه ملاءة النُّوّار (٢)

ان حب الشاعر لهذه الشجرة عظيم ، ولا أدل على هذا الحب من ذكره الكثير لها وحنينه اليها في نغمة عاطفية عذبة :

فلله ما أشجى الحمامة غدوة — هناك وما أندى الأراك ظلالا (٣)

ولكونها أول ما يستدعي اهتمامه ، ويجذب قلبه ، ويهز مشاعره ، فهي أول ما يعتنقه مسلما :

فلويت أعناق المطيّ مُعرّجا — ونزلتُ أعتنقُ الاراكَ مسلما (٤)

والمكان الموشح بالاراك هو اول مكان يزار :

جانبته فضل العنان وقد طغى — فانساب ينساب انسيابا بالأرقم
في خمرغور* بالأراك موشّح — أو رأس طود بالغمام معمم (٥)

---

(١) الديوان : ٣٥١
(٢) نفسه : ٣٣٦
(٣) نفسه : ١٢٥
(٤) نفسه : ٢٨٢
(٥) نفسه : ٢٤٤

---

* الغور : ما انخفض من الأرض .

* البـــان :

لا نجد للبان ذكرا كثيرا في شعر ابن خفاجة ، فعلى الرغم من ان هذا النوع من الشجر قد هام به الشعراء ، فشبهوا به في ليونته واستوائه ، قد المحبوبة وقامتها ، واكثروا من ذلـك لا يذكره الشاعر الا عرضا وفي ثلاثة مواضع ، أولها في سياق رسالة شعرية بعث بها الى الاستاذ ابي محمد بن السيد البطليوسي ، يحملها تحية يحملها عنه اليه رسول من الطبيعة فيقـول :

نهل تردّ الاستاذ عني تحيةٌ تسير كما عاطى الزجاجةَ ندمانُ
تهز إليه ... المزن* سُحرةً ويثني اليها من معاطفه البَان
تحمّلها ... غير بنفسج تحمّله حمل السّريرة سوسان (١)

وترد عنده ثانية في سياق ... ، حيث يبعث محبوبه في اهتزازه وتشبيه بها ، علـى طريقة عبد المحسن الصوري فيقو ...

يا بانةً ت... ... وروضةً تنفح معطـــارا
لله اعـ... من خوطـة وحبذا نَوْرك نُـــوّارا (٢)

ويذكرها في المرة الثالثة ... صرى وسنانا ماثلا ، والمدون الى مهاة الشباب ، في قصيدة خاطب بها صديقه وأميره أ... بن أمير المسلمين ، فيصفه بها ويناديه قائلا :

فيا بان ... بمنعرج اللّوى أتصغي على شَحْطِ* النّوى فأقول (٣)

وذكره المقتضب للبانة ... السرح لها ، دون الوقوف عند ها موقف المتعاطف المنفعل يجعلنا ... في صدق علاقة الشاعر بـ... م نذهب الى القول بأن ما قاله الشاعر فيها لم يكن الا نسجا على منوال سابق ، وصدى لقراءاته ... الشعر العربي الزاخر بالمعاني التي ضرب الشاعر علـى وترها في هذا المجال .

* السـرح :

لقد عني ابن خفاجة بالسرح كما عني بالاراك ، فقد فتنته السرحة بظلها ونورها ، فهام بها هي ايضا ، ورسم لها في شعره صورا مفعمة بالحركة والحياة ، فقد كان يستريح الى ظلها الندي ويستطيب الشراب تحت فروعها المتهدلة المتثنية وقد سكرت من غمام الغمام ، وثملت بقطر الغمام

---

(١) الديوان : ٩٩
(٢) نفســه : ١٢٥
(٣) نفســه : ٢٩٣

* البان : شجر يسمو ويطول في استواء ، وليس لخشبه صلابة فهو رخو خوار ، خفيف له ورق ا... العنبر ، ينبت في الهضاب .
* السرح : شجر عظام أوطل شجر لا شوك فيه أوطل شجر طال .
* المزن : ما غلظ من الارض . * الشحط : البعد .

سُقْياً ليوم قد أنخنا بسرحةٍ ... ربّا تلاعبها الرياحُ فتلعبُ
سكرى يغنّيها الحمامُ فتنثني ... طربا ويسقيها الغمام فتشرب (١)

وهي توحي اليه وقد مدت أغصانها ، وغمرت النهر بظلها ببعض الصور المتقابلـــة :

وسرحة بالنأي ألقى ظلّها نهرٌ ... أوفت عليه فلم تنقض ولم تـزد
كما تدانيتَ من نهرٍ لمرتشفٍ ... ثم انثنيت فلم تصدر ولم تـرد
كأنّ أفياءها عليها حمى ملك ... أغضى وأعلى فلم يوعدْ ولم يعدِ (٢)

وهي صور لا يخفى ما ظهر سرحتها من احاسيس عاديه ، حرص الشاعر على عدم البوح بها بطريقة مباشرة . وهي لا تروقه في ايام الحر ، حيث يهرع الى ظلها فحسب ، بل تروقه ايضا ممطرا ، وقد زادها سقيط الطل بريقا وجمالا :

وبات سقيط الطّل يضربُ سرحةً ... ترفّ بواديها ويتضّوعُ أجرعا (٣)

ولكن احساسه بها لا يظهر كاملا في الابيات التالية ، حيث يبدو تجاوب الشاعر مع الطبيعة واضحا جليا ، فالسرحة لا تهزها الصبا وانما يهزها الشوق الى من تحب ، وهو لا يحس بها ، يشاركها الآلام والأشجان ، وهي أيضا تبادله نفس الاحساس ، فتشكو اليه ، وقد جعلت من الغناء ترجمانا لها ، يفصح عنها ، ويفصح عن مكنون اسرارها ، ثم يتطور الموقف الشعوري فاذا بالشاعر يندمج في الطبيعة ، ويتحد بها الى درجة لا تستطيع -

- وقد بكى هو وناحت الحمامة ، ان تميز ايهما اشد لوعة واصدق حنينا :

وسرحةٍ واد هزّها الشوقُ لا الصَّبا ... وقد سجع العصفور فجرا فهينما
ألفتُ بها أشكو اليها وتشتكي ... . وقد ترجم الغناء عنها فأفهما

---

(١) الديوان : ٢٨٩
(٢) نفسه : ١٨٤
(٣) نفسه : ١٢٨

تَحِنُّ ود مِنَ العينِ يسجُمِ والنّدى … وقرّ بحبني أن تحنّ وسجما *
وحسبك من صبّ بكى وحمامة … فلم تدرِ حقاً أيّها الصّبُّ منهما (١)

* الأيك :

لقد كانت طبيعة شقر كثيرة الشجر ، متدفقة المياه ، وكثيراً ما كانت الاشجار تلتف على ضفاف نهرها مكونة أيكات وارفة الظلال يؤمها الناس للراحة والاستجمام ؛ وقد كان الشاعر من قصادها ، فقد ذكر ابن خاقان أنه "كانت بضفة الجزيرة أيكة يانعة ، وكان ـ ابن خفاجة ـ ومن يهواه يقصدان لديها ، ويرسدان خدود ما أبردها"(٢) . وهذا يعني ان للايكة ارتباطا عضويا بماضي الشاعر السعيد ، وذكرياته اللذيذة ، ومن هنا ندرك تردد ذكر الايك في أوصاف الشاعر ، واصطباغها احاسيسه ومشاعره . فهو يعنى بالايكة ، ويصفها في يوم مطير ، ذي رياح ، وصفا مليئا بالحركة والحياة ، افصح من خلاله عما في قرارة نفسه من حب للمرأة كجسد لا كنفس انسانية ، فالكلمات ، وشي ، معاطف ، ذوائب ، ارتج ، الردف القضيب ، الجيد ، قبلته ، مباسم ، كلمات غزلية ، يكثر وجودها في وصف المرأة ، ولكن الشاعر يخلعها على الطبيعة ، وكأنها البديل المفقود للمرأة التي ليسكن اليها ، ولم يسعد بها في حياته :

ومجرّ ذيلِ غمامةٍ لبسَتْ به … وشيَ الحَبا بمعاطفِ الأنهارِ
خفقَتْ ظلالُ الأيكِ فيه ذوائباً … وارتجّ ردفاً مائجُ التيّارِ
ولوى القضيبَ هناك جيداً أتلعاً * … قد قبّلته مباسمُ النّوّارِ (٣)

انها افضل مكان تمتد فيه المجالس ، وأحسن مكان مساعد على الاستمتاع بالسعادة ، فهي الام الرؤوم التي تغمر من تحتها من الندامى بالرعاية والعطف تماما كما ترعى الام ابناءها اليتامى ، وهو معنى للأيك أوحت به اليه علاقته المتينة بالطبيعة وانطباعه

---

(١) الديوان : ٢٣٦ / سجم الدمع : سال

(٢) القلائد : ٢٧٣

(٣) الديوان : ٣٤ / الجيد الاتلع : العنق الطويل

---

* الايك : واحدته ايكة : وهي جماعة الشجر الملتف الكثير .

الحي في أجزائها :

أنعِمْ فقد هبّت النُّعامى* ... ونبّهتْ ريحها الخزامى
وَمِلْ إلى أيكةٍ بليلٍ ... تهفو اهتزازًا بها قدامى
تهزّ أعطافها القوافي ... لها وأكواسها النّدامى
كأنّ أمًّا بها رؤوما ... تحضنُ من شربها يتامى (١)

والأيكة الشاعر ليست شيئا مستقلا ، جامدا ، وانما هي حساسة ، نابضة بالحياة ، تحس بما حولها فتتفاعل معه وتتأثر به :

عاطى أغصانه النّدامى ... واشتسن للأيكة النّعاما
ورقّص الغصن وهو رطبٌ ... يقطر أو مارج الغماما
وقد تهادى بها نسيم ... هبّتْ سليمى به سلاما
فتلك أفنانها نشاوى ... تشربُ أكواسها قياما (٢)

* * * *

وصفتْ بمغرّد هنالك أيكةٌ ... خفاقة لمهبّ ريح عَرار*
هزّت له أعطافها ولربما ... خلعتْ عليه ملاءة النّوّار

وهو كما يخلع عليها فرحته واستمتاعه بالحياة ، يسقط عليها مخاوفه وقلقه واضطرابه :

فما خفقُ أيكي غيرَ رجفةِ أضلعٍ ... ولا نوحُ ورقي غيرَ صرخةِ نادب (٤)

وهو من فرط إحساسه باللون ، في تناسقه وتكامله ، يرى في الأيكة سماء ، وفي زهرها كواكب :

وقد أطلعَ الرّوضَ من أيكةٍ ... سماءً ومنْ زهرةٍ كوكبا (٥)

ولكون الأيكة مسرحا لحياة الشاعر في صباه ، ومستودعا للكثير من ذكرياته ، أضحت رمزا لها ، فما يراها الشاعر حتى يتذكر ماضي زمانه ، وحلاوة شبابه ، فيبكي ذلك كله بكاء مرّا :

---

(١) الديوان : ٦٩   * النعامى : ريح الجنوب
(٢) نفسه : ٧٠   العرار : بهار البر
(٣) نفسه : ٢٩١
(٤) نفسه : ٢١٦
(٥) نفسه : ٢٩٨

ولقد أذكرتني العهد بالأنس أيكةٌ ،فأذكرتها نوح الحمام الطاسق (١)

....

ما أذكرتني العهد فيه أيكة ... إلاّ بكيتُ فسال واديها دما

وسجعتُ أندب لوعة ولربما ... علّم الحمام بجهمتي فتعلما (٢)

* البشام :

ومن انواع الشجر التي هام بها الشاعر البشام ،فهو يذكرها إذا حن وتغزل ، ويتمنى لو أن النسيم ينوب عنه ، فيعرج على واديه ، ويصافح كل فرع من شجرات البشام الحبيبة الى قلبه :

فليتَ نسيمَ الريح رقّت أديمه ... فلاذ دياراً باللّوى وخيام

وعاج على أجزاع واد بذي الغضا ... فصافح عني فرع كل بشام (٣)

لقد ارتبط البشام بحياة الشاعر ، بمرحه ومتعته ،فقد كان جزءاً من مجالس أنسه في صباه ،يأنس به ويقترب اليه ،ولكن ماذا فعل البشام بعد أن فارقه الشاعر ونأت عنه تلك المدة الطويلة من الزمن ؟ سؤال يتركه الشاعر دون جواب بعده :

وددتُ ومن لُبَانَاتي لُبَيْنَى ... هناك ومن مراضعي المدامُ

بالدُنا النبات بجلت حزوى* ... تُهذرنا ويعرفنا السلام

وكان به البشام مراح أنس ... فماذا بعدنا فعل البشامُ (٤)

وهو بذلك يفسح لخيال السامع والقارئ مجالا واسعا لتصور البشام ،في حالاته المختلفة ،بعد أن أقفرت ساحاته ، وخلت ظلاله من مجالس أنس الشاعر ولهوه .

* النارنج :

حظي النارنج بعناية أكثر من الشاعر ،تدل عليها نسبة الاوصاف التي خصّه بها في

---

(١) الديوان : ٢٢٦

(٢) نفسه : ٢٨٣

(٣) نفسه : ٥٢

(٤) نفسه : ٦٤ / ... * حزوى : اسم موضع

---

* البشام : واحدته بشامة : وهو شجر ذو ساق وأفنان شكمة ،أي كزه غير سبطة ، وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ،ولا ثمر له ،ونسغه لبن أبيض ،وهو شجر طيب الرائحة والطعم ،يستاك بقضبانه .

في حالاته المختلفة في اخضراره وإزهاره ، مما يدل على أن علاقته به كانت وثيقة ، فهو يصفه وصفا دقيقا متتبعا أجزاءه ، مسبغا عليه مشاعر الانسان وصفاته ، وخصنا إياه حالاته النفسية الخاصة ! فالنارنجة في إيراقها تحكي العذار ، كما أنها في إزهارها تبسم عن شنب وهي بثمرها الذهبي الفواح وقد هبّت ريح الصّبا ، فحركت أغصانها ، فلامست أوراقها ثمارها ، تحجبها تارة ، وتبرزها أخرى ، إنما تحكي بفعلها ذات فعل المحبين ، زينة وتأبيا ، ومغازلة ومداعبة ، ورضى وغضبا ، وهو مشهد وفق الشاعر في رسمه ، وبث الحياة والحركة في أجزائه ، متوسلا الى ذلك بعنصر التشخيص الذي يكثر من استخدامه في وصفه :

وحاملةٍ من بناتِ القنا ... أَمَا لِيَد تَجتني خُضَرَ العَذَبْ*
تَنُوبُ مورّقةً عن عِذار ... وتضحكُ زاهرةً عن شَنَبْ*
وتَبدو بها في مهبّ الصَّبا ... زبرجدةٌ أثمرت بالذَّهَبْ
تناوحُ أنفاسَها تارةً ... وطوراتغازلُها من كَثَبْ
فتَبسِم في حالةٍ عن رضىً ... وتنظر آونةً عن غَضَبْ (١)

وهي في حرقتها ، وقد تلألأت قطرات الندى على أوراقها وثمارها الحمراء تفتن الشاعر وتحرك نفسه ، فيصفها وصفا يزيدها بريقا ولمعانا :

ومائسةٍ تَزْدَهي وقد خلَع الحَيا ... عليها حلىً حمرا وأرديةً خضرا
يذوبُ لها ريقُ الغَمامة فضّةً ... ويجمُد في أعطافها ذهبًا نَضْرا (٢)

وكما أعجب الشاعر بهذه الأشجار ، أعجب بغيرها ، فذكرها هنا وهناك في ديوانه فالرند يفتنه برائحته التي يرى فيها بلسما لعلته (٣) ، ويلهج بذكر السلم والطلح في

---

(١) الديوان : ٦٨ — * العذب : الأغصان .

(٢) نفسه : ٦٩ — الشنب : ماء ورقة وبياض في الاسنان

حنيه وغزله (١) - كما يذكر السدر والضال في معرض الحديث عن شجاعته ومغامراته (٢) ويذكر الأثل (٣) ، ويستحضر في أوصافه الشجر عامة ، كالدوح : فالأدواح ترقص بأطلالها ، كما ترقصه بزهورها ، وينما تنحدر في ضجة بخمرة كأسه ، ونمتزج بها لدرجة تسكب فيها كل المفارقات :

وعلى الأقداح والأدواح من حبب نثر وثور جوهر
فكأن الدوح كاس أزبدت وكأن الكأس دوح يزهر (٤)

ولكن الشاعر يرى أن الشجرة كل في سحابة الأسى ، كان في بعض أوراقها أيضا ، فلطالما تغني بغصونها المتهدلة ، المائسة ، وقضبانها المهتزة ، المنتشية بغناء الأطيار ، وقد مر معنا من أوصافه فيها الكثير ، وهذا الإحساس بالغصون يبدو على أشده في الأبيات التالية ، حيث يصفها وصفا حيا ، يبوح من خلاله بمشاعره الدفينة ، وأحاسيسه الطاغية تجاه المرأة :

أمثام وصلي أم متام فـــراق فالقضب بين تعانق وعنـــاق
خفاقة ما بين نوح حمامـــة هتفت ودمع غمامة مهـــراق*
عبثت بهن يد النعامى سحرة فوضعن أعناقا على أعنـــاق
أنسيتني خلق الوقار وربمـــا أذكرتني بمواقف العشـــاق
ضما ولثما واستلابة نفحـــة وخفوق أحشاء وفيض مـــآق (٥)

فهي على العكس منه ، في مفارقته لأحبابه وخلانه ، تتصافى وتتعانق ، وتشد السحب بعضها في جو بالغ الشجن .

---

(١) الديوان : ١٠٧، ٤٠٧

(٢) نفســـه : ١٢٠،

(٣) نفســـه : ٧٢

(٤) نفســـه : ١٢٥، ٧٢ ، ١٠١ ، ١٤٠

(٥) نفســـه : ١٥٨

---

* مهراق سائل

*** الريحـــان :**

والريحانة ، أيضا ، في لدونة فروعها وطيب عبيرها ، وقد لامست النهر ، وكأنهـــا تكرع منه على ظمأ ، وهبت الريح فحركت أوراقها وأمالت أغصانها ، يفتتن الشاعر ، وتسحره فينجذب إليها انجذابا عاطفيا ، فهو يلوي عاطفها ، ويعانقها بحرارة ، ويجعل من دموعـــه قطرات ندى يبللها بها ، وكأنه رأى فيها محبوبة أو قريبا عزيزا عليه طال به فراقه :

وتصفّق في أثوابه* ريحانـــــةٌ   كرعَتْ على ظمأ بجدول ماءِ
نفّاحة الأنفاس إلا أنهـــــا   حذر النّوى خفّاقة الأفيـــاءِ
فلويتُ معطفها اعتناقاً ضمّهـا   فيه بقطر الدّمع من أنــداءِ (١)

واهتمام الشاعر بالشجر وتعجّبه ، حبّب إليه شيئا آخر يتولد منها ، تلك هي الثمار الـــتي فتن بها أيضا ، ورسم لها في ديوانه صورا متعددة .

---

(١) الديوان : ١٥٤

---

* هاء " أثوابه " تعود على الليل .

- ٢ -

* الثمـــــر :

لا يلم الشاعر في وصفه بكل ماعرفته بلاده من ثمار ، فهو لا يذكر منها الا القليل ، فقـــد فتن بالنارنج في اغصانه ومفصولا عنها ، كما فتن بالتين والعنب والرمان ، ولكن فتنته بهـــا كما سنتبين لنا ، بصورة يسيرة ، لا تتجاوز الظاهر ، وحتى تعاطفه النفسي مع موصوفاتهـــا لا تعدو أن تكون مادية أيضا ولنبدأ بالنارنج :

* النارنــج :

تغنى الشاعر بالنارنج شجرة وثمرة بست مقطوعات شعرية ، عني فيها ، عموما ، بوصـــف الثمرة ، دون أن يغفل التعبير عن خلجاته النفسية من خلاله ، فتارة ينظر الى شجره مـــن زاوية متعته ، فيرى فيها كؤوس خمر :

فتلك أغصانها نشـــــاوى	تشرب أكواسها تباعا (١)

ولكن صورة الثمرة في خضرتها وبريقها ، وقد علقت في أغصانها ، وحفتها الاوراق الخضراء ، انعكست صورتها على صفحة الماء الصافية ، وأطلت عليها الشمس فزادتها بريقا الى بريقها هي التي تستهويه ، وتأسر حسه ، فينجذب بالبهائها ، ويحس بها إحساسا اشبه ما يكـــون بالاحساس الصوفي :

ومحمولة فوق الغنا نيغيـــــرة	لها نسب في روضة الحزن مشرق*
رأيت بمرآة النقى كيف تلتقي	وشقّ رياح الزاهيات كيف تفـــرّق
يضاعفها ثغر من الشمس واضح	ويلحظها طرف من المـــاء أزرق
وتُجلى بها للماء والنار صورة	تروق فأرضى حيث يغرق يحـــرق (٢)

وهي كما تروقه في غصنها ، تروقه وحدها مجردة ، فهي برائحتها العطرة ، ولونها الـذي تستريح اليه العين ، وتنشرح له النفوس خير هدية ، بل ، خير ما ينوب عن السفراء فـــي

---

(١) الديوان : ٧٠

(٢) نفســـه : ٧٠

* نسب مشرق : ذو أصل ثابت .

وصل ما بين الأشجة من علاقة :

غُذِّيَتْ ما إليها وإنها لَنَضِيرَةٌ ... امرأةٌ علِقت قليلة النُّظَراءِ

حَمَلَتْ وحسبُكَ من نضوجٍ في لُقمةٍ ... عَبَقَ الضرورِ وجِبلّةَ العَذْراءِ

من كلِّ رازقيةِ التَّبيجِ كأنَّها ... نشأتْ تُقلُّ بريقةِ الخَضْراءِ

تتجمَّتْ تروقُ بها نجومُ حشيبةٍ ... يا لأيكةِ الخضراءِ من خضراءِ

وأتتْ تسفرُ عن وجوهٍ طليقةٍ ... وتتوبُ من لطفٍ عن الشُّقراءِ

يخلو بها ريقُ النَّدى وربَّما ... يشكلُ منه أسرةَ السَّرّاءِ (١)

ولا يخفى على القارئ ما تضمنته تلك المقطوعة من مشاعر دفينة ، أبى الشاعر الا أن يفصح عنها من خلال الطبيعة ، محاولة لتنفيس الضغط المكبوت الذي يعاني منه في أعماقه ، ففي المقطوعة الاولى لم يكن في مستطاعنا معرفة حقيقة الموصوف لولم يخبرنا هو بذلك فالوصف يمكن أن يرمز الى امرأة حسناء ، ويمكن أن يطلق على أية ثمرة أخرى مشابهة ، تحت هذه الثمرة ، وقد يكون رمزاً لامرأة ما في حياة الشاعر ... مشاعر ... تراه المرأة التي أشرنا الى أنه ... أحاسيس ومشاعر تفصح عن نفسها بوضوح في وصفه للتين والعنب :

★ التين :

وصف الشاعر التين في مقطوعتين ، خصص احداهما للعملية التخيلية والتعديل الحسي أجراها على شعره في شبيبته ، وهو تعديل بسيط يتناول الشكل ، ولا يغير المعنى تغييراً جذرياً ، ووصفه لها - كما سنلاحظ - وصف مادي ، يمس الحس ، ويسيل اللعاب ولكنه لا يمس الروح في شيء ، وهو مع ذلك حافل بما يختلط في أعماق الشاعر من شعور غريزي دفين ، فالشاعر يستغل كل شيء في محبوبه ، حتى الأشياء التي قد يراها الغير منفرة ، فمسك التين ، في سيلانه وعلاقته وصفاته ، يحكي عنده ريق حبيبه السائل وهو نائم ،

---

(١) الديوان : ٧١

وهو يحرص بدلالة يحكي ببياض باطنه ولون قشرته بياض ثغر حبيبه ولعس شفتيه ، وهو رائق المجتلى ، شهي الجنى ، مستطاب النفس ، انه تصوير يعكس بوضوح أحاسيس الشاعر المادية ويدل دلالة واضحة على المكانة التي حظيت بها المرأة في عالم الشاعر النفسي :

إذا ما اهتصار غصون البلس*	وقد قلّص الصبح ذيل الغلس*
وما زال يسيف جنى شهده	كما سال ريق حبيب تعس
لقد شاق من رائق المجتلى	شهي الجنى مستطاب النفس
تبسّمُ له بمباسم الثغور	وأحببت فيه سواد اللعس* (١)

ويذكره التين بلونه الأسود ، ويوحي اليه ببعض المعاني والصور الطريفة ، فهو بسواده يحكي الصدود ، وظلمة الحياة ووحشة الأيام بعد فراق الحبيب ، كما انهن وقد طلى عليهن بياض الضحى قد بدين في وجهه كالقمر ، وأما ثناياها ، في لونها ولين مجسمها فيوحي الى الشاعر بصورة مادية هي صورة ثدي صغار بنات الحبش :

وسود الوجوه بلون الشدود	تبسّمن تحت غصون الغصن
اذا ما تجلى بياض الضحى	تألقن في وجهه كالقمر
كأني أقبّل منها ثدي	ثدي صغار بنات الحبش (٢)

إنها اوصاف تدل بما في أعماق الشاعر من حنين الى المرأة ، وهيام بصفاتها المادية التي لم يشبع منها نهمه في الواقع ، فأفصح عنها من خلال الطبيعة على سبيل التعويض .

* العنب :

عرفت بلنسية واعمالها بكثرة الاعناب ، ومن دون شك أنها عرفت انواعا كثيرة منه ، ولكن الشاعر لا يذكر غير نوعين منه ، الاصفر والاسود ، ويورد ذكرهما في معرض الحديث عن الطعام

(١) الديوان : ٣٧٤ ، ٤/١

(٢) نفسه : ٣٧٤

* البلس : ثمر التين او التين نفسه .

الغلس : ظلمة آخر الليل .

اللعس : لون الشفة اذا كانت تضرب الى السواد قليلا .

لا التمتع بجمال الأعناب فجاء وصفه لها ماديا كوصفه للتين ، فهي عنده أم المدام ، وأم المدام ابنتها التي طلقتها بعد أن تاب ، ونزه نفسه عن الحرام . ولعبة العنب مراشفه ، يشتمها الشاعر في لوعة لأنها تذكره بما بينه وبينها وبين ابنته من ذمام :

وعذب لحظه من ذا الحبيب	بنات الكرم وأمّ المدام*
وسفراء المنتهى بنتا لها	وما للمدام وما حتى الحرام
أمزّ مراشفها لرّيقة	وأذكر ما بيننا من ذِمام (١)

وهو يرفض على الرغم من أن عمره قد أسرع به الى الكهولة - أم المدام ، يجتمع على ذلك وسعه ، ويرى أن العنب في سواده ، لو كان لي شفة لما رويت من تقبيله ، كما يحكي في سواده حلكة ليلة الهجر ، ولكنه في حلاوته أشهى وألذّ من ليلة الوصل ، ولكن هل هذا صحيح ؟ فقبل قليل صرّح الشاعر بأنه لو كان لي شفة لم يشبع من تقبيله ، وهو الان يفضله في حلاوة طعمه على جنى ليلة الوصل ، وأظن أن الذي ألجأ الشاعر الى هذا التناقض هو حرصه على القافية ، لا كونه يعبر عما يجول في خلده من مشاعر وأحاسيس :

رضعنا لها أمّ المدام عشيّة	ويا عجبا ما للرّضاعة والكهل
وأسود ممسول المحاجِ لو أنه	لِي شفة لم أروَ منها من القُبل
حكى ليلة الهجر اسودادًا وإنه	لأشهى وألذّ من جنى ليلة الوصل (٢)

* بين الرمان والعنب:

ويفاضل الشاعر بين الرمان والعنب في أسلوب هزلي ، فيفضل الأول على الثاني ولكنه حتى في هذا الموقف لا ينسى أن يجعل من أحاسيسه المادية أساسا لاختياره :

---

(١) الديوان : ٢٤٥

(٢) نفسه : ٣٥٠

* أم المدام : الخمر

يطلني لك الغير بزمانة / لم تنتقل عن كرم المهد
لا بدّها أتمّ منقـ...ـوده / قدماً كأني بعد في المهد
وهل يرى بينهما نسبة / من عدّل الخصية بالنهد (١)

* التفاح :

لا نجد للتفاح ذكرا على غرار ما سبق من ثمرات ، وانما يأتي ذكره مرتين ، الاولى في رده على رسالة شعرية وردته ، حيث يحصي مميزات شعر صاحبه ، وحسناته غير انه يذكره بالشباب وإبانه ، كما يشوقه الى نفحات تفاح لبنان ، ولكن أنّى له بتفاح لبنان ، والشقة التي تفصله عنه سحيقة :

وشاقني تفاح لبنان نفحة / ...ات من ارض الجزيرة لبنان (٢)

ويأتي ذكره ثانية في سياق الغزل ، حيث يشبه خدي محبوبه بتفاح لبنان :

وحبيب يجني ورد خديه ناظري / فمن لفمي منه بتفاح لبنان (٣)

ويلاحظ انه في كلا الموضعين أشاد بتفاح لبنان ، فهل يعني هذا ان الجزيرة خلو منه ؟ لا نستطيع ان نجزم بالنفي أو بالايجاب ، ولكن نتوقع وجوده ضمن الفاكهة التي [illegible] الجزيرة بأنواعها [illegible] . وأما ما عدا هذه الفاكهة المذكورة ، فلا نجد لها [illegible] ومع ذلك ، فما ذكر على الرغم من قلته ، له دوره في استجلاء طبيعة أبي اسحق الفنية ، واضاءة جوانبه النفسية .

ربما فتنت الشجرة الرجل بظلها الندي ، وغصونها المائسة ، وثمرها الداني ، فتنته أيضا بنورها الذي يكسوها حلة زاهية ، بل ، وفتن ايضا بالنباتات المزهرة من حوله ، فصورها في شعره تصويرا فيه جمال وروعة .

---

(١) الديوان : ٣٦٨

(٢) نفسه : ٦٠

(٣) نفسه : ٣٤٦

((٣))

* **الزهـــر :**

لم أجد فيما قرأت من كتب تراثية ، معجمات وكتب نبات ، فرقا واضحا بين النَّور والزهر فالأصمعي يرى أن زهرة النبات زهرته ، ونُوّاره ونَوره سواء (١) . وأبو حنيفة الدينوري يرى الرأي نفسه ، فعنده أن زهر النبات وزهرته ونواره ونوره سواء ، ويرد الرأي القائل بأن الزهر يطلق على اللون الأبيض خاصة ، مبينا أن جميع ألوانه زهر ونَوْر ، محتجا في ذلك بما ورد في كتب اللغة من تسمية نَوْر الحوذان زهرا وهو أصفر (٢) . وعلى هذين المصدرين وغيرهما يعتمد ابن منظور في تعريفه للنَّور والزهر : فالنَّور والنورة جميعا الزهر ، ويضيف : وقيل النَّور الأبيض ، والزهر الأصفر ، ونوَّرت الشجرة وأنارت أيضا ، أخرجت نَوْرها . والزهرة نَوْر كل نبات والجمع زهر . وخصَّ بعضهم به الأبيض ، وزهَّر النبت : نَوَّره ؛ والزهرة البياض ، ويقال أزهر النبت بالألف إذا نَوَّر وأظهر زهره . وشجرة مزهرة ، ونبات مزهر (٣) . وابن خفاجة لا يفرق بينهما أيضا ، فهو يذكر الزهر تارة والنور تارة أخرى ، ويعني بهما شيئا واحدا .

وموضوع النوريات والزهريات ، يحتل مكانا بارزا في وصفه للطبيعة ، إن ضمن روضياته أو كعناصر مستقلة قصدها بالوصف في مقطوعات شعرية قصيرة .

فهو يفتتن بالشجرة المنورة ، كما يفتتن بالأزاهير المختلفة في ألوانها الزاهية ، وروائحها العطرة ، فيقف أمامها ويصفها وصفا ، ينم عن إعجاب كما يكشف عن حب للحياة ، وولع بمتعها المادية ، وخاصة تلك التي لها علاقة بالمرأة . وتشتمل باقة زهوره على النارنج ، والريحان والدفلى ، والرند ، والآس ، والخيري والأقحوان ، والعرار والبنفسج والسوسن والنرجس والنيلوفر والخزامى ، والورد . ولكن الشاعر كثيرا ما يصف دون أن يضع اسما لموصوفه ، كأنْ يذكر الأزهار

==========================

(١) كتاب النبات : ٨

(٢) كتاب النبات : ٥ : ٢٠٤ -

(٣) انظر لسان العرب : مادة (نور) ومادة (زهر)

أو النوار ، أو شجيرة مزهرة ، معبرا عن نظرة شمولية ، محبة لكل ما في الكون المحيط به من مظاهر البهجة والجمال .

* النارنج :

فتنت النارنجة الشاعر بحلتها الخضراء وثمارها الحمراء كما فتنته بنورها الأبيض ، ذي الرائحة العبقة فهي تسحره بثمارها ، وتملأ عينه نورا ، فيرى كأن الثريا ارتسمت على أغصانها ، وهو وصف تتجلى فيه عناية الشاعر بالناحية المادية للموصوف من حيث لونه ورائحته ونضارته ، ولا نلمح فيه طاقات الشاعر وإحساسه :

لله نورية النارنجـــا ... تحمل نارية الغنجـــا*
واللون رطب الصهر لدن ... قد رقّ ريّاً* وطاب زينـــا*
تبسّم النَّور فيه زهرا ... كالعرس به تزيّنـــا (١)

* الخيري :

وأما الخيرية ، فإنها برائحتها الجميلة ، المنتشرة في الليل دون النهار ، تجعل الشاعر يخلع عليها حياة العشاق وأحوالهم ، فهي تحادث النسيم إذا جنّ عليها الليل ، وترسل أنفاسها العاطرة في الأجواء ، وكأنها تترقب حبيبا وراء أستار الظلام ، ولكنها سرعان ما تختفي إذا بان الصبح ، وكأنها تنطوي على سر دفين تخشى عليه الرقباء أو الحساد . وهو مشهد حي ، وفق الشاعر في رسمه وعرض تفاصيله .

---

(١) الديوان : ٢٦

---

* الغنج : الدل ، الزين : التزين والحسن ، الريّا : الريح الطيبة .

* الخيري : شجيرة طيبة الريح ، وهي ضربان ، أصفر وأحمر ، والأصفر أطيبهما ريحا .

وخبيئة بين النسيم وبينهـــا حديث اذا جنّ* الظلام يطيب

لها نفَس يسري مع الليل ماله سرّ كأن له سرًّا هناك يريب

تدبّ مع الإمساء حتى كأنما له خلف أستار الظلام حبيب

وتخفى مع الاصباح حتى كأنما يظلّ عليه للصباح رقيب (١)

* الـــورد :

لا ينهض الشاعر في الحديث عن الوردة تشبيها ووصفا نهضة على نحو ما فعل غيره من الشعراء فهو لا يذكرها الا نادرا ، وفي ذكره النادر لها لا يقف عند أوصافها المادية ، وانما ينظر اليها وكأنها امرأة [illegible] يتغزل بها ويداعبها ويقبلها ، ولذلك بدأ حديثه عنها مفصحا بأحاسيسه المادية ، فهو يتمنى لو أن الضياء نسخ ظلاما ، عندما [illegible] الوردة بالمتها الجميلة ، تبهر في [illegible] وتبهر ، وتشوقه شمها كما كانت تشوقه شابا ، ثم يتذكر شيخوخته وعجزه ، فيكتفي بالتقبيل ، وتأبى نفسه الزاهدة تعريضها في وحل النزوة العابرة ، وتحذره [illegible] ، ولكن بعد أن توسم الزمان لونا وعطرا بإنها لزهرة عبقة ، قد رعى الربيع فيه ثغر بيئته وغربته فانه [illegible] اليه سلطانا ، وهو تصوير تلمس فيه إحساس الشاعر بالبهجة ، ويتناغم معها :

---

(١) الديوان : ٨٢

---

* جن الليل : أظلم ..

وغريبةٍ عشقتْ إلى غريـــــرةٍ	فوددتُ لو نسخ الضياءُ ظلامــا
طلعتْ عليّ مع المشيب تشوقني	شيخاً كما كانت تشوقُ غلامـــا
فنزلتُ أقبلتها عن لوعـــــة	نظرا بدون اذا اعتمرتَ كلامـــا
فارت وجمعها وقد أحاطتها من نشوة	ليراً بأوسعة التَيان كلامــــا
حينة وقد حنّ الربيع على الثــرى	كيما فأعدها إلى سلامـــا (١)

وهي تارة الورد بنية خضة للروض النضير ، قد رسم الربيع فيه شيخوخته فأعدها إليـــه فهو يقبل عليها ويحملها تلفا بها ، ويحاط ذلك الدبير بالتضير :

أرأيت أيّ بنيّـــــــة	تنزى إلى الروض النضـــــير
أهدى الربيعُ نضـــــرة	معها تهشّ إلى كبـــــير
فلثمتُها كلفا بهــــــا	والشيخ يكلف بالنضــــير (٢)

واجتماع النّوْر والورد يوحي إلى الشاعر بهذه الصورة المادية التي تكلف بها نفســـه :

وقد تأرج نــــــورٌ	غض يخالط وردا
كما تنفّس ثغــــــر	عذب يقبّل خدّا (٣)

وتنمو الصورة فيجعل للورد عتابا يزيح عنه النقاب ليشارك الشاعر وصحبه متعتهم متعة أخلاقهم من نعت العتاب :

والنّوْر مختبئٌ وقـــد	الورد سد لولا النقـــاب
يعد بأخذة التّعاب	لا بعد ما العتـــاب (٤)

ولكن … ة اليانعة وقد تلألأت فوقها قطرات الندى ترمز عند الشاعر إلى شيء آخر ذي قيمة عنده فهو يرشف نثر اللآلئ الساقطة عليها وكأنه يلثم ثغر محبوبه :

---

(١) الديوان : ١٤٦

(٢) نفسه : ١٤٧

(٣) نفسه : ٨١

(٤) نفسه : ٨٠

وارشف ثغر الطل من كل وردة ... كأن بها من الثغر من حُوَّة اللَّمَى (١)

* النيلوفر :

لا يذكر الشاعر النيلوفر الا في مقطوعة من بيتين ، وهو فيهما يكتفي بالنظر الى صورته وتحوله ، فهو يستيقظ مبكرا ، فيتفتح زهره ، ويخفي غلافه ، ويغلق الليل فله لا يعرف سباتا وما ذلك الا لانه عديم الا سامر ، لم يعرف حبا ، ولا اصطلى بنار غرام :

وَنَيْلُوفَرٍ لم يدرِ ما مسّ حرقةٍ	بحُبٍّ ولا ما لَوعةٌ وغــــرامُ
يهبُّ مع الإصباح من سِنَةِ الكرى	ويطبقُ ليلا جفنَه فينــــام (٢)

* الاقحــوان :

الاقحوان من الاعشاب ، طيب الريح على كل حال ، ورقه وزهره ، وله زهرة بيضاء صافية البياض (٣) ؛ ولبياض زهره يرتبط في وصف الشاعر له بالثغر ، بل قد يأخذ محله في تشبيه من الاسنان فعندما ترحل الليل ، وانبلاج الصباح تبدو الاقحوانة امامه بزهرها الابيض فتوحي اليه بهذه الصورة الحية :

ثم انثنى* بالفجر يسحب فرعه	ويجر من طرب فضول رداء
تبدو بفيه اقحوانة أبيض	قد غازلتها الشمس غب سماء (٤)

وما دامت الاقاحي ثغورا في نظر الشاعر ، فهي ولا بد تفعل فعلها ، فتلثم تارة ، وترشف أخرى ، فهي تلثم سوالف الدالين :

ولوى الدالي هنا صفحة معرض ... لثمت سوالفها ثغور أقاح (٥)

وهي ترشف أعطاف الغمامة المدرار :

في أبطح رضعت ثغور أقاحه ... أعطاف كل غمامة مدرار (٦)

---

(١) الديوان : ١٦٣ /* اللمى : سمرة في الشفة تستحسن .

(٢) نفســه : ٣٦٢

(٣) كتاب النبات لابي حنيفة : ٥ : ٣٠ *حوة : حمرة تضرب الى السواد .

(٤) الديوان : ١٥٤ /* ضمير انثنى يعود على الليل

(٥) نفسه : ٢٨٢

(٦) نفسه : ٣٢٦

ويتخذ مبسمها من آل الروضة رضاباله :

بات بها مبسمُ الأقاحيـــــــي يرشُف من المها رُضابا* (١)

وقد يكون الثلج ريقها الصافي البارد :

وللأقاحي ثغور فيه باسمـــــة لمن الثلج ريق بارد خصـــر* (٢)

وقد تلتقي الأقحوانة ومبسم الحبيب، فلا يجد الشاعر بينهما فرقـــا :

وضاحكني من أقحوان ومَبسِمٍ فلم أدرِ أيٌّ كان لي الأقاحيا (٣)

وهي أوضاف تبرز فيها استطالات الشاعر لاحساساته ونزعاته المادية تجاه المرأة بوضـوح وجلاء .

* الشقيـــــق :

يرتبط نُوَّر الشقيق للرنه الاحمر في مخيلة الشاعر بمعاني الحروب ، وما يساتهــــــا من كر وفر ، وزحف واقدام ، وجيوش ولواء ، مما يذكرنا بطريقة ابي الطيب المتنبي ومن نهـــج نهجه ، في اسباغ اجواء الحروب على الطبيعة ، فالبرد يزحف بجيوشه ، ولكنه سرعــــــان ما يولي منهزما ، مخلفا وراءه السهول والربا ، التي يأخذها منه الربيع عنوة ، ويرفع عـــلى كل ربوة منها ألوية الشقيق شعار للانتصار :

يا حبّذا والبرْد يزحفُ بخَـرَةٍ	جيشًا ربيعيّ دونه وحـــريق
حتى اذا ولّى وأسلمَ عَنـــوةً	ما شئت من سهْلٍ وذروةِ نيـــق*
أخذ الربيعُ عليه كل ثنيّـــةٍ	فبكل مرتبة لواءُ شقيــــــق (٤)

* الريحـــــان :

والريحان ايضا يخضع للجو العاطفي الذي يصبغ الكثير من موصوفات الشاعر ، فريحانة ممشوقة القوام فائقة الحسن ، نضرة فواحة ، تتلف بها نفسه ، ويهيم بها طرفه ، ولا يمل مـــن تملي حسنها ، والتأمل في جمالها . وهي لمكانتها عنده ، يتخذ لها من كفه مغرســـــا

---

(١) الديوان : ٢٢٨

(٢) نفســه : ٣٧٢

(٣) نفســـه : ٢٠٠

(٤) نفســـه : ٣٥٥

* الرضاب : الريق

خصـر : بارد

النّيق : بكسر النون وتشديدها : أرفع موضع في الجبل .

ومن ماء جفونه سقاء وبكرها :

ومشوقةِ الأغصانِ مشرقـــــةٍ	بهمٍ بها الرف والمقلـــس*
لها نضرة سمتها نضـــرةً	وتكلف بالأنفسِ الأنفـــس
فمن ماء جفني لها مشـــرعٌ	يميع من راحتي مقـــرسُ (١)

وهي لنضارتها وطيب نفسها ، كثيرا ما تكون وسيلة اتصال بين الاحبة : فتنوب عن التحية ، وتذكي الشوق وتحث على اللقاء ، انها تذكر الشاعر بريا محبوبه ، وهي ذكرى عزيزة على قلبه الحساس ، يذكي لضياعها بد من غزار تذكر الريحان بستنا النظام :

تنفس يهدي من حبيب تحيـــة	عززنا لها زهوا فطول التمائم
يذكرنا ريا الأحبة نفحـــة	تذكره بالدمع سقيا الغمائـــم (٢)

★ النرجس :

يشبه النرجس في الشعر العربي بالجفن أو المقل ، ولكن ابن خفاجة يذهب الى اكثر من ذلك ، فيجعل للنرجس جفنا يغازله كما يغازله جفن الحبيب :

وغازلنا جفن من الـ نرجـــس	ومبتسم للأقحوان شنيـــبُ (٣)

وقد يبتعد الشاعر عن طبيعته وحريته في التعامل مع الكون في كلمته وشمرليته ، فيحمل عقله محل عاطفته وشعوره ، ولذلك هاتان الحالتان اثنتان لا تتكرران في شعره ، الاولى في شعر الته (٤) ، والثانية في تفضيله الريحان على كل من النرجس والسوسن ، عند وصفه السورة وكلمت من ريحان في هيئة تمثال ، فقد وصف السورة بانها كانت يحيط بها رائحة كل من السوسن والنرجس ، فاشار اليها الاول برأسه متجها ، وشخص الثاني فيها بعيونه مبهورا مبهوتا . والشاعر مع ذلك لا ينسى احساسه المادي ، فيسقاه على البديهة

---

(١) الديوان : ٧٨

(٢) نفسه : ٧٨

(٣) نفسه : ٨٣

(٤) راجع هذا البحث : ١٥٨

★ المطلس : الأرنب

فالتمثال صورة تنوب عن الحسناء التي أنأته عنها الاسفار ، فبها يلهو ، وبها يأنس :

لقد زفّ بنتا للخميلة طفلــــة	يهزّ إليها الدّشتُ* اعلاف مُترسِ
تشيرُ إليها كلُّ راحةِ سُوسَـــنٍ	وتشخصُ فيها كلُّ عيْنٍ لنرجـــسِ
تنوبُ عن الحسناء والدارُ غُرْبَـــةٌ	فماشئت من لهوٍ بها وتأنّـــسِ (١)

وأما البنفسج والآس فقد وحد الشاعر بين صورتيهما وصورة محبوبة شبيها ، فلذلك أورد ذكرهما في سياق الغزل . وقد يكتفي الشاعر في وصفه للزهور بآثارها ، بأريجها وطيبها دون التعرض لصفاتها المادية الاخرى ، كما فعل مع الخزامى والعرار (٢) .

وكان الشاعر يجنح - على الرغم من ذكره لهذه الجزئيات - الى العموم غالبا ، فكثيرا ما ذكر الازهار والنوار ذكرا عاما غير مفصل ، موشيا بها روضته ، أو واديه ، أو ربوته ، أو بطاحه ، وكانت الشجرة كما أسلفنا - هي العنصر البارز في أوصافه ، مما يدل على فتنته بها في عامة أحوالها ، ولكنها وهي منورة ، أشد فتنة له من غيرها من الحالات ، فهي تأسر ناظره بمنظرها البهيج ، وتهز قلبه ، وتوقظ مشاعره وتنبه إحساسه فيصفها وصفا يزيدها جمالا وروعة وحياة ، ولكن لماذا تلك الالحاح منه على ان تكون شجرته منورة أو مورقة لا عارية جرداء من كل زينة وبهجة ؟ ألأنه رأى في بياض نورها بياض شعره فمال اليها ، وأنس بها أنس الصديق بصديقه ، يحادثه ويلاطفه ، ويسر اليه بمكنون صدره ، ؟ أم لانه رأى في نداوتها ولدونتها ، وحيويتها لدونة شبابه وحيويته ونشاطه بما يحمله ذلك الشباب من ذكريات حلوة ، وأيام سعيدة قضاها في ظلال الاشجار طبيعته الغناء بزهرها ، وطيب أجوائها وترنم طيرها ، فكأنما أضحت الشجرة - لملازمتها حياته الاولى - رمزا لشبابه الذاهب وصورة متجددة له ، فلهج بذكرها ، وتغنى بصفاتها ، وكأنه يتحدث في شبابه ، ويتغنى

---

(١) الديوان : ١٥٥

(٢) نفسه : ٥٤ ، ٦٦ ، ٢٨٦ ، ١٢٥ ، ١١٤ ، ٣٣ ، ٢٩١ ..

بحباته في ظلاله ؟ .. أم لأن النَّوْر في بياضه يحكي النُّور والضياء ، وبالتالي الحياة في صفائها وعطائها ، وفي هذا أيضا بيان لما في نفس الشاعر من حب للحياة ، وفرق من الموت ؟ أم لأن المرأة التي عرفها الشاعر شريكة للحياة ، تقاسمه أفراحه وأحزانه ، ويسكن إليها وتسكن اليه ، وتخفف عنه أعباء الحياة ، وظل طيفها يراود مخيلته بين الحين والحين قد امتزجت بالشجرة ، واتحدت بها ، فأضحت الشجرة بديلا للمرأة ، ورمزا لها ، فلذلك ألبسها عرسها وخلع عليها نعوتها وصفاتها ، فجاء تصويره لها جميلا براقا ، يبادل بما في نفسه من حنين إلى المرأة وحبا بها من حيث صفاتها المادية لا النفسية ؟ وأذهب الى القول بأن هذا التأويل الاخير والتأويل الذي قبله ربما كانا هما الاكثر فاعلية في بروز هذه الظاهرة في وصفه ، أي القول بأن الشجرة ما حظيت بتلك العناية الكبرى منه الا لانه وجد فيها ، من حيث صفاتها المادية ، شبيها بالمرأة التي عاش بدونها ، كما وجد فيها من حيث ما عبقها رمزا للحياة التي كان يحبها ويخشى فقدانها . ان وصفه للشجرة المنصورة لوحة تتضح من خلاله نظرة الشاعر الى الطبيعة من خلال المرأة بوضوح ، وهي ظاهرة عكسها في شعره الغزلي ، فهو هنا يخلع على الشجرة الكثير مما يمكن ان تمتاز به المرأة من صفات مادية ، يقول :

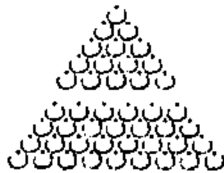
يا رُبَّ مائسةِ المعاطفِ تزدهي ... من كلِّ غصنٍ خافقٍ بوشاحِ
مهتزّةٍ يرتجُّ من أعطافها ... ما شئتَ من كَفَلٍ يموجُ رداحِ
نفضتْ ذوائبَها الرياحُ عشيّةً ... فتملّكتها هزّةُ المرتاحِ
حطّ الربيعُ قناعَها عن مفرقٍ ... شمطٍ كما تُزْبِدُ كأسُ الراحِ
لفّاءُ [illegible] لها النعمانُ ملاءةً ... مسحت مما ألقها بجينُ سماحِ (١)

فالكلمات : وشاح ، الاعطاف ، الكَفَل ، الذوائب ، مفرق شمط ، قناع ، الملاءة ، قميص

(١) الديوان : ٢٨١ - ٢٨٢

وماشية ، تزدهي ، مهتزة ، برتج ، يموج ، كلها يضج بها غرض الغزل في ديوان الشعر العربي القديم ، ولكن الشاعر نقلها من المرأة واسبغها على الشجرة ، ورسم من خلالها صورة للمرأة التي يريدها ، وكأنه بذلك يقوم بعملية تعويض للنقص الذي يعاني منه في حياته الجنسية ، ومن دون شك ، فان استخدام الشاعر لعنصر التشخيص كأسلوب تعبيري ، كان ذا دور في تحريك الصورة ، وبث الحياة في أجزاء الصورة المرسومة .

هذا لم يكن الشاعر مغرما بما في طبيعة بلده من روابيات وشجريات وزهريات ، فحسب بل كان مغرما كذلك بطبيعة بلده ربا وجبالا وطلاحا ، وهو ما سنتناوله في الفصل التالي .



الفصل الرابع

الربا والبطاح والجبال

تميزت بلاد شرق الأندلس بما فيها شُقْر وبلنسية ، بسهولها الخصبة الواسعة ، التي كانت تتخللها احيانا بعض الهضاب ، وقد ترتفع احيانا لتصير جبالا سامقة ، تطل على ساحات شاسعة من الارض ، وتهيمن على قممها الاماكن البعيدة ، وابن خفاجة ، وهو الشاعر الحساس ، المحب لارضه ، كان كثيرا ما يضرب في الارض ، ويهيم على وجهه في بطاحها الخضرة ، تستوقفه الرابية المعشبة المزهرة ، فيمتع نظره بجمالها وبهائها ، ويجذبه الجبل في صعوده وشموخه ، فيسكن اليه ويناجيه ، وقد يرى فيه نفسه ، فيتلقه بما يجول في خلده من افكار ومشاعر ، وقلق واضطراب . ومن مثل هذا الاحساس العميق بالطبيعة وبأرضه ، والشعور الغامر بما فيها من جمال ، كانت عنايته بتسجيل مشاهداته ، وتصوير مشاهد ارضه ، ذلك التصوير الذي يفيض جمالا وروعة . وكأنه أراد الا يفوته شيء من طبيعة بلده دون ذكر او تسجيل ، فوصف الربا ، والبطاح والخرق والجبال ، وتراوح تصويره لها بين اللمحة القصيرة كما في وصفه للربا ، والنظرة الطويلة المتأنية المتأملة ، كما في وقفته على الجبل .

* الربـــا :

لم يفرد الشاعر الرابية بالوصف لذاتها ، فلا نجد في شعره قصيدة او مقطوعة تختص بالربى كمشهد مستقل ، ولكنها تحظى بمكانة في العناصر التصويرية ضمن المشاهد التي رسمها في ديوانه لطبيعته الرائعة ، وهو في تصويره يعنى بظاهرها المادي المحسوس ، فيوشيها بالنَّوْر ، أو يكسوها بالعشب والشجر ، وقد يضفي عليها من الضياء والبريق ما يزيدها بروزا . وهو لا ينسى ، ومن حين لآخر ، أن يخلع عليها بعض صفات المرأة كما فعل مع عناصر الطبيعة الاخرى ، فالربا ، وقد وشاها الزهر ، تغدو عنده رأسا عليه تاج مرصع أو ردفا متزرا :

وأبرز أثوابَ خضرِ الغصـــــون ... ورشّح تيجان هام الرّبا (١)

فردّ من ما كبّلته الغصـــــون ... وأزرار أفتت الرّبـا (٢)

* * * * *

وللربى أجياد مقلّدة، ولكن درها من النُّوّار :

زار وربيُ الفجر قد قلّصـــت ... ذيلَ غمام بات مجْــرورا

فقلّدتْ أجيادَ تلك الرّبـــا ... درًّا من النُّوّار منثــورا (٣)

. . . .

وقد قلّد النُّوّار جيدَ الربـــوة ... هناك ونحرًا للفضاء رحيبا (٤)

ثم إن الربوة وقد كساها النَّوْر الابيض، وغمرتها شمس الأصيل باشعتها الصفراء الهادئة فزادتها رونقا وبهاء، تفتن الشاعر وتحركه وتدفعه الى الرسم، فيصورها تصويرا طيبـــا بالاضواء، يزيده اشعاعا بريق ماء الذهب والفضة الذي استعان به الشاعر في تلويـــن صورته، وهو أمر يذكرنا بطريقة ابن المعتز في التصوير :

وقد فضّض النُّوّار كل ربـــاوةٍ ... وسال عليها للأصيل نضـــارُ (٥)

والربا، وقد غمرتها شمس الاصيل بضيائها الذهبي اللطيف، تستهويه ايضا، فيصورها مشبها الشمس في ضعفها وفتور اشعاعها بعين المريض الضعيفة الإبصار، وهو تشبيه مستهلك كثير الاستعمال في الشعر العربي القديم :

---

(١) الديوان : ٢٠٨

(٢) نفســه : ٣٠٠

(٣) نفســه : ٢٤٧

(٤) نفســه : ١١٣

(٥) نفســه : ٢٨٥

وقد ظهرتْ شمسُ الأصيل الى الربـــا ... بأضحكَ من ثَغْرِ الربيع وأفتر (١)

والربا في خضرتها وجمال نورها، تعد من المشاهد التي يستريح إليها ناظر الشاعـــر وتستهويها نفسه، فيستمتع بها نا يستمتع بغيرها من مشاهد الطبيعة المختلفة:

وتسمت طرف العين بين رُبـاوة ... مخضرّةٍ وتراكّةٍ زرقـــــاءِ (٢)

....

مُتقسّمَ الألحاظ بين محاسـنٍ ... من رِدْفِ رابية وخَصْرِ قـــرارِ (٣)

وهو إذا اشتدّ به الشوق، لم يجد أفضل منها مكانا يتنسم منه نسائم الصَّبا الهابة مــن جهة محبوبه:

وأرقبُ أرداف الربا متنسّمـًا ... فأنشق أنفاس الصَّبا متنسّمـا (٤)

واذا حن الى ارضه، حيث احبته وروابي صباه، ذكرها في جملة مايهفو اليه قلبه:

ألا هَل إلى أرض الجزيرة أوبـــةٌ ... فأسكُنَ أنفاسًا وأهدأ مَضجعـــا

وأغدو بوادٍ بها وقد نضح النّـدى ... معاطفَ هاتيكَ الرُّبا ثم أنشعـا (٥)

وقد ينتبه لحاله، وهو يسير في سهول أرضه ورباها، وقد أخذته نشوة غامرة، فيرسـم لنا صورا عامرة بالحركة والحياة:

ترمي بي الغيطانُ فيها والرُّبـا ... دَوْلاً كمايتموّج التيّـــار (٦)

....

اخو عزمة تعلو الربا ترتقي بها ... الى حيث يهوى والبطاحَ تسيل (٧)

هذا عن الربا وقد كساها العشب، وزركشها النّور، وغمرتها أشعة الشمس الذهبيـــة وأما عن مظاهرها وقد ردتها الريح بالغمام وجادها المزن بقطره، فانها تشكل اطارا جميـلا

---

(١) الديوان: ٣٧٧
(٢) نفسه: ٢٥٠
(٣) نفسه: ٢٦١
(٤) نفسه: ١٦٣
(٥) نفسه: ١٢٨
(٦) نفسه: ٨٠
(٧) نفسه: ٢٦٣

لاحدى صوره :

تمنّتْ بها* ربى بليلٌ ورقّـــوة   بمسرب غمام جاد ها متبجّســــي (١)

وقد نعثر على صور غير هذه الصور، مشوقة هنا وهناك في ديوان الشاعر، مما يــــدل على مكانتها عنده، وقيمتها في ميزان اهتماماته الوصفية، وهي صور عني (الشاعر) فيها على السمو بالمظاهر الحسي، يرسمه كما تراه عينه في الواقع، ولكنه عرف كيف يضفي فيه السرور، فجاء تصويره لها حيا متحركا، يمكن في أحيان كثيرة احساسه المادي بالمرأة، ونظرته اليها نظرة من جانب واحد، متعة الحس لا النفس.

*** البطـــــاح :**

ان بلادا خصبة التربة، غزيرة المياه، كبلاد شرق الاندلس لا بد الا أن تكون كثيـــرة البساتين، ملتفة الشجر، وذلك ما أفادتنا به كتب جغرافية المغرب والاندلس، وابن خفاجـــة كما تغنى بربى بلده ورياضها، تغنى كذلك ببطاحها وسهولها، فقد فتنته باتساع خضرتها وكثرة ظلالها، فكان يسرح في جنباتها ويمرح، ويقيم مع الى أنسه هنا وهناك وتحت ظــــلال دوحها المزركشة بأشعة الشمس، تسره بمناظرها وتنطق لسانه بالاعجاب والاكبار لجمالهـــا وروعتها، فهي لقيمتها عنده يدعو لها بالسقيا :

سقيا لها من بطاح أنســـــ   ودوح حسن بها مظلــــــل
فما ترى غير وجه شمـــــس   أطل فيه عذار ظـــــــل   (٢)

---

* الضمير في "بها" عائد على صورة رسمت من ريحان وصفها الشاعر.

(١) الديوان : ١٥٦

(٢) نفسه : ١٤٠

وقد غَشِيَ النَّهْرُ الحَصَاةَ ... بِمِدَرِ المِدَارِ بِعَدٍّ أَسِيلِ (١)

ولكون البطاح مسرحا جميلا لمجالس أنسه ، ومستودعا للكثير من ذكريات طفولته وشبابه ، فانه يحن اليها ، ويشتد به الشوق الى ظلالها ، وطيب هوائها ، فهو لذلك يستنشق النسائم لعلها تنقل اليه بعضا من آثار بطاح جزيرته البديعة :

وربّ نسيم مرّ بعطار طاهرا ... رقيق الحواشي لا يحتشد بيبسا
وجدت به من ذلك الماء بلّة ... ومن نورها تبه الأباطح أيبسا (٢)

هذا الى غير ذلك من الصور التي غص بها الشاعر ديوانه ، وهو فيها كما نلاحظ رسام ماهر ، قدر بطاقته على إبراز مظاهر الجمال والفتنة فيها ، فجاءت رائعة ممتعة ، وقد تتسع تلك البطاح لتصير طرقا أو مفازة ، أو تنوفة ، تمتد في طولها وسعتها مد البصر وهو أمر عني الشاعر بتصويره أيضا .

* الطرق :

لقد تكرر ذكر المفاوز والفلوات في ديوان ابن خفاجة غير مرة ، مما يدل على وجودهما وأنها كانت طريقه الى المدن المجاورة كشاطبة ، وبلنسية ، اللتين كان يتردد عليهما باستمرار ، أو الى غيرهما من المدن الاندلسية التي كان له فيها إخوان وأصحاب كمرسية وغرناطة واشبيلية وسرقسطة ، وان لم يصرح بذلك ، أو في اثناء سفره الى المغرب ووصفه لها يدل على انه عبرها في الاحوال المختلفة ، في الليل والنهار ، والحر والقر

---

(١) الديوان : ٢٧٨
(٢) نفسه : ١١٢ - ١١٣ .

فقد صوّر حاله وهو يخوض غمارها وحيدا لا يصحبه فيها غير فرسه وسيفه ، كما صور رهبة الكون ، وجسد خوفه ووحشته ، من خلال مظاهره المختلفة ، فللليل تأثيره على بعض صوره في هذا المجال ، فهو يصف المفازة التي قطعها ليلا وحيدا ، ويصور سواد ظلمتها ويهول من وحشتها ورهبتها ، بما يضفيه عليها من جمود وسكون ، فكل شيء فيها ساكن لا يتحرك ، فلا نجم يسري ، ولا فلك يدور :

وَمَفَازَةٍ لا نَجْمَ في ظَلْمَائِهَا ... يسْري ولا فَلَكٌ بِهَا دَوَّارُ (١)

والخرق الذي يجوبه الشاعر خرق مهول ، موحش ، يخفق لرهبته البرق هلعا ، ويسهر فيه النجم حذرا مترقبا ، لا تركب فيه غير الرياح ، ولا يتزود فيه بغير القطا :

يَخْفِقُ* لِقَلْبِ البَرْقِ خَفْقَةُ رَوْعَةٍ ... بِهِ ولِجَفْنِ النَّجْمِ فيه سُهَادُ
سَحِيقٍ فلا غيرَ الرياحِ رَكَائِبٌ ... هناك ولا غيرَ القطاةِ مَزَادُ (٢)

وهي صورة فنية رائعة ، كان لخيال الشاعر في تصميمها دور كبير .

ويتكرر تصوير الشاعر للخرق من حيث رهبته ووحشته ، ولكن بأساليب متنوعة وصور مختلفة ، فهو خرق مخوف ، مرعب ، وقفر سحيق ، يرتجف فيه السّراب فرقا ، وتكلّ فيه الريح ولا يكاد يسمع فيه رجع لصوت ، كما أن النجم يبيت فيه ساهرا ، وكأنه يتوقع خطرا مداهما :

---

(١) الديوان : ٨٥
(٢) نفسه : ١٣٢/

* الخرق : القفر ، والأرض الواسعة .

ولا سير إلا فوق ظهر تنوفة* ... يراع سراب القاع فيها فيرعد
وعزف سحيق يملأ الصدر وحشة ... فترجع صهيل الطرف فيه تنهد
مهيب يبيت النجم يسهر وحشة ... وتكل الريح فيه ونة تقصد (١)

وهو تصوير يلج به الشاعر مستوى فنيا عاليا ، فيه ايحاء وتجسيم وتشخيص ، فالسراب يراع فيرتعد فرقا ، والنجم يسهر خائفا ، والريح تعيا فتنام ، وكأنها أناس تحيا ، تحس وتشعر بمخاوفها ومآلتها أمام رهبة الكون وصمته الموحش ؛ لقد عرف الشاعر كيف ينفذ إلى خيال قارئه ، فيؤثر فيه ، ويشركه في الموقف الذي يعيشه .

وكثيرا ما يهرع الشاعر الى الفيافي ، يضرب في أعماقها ، ويستسلم في أحضانها لتأملاته ويستقرئ الطبيعة في صمتها الرهيب ، سننها وأسرارها :

وحيدا تهاداني الفيافي فأجتلي ... وجوه المنايا في قناع الغياهب*
ولا جار إلا من حسام مصمم ... ولا دار إلا في قتود الركائب (٢)

وقد يتذكر صاحبه وممدوحه أبا الحسين بن الربيع ، والي قرطبة ، فيمدحه بقصيدة يصور في أحد أبياتها المسافة التي تفصله عنه ، وأنها شاسعة ، ومخوفة ، يخفق فيها قلب السراب خوفا وحذرا :

ولئن عدتني عنك كل تنوفة ... يهفو* بها قلب السراب حذارا (٣)

ويصله نعي أحد أصحابه بالمهدية ، فيحزن لذلك ، ويهتم ، ولكنه يتذكر ضعفه ، والمسافة الكبيرة التي تحول دون وصوله إلى قبره ، فيعبر عن ذلك بقوله :

وكيف يشكون ساعة أشتفي بها ... ودون التلاقي كل بيداء سملق* (٤)

---

(١) الديوان : ١٤٤
(٢) نفسه : ٢١٥
(٣) نفسه : ١٤٥
(٤) نفسه : ٢٢٦

* تنوفة : المفازة ، والأرض الواسعة البعيدة الأطراف ، أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس وإن كانت معشبة .
* الغياهب : جمع غيهب ، وهو الليل الشديد السواد .
* يهفو : يخفق ، السملق : القاع الصفصف .

كما يعلمه من الحسرة إثر موت محمد ابن اخته ، فيرثيه رثاءً باكيا ، دون أن ينسى تصوير المسافة التي تفصله عنه ، مسوغا بذلك عجزه عن اللحاق به في صحرائه التي دفن بها قائلا :

ودون لحاقي من الماء لجّة … يُخبّ ومُغبرٌّ من البيد أفيح* (١)

لقد أفادنا ابن خفاجة بأن الطبيعة ولكنه كانت فسيحة الرقعة ، واسعة الارجاء ، يشتد بها الحر حتى يتلألأ في اجوائها السراب ، ويشعر سالكها برهبة شديدة تتملكه من اعماقه ويأتي به في هذا يصف حال الاندلس في عصره ، وقد داهمتها الخطوب ، وقلب لها الدهر ظهر المجن ، فما يسفر يوم إلا على حادث بنكر ، ولا تكاد تعرف الامن والاستقرار حتى يزول أمنها واستقرارها الى دوامة من القلق والاضطراب ، تنغصت على الاندلسي عيشته ، وزرعت الخوف في قلبه وجعلته يرى الموت حائرا بين عينيه أنى سار وحيثما حل . وقد حالف التوفيق الشاعر في وصفه ، فأتحفنا بتلك الصور الموحية ، المليئة بالحركة والحياة ، المعبرة إعرابا غير مباشر عن نفسيته الخائفة القلقة ، الحذرة المترقبة ، المتوجسة من رهبة الكون ، وهول المصير ولكن طريقته الفنية في تشخيص الطبيعة والتفاعل معها لا تبدو بوضوح أكثر مما تبدو في وصفه للجبل .

* الجبال :

لقد كان الشاعر محبا لطبيعة بلده ، بما في ذلك جبالها الشامخة ، فقد كان كثير الخروج إليها ، وكأنه وجد في أجوائها النقية ، وصمتها الرهيب ، وثباتها الراسخ ، أفضل مكان يستلهم فيه نجواه ، وتأملاته في الكون والحياة فقد روى الضبي ان الشاعر كان يخرج من جزيرته الى الجبال القريبة منها ، فاذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته يا ابراهيم

---

(١) الديوان : ٢٦٧

* الافيح : الواسع

تموت ، ويمضي نفسه ، فيجيبه الصوت ، ولا يزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه (١) . وكان ثمرة لهذه الخلوات ان خص الشاعر الجبل بقصيدتين ، ضمنهما الكثير من تأملاته ونظراته . والقصيدتان متفاوتتان من حيث الطول وعمق الفكرة ؛ ففي الاولى وهي من ثمانية أبيات يصف الشاعر الجبل بنظرة محايدة ، ويمثله كظاهرة طبيعية جامدة ، وأما في الثانية ، فعلى العكس من الاولى ، نجد الشاعر يندمج في الجبل ، ويتفاعل معه ، ويحس به إحساسا عميقا ، فلذلك جاء الوصف حيا ، عامرا بالحركة مفعما بالمشاعر والاحاسيس الانسانية المصوغة بطريقة فنية رائدة . وكأن القصيدتين تعبيران مرحليان عن تجربة شعورية واحدة ، متطورة ، فمثلت القصيدة الاولى النظرة الحسية الاجمالية ، وعبرت الثانية عن نظرة فاحصة متعمقة ، تستشف الجبل من داخله الغائر حركة واحساسا لتطلعه الجامد الراسي ، فالصورة الاولى التي رسمها الشاعر للجبل أتت ضمن اطار يمثل مشهدا ليليا مقمرا ، حيث السماء الصافية والنجوم المتلألئة ، والبدر المنير ، في هذا الاطار الكوني الجميل بدا الجبل بشموخه وسمرته ، يطاول عنان السماء ، ينال نجومها ، ويتخذ من كواكب جوزائها تاجا ، وهو مع ذلك وقور ، صامت ، عمق لذاته ثقيل سمج ، قد أثقل بجسمه يصيخ الى نجوى ، رزين ، ثابت لا يستجيب لمداعبة البدر ، فيبقى مظلما ، قد لاذ به نسر السماء ليعلوه ، وكأن له فيه وكرا ولكن الشاعر لا يستطيع بهذه النظرة الحسية ان يسبر غور الجبل ، فلذلك ينصرف عنه دون ادراك حقيقي لسبب هذا الصمت الرهيب الذي يلف اركان الجبل ، أهو عجز الشيخوخة وملابساتها ؟ أم كبر اعتراه فأزهاه بنفسه ، وعجب عن اقدار الاخرين ؟ اننا لنحس ان الشاعر على الرغم من نظرته السطحية المحايدة في وصفه هذا ، قد بدأ يشعر بنوع من التجاوب مع الجبل ، لما اسبغه عليه من صفات لها علاقة بصفاته النفسية الذاتية ، وخاصة منها تلك التي

---

(١) بغية الملتمس : ٢١٧ ، انظر ص : ٥٠ من هذا البحث

لها صلة بفترة شيخوخته ، وهو في هذا الوصف إنما يقرع باب الجبل ، ليلج عالمه الداخلي الرحيب ، ويعقد معه صداقة حميمة :

وشقّ الدُّجى نقعاً من النجم مرسلٌ   تراءى من الليل البهيم به فجرُ
وأشرف طمّاح الذّؤابة شامخٌ   تنطّق بالجوزاء ليلا له خصرُ *
وقورٌ على مرّ الليالي كأنما   يصيخ الى نجوى وفي أذنه وقرُ *
تمهّد منه كل ركنٍ ركانةً   فقلّب إطراقاً وقد ضمت البدر
ولاذ به نسرُ السماء كأنما   يحنّ الى وكرٍ به ذلك النسر
فلم أدرِ من سمّى له وسذبية   أكبرةُ سنٍّ وقّرت منه أم كبر ؟ (١)

وتتقدم بالشاعر السن ، وتغزوه المصائب ، وتتناوشه الآلام من حين لآخر ، ويحس بشبح الموت يقترب منه شيئا فشيئا ، بعد أن اختطف أصحابه الواحد بعد الواحد ، وتتضافر عوامل كثيرة لتنمية هذا الاحساس في اعماقه : شيخوخةٌ ، مرض ، أحداث دامية متوالية ، وحدة موحشة ، ثقافة دينية ، زهد ، حنين الى الصبا ، حب للحياة ، ركون الى الطبيعة ، ووقوف على صيرورة ظواهرها ، كل هذه العوامل أسهمت ، وبدرجات متفاوتة في تعميق احساسه بالزمن ، ثم بالموت الذي أخذ يترقبه بفرق شديد ، وقلق ممض ، أوجد في نفسه حالة مرضية أشار اليها الضبي في روايته التي ذكرناها آنفا ، ولعل حالته النفسية هاته هي التي كانت تلجئه الى الابتعاد في أجوائها الصامتة ، الى الفيافي والجبال

---

(١) الديوان : ١٥٠   * طماح : مرتفع ، الذؤابة : من كل شيء أعلاه
نطاق الجوزاء : ثلاثة كواكب بيض متتالية في صدر الجوزاء عرضا .
الوقر : بفتح الواو : ثقل في الاذن ، او ذهاب السمع كله .

لما كان تصويره في الرحلة الثانية ، وتحديد ته التنزاه ، وانحسار الصعداء بعد يتفجر
يحتفل في بأمانه من مخارف وقلق واضطراب ، فقد بدأها بمقدمة مثقلة بالإحساس بالزمن ووطأة
الحياة ، فهو يذكر جوبه الارض ، وتلهفه للمسافات الشاسعة على راحلته التي جعلته لسرعتها
ومرونتها يظن أنه يمتطي الرياح ، فما ظهر في المشارق حتى وجد نفسه في المغارب ، وكأنه
بذلك يحكي نفسه ، فكنى بالمشارق عن طفولته وشبابه ، وبالمغارب عن شيخوخته وقرب
نهايته :

يمينيةً هلْ تدري أهوجُ الجنائبِ* تخُبُّ برحْلي أم ظهورُ النّجائبِ
فما لُحْتُ في أولى المشارقِ كوكبا فأشرقْتُ حتّى جُبْتُ أخرى المغاربِ (١)

ثم يتحدث عن جو الرحلة التي قطع غيابها وحيدا ، لا جار له غير حسامه ، ولا دار له
غير رحله ، يهون عليه الليل بهيم طويل : ثقيل الوطأة ، ولكنه ساعد برهبته وصمته على
التأمل ، ويكشف رغم تقنعه الصفيق عن وجه المنية ، وحقيقة الحياة بأنها وحشة قاتلة ، لا أنس
فيها بغير الاماني ، ولا تحلل فيها بغير الآمال :

وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياهبِ*
ولا جارَ إلاّ من حسامٍ مصمّمٍ* ولا دارَ إلا في قُتُودِ الرّكائبِ*
ولا أُنْسَ إلا أن أضاحكَ ساعةً ثغورَ الأماني في وجوه المطالبِ
بليلٍ إذا ما قلتُ قد بادَ فانقضى تكشّفَ عن وعدٍ من الظّنِّ كاذبِ
سحبْتُ الدّياجي فيه سُودَ ذوائبٍ لأعتنقَ الآمالَ بيضَ ترائبِ
فمزّقْتُ جيبَ اللّيلِ عن شخصِ أطلسٍ تطلّعَ وضّاحَ المضاحكِ قاطبِ
رأيْتُ به قِطْعاً من الفجرِ أغبشا تأمّلَ عن نجمٍ توقّدَ ثاقبِ (٢)

بهذه المقدمة المفعمة بالمشاعر ، العامرة بالمعاني والصور يطرق الشاعر باب الرجل ، فيناجيه مناجاة الصديق لصديقه ، ويسر إليه أسرار المحب لحبيبه ، ولقد [illegible] علاقة
الشاعر بالجبل قد مرت بمرحلتين ثنتين :

---

* الجنائب : جمع جنوب : ريح تخالف ريح الشمال في مهبها .
الغيهب : الليل الحالك . الحسام المصمم : القاطع
القتود : خشب الرحل .

(١) الديوان : ٤١٥
(٢) نفسه : ٢١٥-٢١٦

الاولى تتمثل في نظرته السطحية المحايدة ، وهي نظرة لم تخوله معرفة حقيقة الجبل ، وادراك كنهه ، والثانية ، هي نفس النظرة الاولى ، في تفاصيلها المادية ، ولكنها تختلف عنها من حيث عمقها وشمولها ؛ فهو هنا يذكر وصفه المادي السابق للجبل ، ولكنه يعدل عنه ، بحيث يتماشى ونظرته الجديدة الى هذه الظاهرة الطبيعية العظيمة ، فجبله ثانية : عظيم ، ثابت ، راسخ يمتد عرضا وطولا حتى انه ليطال عنان السماء ، ويزاحم الشهب في عليائها ، ويسد مهب الرياح فلا يترك لها منفذا ، قد لاث على رأسه من سود الغمائم عمائم ، واتخذ من وميض البرق الاحمر ذوائب ، وهي صورة جميلة فيها ايحاء وتشخيص ، هذا من حيث صفاته المادية وأما من حيث صفاته النفسية ، فهو أيضا وقور ، صامت ، ولكن لا عن كبر أو كبَر ، وانما لانه يتأمل ، يتفكر ، فيما خلفه وراءه من ذكريات ، وما مرّ به من أحداث . والشعر بهذا التحليل يعقب على تساؤله الذي ختم به قصيدته الاولى ، وهي خطوة ايجابية مكنته من أن يتخطى حاجز الحس ، ليتعامل مع الجبل تعاملا شعوريا على نحو أعمق . ان الجبل ، تلك الصخور الصلدة ، الجامدة ، الصامتة ، الخرساء ، ينطق ، يتحدث الى الشاعر ويحاوره ، ويحكي له قصة الحياة ونكبات الدهر ، في نبرات حزينة ، مشجية ، فكم لجأ اليه من فاتك فار من القضاء ، فوجده في المنعة وأمنا ، وكم من تائب منيب وجد في صمته وسكونه لذة العبادة وحلاوة المناجاة ، فأقام به وسكن ، وكم مر به من ذاهب وآيب ، وكم قال بظله من راجل وراكب ولم لا ؟ لقد لاطمته الرياح ، وزاحمته الأمواج ، فذهب الكل ، وبقي هو وحيدا ، تقتله الحسرة ويهده الحزن ، قد انقلبت افراحه مآتم ، وضحكاته بكاء مرّا ، وصار خفق أيكه زفرات أضلع مزّقها الحنين ، وتحول غناء اطياره الى نواح وصراخ وعويل يندب ذهاب الأحبة وفراق الاصحاب :

وأرعنَ طماح الذؤابة باذخ * يطاول أعنان السماء بغارب *
يسدّ مهبّ الريح من كل وجهة * ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه * طوال الليالي مفكرٌ في العواقب

يلوث عليه الغيم سود عمائمٍ ... لها من وميض البرق حمرٌ ذوائبِ

أصخت إليه وهو أخرس صامتٌ ... فحدثني ليل السرى بالعجائبِ

وقال ألا كم كنت ملجأ فاتكٍ ... وموطن أوّاه تبتّل تائبِ

وكم مرّ بي من مدلجٍ ومؤوّبٍ ... وقال بظلّي من مطيٍّ وراكبِ

ولاطم من نكب الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار جوانبي

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائبِ

فما خفق أيكي غير رجفة أضلعٍ ... ولا نوح ورقي غير صرخة نادبِ

وما غيّض* السلوان دمعي وإنما ... نزفت دموعي في فراق الأصاحبِ (١)

شهد أبرز الموقف الشعوري الى احساس بالزمن ، وتبرم واضح بطول العمر ، وثقل الحياة
جبل يمل من المقام ويهفو الى الموت ، الى الفناء ، فالى متى البقاء ؟ وقد رحل الصحب
يجد منهم أحدا ، والى متى يبقى ساهرا يراقب مطالع النجوم ومغاربها ، انه لم تعد له
ية في البقاء ، انه يتوق الى اللقاء ، وهي غاية تذكره بالله الرحيم الودود ، خالق الكون
مدبر الحياة ، فيتضرع اليه ضراعة مؤمن مخلص متشوق الى لقائه :

فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ ... أودّع منه راحلاً غير آيبِ

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرًا ... فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربِ

فرحماك يا مولاي دعوة ضارعٍ ... يمدّ الى نعماك راحة راغبِ (٢)

وهنا ينتهي الشاعر من رحلته التأملية التي جعل الجبل مسرحا لها ، ويخلص الى
النهاية التي توخاها من هذا الحوار الممتع ، وهي استخلاص العبرة ، فينتصح لنصح الجبل
وينتفع بوعظه ، ويودعه وهو أقوى عزيمة ، وأجلد نفسا على مواجهة شبح الموت الذي أقض مضجعه

---

(١) الديوان : ٢١٦ - ٢١٧

(٢) نفسه : ٢١٧

* الارعن : الجبل الشديد النتوء
الباذخ : العالي ، الغارب : الكاهل ، أو من كل شيء أعلاه .
غاض الماء : قل ونضب .

ونفس عليه حياته : (١)

فأسمعني من وعظه كل عبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكى وسرى بما شجا ... وكان على ليل السرى خير صاحب
وقلت وقد نكبت عنه لطية ... سلام فإنا من مقيم وذاهب (٢)

والقصيدة كما نلحظ عمل فني ، وجهد ابداعي متميز ، فيه من عمق الفكر بقدر ما فيه من روعة الفن ، وبجودة التصوير وتحليق الخيال ، وهي محاولة فريدة في نوعها لا نجد لها نظيرا يضارعها في جمالها وروعتها في شعرنا العربي القديم بل ، وحتى تلك المنظومة المنسوبة الى المجنون في مناجاة جبل التوباد لا تكاد تعد إذا ما وازناها بقصيدة ابن خفاجة ، ولا نخفي هنا شكنا في رأي الدكتور شوقي ضيف الجازم بأن الشاعر المتناسكة البناء ، قد اطلع على هذه المقطوعة واستمد منها منظومته في الجبل (٣) ، فليس لدينا من الاخبار والادلة ما يدفعنا الى الجزم بذلك ، بل الكثير مما لدينا منها عن حياة الشاعر يدفع الى الظن بانها ثمرة ناضجة من ثمرات خلواته ، وتأملاته في احضان طبيعته التي احبها من كل قلبه .

والقصيدة ، وبعد هذا العرض الموجز لما جاء فيها من صور وأفكار ، تعد ترجمة حقيقية لافكار الشاعر وتأملاته ونظرته الى الحياة ، وهو ما لاحظه الدكتور احسان عباس واشار اليه بقوله : " ونرى أن انسانية الجبل تتزايد تدريجا في القصيدة ، فاذا هو يمثل صورة اخرى من وقفة الشاعر نفسه ، أو هو الشاعر نفسه ، وهو لا يعبر عن حب الصمود ولذة الخلود وانما يعبر عن استثقاله للحياة ، ووحدته بعد ذهاب اخوانه ، وكان بذلك يعبر عن "قيمة الموت" ، اي يهون وقعه على نفسه التي تفرق من الموت وتحاول الهرب من شبحه المخيف (٤) .

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين : ٢١٠

(٢) الديوان : ٢١٧ .

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر : ٤٤٧ - ٤٤٨

(٤) تاريخ الادب الاندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين : ٢٠٨ - ٢١٠

وهي قصيدة استطاعت بروعتها الفنية أن تحظى باهتمام الكثيرين من المختصين في الدراسات الاندلسية في هذا العصر ، فهنري بيريس " يعجب بها فيها من تشخيص وتصوير وصفها بأنها قطعة رائعة ، ويقف فيها عند البيت الذي يذكر فيه الشاعر كلمتي " الناتك والناسك " ، فيحاول سبر ابعاد هاتين اللفظتين ، من وجهة نظر اجتماعية فيرى أنهما يشيران الى وجود ظاهرتين اجتماعيتين كان لرأي الشاعر المعتل سياسيا واجتماعيا أثره في بروزهما ، الاولى كثرة الفتاك واللصوص الذين كانوا يتخذون من الجبال ملاجئ فرارا من الملاحقة القانونية . والثانية : ظهور فئة من الزهاد أو النساك الذين اعتصموا بالجبال ، وانقطعوا فيها طلبا لصفاء العبادة ، ولذة التأمل ، مستلهمين في ذلك الآراء الصوفية الوافدة على الأندلس منذ حين (١) . ويقدم الدكتور محمد رضوان الداية حديثه عنها بقوله : " وهي قصيدة رائعة معالجة الدلالة على مقدرة الشاعر في الوصف والتشخيص ، وقدرته على الرمز بالطبيعة " الجبل " والاندماج بها ، وهي بعد نموذج رفيع يمثل فن الشاعر وأسلوبه ، ومثال ، " للخفاجية " في الوصف والشاعرية " (٢) . ويرى فيها الدكتور جودت الركابي عملا فنيا سابقا لزمانه ، فيقول " إن ابن خفاجة ، قد استطاع في هذه القصيدة ان يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، فأشرك النفس الانسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بسر الطبيعة " (٣) . كما يرى فيها آخرون أنها من أروع ما صاغه الشاعر في وصف الطبيعة (٤) . ويرى فيها عبد الرحمن جبير تحفة فنية رائعة ، وعملا فنيا متناسقا : " يشده الشرح والتفسير ، جماله في ان يبقى هكذا متحدا الاجزاء ، متصل الاسباب ، متساوق النغمات كباقة من الزهر ، جمالها في أن تبقى ... باقة زهر ، لا أن يعبث فيها باحث ، أو يعبث فيها عابث " (٥) . ونجد أنفسنا مضطرين أن نغادر هذه القمة السامقة في الطبيعة والفن ، لنعود والشاعر الى جزيرته ، حيث نعيش معه على ضفاف نهرها ، لنمتع البصر بمناظره الجميل ، ونشنف الآذان بخرير مياهه الرقراقة العذبة .

---

(١) La Poesie Andalouse P: 159-160

(٢) ابن خفاجة : ٦٨

(٣) الطبيعة في الشعر الاندلسي : ٥٣

(٤) ابن زيدون : عصره وحياته وادبه : ٢١٩

(٥) ابن خفاجة الاندلسي : ١٠٧

الفصل الخامس

في
المائيــــات

لا داعي هنا لأن نسرد كل ما أورده الجغرافيون من أخبار عن طبيعة شرق الأندلس المائية، لأننا ذكرنا منها الكثير في مقدمة هذا الباب (١)، ولكننا نرى أنه من الضروري الوقوف عند بعض الجزئيات فيها لعلاقتها بموضوع هذا الفصل، فقد ذكرت تلك المصادر أن كلا من بلنسية ومرسية قد بنيتا في مستو من الأرض، وأن كلا منهما واقعة على نهر جار ينتفع به، وهذا يعني كثرة البساتين كما يعني تدفق المياه خلالها على شكل سواق متفرعة تخترق سهولها المخضرة في منظر رائق بهيج. كما ذكرت أن السفن كانت تدخل نهر بلنسية وانه كان يجاز الى مرسية على قنطرة مصنوعة من المراكب، تنتقل من موضع الى موضع، وهذا يعني ان كلا النهرين كان فسيحا، وعميقا، واذا اضفنا الى الاتساع والعمق الاستواء اكتملت لدينا صورة النشاط الذي كانت تشهده تلك الأنهار، فهي الى جانب كونها مجالا مساعدا للنشاط الاقتصادي بأنواعه، كانت مكانا مناسبا للقيام برحلات تنهرية رائعة.

وقد أشارت تلك المصادر أيضا الى وجود أرحاء ونواعير مقامة على ضفاف تلك الأنهار وهي افادة عظيمة الدلالة اقتصاديا وجماليا، ومما ذكرته عن جزيرة شقر أنها كثيرة الأنهار وان واديها يحيط بها، وانه يجاز اليها في الشتاء على المراكب، وفي الصيف على مخاضة وهذا الوصف يرمي الينا بأمرين، أولهما: صلاحية النهر لمرور المراكب والزوارق مما يدل على اتساعه وعمقه، وثانيهما: أن النهر لم يكن يحتفظ بنفس المقدار من المياه طوال السنة، فكانت مياهه تغزر شتاء، وتقل صيفا، وهذا يعني أن الأمطار كانت تسقط

(١) راجع الصفحات: ١١٨ - ١٢٢

أكثر ما تسقط في فصل الشتاء ، فتزيد لذلك مياه الأنهار حتى انها قد تتحول الى سيول لا تثبت أمامها المنشآت التي كانت تقام كجسور للعبور عليها ، وأما فصل الصيف ، فقد كانت ترتفع فيه الحرارة نسبيا ، وقد تشتد أحيانا الى حد نجد الشاعر فيه يصف الآل ، ويكثر من ذكر الظلال وندواتها ، والمياه وبرودتها ، ولم يكن ابن خفاجة وهو ابن جزيرة شقر بمعزل عن نهرها الجميل ، وسواقيها الرقراقة العذبة ، ولم يكن وهو ابن الجزيرة ليصرف بعيدا عن التمتع بمنظر المد والجزر على رمال الشاطئ شبه الجزيرة الاندلسي ، ليتمتع فيه بمناظر الأمواج وهي تتدافع حتى ترتطم بصخور الجبال الراسية في مشهد جميل الذهبية ، أو منظر الأمواج وهي تتدافع حتى ترتطم بصخور الجبال الراسية في مشهد يجمع بالرهبة والخوف في آن . لقد أحس ابن خفاجة بكل ذلك ، وكان كثيرا ما يجد راحته وأنسه في تأمل مياه النهر أو الساقية وهي تنساب رقراقة أمامه ، يشهد بذلك عموم شعره ، كما تشير اليه رواية صاحب المطرب من أن الشاعر ذكر بمناسبة لا عدد مقطوعات الشعرية أنه " ذهب يوما بعض باب السطار بشاطبة ، ابتغاء الفرجة على جرية تلك الماء بتلك الساقية " (١) .

لقد فتن الشاعر بالماء فتنة جعلته يتعلق بكل ما شاهدته عينه في طبيعة بلده من ظواهر ومشاهد فلذلك تجده يلهج بذكره في شعره ، كصورة ضمن مشهد يصوره ، أو في سياق التشبيه والاستعارة ضمن أغراض أخرى ، أو كموضوع مستقل ، يقصد بالوصف في ذاته ، في صورة نهر منساب ، أو سيل جارف أو بحر هائج .

★ النهــــر :

ان المطلع على ديوان ابن خفاجة ، حتى وان لم يكن على دراية بحياته وبيئته يدرك أنه ابن بيئة كثيرة المياه لما في شعره من اشارات الى البيئة المائية ، وأوصاف

---

(١) المطرب : ١١٢ . انظر الديوان : ٣٥٧

دقيقة فيها تنم عن ملاحظة ومعاينة . لقد كان ابن خفاجة وثيق الصلة بها في طبيعـة بلده من أنهار وعيون وسواق ، يؤنسها في ساعات حزنه وفرحه ، وانقباضه وانشراحه ، فيجـد في مائها وانسيابها راحته ومتعته ، فلذلك كثر ذكره لها ، وتعددت أوصافه فيها ، لا يكـاد يخلو مشهد من المشاهد التي رسمها للطبيعة الغناء من صورة أو أكثر لعنصر الماء فـي أشكاله المختلفة ، ساقية كانت أم نهرا أم بحرا ، في حالتها العادية الهادئة ، الموحيـة بالطرب والمتعة ، أو في حالتها الغاضبة الهادرة المثيرة للرعب والهلع ، ولكن ابن خفاجـة ذا النفس الرقيقة ، والذوق المرهف والطبيعة المرحة تستهويه المشاهد الجميلة الهادئـة بلا شك ، أكثر من غيرها ، وتستهويه أجواؤها اللطيفة ، فينجذب إليها مستمتعا ، ويصفها وصفا يدل على فتنة بصرية ، ولكنه يذكر في الكثير من تفاصيله أحاسيس الشاعر وميوله المادية .

فهو يدعو إلى اللهو والطرب في جو الطبيعة الهادئ ، تلك الطبيعة التي يمثل المـاء السلسال عنصرا أساسا فيها :

ألا أفصح الطير حتى خطـب ... وخفّ له الغُصُن حتى اضطربْ
نِلْ الرّبا بين ظل هفـا ... رطيبٍ وماء هناك انثعـبْ *(1)

والنهر وقد اكتست أشجار ضفتيه بالنَّوْر ، وانسابت مياهه صافية رقراقة ، يرق الشاعـر ويوحي إليه بهذه الصور المادية :

وقد ارتدت غصن النّقا وتقلّـدت ... حلي الحَبَاب معاطفُ الأنهارِ
فحللْتُ حيثُ الماءُ صفحة ضاحـك ... جذلٍ وحيث الشطُّ بدء عِذارِ (2)

ويعيد الشاعر رسم نفس المشهد تقريبا في موضع آخر مع دلالة أكثر على الإحساس المادي :

---

* انثعب الماء : سال

(1) الديوان : ٦٨

(2) نفسه : ٣٣٦

ولوّن الخليجُ جنباتِ صفحةٍ مُشرِقٍ   لثمتْ سوالفَها ثغورُ أقــاحِ (١)

ويدخل الخليج ضمن المشهد الطبيعي الذي يخلع عليه الشاعر صفات المرأة ، بـل ويجاوز ذلك من خلاياته صور المرأة التي تهفو اليها نفسه ، ويحيل اليها قلبــه :

والنَّورُ عِقدٌ والغصونُ سوالـــفٌ   والجِذعُ زندٌ والخليجُ سِـوارُ
رتَقَ القضيبُ بها وقد شرِبَ الثَّرى   وشدا الحمامُ وصفَّقَ التيّـارُ (٢)

كما أن الشجرة وقد حفّ بها جدول الماء ، توحي الى الشاعر بصورة امرأة حسنـــاء مزنّرة الخصر :

حفّتْ بدوحتها مجرّةُ جـــدولٍ   نثرتْ عليه نجومَها الأزهـــارُ
فكأنها وكأنَّ جدولَ مائهـــا   حسناءُ شُدَّ بخصرها زُنّـــارُ (٣)

وكثيرا ما عقد الشاعر مجالس أنسه في جو الطبيعة ، حيث الظل الندي ، والمــاء الصافي ، والطائر الشادي ، والزهر الفواح ، ويحلو له المقام في اجوائها ، كما يحلو لـــه التغني بمحاسنها ومفاتنها في كلمات تفيض رقة ولطافة وعذوبة :

والنَّورُ غرٌّ قد تنفّسَ واضـــحٌ   والماءُ مبتسمٌ يروقُ صقيـــلُ (٤)

ويصف يوم أنســه ومنادميه بالحركة والحياة فيقول :

عَثَرتْ بذيلِ السُّكرِ فيه عشيّـــةٌ   وللرّيحِ في موجِ الخليجِ عِثـــارُ (٥)

والجو قد تجتمع فيه الخمر بلونها الاشقر ، والجدول بمائه الصافي الشفاف ، فيخالهما الشاعر فرسي رهان يتباريان :

وقد جالَ من نارِ السُّلافةِ أشقرٌ   يسابقُه من جدولِ الماءِ أشهـــبُ (٦)

---

(١) الديوان : ٢٨٢
(٢) نفســه : ١٨١
(٣) نفســه : ٣٥١
(٤) نفســه : ٢٥٤
(٥) نفســه : ٢٨٥
(٦) نفســه : ٣٠١

وقد يمر بالنهر في صفائه ورقته ، وقد انجذب الغلمان اليه يسبحون ويمرحون ، فيستوقفه السنا ، ويفتنه بجماله ، فيصوره تصويرا يخلع عليه فرحته ، وبشره وحبوره :

فرغتُ من ماءِ الصبا في منهلٍ — قد رقَّ عنه من القميص سراب
في حيثُ للربى الزناءِ تنفسٌ — أرجٌ وللماءِ الفراتِ* عُباب

....

ولربَّ غضِّ الوسمِ مرَّ بخوضه — سبحاً كما شقَّ السماءَ شِهابُ
ولقد أنخْتُ بشاطئيه بجزئي — طرباً شبابٌ راقني وشرابُ
وعبرتُ دجلته بضاحنتي بها — فرحاً حبيبٌ شاقني وعتابُ (١)

وكثيرا ما كان الشاعر يقضي سويعات أنسه على ظهر زورق ينتقل به هنا وهناك على صفحة نهر جزيرته الجميل فيستسلم لكأسه ولا أحلامه ، ولكن الريح بهبوبها القوي المفاجىء ، قد تعكر عليه صفو لحظات أنسه ، أو توقظه من غفلته ، فينتبه الى هذه الظاهرة الطبيعية المتحركة ، ويصفها وصفا لا يخلو بما فيها من حركة وحياة :

أعالي تعايا الأشجار والأمير فتية — تغايل سود الصدر بيض السوالف
وذيلُ رداء الغيم يخفق والصبا — تهبُّ ومتْنُ النهرِ ضخْمُ الروادفِ
يثيرُ بها فيه شراعٌ كأنه — إذا ضربته الريحُ أحشاءُ خائفِ (٢)

ويقف الشاعر على مقطوعة لابي محمد بن عمارة الشنتريني ، يصف فيها نزهة ليلية مع أصحابه في نهر إشبيلية فيعجب بها ويعارضها بمقطوعة يصف فيها نفس المشهد ولكن في جزيرته فيذكر الدجى ، ويصور الزورق في تهاديه على صفحة الماء تدافعه رياح لطيفة وفي هلال نطير الى الماء وقد انعكست على مرآته الصافية نجوم السماء فيخالها غرقى ، ولكن في ... يزدان بها النهر الجميل بحلاوة وتستثير غيرة السماء :

الا يا حبذا الصحب المقيمُ — بمائيتها وقد غمَّ المساءُ
وأدهمُ من جياد الماء نهدٌ — تنازعُ جلَّه ريحٌ رُخاءُ
اذا بدتِ الكواكبُ فيه غرقى — رأيتَ الأرضَ تحسُدها السماءُ (٣)

وجو النهر في طيبه ، وحدائقه قد يكون باعثا للشاعر على ركوب متنه ليقوم وصحبه برحلة صيد ممتعة ، فيعدون لذلك عدته ، ويخرجون في الوقت المناسب فمن نسيم عليل الى صفحة للماء ملساء ، الى أشعة للشمس صفراء لطيفة ، زادت المشهد بهاء وروعة ، وابن خفاجة في

---

* الماء الفرات : العذب

(١) الديوان : ٣٣٧
(٢) نفسه : ٢١٠
(٣) نفسه : ٣٦٧

وجملته هذه لا تهمه عملية الصيد المتعة، بقدر ما يهمه جو الطبيعة في عمومه، ويجـــــو لا صيل على الصيد، ونفسه في الصيد، وينصرف بجمعه الى الطبيعة، يتتبع مناظرها بريشة الفنان، يرسم لها الصورة تلو الصورة لا يمل ولا يكل، مستلهما في ذلك ثقافته الشعرية وروائع بيئته الماثل أمامه :

ورائعةٍ ريّا تهادت بها الصَّبـــــا — تهادِيَ عطفِ المُتْرَفِ المتبختـــرِ
وقد صقلت من صفحة الماء منصلاً * — به من شعاع الشمس رونق جوهـــرِ
فمن شفقٍ قد حيكت منه مفاضةٌ * — ومن سحبٍ قد صيغ صفحة مغفـــرِ
وقد نظرت شمس الأصيل إلى النهى — بأنصعَ من كرزِ المريّ وأفتـــرِ
وصفرة سربال الأصيل ترقرقـــت — على لَعَسٍ * من مسقطِ الشمس أشقـــرِ (١)

وقد يكون الشاعر زمنا، مشاطرها فيمضي إلى جو الطبيعة، ويقف على النهر، وقـــد ترقرقت مياهه، وانسابت في طريقها، تتعثر بالحصى حينا، محدثة صوتا يسترعي له السمع حينا، فيشعر بشيء من التجاوب معه، ويحاول اشراكه فيما يحس به في أعماقه من آلام، ولكنـــه لا يذهب الى اكثر من أن يراه في صفاء ماء صفاء سريرته، وحسن طويته، وفي جريته وحركتـــه جري دموعه واضطراب جوانحه :

أمشتبهٌ من سنح أزرق صـــافِيا — ومرتفعٌ من شأو أزرق سائـــحِ
يسيل فيحكيني صفاءً سريـــرة — ويجري دموعٍ واضطراب جوانحِ (٢)

ومشهد الطبيعة، بمساحتها المخضر، ونهرها الصافي السلسال، وقد انعكست عليه اشعة شمس الغروب، فزادته جمالا الى جماله، يفتن الشاعر، فيقف امامه متأملا، متمليا، وينتهي من تأمله وتمليه، برسم هذه الصورة المتكئة في تشبيهاتها على ما في واقع بيئته من ظواهـــر ومعطيات، فالبطحاء المعشبة تحكي الخد المعذر، وشمس الاصيل ترنو بطرف كحيل، واما النهر

---

(١) الديوان : ٣٧٧

(٢) نفســه : ٢٦١

* المنصل : السيف، المفاضة : الدرع الواسعة
اللعس : لون الشفة اذا اشرب بالسواد قليلا .

وقد عكست مياهه الصافية ضوء الشمس الصفر ، فيحكي سناها صقيلا ، قد جمدت على صفحته قطرات من دم :

وقد غشيَ الذهبُ بلحـــــائه ... كَنَدٍ والعِذَارِ بخدٍّ أسيـــلْ

وقد رنَّتِ الشمسُ مشتـــاقةً ... الى الغربِ ترنو بطرفٍ كحيلْ

أرى سناها على نهـــره ... بقايا نجيعٍ بسيفٍ صقيـــلْ (١)

وفي غمرة الشوق الى الوطن ، والحنين الى مرابع الصبا ، لم يكن الشاعر ينسى نهر الصغر ، والبيادر والسواقي المتفرعة عنه ، وكيف ينساها ، وكانت مسرح أنسه ، وموطن خلواته وخلوات بعطلة ارتسمت عليها ذكرياته في مرحلة شبابه الغض ، لقد حنّ اليها اشارة الى كل شيء في وطنه ، بل ، وكيف لا يرتبط بها ويلهج بذكرها وهو الجنان المحب لارضه الساهر على احيائها ، وعلاقة الماء بالارض كعلاقة الروح بالجسد لا حياة لهذه دونها :

واني وان بعثُ المشيبَ لمولـــعٌ ... بِلُرّة ظل فوق وجه غديـــر

فيا حبّذا ما يمتعن اللبـــون ... وما اهتزّ من أيك عليه مطيـــر (٢)

وقد يحس أو يرى شيئا في الطبيعة ، يذكره بوطنه ، وموطن ذكرياته الحلوة ، فاذا بتلك الذكريات تتلاحق وتتدافع ، ويستدعي بعضها بعضا ، يفصح عنها الشاعر في أبيات رقيقة تفيض لهفة وحنينا :

فأذكرنا الليلةَ باللبـــون ... وعهدًا لعصر الصبا أطربا

وماءً بوادي الغضا سلسلاً ... ومرتبعًا بالربى معشبـــا

ومن جملة ما يحن اليه الشاعر ، بل وحصانه كذلك ، نهر بلده الذي يحكي في صفائه ثغر الحبيب ، وفي منعطفه المشجر اخضرار عذاره :

ونهرًا كما ابتسمَ المنهلُ سلسـلاً ... وجزعًا كما اخضرّ العذارُ كنيمها (٤)

---

* النجيع : دم يضرب الى السواد ، ترنو : تنظر

(١) الديوان : ٢٧٨

(٢) نفســه : ١٨١

(٣) نفســه : ١١٦

(٤) نفســه : ١١٢

ولكن هذه الصور الدائية الموزعة هنا وهناك في قصائد ومقطعات شعره ، قد تجتمع في مشهد كلي للنهر رسمه الشاعر متتبعا فيه اجزاءه ومراحله ، وأشكاله وحالاته ، مستنجدا في ذلك بما في ذاكرته من صور وبما حوله من ظواهر الطبيعة وألوانها وأصباغها . وهو في رسمه يعني بالظاهر المادي ، فالتشبيهات حسية ، والتصوير مادي ، يملأ العين بما فيه من ألوان وضياء ، وتستريح الأذن لموسيقا كلماته المنتقاة ، ولكن لا مشاركة للروح فيه من قريب أو بعيد :

لله نهرٌ سالَ في بطحــــاء	أشهى وروداً من لَمَى الحسناء
متعطفٌ مثل السوار كأنـــه	والزهر يكنفه مجرّ سمـــاء
قد رقّ حتى ظُنّ قوساً مُفرَغــاً	من فضةٍ في بُردةٍ خضــراء
وغدت تحفّ به الغصون كأنهـا	هُدْبٌ تحفّ بمقلةٍ زرقــاء
ولربما عابثتُ فيه مدامــةً	صفراءَ تخضِبُ أيديَ الندمــاء
والريحُ تعبثُ بالغصون وقد جرى	ذهبُ الأصيل على لُجَيْنِ الماء (١)

ونلاحظ في هذا الوصف شيئا جديدا ، لم نعهده من قبل يتضمنه البيت الاول ، فلمى الحسناء التي طالما تلهف عليها الشاعر ، مشبها بعض معطيات الطبيعة بها او العكس نجدها هنا تقف دون مرتبة ماء النهر في عذوبته وحلاوته ، فالنهر أشهى منها ورودا . كما يدل على من بيئته عند ما يشبه النهر في البيت الرابع ، في زرقته ، وقد حفت به الغصون بالمقلة الزرقاء .

ولكن هذه الظاهرة الطبيعية الرائعة ، ظاهرة الماء المنساب ، والنهر السلسال ، الممتع للنظر ، المنعش للروح ، قد يتحول شتاء الى سيل مدمر ، وتيارات يجرف ما يجده في طريقه من مراتع ومنابات فيمسي ظاهرة مرعبة مخوفة ، تهدد بالدمار ، بعد أن كان ظاهرة جميلة ، ممتعة مؤنسة ، تجذب الناس اليها بجوانبها الندية ، ومياهها البارد ة

---

(١) الديوان : ٣٥٦ - ٣٥٧

المدينة ، وابن خفاجة ، وهو ابن النهر الذي يطوق بلدته ، عاشر هذه الظاهرة ، في مختلف أطوارها ، ولكن تعامله معها لا يعدو ما تشاهده عينه ، بل ، وقد يلهيه التشبيه الحسي عن نقل ما تراه عينه كما هو ، فيأتي وصفه لها عاديا ، وكأنه ليس شاعرا فنانا ، يرى ما لا يراه الغير ويحس بما لا يحسون .

* السيل :

الظاهر أن الجزيرة كانت تشهد هذه الظاهرة مرة كل سنة على سبيل التقدير ، تؤكد ذلك مقطعتا الشاعر اللتان وصف في احداهما السيل الذي اجتاح الجزيرة في سنة (٤٨٠ هـ) ، ووصف في الثانية نفس الظاهرة في سنة (٤٨١ هـ) مما يدل على أن موسلة شرق الاندلس كانت تتعرض لأمطار غزيرة قد تحول مدتها الى ان تتحول الى سيول جارفة تخرب الزروع وتهدم الديار ، وابن خفاجة يطل على هذا المشهد ، يرقبه من كثب ، فلا تتفاعل به نفسه ، ولا يجرفه بمشاعره وأفكاره ، فيصوره ، بالتالي ، تصويرا يلائمه تروا وعمقا ، وانما يصفه وصفا سطحيا ، يلجأ فيه الى تشبيهات حسية يستمدها من واقعه الاجتماعي والديني فلا يذكره تهاوي الديار ، وخراب العمران ، تحت وطأة المطر ، وصدمة السيل ، الا بهيئة الركوع والسجود ، أو بوضعية انحناء الوفود في مجالس الملوك :

ألا كم هزأتْ بالمَسـى	وجدَّ انبقاءُ سماءٍ تَجُـودْ
فأقوتْ تخِرُّ بناءُ اليتى	كما تتلقّى الملوكَ الوفـودْ
ومالت كأنّ عليها صـلاةً	فبعضٌ ركوعٌ وبعضٌ سجـودْ (١)

ويعود الى بلده من سفر يطيلون قال طال ، ويصادف عودته نزول المطر ، فيسارع في الغفل للحاق بداره ، فما أن يقترب منها حتى يلفيها أنقاضا ، فماذا يا ترى يكون موقفه ؟ إنه لموقف جدير له تلمّ الانسان العادي ، فكيف بقلب الشاعر الحساس ، ولكن

---

* الاتي : السيل .

(١) الديوان : ٢٠٨

لا تعجب اذا احد صبيرود ! اقتطعها من جوه الشتوي ، ووصف سطحي رتيب لا يتعمق الموقف ، ويقرب ان يكون دعابة تثير الضحك ، اكثر منه كآبة او حسرة ، تستدر التعاطف وتدفع الى المشاركة الوجدانية :

أماويِّ سائلِ الغيثَ كالقَطْرِ ... يومَ ترى آثارَ السيلِ كالمَنْشَرِ
وقد غمرَ الفيضانُ ما يُمْتَدُّ ... كما أتتِ السَّاقي الزُّجاجةَ بالخمرِ
لقد أنتُ بين الزَّعْرِ والقَارِ أشتكي ... بسمعيَ مِنْ وَقْرٍ* وظهريَ مِنْ وِقْرِ *
وما أنا ملوِّلُ البِناءِ من الحَيَا* ... بصوتٍ وقد غُوِرَ الفِراخُ من الوَكْرِ
بدارٍ ستنهادُ بِهِمَّةٍ إثرَ دِيمَةٍ ... فمالتِ الجدرانُ سائرًا على سَكْرِ
فمنْ عارِعٍ يَشْقِي ومِنْ سقْفٍ مُتَلِّسٍ ... يُغَنِّي ومِنْ بيتٍ يَميلُ من السُّكْرِ
اذا ما وهى ركنٌ فأهوى فإنني ... لأشجى من الخنساءِ تبكي على صخرِ (١)

* البحر :

وعلى العكس من السيل فان البحر يحظى بعناية اكبر من الشاعر ، فقد أكثر من ذكر البحر في غرضي المدح والرثاء ، مستعيرا أو مشبها ، كما وصفه كظاهرة طبيعية ، تبعث الرعب والهلع في القلوب بامواجها المتلاطمة ، واعماقها السحيقة وظلماتها الكثيفة ، والشاعر كما يظهر من مقطعاته ليس من محبي البحر ، ولا ممن يرغبون في ركوبه او مصارعة امواجه فهو يخافه ويرهبه ، فلا يركبه الا مضطرا ، بل يهجوه ويزهد في ارتياده ، فهو قد خبره ونال لجته ، فلم يجد فيه ما يطلب ، فليس فيه كبير نفع ، وما فيه من نفع قليل ، بعيد المنال محفوف بالمخاطر والأهوال :

يا مادحَ البحرِ وهو يجهلُه ... مهلاً فإني قد خبرتُه علما
فائدُه مثلُ قعرِه بُعُدًا ... ورزقُه مثلُ ما بِهِ ظُلَمَا (٢)

ولكن هذا الموقف الزاهد المنفر من البحر ، لم يحل دون رسم الشاعر لبعض المشاهد في عرض البحر أو في شاطئه ، جسد من خلالها مخاوفه ، وقلقه ، وفرقه من الموت . فهو

(١) الديوان : ٣٠٧-٣٠٨ — * الوَقْر : ثقل في الاذن أو ذهاب السمع
(٢) نفسه : ٣٤١ — الوِقْر : الحمل الثقيل ، الحيا : المطر

اذا وجد نفسه في عرض البحر ، حيث تمتزج زرقة السماء بزرقة الماء ، يلتفت يمنة ويسرة فلا يرى الا الماء يمتد امامه في الآفاق ، يهدأ تارة ، فتنساب به السفينة على متنه ، وقد ساعدتها الريح ، كأنها تطير بجناحين ، ويهيج أخرى ، فيرغي ويزبد ، وتضطرب احشاؤه ، وتعلو امواجه في وضع لا تقوى سفينته على مقاومته ، فتتقلقل ، وتترجح ، وتعلو وتهبط ، مما يبعث في نفسه القلق والاضطراب ، فيحس بدنو اجله ، ويتخيل الموت شبحا مرعبا يريد أن يبتلعه ؛ ويشتد به الموقف فيشعر بالتلاشي فيما حوله ، ولا يعود يفرق بين حركة الموج وخفقان قلبه وانفاسه المتصاعدة ، وزفير الرياح :

وجارية ركبْتُ بها ظلاماً ... يطيرُ من الصَّبا به جناحُ
إذا الماءُ الطامي فوق خضراً ... علا من موجه ردفٌ رداحُ
وقد قمرَ الرياحُ بنات قلبي ... رأتلعَ جيدَه الأجلُ المتاحُ
فما أدري أموجٌ أم قلوبٌ ... وأنفاسٌ تصعَّد أم رياحُ (١)

ولا ينسى حتى في هذا الموقف العصيب أن يعرب عما رسخ في أعماقه من حب للمرأة ، وتعلق بأوصافها المادية ، فيذكر الخصر ، والردف ، والفم والجيد والقلب ، وقد يذكره هول الموقف بالله تعالى ، فيحس بحضوره ، ويرى في الالتجاء اليه ، توبة وتضرعا ، خير مخرج وأحسن خلاص :

لئنْ كنّا ركبْنَاها ضلالاً ... فيا لله انّا تائبونا
فأخرجْنا على المرغوبِ منها ... فإنْ عدْنا فإنّا ظالمونا (٢)

وابن خفاجة ، وهو ابن الطبيعة الغناء ، بجبالها وسهولها ، وعمرانها ، كثيرا ما يستولي عليه حبها ، فيخلع صفاتها على موصوفاته منها ، فهو هنا يقف أمام البحر ، يتأمل امواجه وقد رججتها الصبا ، فارتفعت وانبسطت واضطربت ، فيمثل لاضطرابها برجفة قلب عاشق ولهان اقامه واقعده بعد حبيبه عنه ، وينعت البحر بالخضرة ، ويصف حركة عينه وهي تتابع البحر في تموجه وانسيابه بانها تتهم وتنجد ، كما يصور لنا مركوبه الذي يخوض به عباب البحر بأنه أدهم ، لا يروره غير سوط واحد ، يجري له ويزيد ، هو سوط الريح ، وكأني بالشاعر في هذا الوصف لم تطاوعه مخيلته في رسم هذا المشهد الماثل امامه ، فظل مشدودا ببصيرته الى ارضه ، بما فيها من ظواهر حية وصامتة ، ينظر الى البحر من خلالها ، ويصفه

---

(١) الديوان : ١٢٨
(٢) نفسه : ٣٤١

صافها :

وأخضر عبّانٍ تدرّبُه الصَّبــــا ... فتتْهِم فيه العينُ طوراً وتُنجِدُ

كأن فؤاداً بين جنبيهِ راجفــاً ... يقوم به نابُ الحبيبِ ويقْعُـــد

سأزدَبُ منه ظهْرَ ادهمَ ريّـــنٍ ... مَرُوعٍ بسَوْطِ الرّيحِ يجْري فيَزْبِـدُ (١)

ويقف على الشاطئ ، حيث يشهد من كثب حركة المد والجزر ، على الرمل الرطـــب
ـدي ، أو على الصخور الصلدة ، محدثة صوتا ، ومخلفة وراءها زبدا أبيض يزيد المنظــــر
اء وروعة ، فلا يرى في اللجة وهي تقترب في حركة متموجة الا قلبا يخفق عشقا ، أو يرتعـــد
ا وهلعا ، بل ويخال نفسه فارسا واللجة المزبدة فرسا أبلق ^{قرّب} منه ليمتطي صهوته :

ولجّةٍ تفرقُ* أو تعْشَـــــقُ ... فما تني أحشاؤُها تخفُـــقُ

شارفْتُها وهي بما هاجَهــا ... من الصّبا مزبدةٌ تقْلـــقُ

فخِلْتُني في شأنها فارســاً ... قرّبَ منه فرسٌ أبلــــــقُ (٢)

وقد يركب البحر ، وقد استبدت به الهموم ، واثقلته الاحزان ، فيحس بالضيق الشديـــد
ـخال نفسه محاصرا بظلمات ثلاث : ظلمة البحر ، والدرب ، والكون ، فيحاول وصف هـــذا
مشهد المدلهم من حوله ، فلا يجد ابلغ ولا أدق تصويرا من الآية القرآنية ، فيقتبسهـــا
فس ألفاظها تقريبا :

كم تُملأُ العينُ من قذاهــا ... وتشتكي النّفس من أذاهـــا

بحرٌ وتوءٌ وطـــولُ همٍّ ... ثلاثةٌ أطبقت دُجاهـــــا

فلو يدُ المرءِ وهي منـــه ... أخرجها لم يكد يراهـــا (١) .

---

(١) الديوان : ١٦٤ - ١٦٥ * تفرق : تخاف

(٢) نفســه : ١٣٧

(٣) نفســه : ٣٤٢ / "أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقـــه
سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكـــد
يراها ، ومن لم يجعل الله نورا فما له من نور"
(القرآن الكريم ٢٤ : ٤٠)

هذا هو موقف الشاعر من البحر ، موقف الخائف ، القلق ، يرى في البحر شبحا مرعبا يذكر بالموت ، وينذر بالهلاك ، وقد رأينا موقفا آخر مشابها لابن حمديس ، ولعلنا لا نخطئ كبد الحقيقة ، اذا قلنا : إنه موقف شاعرنا العربي القديم عموما ، ولعل لضعف علاقته بالبحر ، بسبب بساطة الوسائل المتاحة له في ذلك الحين ، أثرا في نشوء هذا الموقف المعادي وحدوث تلك النظرة المتشائمة ازاء هذه الظاهرة الطبيعية الملأى بالعجائب والاسرار (١) .

هذا عن المائيات ، وقد رأينا كيف عني بها ، وصورها في شعره ، وهي عناية لم تصرفه عن العناية بالماء في حالته وهو متجمد ، فوصفه بردا كما وصفه ثلجا وان لم يكثر في ذلك .

* البرد :

لم يقف ابن خفاجة من البرد موقف الفنان المتملي المتأمل فيما خلق الله في الكون ، المتحسس لمواطن الجمال في هذه الظاهرة الكونية القليلة الحدوث ، وانما يقف منها موقف الخائف ، فهي تقترن عنده في المقطوعتين اللتين خصهما بهما بقضايا فقهية ، إنهما عذاب الهي سلط على الناس عقابا لهم ولا مثلها لخروجهم عن الطاعة ، ووقوعهم في المعصية ، ففي المقطوعة الاولى يتصور الشاعر أن الله تعالى قد نسخ المطر حجارة ليحصب بها عباده ، ويرجمهم بها عقابا لهم على كفرانهم نعمه ، وعصيانهم أوامره ، وتحولهم الى مردة وعفاريت يعيثون في الارض فسادا :

ألا نسخَ اللّهُ القِطارَ حِجَـــارةً	تصُوبُ علينَا والغَمامَ غُيُومَـــا
وباتتْ سَماءُ اللّهِ لا تُمْطِرُ الحَصَى	لِيالِيَ كنا لا تَرْاعِي عُلُومَـــا
فلمّا تحوّلنا عفاريتَ شُــــرّقٍ	تنزّل شُؤْبُوبُ الغَمامِ رُجُومَـــا (٢)

وأما في مقطوعته الثانية ، ورغم ان الشاعر قد حاول رسم صورة جمالية للبرد ، عندما تصور انه قلادة من نجوم تحلى بها نحر الثرى ، بعد أن كان عاطلا ، الا أن نفس جو المقطوعة الاولى يظل مهيمنا ، فهو يحصب الاباطح بماء جامد ، يغشيها بعذاب ذائب ، وتكتمل الصورة

---

* القطار : المطر

(١) انظر ص : ١٠٩ .

(٢) الديوان : ٧٥

عند ما يتصور أن الارض قد زينت ، وان النخل انما أكبّ برجمها عقابا لها على فعلتها المنكرة :

يا ربّ نُوّارٍ عالِ حلّى بـــه	نحْرَ الثرى برَدٌ تحدّر صائـــبُ
عصبت الابا الى منه ما أبداه	نقْضَ الهلاك به عذابٌ ذائبُ
فالأرضُ تضحكُ عن قلائد أنجم	نُثِرت بها والجوّ جهمٌ قاطبُ
ولأنما زيّنتِ البسيطةُ تحته	فأكبّ يرجُمُها الغمامُ العاصبُ (١)

فقد حاول الشاعر في تلك مقطوعته توظيف ثقافته القرآنية والفقهية ، ولكن محاولته افتقرت في تلك التبهها الى العمق والشمول .

* الثلـــج :

وعلى العكس من البرد ، فان الثلج يحظى بعناية اكثر من الشاعر ، فقد فتنه الثلج ببياضه وصفائه ، وملأ نفسه بفرحة غامرة ، فالثلج ، في سقوطه ، وتراكمه ، وتغطيته لها الرهاء وتمم الجبال ، وكسوته البدالى والشجر بالبياض ، يغريه ويفتن بصره ، فيقف أمامه مستمتعا بحسنه وصفا بجدل ، وان كان لا يتجاوز ظاهر الموصوف الى أعماقه وأسراره ، على فتنه واعجاب. إن ظاهرة الثلج توحي اليه ببعض الصور ولكنها حسية هي الاخرى ولا تشترك مع الظاهرة الموصوفة الا في اللون ، فهو اذا اراد وصف الثلج تداعت صور كثيرة مشابهة امام عينيه كصورة لغام الجمل ، والعمامة البيضاء ، والشيب ، والفرس الاشهب ، ونوّر الشجر ، والوجه الملثم ، فيتخذ منها ادوات يلون بها مشهده المرسوم .

فقد يتطلع ببصره الى الجبال ، فيرى قممها مغطاة بالثلج ، معتمة بالغمام فيصفها قائلا :

وكل مُرقَبةٍ مَنّا غمامــــة	مثل الضّريبُ* بها مُجاجَ لُغامِ* (٢)

واذا خرج في ليالي الشتاء ، ووجد البرق يلمع ، والثلج قد غطى الارض ، فعمها الضياء ، وصف ذلك قائلا :

في ليلةٍ لبلاء يلمّع جمرها	وهنا لسان البارق المتوقـد

---

(١) الديوان : ٧٦
(٢) نفسه : ٨٤

* الضريب : الثلج
اللغام : ما يلفظه فم الفرس أو الجمل من زبد .

نسج الغروبُ بها الآلام حمامةً ... فابيضّ كل غرابِ ليلٍ أسودِ
شابتْ ورا ءَفناعها لِمَمُ الربـــا ... واشمطّ مَفْرقُ كل غصنٍ أملَدِ (١)

وإذا نظر إلى الغصن المستتر بالثلج تذكر الوجه الملثم فاستوحى منه صورته قائلا :

أوْ نحرِ نهْرٍ بالحَبابِ مقلّـــدِ ... او وَجْهِ غُصْنٍ بالضَّبيبِ ملثّــمِ (٢)

والطبيعة ، وقد كسيت بالبياض ، وامتلأتْ بالضياء ، تثير في نفس الشاعر الاحساس بالمتعة وتذكره بأيام شهرته الأشقر ، فيرتمي إليه فرس الثلج الاشهب ، ويقصد الحانة التي تحتفي بزوارها ، وترحب بهم في مثل ذلك اليوم ايما ترحيب :

ألا قلّصتْ ذيلَها ليلـــةٌ ... تجرُّ الرَّبابَ به هَيْدبــا
وقد برقعَ الثّلجُ وجهَ الثّــرى ... وألحفَ غصنَ النقا فاختبى
فشابتْ ورا ءَقناعِ الظّــلامِ ... نواصي الغصونِ وهامُ الرُّبــا
فمها تيمّمتُ خمّـــارةً ... ركبْتُ الى أشقرٍ أشهبــا
وحيّيتُ حانتَها طارقـــًا ... فقالتْ تجيبُ ألا مَرْحَبــا (٣)

وقد يجتمع الشاعر وصحبه على شرب الخمر في جو الطبيعة وقد كساها الثلج ، ولكن الخمر لا تشغله عن المنظر الطبيعي ، ولا تلهيه عن تملي جماله وروعته ، فالارض المفضضة وقد حكت ببياضها عجوزا شمطاء شاب شعرها ومنظر الربا والسهول المجللة بالبياض وقد حكت رياضا منورة ولكن بدون ثمر ، وقطع الثلج الطائرة في الفضاء ، المتناثرة على الارض ، لأنها اشجار منورة نثرت زهرها الرياح ، هي التي تسترعي انتباهه ، وتخلب بصره وتفتن حسه ، فيصفها وصفا ينم عن احساس صادق بمشاهد الطبيعة ، وفتنة غامرة بنواحي الجمال فيها :

للّهِ ندمانُ صدقٍ باتَ مَطْلَبهـا ... نارا من القدحِ اللألاءِ يشتجِـــرُ
والارضُ فِضّيَّةُ الآفاقِ تحسَبُهـا ... شمطاءَ حاسرةً قد مسّها الكِبَـرُ

---

(١) الديوان : ١٦٣
(٢) نفســه : ٢٤٤
(٣) نفســه : ٢٦٢

فكلُّ نجدٍ ووَهْدٍ قد أطلَّ بـه ... روضٌ تجلّى بنوّارٍ ماله ثمَـرُ

وللأقاحي ثغورٌ فيه باسمـةٌ ... لهاعن الثلج ريقٌ باردٌ خَصِـرُ

كأنّ في الجوّ أشجاراً منثـورةً ... هبّ النسيمُ عليها فهي تنتثِـرُ (١)

والشاعر ، كما هو واضح ، يلتقي في طبيعياته مع شعراء الشام والعراق ، في الكثير من المعاني والصور ، ولعل السبب في ذلك بحتاج إلى ثقافته الشعرية ، كما قد يخرج مرده إلى ظاهرة التسلط التي هيمنت على شعرنا الوصفي القديم في عمومه ، وفي عصوره المختلفة .

الزهد : المكان المطمئن

(١) الديوان : ٢٧٢

الفصل السادس

في

الظواهر الكونيـــــة

لم يقتصر ابن خفاجة في وصفه على ما ذكر من عناصر طبيعية، بل مد بصره الى كـــل ما حوله من ظاهرات الكون المختلفة، فذكر الرياح والغمام، والرعد والبرق، والسحب والمطر، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، يقف عند بعضها متأملا متفكرا، ويمر ببعضها الآخر مرور العابر، مكتفيا بالنظرة العجلى، والصورة العامـــة دون التطرق الى التفصيلات والجزئيات، وهذا كلام مجمل يحتاج الى تفصيل وتوضيـــح والذي يقتضي الامر بعده لا بد من التعرض لهذه الظواهر، كل على حدة، ونبدأ بالرياح:

* الريـــاح :

عني ابن خفاجة بالرياح في وصفه، لما تبعثه في عناصر الطبيعة من حركة وحيـــاة فهي التي تدفع السحاب، وتهز الغصون، وتحمل شذا الرياض، وهي الوسيط الـــذي ينقل سلامه، ويحمل اشواقه الى من يحب، ومن هنا كانت مكانتها عنده عظيمة، مما جعله يكثر من ذكرها ويعدد بعضا من اسمائها في حالاتها المختلفة، وان كان تعرضه لهـــا عاما في اكثر الاحيان. والريح عنده عموما ريح طيبة رخاء، لا تكسر ولا تدمـــر وانما تداعب الازهار، وتعبث بالغصون، وتلثم اوجه الازهار، وتمس المحبوب بالحبيـــب فتنقل التحية، وتحمل السلام، وهو شيء [illegible] انما يصدر عن بهجته الطبيعية، فـــي اعتدال مناخها، ولطافة جوها، وكثرة امطارها، وهو لا يذكر من الرياح النكباء غير ريح النعامى، وهي عنده لطيفة الهبوب، طيبة الانفاس، تساعد على اللهو، وتدفع الـــى الطرب :

أَنْعِمْ فقد هَبَّتِ النعامـــى * ونَبَّهَتْ ريحُها الخُزامـــى (١)

....

(١) الديوان : ٦[illegible]

* _ النعامى : من الرياح النكباء تهب من ناحيـــة الجنوب، مما يلي المشرق.

وقد نسّمت ريحُ النّعامى فنبّهت … عيونَ النّدامى تحت ريحانة الفجرِ (١)

واما ريح السموم ، والدبور ، والاعاصير والعواصف ، وغيرها من الرياح العنيفة المدمرة
يجد لها ذكرا في شعره ، ولعلها لم تكن معروفة في بيئته ، أو انها كانت موجودة ، وأعرض
ذكرها ، مخافة ان ينعتها بذم ، فيخالف السنّة الناهية عن سب الريح . وهو يكثر من
النسيم ، والصبا أو القبول ، والشمال ، والجنوب ، فيحرك بوساطتها ساكن موصوفاته
ر بها أجزاء مجالس أنسه ، ويحملها أشواقه ومواجده ، ويناشدها أن تصل بينه وبين
وبه ، وقد مر معنا ، في النصوص المستشهد بها في فصل الروضيات والخمريات وغيرها
ية ، كان للريح فيها دور بارز ، فهو اذا عقد مجلسه تخير له جوا ملائما ، ومكانا مناسبا
ب فيه ريح لطيفة عاطرة ، تزيد النفس راحة وانشراحا :

فهبّ ريحُ الفجرِ عاطرةَ الجَنى … لطيفةُ مسِّ البَرْدِ ايّهةَ النّشرِ (٢)

...

وأفصحتِ الوَرقاءُ في ذي تلعةٍ … نشيدًا وقد رقّ النسيمُ نسيبَها (٣)

...

ندب النّسيم وما أرقّ وأعطرا … وهفا القضيبُ وما أغنّ وأنضرا

والروضُ تنفضُ من ردائه لؤلؤًا … رطْبًا وتفتقُ من غمامٍ عنبرا (٤)

......

ونمّت بأسرار الرُّبا متعطّلةٌ … لها النّورُ ثغرٌ والنسيمُ لسانُ (٥)

....

حُثّ المدامةَ فالنّسيمُ عليلُ … والظلُّ خفّاقُ الرّواقِ ظليلُ (٦)

---

(١) الديوان : ٢٣
(٢) نفسه : ٨٢
(٣) نفسه : ١١٣
(٤) نفسه : ١٢٩
(٥) نفسه : ٢٢٥
(٦) نفسه : ٢٥٤

وعلية النوّار تلوي ساقهـــــا　　　　ريّ تلك فروعها معطـــــار (١)

. . . . .

سقيا لإيوم قد أنخت بسرحـــــة　　　　ريّا تدعهم الرياح فتلعـــــب (٢)

وهو اذا نأت به الشقة عن حبيبه ، واشتد به الشوق اليه ، وجد في الريح رســــولا أمينا يحمله لواعج قلبه ، وأعذب تحياته الى محبوبه ، وهي طريقة مسلوكة ، سار فيها الأثير مــن شعراء العربية ، جاهليهم واسلاميهم :

ولا رسل الا للرياح عشيـــــة　　　　تمرّ جنوبا بيننا وشمـــــالا

فاستودع الريح الشمال تحيـــة　　　　واستنشق الريح الجنوب سؤالا (٣)

عرّان أنتشق النسيـــــم　　　　ونعم مسلاة القلـــــوب

وأقول للريح الجنـــــوب　　　　مع الأصيل على الهبـــــوب

فهي استتابت في الشمـــال　　　　لما استطبت بها الجنـــوب (٤)

. . . . . .

نحيل تهاداني الرياح فليتهـــا　　　　شمال تهادى بيننا وجنـــوب

تهب بنا طورا جنوبا فنلتقـــي　　　　وتجري شمالا تارة فنئـــوب (٥)

كما أنه إذا حن الى وطنه ، وماضي أيامه وذكرياته ، كانت الريح الندية من جملة مـــا يحن اليه من مظاهر طبيعة ذلك الوطن وعطاياتها المختلفة :

ومن لي ببرد الريح من أبرق الحمى　　　　وريّا الخزامى من أجارع لعلعا* (٦)

---

(١) الديوان : ٢٨

(٢) نفســـه : ٢٨٩

(٣) نفســـه : ١٢٤

(٤) نفســـه : ٢٥١

(٥) نفســـه : ٢٩٩ ، انظر كذلك : ص ٤٠ ، ١٨٥

(٦) نفســـه : ٥٦

* ـ لعلع : اسم موضع او جبل

ألا سرت الغَيْلُ ولو تَنسيمَا ... وجاذبني الشَّبابُ ولو قسيما (١)

يا نفحاتِ الريح من بطن لَعْلَعٍ ... ألاَ جاد من ذات النَّسيمِ بَخيلُ (٢)

وإذا رثى وكان المرثي بعيدا عنه، وجد في أنفاس الشمال بما تجلبه من عاطر نسيم ينوب عنه، ويمثل حقيقة حاله، فليس ما يريح الشمال المنهمر سوى دموعه الغزار التي تحملها إياها :

أحيل أرقات الشمال عقيمة ... تنوء بها من ماء عيني فترن

فلي نظرة نحو الشمال ولوعة ... تلد بي نحو الجنوب فأجتني (٣)

وقد يذكره موقف الرثاء بالموت، فيحس بالزمن في سرعة مضيه، ويتذكر ماضي زمانه ويسرد ذكرياته التي مرت كأن لم تكن، فيستعيدها في [illegible] قائلا :

كأني لم آنس من الدهر ليلة ... ولم أتصفح صفحة الدهر راضيا

ولم ألق الريح تندى على الحشا ... سلوا ولم أطرب إلى الطير شاديا (٤)

وينظر إلى السحابة من فوقه تسبح في الفضاء الفسيح، فيراها على شاكلته، تركب الريح، وتجد في السير في الليل المظلم وقد أخذ الدجى في يده سوط البرق، يلوي به من حين لآخر، يخيف به الريح، لتزيد من سرعتها .. :

طوت السُّرى والبرقُ سوط سائقٌ ... بيد الدُّجى والريحُ ظهر أمونِ (٥)

وقد يرى في الرياح مطايا، وفي الرعد حاديا لها :

وارتجز الرعد يحدو النـدى ... ركبا ويحدو بمطايا الرياح (٦)

وقد تكون الرياح سياطا ترهب السفينة في عرض البحر :

سأركبُ منه ظهر أدهم ريّض ... تروع بسوط الريح يجري فيزيد (٧)

---

(١) الديوان : ١١٤

(٢) نفسه : ٢٦٣

(٣) نفسه : ٢٦٨

(٤) نفسه : ١٦٩

(٥) نفسه : ٢٤٣

(٦) نفسه : ١٦٥

(٧) نفسه : ١٦٥

وإذا وقف على رابية الشرف، واتساع أرجائه، وبعد أطرافه، وأراد تصوير ذلك لم يجد أبلغ من تصور أن الريح تضل فيه فترتد :

مَهيبٌ يموتُ النَّجمُ يستامُ رأسَهُ ... به وتَضِلُّ الريحُ فيه فترتدُّ (١)

أو أنها المطايا التي لا يقوم غيرها مقامها لتقطع مفازته وغوره السحيق :

سحيقٍ فما غيرَ الرِّياحِ ركائبٌ ... هناكَ ولا غيرَ الغَمامِ مَزادُ (٢)

وشعر ابن خفاجة في هذا المجال، وإن كان دقيقا، مصطبغا بعواطفه وأحاسيسه متلونا بأخيلته وتصوراته، يجد أكثره صدى لقراءاته الدائبة في ديوان الشعر العربي القديم ولكن أهم ما يلاحظ فيه، هو جعله الريح عنصرا أساسا في أوصافه أو بالأحرى المحرك لها، فهي عنده، كما في الطبيعة، وسيلة تحريك، وإحياء، وهي عنده فضلا عن ذلك وسيلة خير ونماء، لا وسيلة تخريب ودمار. ومن الظواهر التي ارتبطت بالريح في وصفه الغمامة، فهي دليل عليها، وبشارة بقدومها، بل وسائقة لها، تحملها إلى حيث تبرق وترعد، فتنزل الغيث، وتسقي الجبال والربا، وتروي الوهاد، وتملأ الوديان ماء.

* الغمام والبرق والرعد :

أكثر ابن خفاجة من ذكر الغمام والبرق في أوصافه المختلفة، فروضياته لا تكاد تخلو من صورة للغيم أو البرق، كما أن أغراضه الأخرى، من مدح ورثاء، وغزل وحنين، حافلة بها أيضا، ووصفها يأتي بالإشارة اللمحة العابرة، ولكن هذه الإشارة الخاطفة غيرها صورة فهو قد يقف أمام السحابة وقفة طويلة، ويتتبعها ببصره، يرسم لها صورا جميلة حية، وهو عندما يهتم بالغيم والبرق والرعد، يصدر عن بيئته الطبيعية ...

---

(١) الديوان : ١٩٤

(٢) نفسه : ١٣٤

وصور ما كانت تراه عيناه في سمائها من غيم لا غير، ولا يعني هذا أنه انسلخ من التراث الشعري الذي طالما أكب عليه دراسة وحفظا ومعارضة، فأتى بوصف جديد مبتدع ليس فيه أثر القديم، وإنما الأمر الذي يلاحظ، هو أن أغلب صوره ومعانيه، في هذا المجال تتأثر بثقافته الشعرية، استلهم في رسمها الرائق الأقدمين من الجاهلية حتى عصره. وإن كان، ربما، أكثر التصاقا منهم بموضوعاته الموصوفة، وأصدقهم تعبيرا عما في قلبه من حب لبيئته، وشعور بنواحي الجمال فيها.

يرتبط الغمام عادة بالبرق وأحيانا بالرعد الذي لا يذكره الشاعر كثيرا لعدم ارتياحه إليه فصرخاته المدوية لا تستطيبها نفسه الرقيقة، ولا يتحملها سمعه الحساس، ولكنه مع ذلك لم يحرمنا من بعض الصور الحسية، التي استوحى في رسمها ثقافته الفقهية، وصناعته الكتابية، كهذه الصورة التي رسمها في أحد مجالس أنسه:

والشَّمسُ تجتنحُ الغروبَ مريضةً   والرَّعدُ يرقي والغَمامةُ تنفُثُ (١)

فالشمس لضعف ضيائها مريضة، وقد تأثر لمرضها كل من الرعد والغمامة، فهما لعلاجها وتمارضها على رقيتها، فنفثت هذه، ورقى ذاك، والصورة التي رسمها في أحد متقرباته رغبها ... على هذه الظاهرة الطبيعية، خاصيات المجالس العلمية، من إملاء وكتابة، فالرعد هنا يملي، والبرق يكتب:

وقد ارتجزَ الرَّعدُ المرنُّ بأفقِه   فأملى وباتتْ راحةُ البرقِ تكتُب (٢)

وفي كلتا الصورتين جمال وتشخيص زاد من حركية الصورة وحيويتها. ولكن الظاهرة التي تسترعي انتباهه، وتفتن بصره هي صورة السحابة في بياضها أو سوادها، في حركتها وتدفقها، وهي منطبقة هاطلة، أو ممزقة في جو السماء، ممطرة، قد فضض البرق تطرها

---

(١) الديوان : ٢٨٥

(٢) نفســه : ٣٠١

ن تار ، يتتبعها في حركتها ، ويراقبها باهتمام بالغ ، ويصور أثرها في اهتزاز الشجر
المشب ، وتفتق الزهر ، ونمو الغبار ، وتلألؤ الندى ، وتدفق الانهار ، وهو أمر يدل
على بالغمام ، وهيامه به ، ليس تمثل ابن خفاجة الشاعر الفنان ، فحسب ، بل ابن
ة " الفنان " أيضا .

فهو يصفها في النهار ، ثم يصفها في الليل شديد الظلمة ، وكأنه كان يحب ليله
را يرقب حركتها ويسير في جولاتها ، انها كثيفة ثقيلة ، لا يكاد الليل يمضي بها لثقلها
ة مطبقة ، تدفعها القبول ، في بطء ، وتجرر أذيالها على الربا والسهول حتى كأنها
باليد لقربها ، وقد أنار البرق جنباتها ، وأحال ظلمة الليل الحالكة ، نهارا لشدة
ـه ، فكان الظلام يحترق ولسان يلحسه لحسا :

ونازلٍ يستقلّ بها السُّرى فمضت على الظلماء تشي مُتَهدّرِ
حملت بها ريحُ القبولِ سحابةً سحّابةَ الأذيالِ تُلمّ بالبيدِ
في ليلةٍ ليلاءَ يلتفّ جِلبابُها وهنًا* لسانُ البارقِ المتوقّدِ (1)

ويشوقه البرق وهو يلمع من بعيد ، فيشيم سناه ، لأنه يذكره بمن يحب ، في خفقان
وا زعه ، ولمعان مبسمه ، بل ويذكره كذلك بأرضه ، بسحابها الذي يجرر أذياله على رباها
ينهمر بمائه على ربوعها ، وجداولها وأنهارها التي تتلوى ، وتنثني كأنها أفاع ، وتمتد منسابة
متحلية كالحسام ، ثم لا يلبث موجها أن يتحرك فتصير دروعا ، وهي أوصاف وتشبيهات يضج
بها ديوان شعرنا العربي قديما وحديثا ، ولكن فيها شيئا له مغزاه في حياة الشاعر ، يتمثل
في تلك العلاقة الحميمة التي أقامها بين الطبيعة والمرأة ، فخفقان البرق ولمعانه يذكره
بخفقة حنان الحبيب ، وبياض مبسمه ، ويذكره السحاب ببرد رضابه ، والمرعى بلماه الا...

* ـ الوهن والموهن : نحو من نصف الليل أو قبيل انبلاج الصبح .

(1) الديوان : ١٦٣

والجدول يثني أعطافه ، وهي صفات الحبيب المادية التي طالما لهج الشاعر بذكرها :

وما شاقني الا وميض غمامة ... تألق في نجد فحيا اللوى ربما

أشيم سناه والسماء مغيمة ... كما اغرورقت عيني لرؤيته دمعا

تذكرني والليل يخفق جناحه ... بمعطفه خفقا ومبسمه لمعا

وسحب ذيل للسحاب بذي الغضا ... ترود رضاب الماء أحوى لمى المرعى

فقل في أتي قد تهادى كأنه ... إذا ما ثنى أعطافه حية تسعى

وماء مسيل سائل لقرارة ... فهينا ترى منه هنا ما ترى درعا (١)

ويستهويه جو الربيع ، وتفتنه الطبيعة في ظلاله ، في اعتدال هوائها ، وتفتح زهرها واخضرار عشبها واكتساء شجرها ، وقد نثر الغمام ، وبكاء هاالديما ، ولمع البرق ، فتلألأت قطرات الندى لوميضه ، فامتلأت جنباتها ضياء ، إنه لجو يبعث الحياة في النفوس ، ويملأ القلوب بشرا وحبورا ، وهو ما أحس به الشاعر ، فصور ما رأته عينه ، وخلع على موصوفاته الطبيعية ما في نفسه من شعور بالفرحة ، واحساس بالنشوة ، وهو أمر أكسب تصويره حركة وحياة وجمالا ، ودفعنا الى الاحساس بما أحس به فشعرنا بما شعر وشاركناه فرحته بمنظر الطبيعة تحت أمطار الربيع الخفيفة الدافئة :

وخميلة قد أخضلتها ليلة* ... نثرا صناع تستهل هتون*

طرق السرى والبرق سوط خافق ... بيد الدجى والريح ظهر أمون

نشوى تهادى في وشاح مذهب ... قلق وتسحب من ذيول جون*

ابتسمت من النوار بيض مباسم ... مدت إليك بها بنان غصون

ترنحت حيث تعثرت بنشوة ... في ثوب وشي للربيع مصون

والأرض تسفر عن وجوه محاسن ... بيض وتنظر عن عيون عيون (٢)

وقد تكون الغمامة مصحوبة بقصف الرعد ، وهو ما لا يستطيبه الشاعر ، ولكن منظرها ليلا ، وقد تساقطت قطرها ، وهبت الريح ، فهلهلتها ، ووزعتها قطعا في الفضاء يفتنه فيوحي اليه بصور يستلهم في رسمها معطيات بيئته الصناعية :

---

(١) الديوان : ٨٦ - ٨٧

(٢) نفسه : ٢٤٣ - ٢٤٤

* - الخميلة : السحابة ، الهتون : الممطرة

- جون : جمع جون : الابيض أو الاسود وهو من الاضداد .

من ليلةٍ للرّعدِ فيها صرخــــةٌ ... لا تُستَلَابُ ولِلّمَها إيقــــاعُ*

طلعتْ عليّ بها رداءُ غمامــــةٍ ... ريحٌ تــهلهله هنات صَنَــــاعُ

فرفلتُ في سَحْلِ الدّجى ولأنّمــــا ... قَزَعُ* السّحاب بجانبيه رِقَــــاعُ (١)

وبروقه السحاب بمنظره الذاربي ، في تلألؤ قطره ، ووميض برقه ، الذي يبدد الدجى بضيائه ، كما بروقه منظر الارض في جو المطر وبعده ، فيصور ذلك كله تصويرا حيا ، يفتن البصر بما فيه من ألوان وبريق :

فذهّب لبّ الشرق عــــارضٌ* ... يفضِّضُ بالماءِ ما ذهّبــــا

فأعشبَ ما جاءَ من تلعــــةٍ ... وطرّز بالنّورِ ما أعشبــــا

فردّ مناكبَ تلك الغصــــونِ ... وأزرَ أردافَ تلك الربــــا (٢)

وهي صور ، تفتنه بها يكررها من حين لآخر كما في قولـــه :

وغمامةٍ نشرَتْ جناحَ حمامــــةٍ ... والبرقُ قد نسجَ الظّلام نهــارا

متألق صدقَ الدّجى وسقى الثّرى ... فابيضّ ذا نوراً وذا نــــوّارا (٣)

وقد يصاحب نزول المطر هبوب الريح ، فتوحي اليه حركة الطبيعة بهذه الصورة المستوحاة من بهجته ، فالريح منخال ، ينخل من القطر لؤلؤا ومن الغمام عنبرا :

والريح تنخل من رذاذٍ لؤلؤا ... رطباً وتفتق من غمامٍ عنبرا (٤)

ويقترب الشاعر بصورة الغمام المتحرك ، والبرق اللامع من واقعه اكثر ، فيرى في الغمام فرسا أشهب يجول ويصهل ، وفي البرق بردا متمزقا احمر ، أو يتصور الغمامة فرسا أدهم له عنان من ... ويصورا من ... تهطول :

والمزنُ رامِزةٌ* جالَ بصهلٍ أشهبٌ ... والبرقُ بُردٌ قد تمزّقَ أحمــــر (٥)

وقد جال من جوفِ الغمامةِ أدهــــم* * * * ... له البرقُ سوطٌ والشّمالُ عِنانُ (٦)

---

(١) الديوان : ٢٢٤
(٢) نفســه : ٣٠٠
(٣) نفســه : ١٤٣
(٤) نفســه : ١٢٩
(٥) نفســه : ٢٢١
(٦) نفســه : ٢٣٥

- الضيا : المطر . قزع : واحدتــه قزعة : قطعة من السحاب رقيقــة
- العارض : السحاب
- المزن : جمهزنة : السحابــة البيضاء . - الطرف : الفرس .

وقد توحي اليه صورة الغمام والبرق بصورة الراكب الذي تسير به راحلته وهو نائم :

وكأنّ الغمامَ والبرقُ يهفـــو   راكبٌ أسلَمَ النّعاسُ زِمامَــه (١)

وقد يصور البرق الأشقر، والمزنة الشهباء في حال ملاحقة ومطاردة، تتفضض لهـا الأرض وتتذهب السماء :

ويومٍ جرى برقُه أشقـــرا   يُطاردُ من مزنةٍ أشهبـــا

ترى الأرضَ فيه وقد فُضِّضَتْ   ووجهَ السماءِ وقد ذُهِّبـا (٢)

وتتجسم صورة البرق، وتتشخص أكثر عند ما يشبهه في خفقانه بالألوية الحمر الخافقـة أو بأنامل مخضبة بحمرة تتحرك بسرعة كمحاولتها لمعرفة عدد قطر الحيا :

ومن خفقِ البرقِ فيهــا   ألويةٌ حمِّرت خضابـــا

كأنها أنمل ورا   تحصُرُ قطرَ الحيا حسابـا (٣)

ولكون السحاب مصدر خير ونماء لما يحمله من ماء يحيي الأرض بعد موتها، فإن الشاعر يحنو في معرض الغزل، كما يحنو به في معرض المدح والرثاء، فيرى أنه من خير الدعـاء أن يدعو بالسقيا لمرابع الصبا، وموطن الحبيب، فيتمنى لو جادها المزن، وسقتها الغمامة الدهماء، وأنبتت نباتها بوميض برقها اللامع :

فجادَ الحِمَى غادٍ من المُزْنِ رائحٌ   تهادى إذا أعناقُ الرتائِ كَلالا

وساريةٍ دهماءَ ساوٍ بها الدُّجى   فشبَّ لها البرقُ المنيرُ ذُبالا (٤)

كما يرى في الغمامة المبرقة، الثقيلة الممطرة، خير رسول ينوب عنه في إلقاء التحية على ممدوحه فيقول :

فحيَّتْ أبا يحيى ذُرَاتُ غمامــةٍ   صقيلةُ ثغرِ البرقِ وارفةُ الظِّلِّ

تجرِّرُ أذيالَ الرَّبابِ على الرُّبـا   ويمشي بها وانِي النَّسيمِ على رِسْلِ (٥)

وقد يطول بنا الحديث لو حاولنا حصر كل الصور التي وصف الشاعر فيها الغمام والبرق

---

(١) الديوان : ٢٣١

(٢) نفســه : ٢٦٨

(٣) نفســه : ٣٣٩

(٤) نفســه : ١٢٤

(٥) نفســه : ٢٠٧

لأنها تنتشر في شعره، وتتخلل أغراضه الشعرية على اختلافها، وقد مر معنا في الفصـــول السابقة بعض منها، كما قد يعترضنا بعضها الآخر في الفصول القادمة، ونرى أن نكتفـــي بهذا القدر منها، لأنه يلخص مواقف الشاعر البارزة من هذه الظاهرة الكونية الرائعة.

* الليل والنهـــار :

لم يكن ابن خفاجة، وهو الشاعر الذي ملكت عليه الطبيعة حسه ومشاعره ليغفـــل عن أهم ظاهرتين من ظواهر الكون، ألا وهما ظاهرتا الليل والنهار، بما في الأول مـــن المقمر ونجوم، وبما في الثاني من نور، وشمس وصباح ومساء، فلو رجعنا الى روضياتـــه وشجرياته، بل الى أوصافه جلها، لوقفنا على المكانة التي حظيت بها هاتان الظاهرتـــان عنده، وللمسنا من كثب عنايته بتصويرهما، وحرصه على الا تخلو مشاهده الطبيعيـــة المرسومة من صورة أو أكثر لها علاقة بالليل أو النهار، أو بمتعلقاتهما، ولكنه على الرغـــم من عنايته بهما لم يقف منهما موقف المتأمل المتمعن المعتبر، الا مرة واحدة، وقفها أمام القمر مناجاه، واستقراه العبرة، وأما في غير هذه النظرة المتطلبة، فيكتفي بالمرور السريع لمشهـــد الليل أو النهار، ويقتنع في ذلك بالصور الجزئية يزين بها، من حين لآخر، أجواء موصوفاته على اختلافها.

فهو إن اجنّ عليه الليل، وأناخ عليه بكلكله، وغمره بظلمته الدامسة، أحس بانفـــراده ووحشته، وشعر بوطأة الزمن، وتذكر أيام أنسه، وساعات أفراحه، التي مرت سريعـــا تشتد حسرته، ويتحرق الدمع بين جوانحه، فلا يجد في غير البكاء سلوى، ولا في غـــير الدمع تنفيسا لكربه، وتفريغا لما يحس به في أعماقه من ألم، وقلق واضطراب، كيف لا يفعـــل ذلك وقد كان الليل مسرح أنســـه، ومجال مسراته وأفراحه، يمحو أحشاء ظلمته بفتيـــة

كأنهم أنجم السماء رفعة وسناء ، ويخوضون دياجير عباب بحر الليل المتلاطم ، ولكنهم فتية مضوا ، وطواهم الردى ولم يبق من تلك الأيام غير ذكراها التي تؤرق العين ، وتملأ القلب حسرة وكمدا :

وعيّت تباريح الصبر والليلُ عاكفٌ ... فأفصح دمعي كان بالأمر أعجما

وبتُّ وسرّي راهبٌ ذاهلٌ مدمعي ... طليقٌ إذا ما أنجد الركب أتهما

أناجي سراة الليل فيه بلوعةٍ ... تحدّث عنها الطير نوحًا فتهتما

وأستنجب أذيال الدجى فيهيجني ... حمامٌ تداعى سحرةً فتكلّما

وكنتُ على عهد السلوّ يشوقني ... حمامٌ تغنّى لا حمامٌ ترنّما

وأسري فأستصفي من الصحب صاحبًا ... وأركب من ظهر الدجنّة أدهما

وأصدع أحشاء الظلام بفتيةٍ ... كواكبُ منهم أنجم الليل أنجما

أذعتُ بهم سرّ الصباح وإنما ... سررتُ بهم ليل السرى فتبسّما

وقد كتمتهم أهل البيد فتيةً ... ولم يكُ سرُّ المجد إلا ليكتما

فبتنا وبحرُ الليل ملتطمٌ بنا ... نرى الصبح غرقى والكواكب عوّما (١)

وتأخذ الهموم من نفسه مأخذها ، وتشتد عليه ، حتى تقض مضجعه ، وتحرمه النوم فيبيت ليله كله ساهرا ، يقلب عينه الدامعة في آفاق الليل فلا يرى إلا سوادا يعم الآفاق ويغمر الكون ، كأنه غراب مد جناحيه ، أو مداد أسود صب على صحيفة :

فبتُّ رهين ما تأتى الدمع قهوةٌ ... تدار ومن إحدى يديّ وسادُ

وليلٍ كما مدَّ الغرابُ جناحه ... وسال على وجه السبيل مدادُ

به من وميض البرق والجوّ فحمةٌ ... شرارٌ تراءى والغمامُ زنادُ (٢)

---

(١) الديوان : ١٧٢ - ١٧٣

(٢) نفسه : ١٣١ - ١٣٢

كما قد يتصور الليل بظلمته فسطاطا ، ذا أوتاد ولكن من نجوم :

والليلُ فسطاطٌ عليّ مطنّب ضُرِبَتْ له من أنجمٍ أوتادُ (١)

وهو يستتر بالليل ، ويخلو فيه بمن يحب ، لأنه أكتم للسر ، وأحجب لمن فيه من أعين الرقباء والحساد :

ثم ارتحلتُ وللمساء ذوائبٌ شيباءُ تخضب والظلام خضابُ

تثني معاطفَ الصَّبابةُ والصِّبا والليل دون الكاشحينَ* حجابُ (٢)

وان اقترن الليل بلذته ولهوه ، كان ليلا هنيئا مستطابا ، يتمنى لو يمد في أجله فلا ينقضي أبدا : ويا ربّ ليل جنيُّ النّمى * شهيِّ اللّمى مستطابِ اللّمَمْ *

لهوتُ ودون النطاق الصبا ح ظلامٌ سجا وغمام سَجَمْ *

نعدَ الشراب ببرد الرُّضاب * وجنحَ الظلام بسُودِ اللّمَمْ *

وقد كتم الليلُ سر الهوى ونمّتْ بما استودعته النّسيم (٣)

ولكن أيام النعم واللذات تمر سراعا ، وساعات الفرح لا تدوم ، فقد تتحول الى النقيض فتضحي النعماء بأساء ، والافراح أشجانا ، يطول بها الليل ، وتحرم فيها العين لذة الكرى ، فتسهر طويلا بعد أن نعمت قصيرا :

ومن كانت أيامُ السُّرور قصيرةً به كان ليلُ الحزنِ فيه طويلا (٤)

ولعل الشاعر ، بعد أن تقدم به العمر ، وفارقه الصحب ، وتراكمت عليه الهموم والاحزان كان يأرق كثيرا ، فيقضي لياليه ساهرا ، يرقب الصبح ، ويهفو الى نوره ، ولكن الليل يمتد طويلا أمامه ، ويمضي ببطء شديد ، حتى لكأنه بلغ من العمر عتيا ، فتوكأ على عصا الجوزاء يدب عليها بها :

والليلُ مُشتعِلُ الذّوائبِ كَبْرةً* خَرِفٌ يدِبُّ على عصَا الجَوْزاءِ (٥)

وابن خفاجة يفتن في تصوير طول الليل ، ويجد في الطبيعة ما يساعده على تجسيم هذه

---

(١) الديوان : ٢٢٤
(٢) نفسه : ٢٦٥ - ٢٦٦
(٣) نفسه : ٤٧
(٤) نفسه : ٢٧٠
(٥) نفسه : ١٥٤

* _الكاشح : مضمر العداوة ، والحاسد .
_اللّمم : الجنون ، وصغار الذنوب ،
اللِّمم : ما جاوز شحمة الاذن من الشعر ،
_سجم : قطر وسال . _الرضاب : الريق
_شعل الليل : خالط سواده بياض الصباح

الظاهرة التي أحس بها الرهان ، فهو يقابل بين دسه الالي وبين أنجم الليل التي أضحت رهينة سجن لا تغادره ، فطابت صور الليل بحرا طاميا ، قد مد موجه وخالف سنته ، فلم يعقب مده بجزر يحسره ، بل ، وغمر كل شيء ، فلم يترك مجالا للرؤية ، ولا سبيلا للعبور غير انتظار السحرة بسرا :

يا ليلَ وبَدرٍ بنَحبٍ ... أما لطيفك تَسرٍ
وما لِدَمعي طليقا ... وأنجمُ الجوِّ أسرى
وقد طمى بحرُ ليلٍ ... ليُمخِرَ المدَّ جسرا
لا يعبرُ الدارُ فيه ... غيرَ السحرةِ جسرا (١)

ولياليه لطولها وثقلها ليالي صب وحنين :

وربّ ليالٍ بالغميمِ* أرقتُها ... لِمرضى جفونٍ بالفُراتِ نيامِ
يطولُ عليَّ الليلُ يا أمَّ مالكٍ ... وكلُّ ليالي الصَّبِّ* ليلُ تمامِ (٢)

ويترقب الصبح ، ويستعجل قدومه ، ولكن الليل يطول ، وتزداد بطوله هواجسه وظنونه ، فغلط ظن أنه الصبح ، كذبه ظنه ، وأخطأه حدسه :

بليلٍ إذا ما قلتُ بانَ فانقضى ... تكشّفَ عن وعدٍ من الظنِّ كاذبِ (٣)

ولكن الفلك بدورته ، وبسير سيره الطبيعي ، وفق ناموس متناسق محكم ، فلا بد من ليل يعقبه نهار ، ولا بد من نهار يعقبه ليل ، يتتابعان ويتلاحقان في حركة مستمرة دائبة ، ويبيت الشاعر ساهرا ، أو قد ينهض مبكرا ، فيلحظ ظاهرة تجدد الحياة في الكون وانبعاث الحركة في عناصره ، وأجزائه ، وتغريه صور الصبح في تنفسه ، وبدء إشراقته وإزاحته ظلام الليل شيئا فشيئا ، فيتتبعها ببصره ، ويرسم لها صورا شتى ، تنم عن ارتياح وفرحة وإعجاب . فإذا لاح الصبح بإشراقته وضيائه ، وألقته ، من وراء الليل رأى فيه الشاعر وجه بشير :

---

(١) الديوان : ١٥٥
(٢) نفسه : ٥٦
(٣) نفسه : ٢١٥

* - الغميم والفرات : مواضع ،
- الصب : العاشق المشتاق .

وقد لاح وجه الصبح يبدو كأنه ... وراء قناع الليل وجهُ بشير (١)

وقد يرى فيه شبيها بضحكة محببة الى قلبه من ثغر شنيب :

لقد ضحك الصباح بحبتيه ... وراء قناع الليل عن ثغرٍ شنيب (٢)

ويشبهه ، وقد صدع الظلام بضيائه ، بوجه وضيء شف عنه قناعه :

والصبح قد صدع الظلام كأنه ... وجه وضيء شفّه قناع (٣)

ويصور حركة تقلص الظلام وانتشار الضياء تصويرا حركيا ، مستعيرا بعض الصور من بيئته المحيطة به فيقول :

وللّيل ظلّ قد تقلّص أخضر ... وللصبح ماء قد تسلسل أزرق (٤)

ثم يصور الليل في توليه وادباره ، واقبال الصبح في زهو وخيلاء ، قائلا :

ثم انثنى والصبح يسحب فرعه ... ويجرُّ من طرب فضول رداء (٥)

والصبح في إشراقة نوره ، يحاكي الثغر المبتسم ، كما يحكي في بياضه في بدء ظهوره من وراء ظلمة الليل وضحا في قادمة غراب أعصم :

وافتر مبتسم الصباح كأنه ... وضحٌ بقادمة الغراب الأعصم* (٦)

والليل في حلكته يحكي الغراب الأسود ، واما اذا اختلطت ظلمته ببياض الصبح فهو يشبه غرابا حسنا أشيب :

وربّ ليل سهرتُ فيه ... أزجُر من جنحيه غرابا

حتى إذا الليلُ مال سكرا ... وشبّ سِرباله وبابا

وحام من سُدفة* غراب ... طالت به سنّة فشابا

ازددتُ من لوعتي خبالا ... فجئت من غلّتي سرابا (٧)

---

*- الغراب الاعصم : ما في قوادمه بياض، وسائره أسود
- السدفة : ظلمة يخالطها ضوء يكون من أول الليل ومن آخره ، يذهب الى بقايا الشفق

(١) الديوان : ١٨١
(٢) نفسه : ٩٢
(٣) نفسه : ٢٢٤
(٤) نفسه : ١٨٥
(٥) نفسه : ١٥٤
(٦) نفسه : ٢٠٦
(٧) نفسه : ٢٢٨

وقد يتصور الصبح نمرا ، والليل حيا بزعليه ، حتى اذا أراد الظهور ، مزق عنه الحجاب ، وبدا بنوره وضيائه الذي يختلط بدهمة الليل ، فيحولها الى ما يشبه الكافور :

والصبح قد مزق عن نحره | جنب ظلام كان مززورا
فانجابت الدهمة عن شهبة | والت المسكة كافورا (١)

وقد ينظر الى الظاهرة نفسها ، ظاهرة بزوغ الصبح ، واختلاط الظلام بالضياء من خلال واقعه الحربي الدامي فيشبه ضوء الصباح براية ظافر مضرجة بالدم :

وكأن ضوء الصبح راية ظافر | نفضت بها الهيجاء نضحا من دم (٢)

وقد يقرب الظاهرة منه اكثر ، فيتصور الليل شعرا أسود ، والصبح كفا تمس كمله وتصيره اشيب :

وقد مس الصبح كمل الظلام | وأطلع فوده الدجى أشيبا (٣)

وكانت تمر بالشاعر حالات من القلق والهم ، والغم أحيانا ، نتيجة لدوافع ذاتية أو خارجية كأن يصله خبر موت أحد أصحابه ، فتتأثر نفسيته الرقيقة لذلك ، ويشتد حزنه ، وتظلم الدنيا في عينه ، فلا يعود يميز بين الصباح المشرق والليل المظلم ، فكلاهما سواء في نظره من حيث وحشتهما وسوادهما :

وألقى بها أن الصبح يسود وحشة | تأخذني أمسي على حين أصبح (٤)

وقد تتكرر معه نفس الأزمة ، فينظر الى نفس الظاهرة الطبيعية نفس النظرة القاتمة فيرى الليل في كل شيء ماثل أمامه :

أقلب طرفي لا أرى غير ليلة | وقد خلع عن وجه الصباح نقاب
كأني وقد طار الصباح حمامة | يمد جناحيه علي غراب (٥)

واعناقي مدلج وأعتم مسلك | * * * * والتاث ملتمس وضاق سبيل (٦)

* - الفود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن .

(١) الديوان : ٢٤٧
(٢) نفسه : ٢٤٥
(٣) نفسه : ٢٦٣
(٤) نفسه : ٢٦٧
(٥) نفسه : ٢١٨
(٦) نفسه : ٢٦٤

ولكن الشاعر ، وان تطير من هذه الطلعة السوداء وبذاك الصباح ، وإن ذمه لانه فرق بينه وبين حبيبه كما في قوله :

فيا صبحة البأساء تبدو صبيحة ... ويا ليلة النعماء هل لها من رتق (١)

الا أنه يفضله على الليل ، ويميل اليه ، ويجد في ضيائه راحة لعينيه ولنفسه :

والصبح أبهى في العيون من الدجى ... وأعمّ اشراقا وأبهى منظرا (٢)

فالليالي في نظره غربان بين تنعق بالفراق ، فهو لذلك يلحق منها بعد وصفه :

ووقيت فيك من الليالي إنها ... غربان بين بالتفرق تنعق (٣)

ولعله ، مما يدل على هذا الميل نوعية علاقته بكل منهما ، فان أراد وصف الصبح استخدم كلمات وصورا توحي باللطافة ، والاشراق والعذوبة ، فهو يذكره بالابتسامة العذبة ، بالوجه الضاحك ، بالثغر الشنيب ، بوجه البشير ، بصفحة الماء الازرق السلسال ، ولكن موقفه من الليل يكاد يناقض موقفه من الصبح تماما ، فالليل عنده يرتبط بالعنف والقسوة ، والشكوى والبكاء ، والابتسامة الآملة التي تذابت ، والضحك المتحول الى أشجان وأحزان ، وهو لا يصبر على البقاء في ظلمته المدلهمة ، فيمزق ظلامه ، ويصدعه ويهدمه ، ويعجل بمجيئه الى الصباح يترقبه ، ويستعجل قدومه ، حتى اذا لاحت بوادره في الافق صوره تصويرا يوحي بالقوة ، والصراع الذي ينتصر فيه النور على الظلام ، ولعل في هذا ، تفسيرا عفويا لما يعتمل في أعماقه من صراع بين الموت والحياة ، فقد كان يحب الحياة ، ويفرق من الموت ، والصباح باشراقته وابتسامته ، وانبعاث الحياة والحركة في عناصر الطبيعة في اجوائه ، يعني تجدد الحياة واستمرارها ، على حين لا يذكره الليل ، بظلامه المطبق ووحشته وسكونه ، في مقابل ذلك وفي معظم الحالات ، بغير همومه وأحزانه ، وقد يذكره وان لم يصرح بذلك ، بظلمة القبر ووحشته

---

(١) الديوان : ٣٤٩

(٢) نفسه : ٣٧٦

(٣) نفسه : ٢١٢

وهي نهاية تهابها نفسه المحبة للحياة ، فلذلك جابهه تلك المجابهة العنيفة ، فمزقه وصرعه بضوء الصباح ، وكأنه بذلك ينتصر حبه للحياة على فرقه من الموت .

* الكواكب والنجوم :

لم يكن علم التنجيم الى جانب الفلسفة من العلوم المرغوب فيها في الأندلس ، فقد كانت الفلسفة ، كما يقول ابن سعيد ، علما ممقوتا بالاندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره ، كما كان الاهتمام بعلم النجوم والفلك ، والعكوف على دراسته كثيرا ما يؤدي بأصحابه الى تهمة الزندقة (١) . وهي تهمة نهايتها الموت في أغلب الحالات ولعله لهذا السبب ندر المشتغلون بهذا العلم ، وقلت المصنفات المختصة به ، في تاريخ الأندلس عموما ، فإذا استثنينا فترة خلافة الحكم المستنصر الذي احتضن هذه العلوم وشجع على دراستها وفترة ملوك الطوائف ، حيث وجدت هذه العلوم متنفسا ، ووجد المشتغلون بها تشجيعا وتقديرا ، لم نكد نعثر الا على بعض النشاطات في هذا الشأن ، وهي نشاطات كانت تمارس على قلتها ، في السر لا في العلن مخافة العقاب والتنكيل (٢) . وهو أمر يلخص المستشرق الاسباني (ريبيرا) الكلام فيه بقوله : "لقد عبرت بهذا العلم في الاندلس فترات لم يكن يسمح للناس خلالها بأن يعرفوا منه الا ما لا بد منه لتحديد اتجاه قبلات المساجد وتعيين مواقيت الليل والنهار على مدار العام لتعرف اوقات الصلوات ، والاستهلال من مواعيد الأهلة ، فاذا تجاوز الانسان هذه المطالب من هذا العلم فقد غرر بنفسه (٣) . ولعل هذا الترخيص في معرفة المبادئ الضرورية من هذا العلم هو الذي سمح لبعض كتب الأنواء بالرواج ، فقد ذكر ابن خير الاشبيلي في فهرسته ضمن الكتب التي يرويها عن شيوخه

---

(١) فضائل الاندلس واهلها : ٢٧ - طبقات الامم : ١٠٣

(٢) نفسه : ٢٧ - نفسه : ١٠٢ .

كتاب الأنواء لابن دريد (١) ، وكتاب الانواء لابي حنيفة (٢) ، والانواء لابن قتيبة (٣) ، مما يجعلنا نظن أنه كانت هنالك نظرتان ، لا نظرة واحدة الى هذه القضية ، النظرة الاولى هي نظرة العامة من الناس ذوي الثقافة المحدودة ، وهي نظرة حاسمة ، لا تميز بين ما هو ضروري من هذا العلم ، وما هو غير ضروري منه ، وتعد الاشتغال بها العلم زندقة يحاسب عليها صاحبها حسابا عسيرا ، ولكن نظرة الخواص وهي النظرة الثانية ، تختلف عن تلك النظرة السطحية المطلقة ، فهم ينكرون على المشتغلين بهذا العلم مغالاتهم ، واستسلامهم لخيالاتهم وأوهامهم في اعتقادهم بأن للكواكب والنجوم قدرة على النفع والضر من دون الله ، ولا ينكرون عليهم اشتغالهم بما هو ضروري ونافع منه ، ولا أنكر ، هنا ، أن تهمة الزندقة لم تكن دائما وفي عصر كثير القلاقل والفتن كعصر الشاعر ، تصدر عن دوافع متجردة من الأهواء ، بل كانت احيانا ، وسيلة ناجحة للتخلص من الخصوم أو المنافسين بحق أو بغير حق . ولكن ما علاقة ابن خفاجة بهذا كله ، أعني : هل درس الشاعر علم الفلك في جملة ما درس من علوم ؟ ليس فيما بين أيدينا من معلومات يسيرة عن حياة الشاعر وثقافته ما يحمسنا الى الجزم بذلك ولكننا نظن ، وانطلاقا من بعض المعطيات من شعره وعلاقاته ، أنه ألم الماما ، ولو سطحيا ، ببعض المبادىء الفلكية ، فهو يذكر كثيرا من اسماء الكواكب والنجوم ، كما يذكر بعض منازلها التي يمكن أن نجدها في كتب الأنواء ، وهو درس العلوم الرياضية (٤) وعلم الفلك كان مرتبطا في الغالب بها ، ولكنه اعرض عن هذا العلم ورغب عنه ، وكان على صلة جيدة بابي بكر بن الصائغ (ابن باجه) وزير محمد ابي بكر بن تيفلويت امير سرقسطة كما كانت له علاقة وثيقة بابي محمد بن السيد البطليوسي ، وكل من الرجلين له قدم راسخة

---

(١) الفهرست : ٣٦٦

(٢) نفسه : ٣٧٦

(٣) نفسه : ٣٧٧

(٤) نفسه : انظر هذا البحث : ٤

في علوم الاوائل ، فيمكن أن تكون تلك المعلومات الفلكية قد وصلته عن طريق هذين ، كما يمكن أن يكون حصل عليها من خلال مطالعاته الخاصة المتنوعة ، ويسترقفنا في شعره بيتان يذكر فيهما الشاعر كلمة منجم : ففي الاول ينفي الشاعر موقفه من النجوم ، خوفا من أن يشي عنه أنه منجم ، فيعلن أنه لم يسهر في الليل ، ولم يتأمل في النجوم ، ولم يراعها بدافع التنجيم ، وانما بدافع الحب لبدر الليل :

أراعي نجومَ اللّيلِ حبًّا لبدره ولستُ كما ظنَّ الظَّنونُ منجِّما (١)

وهو في البيت الثاني يحذر الأمر ، ولكن ، وبدلا من أن يشبه نفسه بالمنجم ، يشبه فرسه به ؛ ففرسه هو الذي يقلب الطرف في الكواكب ليلا كأنه منجم :

يقلّبُ طرفًا في الكواكبِ سامِيا كأنّ به تحتَ الظّلامِ منجِّما (٢)

وفي البيتين اشارة الى نوعية النظرة التي كان يحملها عصره لعلم النجوم ، والمشتغلين به ، فقد أصبحت كلمة منجم من أخطار التهم التي يمكن أن توجه الى انسان ، فلذلك أبعدها عن نفسه ، وألصقها بفرسه مخافة الوقوع في مغبتها ؛ والشاعر ، ولكثرة لسهره ، وتأملاته في الليل والنجوم ، والشمس وضيائها ، اكثر من ذكر أسماء النجوم والكواكب في شعره كما أكثر من الاعتماد عليها في مجال الاستعارة والتشبيه ، وهو قد يصفها لذاتها ، ولكن وصفه لها ، وصف مقتضب ، سريع ، يكتفي بالمظاهر الخارجية دون الدخول معه في حوار انساني يشاطره النفوس في آماله ، واستلهامها المعاني والأسرار ، وهو قد تستثنى منه حال واحدة ، هي

---

(١) الديوان : ٢٣٧

(٢) نفسه : ١٧٣

وصفه للقمر ، ومناجاته له على نسق رائعته في الجبل . ولعل الامر يقتضي اكثر في التعرض لا وصافه في هذا الباب ، بشيء من التفصيل .

* القمر :

لقد كان ابن خفاجة ، وهو المسلم المتفقه يعتقد أن التفكر في خلق السماوات والأرض وا ختلاف الليل والنهار ، والاعتبار بما في ظواهر الكون من تغير وتبدل ، وحركة وانسجام ، عبادة من أعظم العبادات المقربة الى الله تعالى ، ولعل وقفته ، وقفة المتأمل المعتبر من القمر ، كانت ثمرة لهذا التصور الاسلامي الصحيح للكون ، ونتيجة من نتائج خطراته الراعية في احضان الطبيعة ، في الليل والنهار ، فهو يخبرنا في مقدمته لقصيدة القمر ، ان القمر طلع عليه في احد اسفاره ، فجعل يطرق في معنى كسوفه واقماره ، وعلة إهلاله تارة وسراره ، ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره ، معتبرا فيه بحسب قوة فهمه واستطاعته ومعتقدا أن ذلك معدود في عبادة الله وطاعته ، لقوله تعالى : "إن في خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لاولي الالباب" (١) ؛ وكأنه بهذا يوضح موقفه ويبين أنه لا يفعل ذلك على سبيل التنجيم ، وانما طلبا للعبرة ، وتفكرا في النفس والآفاق ، وهكذا فان الشاعر ، قد تتبع القمر في تحولاته وتغيراته ، فوصفه هلالا ، كما وصفه بدرا ، ووقف أمامه يتأمله ويستثيره العبرة ، فأصاخ الى نجواه ، وملأ عينيه من حسنه وجماله ، ولكن القمر بقي صامتا ، لا يحدث الشاعر كما حادثه الجبل من قبل ، فيتأثر الشاعر لذلك ، ثم يفهم منه بصمته ، فهو له أكبر موعظة ، كما أن له في مسيرته الشهرية ، إهلالا واكتمالا ، وفي حركته صعودا وهبوطا ، وظهورا واختفاء ألسنا تنطق بأبلغ العبر ، وتوحي بأعمق الدروس ، ثم يصف الشاعر حال الناس تجاه هذه الظاهرة ، فهم أصناف ، منهم الواعي

---

(١) القرآن الكريم (٣ : ١٩١) - وديوانه : ١٣٠ .

المتيقظ المذكر ، ومنهم اللاهي ، الغافل ، السادر في غفلته ونسيانه ، لا يحرك ساكنا لهذه الظاهرة الكونية العظيمة الدلالة ، ولا يفهم من معانيها وعظاتها . إن وصف القمر يرتبط عند الشاعر ارتباطا وثيقا بالإحساس بالزمن ، ومن ثم بالموت والفناء (١) . فلأنه رأى في دورة القمر دورة حياته ، وفي صيرورته صيرورته ، فرأى في إهلاله صباه وشبابه ، وفي اكتماله قوة رجولته ، ثم في مسيره القهقرى نحو الظل شيخوخته ، وانحداره الى مصيره الذي تفرق منه نفسه ، الى الموت ، حيث يلفه ظلام الرمس تمايلف القمر ظل الكون ، وهي نهاية يسير الشاعر نحوها باكيا عن شجو يفجر المآقي المحجر ؛ والشاعر ، بعد هذا ، وإن لم يحالفه التوفيق في أنسنة القمر على نحو ما فعل في وصف الجبل ، فبقي يتحدث وحده ، دون أن يشاركه القمر حديثه ، إلا أنه وفق في تجسيد فكرة الزمن والإحساس بالفناء من خلال ظاهرة القمر في تغيره وصيرورته :

لقد أصخْتُ إلى نجواك من قمرٍ ... وبتُّ أدْلِجُ بين الوعْيِ والنَّظرِ
لا أجتلي لُمَحاً حتى أعي كلَماً ... عدلاً من الحُكْمِ بين السَّمعِ والبَصَرِ
وقد ملأْتَ سوادَ العين من وَضَحٍ ... فقرّطِ السَّمْعَ قرْطَ الأنسِ من سَمَرِ
فلو جمعتَ الى حُسْنٍ محاورةً ... حُزْتَ الجَمالين من خُبْرٍ ومن خَبَرِ
وإنْ صمتَّ ففي مرآك لي عظةٌ ... قدْ أفصحتْ لي عنها ألسُنُ العِبَرِ

(١) تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين : ٢١٠

تمرُّ من ناقعٍ حوّاً وملتمـــــــل كُوراً ومن مرتقٍ ماوّراً ومُنحـــدرِ
والناسُ من معرضٍ يلهى وملتفــتٍ يرعى ومن ذاهلٍ ينسى ومدّكـــرِ
تلهو ساعات أقوام تعد شئــــا وقد مضَوا فقضوا أنّا على الأثــرِ
فإن بذت وقد يهدي التجلد فمن شجو يفجّر عين الماء في الحَجَرِ (١)

وكما وقف الشاعر من التمر هذه الوقفة المعتبرة ، وقف منه وقفات أخر ، ولكنها قصيرة انتقى فيها بتصوير التمر تصويراً أشبه ما يكون بلقطات إجمالية ، سريعة ، لمشاهده في حالاته المختلفة ، يوردها أكثر ما يوردها في سياق التشبيه والاستعارة في اغراضه الشعرية المختلفة ، مدحاً ورثاء وغزلا .. واما في الوصف العام ، فان التمر يتمثل بصورتين ، صورت احداهما معنا في وصف الجبل ، قابل فيها الشاعر بين اطراق الجبل وتقاعسه من جهة وبين طلاقة البدر وسنائه وضحكه من جهة أخرى :

تصهّد من كل رأيٍ رزانـــــة فقطّب إطراقا وقد ضحك البدرُ (٢)

ويصوره في الثانية ، وقد انجابت عنه الغيم ، فبدا ناصع البياض ، مضيئا في عرض الليل مشبها اياه بالغرة البيضاء في جبهة الفرس الأدهم فقال :

وانجاب نقع الغيم من تمر الدجى عن غرّةٍ وضحت بجبهة أدهم* (٣)

* الهـــلال :

يرسم ابن خفاجة للهلال صورتين ، يستوحي في احداهما واقعه العربي ، فقد ذكره الهلال ، وقد بدا عشية في تقوسه ولمعانه ، بصورة السنان المعوج الصاحب للدرع الفارس الشجاع :

---

(١) الديوان : ١٢٠ - ١٢١
(٢) نفســـه : ١٥٠
(٣) نفســـه : ٢٦٢

* الادهم : الفرس الاسود

سَقانا وقد لاحَ الهلالُ عشيّةً ... كما اعوجَّ في درعِ الكميِّ سِنانُ (١)

ويتمثله في الأخرى ، وقد أطل عليه في مجلس أنسه ، ثغرا باسما في وجه الغروب :

واهتزّ عطفُ الغصنِ من طربٍ بنا ... وافترّ عن ثغرِ الهلالِ المَغربُ (٢)

* الثريّـــا :

يعنى الشاعر بالثريا عناية تفوق عنايته ببقية النجوم ، ولعله كان يسهر ليلة حتى يصبح فيلحظها اكثر من غيرها لتأخرها في المغيب ، وهو في تصويره لها يقربها اليه أكثر ، فيشبهها تارة بالكف وتارة بالقدم ، وأخرى باللواء ، وهي تشبيهات قديمة ، ولكنها لا تخلو عنده من إضافة أو توليد .

فهو اذا أراد تصوير طول الليل ، وصفه بالحيرة والتردد ، وجعل منه أعمى لا يهتدي في طريقه بغير قدمه التي هي الثريا :

وقد وقفَ الليلُ لا يهتدي ... وتخطو به للثُّريّا قــدَمْ (٣)

والثريا قدم ، تتعثر وقت السحر في برد الليل المزركش بنجوم المجـــرّة :

وتعثَّرتْ قدَمُ الثُّريّا سُحْـــرةً ... في بُرْدِ ليلٍ بالمجرّةِ مُعْلَمِ (٤)

وهو اذا رآها في السحر ، وقد اختلطت ظلمة الليل بضوء الصباح ، استدعت مخيلتـــه صورة الفرس الأشهب ، والكف البيضاء التي تمسح على معاطفه ، فشبهها بها :

وكأنما نجمُ الثريا سُحْـــرةً ... كفٌّ تُمَسِّحُ عن معاطفِ أشهبِ (٥)

وقد يشبهها وهي تتقدم الصباح بطليعة جيش أو بلواء أمير ، وهو تشبيه استمده مـــن بيئته العربية :

ويقدمه نجمُ الثريا كأنّـــه ... طليعةُ جيشٍ أو لواءُ أمــيرِ (٦)

---

(١) الديوان : ٢٣٥
(٢) نفســـه : ٢٩٠
(٣) نفســـه : ٤٧
(٤) نفســـه : ٢٩٢
(٥) نفســـه : ٧٤
(٦) نفســـه : ١٨١

* - الثريا : هي ستة أنجم ظاهرة ، في خاللهـــا نجوم كثيرة خفية ، وتسمى النجـــم أيضا (الانواء . ابن قتيبة : ٢٣) .

ويرى فيها ، وهي تغرب ، لواء يطويه الدجى ، اذا استل الصباح حسام ضيائه :

والدّجى قد لوتْ لواءَ الثريّـا وانتضتْ راحةُ الصباحِ حسامَهْ (١)

وقد يقرب صورتها اليه اكثر ، عندما يشبهها وقد غشاها غمام رقيق بجمر يشف عنه رماده :

صدرتُ ودون النّجم سترُ غمامةٍ يشفُّ كما شفَّ الرمادُ عن الجمرِ (٢)

* الشعـرى :

يذكر الشاعر الشعرى مرتين ، احداهما في سياق المدح ، حيث يجعلها ، رغم علوها ، دون همة ممدوحه وعزمه وانها تغار منه لما ناله من رفعة ومجد :

فقد أغضبَ الشِّعْرى العَبُورَ لهِمّةٍ تُقلّبُ دون المجدِ لحظَ غَيُورِ (٣)

ويذكرها ثانية في وصفه للمفازة ، فالمفازة وقد غمرها الليل بظلمته الحالكة ، ولم تهتد في سمائها غير الشعرى التي احمر لونها ، واتقدت كأنها جمرة ملتهبة ، تحكي صورة زنجي قد وضع في كفه دينارا :

ومفازةٍ لا نجْمَ في ظلمائهـا يسري ولا فلكٌ بها دوّارُ

تتلهّبُ الشعرى بها وكأنهـا في كفِّ زنجيٍّ الدّجى دينارُ (٤)

* النسـر :

والشاعر اذا اراد وصف جبله بشدة العلو ، تصوره يزاحم نجوم السماء بمنكبه ، وأنه موئل لنسر السماء ، ومأوى له :

ولاذَ به نسْرُ السّماءِ كأنّمـا يحِنُّ الى وكْرٍ به ذلك النَّسْرُ (٥)

* الهيّـة :

ويذكر الحيّة في مجال وصف الليل بالطول ، فليله يطول ، حتى لكأن حيته لا تعرف الموت ، وان الصباح في بطء ظهوره ميتٌ لا يعود الى الحياة :

سريتُ به أشبهِ لا حيّةُ الشّرى تموتُ ولا ميْتُ الصّباحِ يُعادُ (٦)

---

(١) الديوان : ٢٣١
(٢) نفسـه : ٢٥
(٣) نفسـه : ١٨٢
(٤) نفسـه : ٨٥
(٥) نفسـه : ١٥٠
(٦) نفسـه : ١٢٢

* ـ الشعرى : هناك شعريان : العبور والغميصاء ، وهما نجمان كبيران متقابلان تتوسطهما المجرة ويبدوان في أول الليل حمراوين ، فاذا انتصف ابيضتا .

* ـ النسر : نسران : احدهما يسمى الطائر ، والآخر : الواقع .

* ـ الحية : مجموعة كواكب تتوسط الفرقدين وبنات نعش .

* المجـرّة :

لقد مرّ معنا في وصف الثريا تشبيه الشاعر الليل ببرد مزركش بالمجرة ، وهو هنا يطالعنا بتشبيه حسي آخر لها ، مستوحى من بيئته الاجتماعية ،فالليل الحالك وقد بدت المجـرة في سمائه بنجومها المتقاربة الممتدة ، يحكي في نظر الشاعر راهبا قد لبس السواد ، وشد خصره بزنار :

لبس المجرّ على السواد فخلتـه   مترهّبا قد شدّ من زنّار (١)

وقد يذكر الشاعر غير هذه الكواكب والنجوم بأسمائها ، ولكن في أغراض اخرى ، مشبهـا أو مستعيرا ،فنجده يذكر الفرقدين ، والسها ،وعطارد ، والمشتري ،وزحل ، والجـوزاء والشهب ، كما يذكر ظاهرة الكسوف ، وغير ذلك ، ولكن نود هنا أن نقف مع الشاعر عند بعض صوره العامة لنجوم السماء وكواكبها ؛ فالشاعر يحب أن يطرق ديار حبيبته ليلا ،في وقت يكـون الظلام قد غشّى المعمورة،

وترصعت السماء بالأنجم الزهر ،كأنها الثوب المنمنم :

وجئتُ ديار الحيّ والليلُ مطـرِقٌ   مُنَمْنَمُ* ثوب الأفقِ بالأنجم الزُّهْـرِ (٢)

وهو يتصور الليل سترا مطرزا بالنجوم يحجبه والحبيب عن الرقيـب :

والليلُ سترٌ دوننا مرسَـلٌ   قد طرّزتْه أنجمٌ زُهَّـرُ (٣)

والشاعر في تشبيهه الليل بنجومه بالثوب المنمنم ،أو الستار المطرز ،يصدر عن بيئتـه التي اشتهرت بصناعاتها النسيجية المتنوعة ،كما يصدر عن واقعه عندما ينظر الى السماء من خلال موقد النار ،فيتصور النجوم جمرا والغمام الابيض ، او ضوء الفجر رمادا يعلوها :

وفي مصطلى الظلماء جمرُ كواكـبٍ   علاها من الفجرِ المُطِلِّ رمادُ (٤)

---

(١) الديوان : ٢٣
(٢) نفسـه : ٢٣
(٣) نفسـه : ١٥٦
(٤) نفسـه : ١٣٢

* ـ المنمنم : المزخرف المزركش

* المجرة : سميت مجرة على التشبيه ،كأنها مجر وسحب ، وهي تسمى أم النجوم أيضـا لاجتماع النجوم فيها .

الشمس :

وكما فتن الليل الشاعر بنجومه وكواكبه ، فتنه النهار بضوء صباحه ، وشمس ضحاه ، فشهد الشمس وقد مرّ دونها الغمام ... رويه ، فرسم ذلك كله ، وصوره بفتنة واعجاب ، يحجبها تارة ، ويكشف عنها أخرى ، فيختلط ضياؤها الاصفر بظل الغمام ، بروقه ، ويبعث ... نفسه الاحساس بالفرحة والبهجة :

ورداء شمس قد تمزق أصفرا (١)
ورفلت بين تميس غيم مهلهل

وهو مشهد علق بذاكرة الشاعر ، وانطبعت صورته في مخيلته ، فهو اذا اشتاق الى وطنه ... ومن جملة ما يحن ... ولبهجة بلده ، كانت غزالتها ، وقد حكّ عنها النسيم من الغيم برقعا ... اليه :

أغازل منها للغزالة* سنة — تحكّ الصبا عنها من الغيم برقعا (٢)

واذا حمي الوطيس ، وثار القتام في الجو ، فخفف من أشعة الشمس ، وكسر سناها ، بدت في عين الشاعر كأنها دينار عليه صدأ :

والنقع* يكسر من سنا شمس الضحى — فكأنه صدأ على دينار (٣)

وقد يربط الشاعر بين الشمس وعناصر الطبيعة الأخرى بعلائق ودية عاطفية ، فهي ... تضاحك الشجرة ، وتغازل الأقحوانة :

يضاحكها ثغر من الشمس واضح — ويلحظها طرف من الماء أزرق (٤)
تنبت بفيه أقحوانة أجرع — قد غازلتها الشمس غبّ سماء (٥)

والشمس اذا غشاها الغمام ، وأصفرتها القاتمة الى شحوب ، تذكر الشاعر بالمريض وآثاره ، فيصورها مريضة شاحبة الجبين :

---

(١) الديوان : ١٣٩ — * ـ الغزالة : الشمس .
(٢) نفسه : ١٢٨ — * ـ النقع : الغبار .
(٣) نفسه : ٣٧
(٤) نفسه : ٧٠
(٥) نفسه : ١٥٤ — * هاء (فيه) تعود على الصباح .

فالشّمس شاحبةُ الجَبينِ مريضةٌ ... والريحُ خافقةُ الجناحِ عليلُ (١)

وهي تذكره أيضا في حال غروبها ، وضعف سناها ، واصفرار لونها بالمريض فيخلع عليها من صفاته :

والشمسُ تجنحُ للغروبِ مريضةً ... والرّعدُ يرقي والغمامةُ تنفثُ (٢)

والشمس اذا كانت تفتنه في مشاهدها المتنوعة فانها في غروبها له أشد فتنة ، فهي تروقه بأشعتها الصفراء الدافئة ، فيطيل النظر اليها ، ويتتبعها وهي تتوارى شيئا فشيئا متلفعة في ثوب الليل الأخضر :

وصفرةُ سواءِ العشيِّ تَرُوقُني ... على كَمَسٍ من سَقِطِ الشَّمسِ أشقرِ

الى أن توارتْ بالحجابِ مريضةً ... تلفّعُ في ثوبٍ من الليل أخضرِ (٣)

وهي تروقه ، كذلك ، في ميلها إلى الغروب ، وقد صبغت بأشعتها وجه النهر ، فبدا كأنه سيف صقيل عليه بقية من دم :

وقد ولّتِ الشّمسُ محتشمةً ... إلى الغربِ ترنُو بطَرْفٍ كَحيلْ

كأنّ سناها على نهرِهِ ... بقايا نجيعٍ بسيفٍ صَقيلْ (٤)

وقد وصف الشاعر الشمس في مشاهد غير هذه المشاهد ، ضمنها أغراضه الشعرية الأخرى تلك الاغراض التي اصطبغت في كثير من معانيها وصورها بمشاهد الطبيعة ، وألوانها مما يدل على أن مكانة الطبيعة عند الشاعر ، كبيرة ، وإن إحساسه بها كان قويا عارما .

---

(١) الديوان : ٢٥٤

(٢) نفسه : ٢٨٥

(٣) نفسه : ٣٧٧

(٤) نفسه : ٣٧٨

الفصل السابع

في

الطبيعة الحية

لم يقتصر ابن خفاجة في وصفه على الطبيعة الصامتة، يرسم مشاهدها، ويصور مناظرها كما هي في الواقع، أو ممتزجة بمشاعره وأحاسيسه فحسب، بل امتد بصره، كذلك، الى ما في بيئته من كائنات حية، فوصفها وصاغ عني فيه بالصورة الحسية العامة، وهي عنده كما هي في الطبيعة، مرتبطة بالطبيعة، ملتصقة بها، ولعل هذا الارتباط هو الذي جعل الشاعر يستخدم في تصويرها عناصر الطبيعة الصامتة ومعطياتها، وابن خفاجة لا يستغرق في وصفه كل ماعرفته بيئته من حيوانات أليفة ووحشية، فهو لا يذكر من حيوانها الاليف سوى الفرس والذئب، والنعجة والبقر والناقة، ولا يذكر من حيوانها الوحشي غير الذئب والأرنب والاسد ذكرا عابرا، كما انه لا يذكر من طيورها سوى الحمام والمكاء، والعصفور والقطاة والبازي، ولم يصف من الزواحف والحشرات غير الحية والنحلة وذكر السمكة عرضا وهي موصوفات تتفاوت، على قلتها، من حيث عناية الشاعر بها، تفاوتا واضحا، ففي الوقت الذي يعطي فيه الفرس، والحمام والطيور عامة، بعناية الشاعر واهتمامه، فيكثر من وصفها، لا تظفر غيرها من عناصر الطبيعة الحية الا بصور قليلة، ولعل لصلة الشاعر بفرسه، وصلة الحمام والطيور المفردة بالطبيعة التي احبها الشاعر، وهام بها أثرا في احتفائه بها ووصفه لها أكثر من غيرها.

* الخيل :

ان أرضا واسعة كأرض الأندلس، وبيئة حربية كبيئتها لا بد الا أن تعتمد على الخيل اعتمادا كبيرا، فهي وسيلة السفر السريعة، ووسيلة الحرب المهمة، كما أنها تشكل بمنظرها وهي تسرح وسط مروج الطبيعة الخضراء مشهدا من أجمل المشاهد التي تجد العين في تمليها ومشاهدتها متعة كبيرة، وابن خفاجة، وهو ابن الجزيرة الغناء، أحس بهذه المتعة

وشعر بدور الفرس في حياته اليومية ، فأحبه وارتبط به ، وصوّره في شعره تصويرا جسد محاسنه ، وأبرز صفاته ، وأضفى عليه جمالا وروعة .

والظاهر أن الشاعر كان مولعا باقتناء الأفراس ، وتدل أوصافه فيها على أنه كان يملك بضعة منها لا فرسا واحدا ، فقد وصف الفرس الاشهب ، والاشقر ، والادهم ، والورد والابلق ، وأهدى الى احد اصحابه مهرا بهيما . وقد حرص الشاعر على أن تكون أفراسه كلها كريمة الاصل ، نجيبة ومروضة تطيع راكبها وتسلس له القياد ، وتفهم إشارته وتشاركه احساسه ومشاعره ، وقد أجمل في أوصافه الصفات التي كان يحرص على توفرها في فرسه ، فهو فرس مشرف العنق ، أسيل الخد ، ضافي الذيل والعرف :

ومشرفِ الهادي* طويل الشَّوى* ضافي سبيبِ الذَّيل والعُرفِ (١)

.....

وأغلبِ الخلقِ طويل الشَّوى مستشرفِ الهادي على العامِل* (٢)

وفرسه بالاضافة الى ذلك قصير عسيب الذيل ، قصير الظهر ، قصير الأذن :

طويل سبيب العرف والعُنقِ والشَّوى قصيرٌ عسيبِ الذَّيل والأذْن والظهر (٣)

---

(١) الديوان : ٢٨٠

(٢) نفســـه : ٢٦٦

(٣) نفســـه : ٢٦

* الهادي : العنق . الشَّوى : جمع شواة ، وهي القوائم

العامل : عامل الرمح ، وهو ما يلي السنان .

العسيب : عظمة الذيل أو منبت الشعر منه .

وفرسه طويل الشأو ، عال مطواع :

وأبلقَ* نزّارِ العِنانِ مُلَهَّبٍ ... طويلِ الشّوى والشأوِ أقودَ أتلعا (١)

وهو قصير الشعر أجرد :

وشَّى بتيهٍ اختيالاً أجردٌ ... في شقرةٍ لو سال سالَ نُضارا (٢)

وهي نفس الصفات المادية التي تستحبها العرب في أفراسها (٣)، ولكن الشاعر خالفهم في واحدة ، هي قصر أذني فرسه ، وطولهما عندهم .

وكما عني الشاعر بصفات أفراسه الجسمية ،عني بألوانها أيضا ،فصور منها الاشهب والاشقر ، والاسود ، والورد ، والابلق ، واستعان بما في بيئته الطبيعية من معطيات وعناصر والوان في رسمها وابرازها وتجميلها ، مع الحرص الدائم على تنويع المشاهد ، وتغيير الاطر التي تحتضن أفراسه ،فقد يصفها في الليل ، حيث الظلمة ، والنجوم اللامعة أو في الصباح ، حيث امتزاج الظلمة بالضياء ، وقد يصفها في جو المعركة ،حيث السيوف والرماح ، والنقع ، مشبها إياها ، في حركتها وألوانها بما يحيط به من عناصر وظواهر طبيعية مختلفة ، فالفرس الاشهب يروقه بلونه الأبيض ، ويوحي اليه ، وهو يصوره ، ببعض الصور التي يستوحيها من طبيعته ، في ظلام ليلها ، وبحرها وموجها ، وكواكبها ونجومها كما قد توحي اليه صورته ببعض التشبيهات يستمدها من بيئته الحضارية ، ويوظفها في تصويره .

فهو يلاطم بحر الظلام ،ويناطح لبقه بموجة هي فرسه الأشهب ، ، الذي بدا بلونه

---

(١) الديوان : ٥٧ ... * - الابلق : فيه بياض وسواد .

(٢) نفســــه : ١٤٣

(٣) كتاب الخيل لابي عبيدة : ٩٧-٩٨

الاصباح في الليل المظلم كأنه غرة في جبهة دهمائه أو نجما لامعا من نجومه :

لاطمتُ لُجّتَهُ بموجةِ أشهبٍ ... يرمي بها بحرَ الظلامِ فيرتمي
قد سال في وجهِ الدُّجُنَّةِ غُرَّةً ... فالليلُ في شِيَةِ الأغرِّ الأدهمِ
الطعنته ومن سِنانٍ أزرقٍ ... ومهنّدٍ عضبٍ كذا ثنا أنجُمِ (١)

واذا تصور نفسه في معركة ، لم يصور نفسه الا على فرس أشهب سريع ، مقدام ، يبدو في ظلل العجاج كأنه صباح مسفر ، أو كوكب منقض ، ولا يغادر المعركة الا ظافرا ، مخضبا بالدم لما أصابه من جراح :

ورميْتُ هبّتَه بلَبّةِ* أشهبٍ ... فسفرتُ ليلاً عن صباحٍ مُسْفِرِ
يجري فتحسبُه انصلاتاً كوكباً ... ينقضُّ في غسَقِ العجاجِ الأكدرِ
أوردتُه ثَلَلَ الأسنةِ أشهباً ... ونزلْتُ منه ظافراً عن أشقَرِ (٢)

وقد ينظر الشاعر الى فرسه الاشهب من خلال وسائله الكتابية ، فيتمثله في حسنه وبهائه بالرقعة الحسنة ، ولكن الذي يخط سطورها وينقط حروفها ليس القلم ، وانما نصال السيوف وأسنة الرماح ، كما يصور حال الفرس في المعركة اقبالا وادبارا ، بحال الصحيفة طيا ونشرا :

وأشهبَ ونمَّ تختلُّ رقعةً ... من الغسقِ لم تعثر بها العين في بشرِ
تخطُّ سطورَ الضربِ بيضاً بها الظبا* ... ويعجمها وخزُ المثقفةِ السُّمرِ
وتدنو منه السِّلمُ ما ينشُر الوغى ... فطوراً الى طيٍّ وطوراً الى نشرِ (٣)

وقد يجمل اوصاف فرسه الأشهب في حالاته المختلفة في موقف واحد ، فهو طرف ، سريع العدو ، يصل الى هدفه كلمح البصر ، حتى ان طيف الخيال في سراه لا يجاريه في عدوه فهو اذا سرى ليلا فكوكب ثاقب منقض ، واذا خاض الغلاة فاشبه ما يكون بالسملاة في صحرها وترتها ، وهو في جريه ينساب في طواعية ويسر ، حتى ليحس راكبه كأن ريح الجنوب قد انقادت

---

(١) الديوان : ٢٤٤
(٢) نفسه : ٥٠   * ـ اللبة : المنحر
(٣) نفسه : ٢٦   * ـ الظبا جمع ظبة : حد السيف أو السنان

له ، أو كأنه امسك بعنان ريح الشمال ،ولكن الفرس هو محلى غيره وهو عاطل ،فصورته هنا غير صورته هناك ،فهي هنا أكثر غنى وبريقا ،فهو يبدو ،وقد جال في حلبه البراقة ، كأنه الصبح علته الانجم ، أو كأنه صبح ملجم بالثريا ،وهو اذا جرى بدا كالبرق المسرج بالهلال :

ربَّ طِرْفٍ* الطَّرْفِ سرعة عدو	ليس يسري سراه طيف الخيال
إن سرى في الدجى فبعض الدراري*	أوسعى في الفلا فإحدى السعالي*
لستُ أدري إن تهد ليلة أسري	أو تمطيته غداة قتال
أجنوبٌ تُقتادُ لي من جنيب*	أم شمالٌ عنانُها بشمالي
جال في أنجم من الحلي يسبي	وقميص من الصباح مذال*
أشهبُ اللون اثقلته حليه	خبَّ* فيهن وهو طلق الجلال
فبدا الصبحُ ملجماً بالثريا	وجرى البرقُ مسرجاً بالهلال (١)

ويصوره في حال عدوه ويلاحقه ببصره ، ثم يرسم له صورا متتابعة ، يعتمد فيها على الطبيعة من حوله ، اعتمادا واضحا ،فهو اذا اراد تصوير شهبة فرسه ،تصور الصباح شبهة لفرسه يحتلها اذا مشى ، واذا اراد تصوير شدة سرعته تبادرت الى ذهنه ظاهرة الرياح في هبوبها وسرعتها ، فيتخيل أن فرسه يحتلها في عدوه ، هذا عن العدو ،واما ما يخلفه الفرس وراءه من غبار متصاعد في السماء ، فانه يوحي الى الشاعر بظاهرة كونية اخرى ، هي ظاهرة الغمامة المبرقة ليلا ، كما يوحي اليه بقوة اندفاعه ،وشدة وقع حوافره على الارض ،بركن الجبل المنهار من عل .

وأقبَّ يختل الصباح إذا مشى	شية ويختل الرياح اذا جرى
قد بات يحمل لبده ظبي النقا	ركضا ويحمل لبده ليث الشرى

---

(١) الديوان : ٣٦٠ ، ١٤٠

* ـ الطرف : الفرس الطويل القوائم ،الطويل العنق المطرف الاذنين . الدراري : جمع دري : وهو الكوكب الثاقب المضيء ، نسب الى الدر لبياضه
السعالي : جمع سعلاة ، وهي اخبث الغيلان .
الجنيب : الغريب . مذال : اي له ذيل .
الجلال : جلال الثوب أو الكساء أطرافه
خبَّ : اسرع .

وحثّ التّراب على الصّبا فكأنما — أزجى* هنا لغمامة برق سرى
واستبرجت الارض الفضاء هويّه — فكان ركنا خرّ فيهما من حرا* (١)

وفرس الشاعر فرس شجاع ، كريم ، يقدم على العدو وغيرهما بولا وجلا ، يطلب العدو وكأنه يوم الهيجاء تعبث بالهشيم ، ويعدو بلونه الأشهب من وراء النقع كأنه البرق المتألق وكاد يطرد بشهبته الصافية الليل البهيم ، ويخترق الظلمة المدلهمة :

وطروًا أجرّده صقيلًا — ويقنوها أكرّ به كريما*
إن آتيلته سمر العوالي — فلست أردّه الا كليما
وقد لفّ العدوّ كأنّ ريحا — على شرف تلفّ به هشيما
يشيمُ به وراء النّقع برقًا — تألّق شهبةً وصفا أديما
اذا أولاته أعناب ليل — طردت من الظلام به ظليما* (٢)

وقد يضطره سياق الحديث عن الصحراء الى استخدام مطاياتها ، فيهمت فرسه بما تنعت به الابل ، فهو يجوب الدجى ، ويصدم ظلمته بفرس أعيس ضامر ، يحس بما حوله ويتأمل نجوم السماء ، حتى لكأنه منجم ، وينطلق في الصحراء مسرعا كأنه سهم رمت به يد البيداء ، والشاعر في هذا يشخص الطبيعة ، ويبعث فيها الحركة والحياة :

فجبتُ الدُّجى منه بأعيس* ضامر — رميتُ به ركن الدُّجى فتهدّما
يقلّبُ طرفًا في الكواكب ساميا — كأنّ به تحت الظلام منجّما
ومن عجبٍ أنّي أرى القوس منحنًى — به في يد البيداء والسّهم مرتقى (٣)

وأما الفرس الاشقر ، فيذكر الشاعر بكل ما في الطبيعة من حوله ، من عناصر ومعطيات تشترك وفرسه في هذا اللون ، فهو اذا وصفه تذكر الجلنار ، والنضار ، والشهاب ، والجمر والخمر ، والنجيع ، والبرق الملتهب ، والاعصار ، وهي ظواهر يستفيد منها الشاعر في

---

(١) الديوان : ٢٥٧
(٢) نفسه : ١١٥
(٣) نفسه : ١٧٣

* ـ الاقب : الضامر . أزجى : ساق ودفع . حرا : جبل بمكة
ـ اليعبوب : الجدول الشديد الجري ، يشبه به الفرس لذلك . الظليم : ذكر النعام
ـ الاعيس : من الابل : الابيض الذي يخالط بياضه شيء من الشقرة .

بناء صورة حصانه في حالاته المختلفة ، فهو يقف أما فرسه الأشقر الأجرد معجبا ، ويهتز لمنظره الجميل وصورته الرائعة ، وهو يختال في شقرته التي لو سالت لسالت نضارا ، وهو يرقص أعطافه طربا في شية تحلو في النظر كأنها كأس عقار تدار ، وهو ينطلق بسرعة كأنه الاعصار ان صورته لجميلة ، ومنظره لبديع ، ويستحق من الاسماع كل اطراء ، ومن الأبصار كل تأمل وامعان :

ومشى ربيته اغتيالاً أجردٌ *   في شقرةٍ لو سال سال نضارا *
تسترقص الاعطاف من طربٍ به   شيةٌ تدورُ على العيون عُقَارا
لو كنت شاهده وقد ملأ الفلا   ركضًا وشدَّ على الكَمِيّ حضارا *
لرأيت فيما قد رأيت وقد بدا   نارًا تكونُ اذا اجرى إعصارا
استمالت الأسماع اطراءً له   في صورةٍ تستميلُ الأبصارا (١) :

واذا خاض فرسه الأشقر ظلمة الليل ، وأراد وصف تلك الحال ، تذكر كوكب الدجى الثاقب ، والفحم والجمر الملتهب ففرسه كوكب متصوب ، وشعلة نار ملتهبة في فحمة الليل :

ألا زاحم الليلَ في أشقرٍ   تصوَّب تحت الدّجى كوكبا
نفاد وقد طار من شعلةٍ   على فَحْمَةِ الليل أن يلتهبا
وبات يطاردُه بارقٌ   أحالَ غراب الدّجى أشهبا (٢)

وتشبيه الليل بالفحم ، والفرس الاشقر في ظلمته بالشعلة ، تشبيه يدركه الشاعر لما فيه من مفارقات لونية :

وليل قرنْتُ به عزمةً   قدحتُ الظلامَ بها فاضطرم
وأوطأتُ احشاءه أشقرًا   كأني نفخْتُ به في ضرم
كأني وقد خاض الليلُ بي   قدحتُ به شعلةً في فحم (٣)

---

(١) الديوان : ١٤٣
(٢) نفسه : ٢٩٩
(٣) نفسه : ٤٦ - ٤٧

* - فرس أجرد : قصير الشعر رقيقه
* - النضار : الذهب
* - الحضار : القوة وجودة السير .

ويعجب الشاعر بلون فرسه ، ويفتتن بشقرته ، فيرى فيه شعلة نار تضرم في الحروب
ذره لونه بالطبيعة من حوله فيلجأ اليها ، يستمد من ألوانها ومعطياتها في رسم صورته
ها فرسه ، فلون فرسه من جلنار ناضر ، وأذنه المؤللة من ورق الآس ، وغرته في شقرته تحكي
ن خمر يعلوها حباب :

وأشقرَ تُضرَمُ منه الوغـــــى	بشعلة من شعل البـــاسِ*
من جُلَّنارٍ* ناضرٍ لونُـــــه	وأذنُه من ورقِ الآسِ
يطلُعُ للغُرَّةِ في شقْـــرَةٍ	حبابةً تضحكُ في كـــاسِ (١)

وإذا وصف فرسه الأشقر وسط المعركة ، شبهه بما يناسب المقام من ألوان وظواهر
هو ملهم ، شرق الاديم ، كأنه مخضب بالدم ، وكأنه وهو يخوض المعركة ، يخترق عجاجها
يطارد داما بارق يسوق سحب القتام ، أو كأنه شهاب يرجم شياطين العدا في ليل النهار ،
هو اذا تلألأت على شقرته الحلى ولمعت اشبه كأس خمر علاها حباب :

وملهمٍ شرِقِ الأديمِ كأنمــــا	ألقتْ معاطفُه النجيعَ خِضابــــا
طربٍ اذا غشّى القتامَ ممــزّقٍ	ثوبَ العجاجةِ جيئةً وذهابــــا
قدحتْ يدُ الهيجاءِ منه بارقــاً	متلهّباً يزجي القتامَ سحابــــا
ورمى العدا به شياطينَ العدا	فانقضَّ في ليلِ الغبارِ شهابــــا
بسامِ ثغرِ الحَلْيِ تحسبُ أنـه	كأسٌ اثار بها المزاجُ حبابــــا (٢)

وأما الفرس ذو اللون الاسود ، فلا يستوقف الشاعر طويلا ، وكأني به لم يكن يستريح
لهذا اللون ، ولا تطرب له نفسه طربها لمنظر الفرس الأشهب ، والاشقر ، فهو يركب يوما
فرسا أسود يرمي به الصباح ، فيقلب ضياءه وبياضه الى سواد ، وهو لشبهه بالليل ، فإن
الشاعر يرقع به ثوبه اذا رثّ :

وأقبلتُ وجهَ الرّدى أدهمــا	رميتُ الصباحَ به فادلَهمَّ
كأني وقد رثّ ثوبُ الدُجـــى	رتقْتُ به خرقَه فالتـــأم (٣)

---

(١) الديوان : ١٢٣
(٢) نفســـه : ٢١١
(٣) نفســـه : ٤٦

* ـ الجلنار : زهر رمان البر .
ـ البأس : الشدة .

وركب يوما آخر فرسا يفوق الليل حلكة وسوادا :

وأدهمَ من ليلِ التِّمارِ ركبتُـــه ... فاوقَفتُ أسرارَ الشُّرى صدرَ كاتِم (١)

ويصفه في موضع آخر مشبها اياه ، لدهمته ، بليلة الهجر ، الا أنه يتميز عنها بحسنه وجماله
[فـ]لولا ذلك لما استطاعت العين التمييز بينهما ، ثم ينتقل من اللون الى الصفات الجسمية لفرسه
[فيصفه] بطول عسيب عرفه ، وعنقه وشواه بالطول ، ويصم عسيب الذيل والأذن والظهر بالقصر ، مستدلا
[بها] على جودة وعتق فرسه ، ويتفاءل بغرته خيرا ، فيرى أن النصر معقود بها ، ثم يعود
[الى] الصورة العامة لفرسه الاسود وهو يخوض نقع المعركة فينظر اليه من خلال وسائله الكتابية
[من] صحيفة وحبر ، فيتصور النقع صحيفة والفرس حبرا اسود مسلوبا على صفحتها :

وأدهمَ لولا أنه راقَ صـــورةً ... لما عرفته العينُ من ليلةِ الهجْـرِ
طويل عسيبِ العُرْفِ والعنقِ والشَّوى ... قصيرُ عسيبِ الذَّيلِ والأذْنِ والظَّهرِ
له غرّةٌ تستصحِبُ النَّصْرَ ملقيـــةً ... كفاتَ بها في سُورةِ الدِّين من عشرِ
أما وانتشارِ النَّقعِ عنه صحيفــــةً ... لقد راعَ في تلك الصَّحيفةِ من حِبْرِ (٢)

ويتقدم المهر الادهم البهيم ، الذي تقدمه هدية الى احد اصحابه ، وقفة المطول ، وصفه
[و]صفا يبين أهم صفاته [ومحا]سنه وجمله وقربه الى نفس المهدى اليه ، فهو مهر جميل الصورة ، حسن المنظر
[...] بدهمته التي لو اصطبغ بها الليل لراق عين المحب ، وطاب له فيه السهر ، سريع ، نشيط
كريم الفعال ، يحن الى ندى صاحبه الجديد ، ويصبو الى كرمه ، وهو يا هداته له انما يرسل
الريح الى المطر ، ويزيد به جلاء ووضوحا لانه قمر ، والقمر لا يبدو على أتمه ووضوحه
الا في دهمة الليل :

---

(١) الديوان : ٢٥٩

(٢) نفســه : ٢٦ - الشوى : ... من الفرس : قوائمه

تَقَبَّلِ المَهْرَ من أخي ثِقَةٍ ... أرسلَ ريحاً بهِ الى مَلِكٍ
مُشتملاً بالظلامِ من شِيَةٍ ... لِيشتَمِلَ ليلُها على سَحَرِ
منتسباً لونُه وغرّتُه ... إلى سوادِ الفؤادِ والبصرِ
تحسبُه من علاتِ مُشترقاً ... بهجةَ مرأى وحُسْنَ مختبَرِ
حنَّ الى راحةٍ تفيضُ ندى ... فمالَ ظِلٌّ به على نَهَرِ
ترى به والنشاطُ يلهبه ... ما شئتَ من فحمةٍ ومن شَرَرِ
لو حمّلَ الليلُ حُسْنَ دُهمتِه ... أمتعَ طرفَ النجوم بالسَّهَرِ
أحمى من النجمِ يومَ معركةٍ ... طَهْراً وأجرى به من القَدَرِ
اسودَّ وابيضَّ فعله كرماً ... فالتقتِ الحُسْنُ منه عن حَوَرِ
كأنه والنفوسُ تعشقُه ... مُركَّبٌ من محاسنِ الصُّوَرِ
فازدادَ سناً بهجةً بدُهمتِه ... فالليلُ أذكى لغُرَّةِ القمرِ
ومثلُ شكري على تقبُّلِه ... يجمعُ بين النسيمِ والزَّهَرِ (١)

وأنكأ الشاعر في هذا الوصف ،استعارة وتشبيها ولماقا ،على الطبيعة الصامتة ،وافادته من معطياتها الكثيرة واضح جلي .

وقد يقف الشاعر يرقب المعركة من كثب ،فيصف الخيل في حركتها وألوانها الزاهية في اقبالها وادبارها فيصورها تصويرا حيا ، طليئا بالالوان ، يستلهم فيه الطبيعة من حوله فيقول :

والخيلُ تفري جُيوبَ النقعِ من عَرَبٍ ... تحتَ الكُماةِ وتذري أدمعَ العَرَقِ
من أشهبٍ شقَّ عنه الركضُ مُهوتَه ... كما تفرّى أديمُ الليلِ عن فَلَقِ
وأدهمٍ فضّضَ التحجيلُ أكرعَه ... كما تحلّى بدءُ الصبحِ بالغَسَقِ
وأشقرٍ سائلٍ في وجهه وَضَحٌ ... كما تصوّبَ نجمُ الرَّجمِ في شفَقِ (٢)

ويصف الفرس الورد وصفا يقترب كثيرا من وصفه للفرس الاشقر الا انه يزيد عليه صورته وهو محلى ،حيث يشبهه بلونه الوردي ، وحليه المتلألئة الناصعة ،الاخاذة ،بجلنارة نثرت عليها الصبا زهر الاقاحي :

فوقَ وردٍ مُحَجّلٍ من الحُسـ ... ـنِ بمرآه ماءُه وعُقارُه

---

(١) الديوان : ١٩١ - ١٩٢

(٢) نفســه : ٢٥٣

خلّعته نارُ الطبيعة سَبْكـــا ... وأمالتْ لُجَيْنَه ونُضـــارَه

تقدحُ الرَّكْبُ زندَه فاستطـــارتْ ... في دُخانِ العَجاجِ منه شَرارَهْ

يَضحكُ الطَّلُّ فوقه عن أقـــاحٍ ... نثرتْها الصَّبا على جُلَّنـــارَهْ (١)

وهو أمر نلمح فيه اعتماد الشاعر الواضح على الطبيعة تشبيهها واستعارة ، ممــا يؤكد ما ذهبنا اليه قبلاً من أن الطبيعة الصامتة كانت مهيمنة على مخيلة الشاعر ، تفــرض حضورها عليه ، وتقتحم عالم صوره بعناصرها ومعطياتها على اختلافها .

واذا نظر الى الفرس الأبلق ، وأراد وصفه ، تداعت الصور المشابهة في مخيلته ، فمــن صورة السحاب الاسود المبرق ، الى صورة الغراب الابقع ، الى صورة الظلام المرقع بالصبــاح وهي صور طبيعية يتكىء عليها الشاعر في ابراز لون فرسه ، ثم يترك اللون الى ماسواه من صفات ، ففرسه سريع الجري ، لا يكاد البرق يجاريه في سرعته ، حساس يسمع الاصوات ، ويطــرب للغناء ، ويحن كصاحبه الى المعدى فيعرب عن حبه بصهيلــه :

وأبلقَ خوّارِ العِنانِ مدلَّهٍ ... طويلِ الشَّوى والشأوِ أقودَ أتلعا

جرى وجرى البرقُ اليماني عشيــةً ... فأبطأ عنه البرقُ عجزاً وأسرعــا

كأنّ سحاباً أسحماً تحت لِبْــدِه ... تضاحكَ عن برقٍ سرى فتصدّعــا

وحسْبُ الأعادي منه أن يزجُروا به ... متيرّاً غراباً صبّحَ الحيَّ أبْقعــا

كأنّ على أعطافه من خِلَعِ الدُّجى ... قميصَ ظلامٍ بالصَّباحِ مرقَّعــا

ركضْتُ به بحرّاً تدفّقَ مائجــاً ... وأقبلْتُ أمّ الرألِ نكباءَ زعزعــا

يؤلِّل من أذْنٍ فأذْنٍ تشوُّفــاً ... إلى صرخةٍ من هاتفٍ وتطلُّعــا (٢)

---

(١) الديوان : ٥٧ - ٥٨

(٢) نفســه : ١١٢

فالوصف كما نلاحظ ، ومضطرم ، لا يشذ فيه الشاعر عما هو مألوف في وصف الفرس منذ الجاهلية وحتى عصره ، الا أن اتكاءه على الملحمة ، واستخدامه لعناصرها ومعطياتها في بناء شعره يبدو واضحا جليا . والشاعر لا ينسى أن يخلع ما يخذه من صفات لابراهيم بن يوسف وتأييد لدعوته التي خدمها بإخلاص ، ودافع عنها في شعره بصدق وحرارة .

ويبدو أن الشاعر كان ينتقي أفراسه ، ففرسه كريم الوالدين ، نجيب ، خفيف الحركة شديد السرعة لا يحتاج الى أن يرهب بسوط ، يحن الى شكر ، فيخف على السرى ليلمس بتلك الأرض الطيبة العزيزة عليه وعلى صاحبه :

تخيّرته من خيل أعْوَج* سابحــــًا أغرّ كريم الوالدين نجيبــــا
خفيفًا ولم يعلم بسوطٍ كأنمـــا يفوتُ عدوًّا أو يؤمّ حبيبــــا
وحنّ إلى شكر فخفّ على السُّرى يخون خليقًا أو يجوب كثيبـــا
يؤمّ بها أرضًا عليّ كريمـــة ومرتعها فيها إليّ حبيبـــا (١)

وفرسه مؤدب ، لو أن الله كلفه بالعبادة ، لكان من المتقين :

مؤدّبا لو كان متعبّــــدًا لم يعبد اللّه على حَــرْفِ (٢)

---

* ـ الاعوج : اسم فرس نسب اليه " الاعوجيات " .

(١) الديوان : ٦٦

(٢) نفســـه : ٢٨٠

وهو حساس ، ذكي ، يراجع صاحبه رجع الحنين ، ويشاركه شعوره بالغربة ، ويفهم عليه ، ويتعلم منه معاني الشوق الى الاهل والاوطان :

يُجاذِبُني رجْعَ الحنينِ على السُّرى ... كأنّ له قلباً هناكَ متيَّمَا
ويُطرِبُه سجْعُ الحمامةِ بالضُّحى ... فيلوي إليها عاطفه متفهِّمَا
وما كانَ يدري ما الحنينُ على النّوى ... ولكنني طارحتُه فتعلَّمَا
فما عاجَ بي وجدٌ على رسْمِ منزلٍ ... فأعولتُ الا حنَّ شوقاً فأرْزَمَا* (١)

وابن خفاجة في وصفه للفرس لا يخرج في كثير من معانيه وصوره عما هو معروف ومألوف في أوصاف الخيل في ديوان الشعر العربي ، وان عرضها بأسلوبه الخاص ، مما يجعلنا نظن أن له اطلاعا جيدا في هذا المجال ، حصل عليه عن طريق مطالعاته في ديوان الشعر العربي القديم ، أو عن طريق الكتب المختصة بهذا الشأن . ككتاب الخيل لابي عبيدة مثلا ، وهو كتاب كان معروفا في الاندلس منذ أبي علي القالي ، وكان ابو محمد بن السيد صديق الشاعر ، وبطاستاذه احد رواته (٢) ، ولعله يكون قد اطلع عليه من خلاله ، ولكن الظاهرة التي يمكن أن تلحظ في أوصافه للخيل ، هي اصطناعه لالوان الطبيعة ومعطياتها المختلفة ، واتكاؤه عليها في تشبيهاته واستعاراته ، مما يدل على تمكن الطبيعة من نفسه واستيلائها على احساسه وشعوره .

* الابل :

أغلب الظن أن شبه جزيرة الاندلس ، قد عرفت هذا النوع من الأنعام ، فقد ذكر ابن الخطيب في اعمال الاعلام أن المنصور بن ابي عامر كان له من الجمال المتصرفة في حمل الاثقال

---

(١) الديوان : ١٧٣   * أرزم : صهل .
(٢) فهرسة ابن خير : ٣٨٢

بعة آلاف الا مئة بعسكر كورة تدمير . (١) وهذا يعني أن الجمال كانت مشاهدة
ومعروفة لدى الاندلسيين ، وليست كائنا غريبا عنهم البتة ، وهو نص صريح ،لو وقف عليه
المستشرق الاسباني غارثية غومث لما نفى وجود الجمال في الاندلس قبل معركة الزلاقة
وذلك في قوله : " أقبل يوسف بن تاشفين المرابطي الى الاندلس بجماله معه ،فرعب منها
الاندلسيون ،اذ لم يكونوا قد رأوها قبل ذلك ، جمال في اسبانيا !،لقد تأفرق الأندلس
واصبحت ولاية تابعة للمغرب " (٢) . فهو يؤرخ لوجودها في الاندلس بدخول المرابطين
ولا ندري من أين استقى هذا الخبر ، فالمصادر التي أرخت للوقعة ،وتحدثت عنها بالتفصيل
لم تشر لا تصريحا ولا تلميحا الى وجود جمال في المعركة ، ولكننا ، مع ذلك ، لا ننفي
أن يكون المرابطون قد استخدموها في نقل مؤنهم ومعداتهم ، كما لا ننفي في الوقت
نفسه عن الاندلسيين رؤيتهم للجمال قبل دخول المرابطين على أرض الاندلس ،أو في
المغرب ،عن طريق الاتصال الذي لم ينقطع بين العدوتين منذ الفتح ، هذا اذا كان
غارثية غومث يعني بالاندلسيين سكان شبه الجزيرة عامة ، وأما اذا كان يعني بهم الجيش
النصراني الزاحف من شمال شبه الجزيرة ،فحتى هؤلاء يشك في عدم رؤيتهم للجمال
قبل معركة الزلاقة ،فقد كان المنصور وهو الذي أدخل الى الاندلس ذات العدد الجسيم
من الجمال ،لحاجته اليها في حروبه ،دائم الغارة على الممالك النصرانية في الشمال
كما انشغل هؤلاء ، ومنذ بداية القرن الخامس الهجري ،في توحيد صفوفهم ، وإنهاء
خلافاتهم ، وشرعوا في شن غاراتهم المتوالية على المسلمين في وسط وجنوب شبه الجزيرة
مفترصين ضعفهم وانقسامهم ، وصراعاتهم الداخلية ،فمن المحتمل أن يكونوا قد رأوها
في خلال ذلك ، ولا نستطيع أن نؤاخذ غارثية غومث في رأيه الجازم هذا ،الا اذا تأكد
لدينا أن ذلك العدد الكثير من الجمال لم يتكاثر على مر الأعوام ، وانها انقرضت

---

(١) اعمال الاعلام : ١٠٠

(٢) الشعر الاندلسي : ٥٥

قبل عبور المرابطين الى الاندلس ومعهم جمالهم التي رعب منها الاندلسيون على حد قوله . ونرى أن هذا الكلام لا يعدو أن يكون زعما يعوزه دليل يسنده ، ولعل السبب في الادلاء به لم يكن بهدف تقرير حقيقة تاريخية ، وانما بهدف تأكيد بداوة المرابطين وخشونتهم وعدم تحضرهم . وقد أشرنا ، سلفا ، الى أن ابن خفاجة قد سافر الى المدن الاندلسية ، والى المغرب غير مرة ، ولعله في خلال اسفاره هذه يكون قد رأى الابل ولكن اوصافه فيها لا تتجاوز الاشارة الى أسمائها وبعض صفاتها ، فهو يذكر العيس والوجناء ، والخفاف الدلي ، والمنسم ، في مقدماته الغزلية ، وفي موضوع الحنين والحديث عن البيداء ذكرا سريعا ، فاذا تغزل على طريقة الشريف الرضي ومهيار الديلمي وغيرهما ولهج بذكر اسماء الاماكن النجدية والحجازية على سبيل الرمز ، رأى أنه من الأنسب له أن يركب العيس لا الخيول :

وعُجْتُ المطايا حيثُ عاجَ بيَ الهوى فحيّيتُ ما بينَ الكثيبِ إلى الحِمَى
وقبّلتُ رسمَ الدارِ حبًّا لأهلها ومن لم يجدْ إلاّ صعيدًا تيمّما
وحثَّتْ ركابي والهوى يبعثُ الهوى فلم أدرِ في تيماءَ الاّ متيّما
فما أنا والظلماءُ والعيسُ صحبةٌ ترامى بنا أيدي النّوى كلَّ مرتمى (١)

واذا اشتاق الى المحبوب ، حمل أنفاس الرياح تحيته اليه ، وترجاها أن تلامس دياره وأن تلثم مواطن أخفاف عيسها التي تروح وتغدو بين ربوعها :

ألا ليتَ أنفاسَ الرياحِ النّواسمِ يحيّينَ عنّي الواضحاتِ المباسمِ
وتَرعينَ أكنافَ العقيقِ* بناظرة تردّدُ في أطلالها والمعالمِ

(١) الديوان : ٢٣٧

* العقيق : اسم موضع .

وبلشمن ما بين النّقيب الى البيضى مواطئ أخفاف المطي الرّواسم (١)

واذا تذكر البيداء، وخوفه وصحبه في جنباتها ليلا ، تخيل الليل بحرا متلاطما فيه غرقى وكواكب السماء طافية على سطحه :

فبتنا وبحرُ اللّيلِ ملتطِمٌ بنا نرى الصبح غرقى والكواكبُ عُوّما (٢)

ولكن الصحب ، يتخطفهم الموت ، واحدا بعد واحد ، والايام تسرع بالشاعر الى الشيخوخة ، ممثلا العجز ، والامراض ، والاسقام ، وحيث يجف ينبوع الشباب ، وتجف بوارق المسرات ، فلا يبقى غير المحل ، يلاقيه أين توجه بناقته الشديدة :

فسرتُ وقد أبدَيتُ أرتادُ مرتَعًا فلَمْ تطإ الوَجناءُ* في غيرِ ماحِلِ (٣)

كما يذكر الوجناء ووخدها في سياق الذكرى ، والشوق الى لقاء الممدوح فيقول :

وهل تخدُ الوجناءُ دونَك ليلةً فتُفضي بآمالي إليك سَبيلُ (٤)

وهذه الاشارات ، كما نلحظ ، لا تدل على علاقة قوية بالابل ، وارتباط وثيق بها بقدر ماتدل على أنها ليست إلا رجعا لثقافة الشاعر وقراءاته في ديوان الشعر العربي ، أو أنها لا تعدو أن تكون مجرد أستجابة ، لمقتضيات السياق العام للحديث ، فذكر الاماكن النجدية والحجازية ، والبيد والصحارى ، يقتضي ذكر الابل لارتباطها بها ، وملازمتها لها .

---

(١) الديوان : ٢٥٨

(٢) نفسه : ١٧٣

(٣) نفسه : ٢٦٢

(٤) نفسه : ٢٦٣

* الوجناء : الناقة القوية

* الكــلاب :

عني الشاعر في وصفه الكلاب بكلاب الصيد خاصة ، ووصفه الدقيق لها ، المستغرق لصفاتها الجسمية ، وطبيعتها الحسية ، وحركتها اثناء الملاحقة والمطاردة ، يوحي بأن الشاعر قد خبر عملية الصيد ، ومارسها مرات عدة ، وحده أو مع الأصحاب من أمراء ووزراء وغيرهم . فكلابه منتقاة مدربة ، تمتاز بصفات معينة ، تؤهلها للقيام بدورها في عملية الطرد بنجاح ، كالسرعة ، وقوة الشم ، وحدة النظر ، والطول في القوائم والظهر والضمور في البطن ، والقدرة على الاهتداء الى مكمن الطريدة . والشاعر في وصفه للكلاب يهتم بكل تلك الصفات ، ويضيف اليها صفة اللون التي تذكره بالطبيعة من حوله ، بعناصرها المتنوعة ، فيستعين بها في تصوير كلابه .

فهو يصف لنا مجموعة الكلاب التي صحبها معه في عملية الطرد ، فيرسم لنا صفاتها المادية ، وألوانها وسرعتها ، وحركتها ، فهي كلاب سريعة ، ذات أشداق قوية وأوليـة حادة النظر ، ضامرة البطون ، متلدة الأعناق ، تكشر عن أنياب كأنها النصال ، وتقف على أرجل قوية كأنها قنوات الرماح :

وبكلِّ نائي الشأوِ أشدَقَ أخـــزرٍ	طاوي الحَشا عالي المقلَّدِ ضارِ
يفتَرُّ عن مثلِ النِّصالِ كأنّمـــا	يمشي على مثلِ القَنا الخطّـــارِ* (١)

وهي كلاب ذات ألوان مختلفة ، فمنها الاسود ، ذو الطرف الأحمر الملتهب كأنه الجمرة المتقدة وسط الفحم ، ومنها المورس الضامر ، الذي ينقض على الطريدة كأنه الشهاب ، ويبدو من وراء النقع ، وقد تقوس ظهره لضمور في بطنه كهلال السّرار :

من كلِّ مُسْوَدٍّ تلهّبَ طرفُـــه	ترميك فحمتُه بشُعْلةِ نـــارِ
ومورّسٍ السِّرْبالِ يخلعُ قـــده	عن نجمِ رجمٍ في سماءِ غبـــارِ

(١) الديوان : ٣٥ * رمح خطار : ذو اهتزاز

عبلُ الشُّمور سراتُه* فذاتُـــه ... والنَّخْ يمجّه هلالُ سِـــرارِ (١)

وهي ثار مدربة، تبحث عن القنيص، وتستدل على وجوده بآثاره، إن في الدارقـات أو بين الصخور، ولا يحول ظلام الليل دون قراءتها لأحرف آثار القنيص والاهتداء اليه :

مُستثبتًا أثر القَنيص* على الصَّفَـا* ... والليلُ مُشْتَمِلٌ بشملةِ قــارِ
يستنُّ في سَنَنِ الطَّريق وقد عَفَا ... قدما فيقرأ أحرفَ الآثـــارِ (٢)

وقد يكرر الشاعر هذه الصفات مع تنويع في العرض والتمثيل، متكئا على معطيات البيئـة وظواهرها، فكلبه هذه المرة، خفيف، شديد السرعة، حتى لكأنه يطير بجناحين، لوسابقـه البرق لما لحق به، قوي حاسة الشم، يشم التراب، فتخبره الرياح عن بني الارض، وتهديه الى مكمنها، ضامر، موثق في صيده، لا تفلت منه الطريدة لسرعته وبراعته، ثم يصـل الى اللون، لون الكلب الأسود، ذي العنق الحالق بالبياض، فيوفق في رسم هذه الصورة البيئية الحية، صورة الليل الذي يغمر رأس الكلاب بظلامه الدامس، والصباح الـذي يأخذ بخناقه :

وأخْطَلَ* لو تماري سبق برقٍ ... لكان من النَّجاء به جَنــاحُ
يشوف* الأرض يسألُ عن بنيهـا ... فتخبر أنفَه عنها الرِّيـــاحُ
أقبُّ* اذا انبرت به قنيصـا ... تنكَّب قوسَه الأجل المُتــاحُ
أضلّ* برأسه ليلٌ بهيــم* ... فشدّ على مخنَّقِه صبــاحُ (٣)

ويكاد يعيد ذكر نفس المعاني والصور في المقطوعة التالية، غير انه يمثل للسرعـة هنا بالسيلان، كما يضيف الى الصورة السابقة، صورة القوائم المحجلة، والتي يستمـر

---

(١) الديوان : ٣٥
(٢) نفســه : ٣٥
(٣) نفســه : ٥٤

* ـ السراة : أعلى الظهر ووسطه
ـ القنيص : الطريدة . الصفاة : الصخرة الملساء
ـ الاخطل : الخفيف السريع . ساف : من السوف وهو الشم
ـ الاقب : الضامر البطن . أضل : دفن وغيـب
ـ الليل البهيم : المظلم .

لها ظاهرة طبيعية ، هي البرق ، فالقلب مخلخل ومسوّر بوميض البرق ، ومداوى بنور الصباح :

يجولُ بحيث يخبرُ عن نِصالٍ	مُوَلَّلةٍ وتحطمه رِمـــاحُ
فطوراً يرتقي حَدَبَ الروابـــي	وآونةً تسيل به البِطـــاحُ
يجري شدّاً وللصبح التمــــاعٌ	يُتيحُ جرى، وللبرق التمـــاحُ
فخلّفه وسوّره صبـــحٌ	جرى معه وطوّقه الصبـــاحُ (١)

* الأنعام :

لقد مرّ وصف تورة بلنسية بأنها كثيرة الزرع والضرع ، وهذا يعني أنها عرفت أعـــدادا كثيرة من الأبقار والأغنام ، ولكن مناظر الخصب ، وهي تسرح في البطاح والجبال والسهـــول المخضرة لا يثير في الشاعر أي إحساس بالجمال ، فهو لم يصف سوى الكبش والنعجة ، وحـــتى هذين لم يذكرهما الشاعر إلا في يوم عيد الأضحى المبارك ، حيث يكثر وجودهما في الأســـواق ويقبل الناس لشرائها ، ونحرها في ذلك اليوم ، فقد وصف نعجة سوداء ، وكبشا أملـــح* وصفا عني فيه بظاهر الموصوف ، وإن كان يتكئ على الطبيعة من حيث استعاراته وتشبيهاته .

* الكبـــش :

يصف الشاعر كبشا أملح ، حسن الصورة في بيتين من مقطوعة ، صوره فيهما وســـط نعاجه ، يلاعبهن في حذر وذعر ، وهن يتهادين ويتثنين ، وكأنه أحس بالخطر ، وعـــرف المآل التي سيؤول ونعاجه إليها :

وأملحَ في حشى الطيحاء طلـــعٌ	يلاعبُ ربّاتِ الحِجالِ رَبيـــبُ
تهادتْ تثنّى وهو يذعرُ فالتـــوى	تغيبُ بها وارتاعَ منه كثيـــبُ (٢)

---

(١) الديوان : ١٤٧

(٢) نفسه : ١٥٢

* الكبش الأملح : هو الأبلق بسواد وبياض .

* **النعجـــة :**

وأما النعجة السوداء فقد حظيت من الشاعر بعناية أكبر، فقد وصفها في مشهدين قبل النحر، وبعده وهي تسرّ بمنظرها الرائق على ضفة الوادي الخصيبة، وبين ظلاله الوارفة، يرعاها صاحبها، ويسوقها من مكان لآخر، ويرتاد بها المراعي، ويوردها الماء العذب، منتظراً بفارغ الصبر حلول اليوم الذي ينعم بعافيته، وينال من لحمها، كأنه ذئب في لبوس إنسان، مثل اليهودي لا تدري :

وسوداءَ أمّا نِسبةً فهي نعجـــةٌ ... تروقُ وأما نِصبةً فنجيــــبُ
أقامَ بها ما بينَ ظلٍّ ومـــوردٍ ... مراحٌ ببطنِ الوادِ بيْنَ خصيبُ
أتتْ رابياً الشبا بتنالهـــــا ... ومدّ زاراً الا في الظلامِ حبيبُ
فلفتَ بها تمشي الهُوَيْنَى وإنّمـا ... تمشّى إليها وهي تجهلُ ذيبُ (١)

وأما حال النعجة السوداء وقد خضبها الدم بعد النحر، فتوحي الى الشاعر بصورة الليل الذي يقترن بظلمته حمرة الشفق، كما يوحي اليه مشهد سلخها، بانسلاخ النهار من الليل، كما أن منظرها، وقد كشط السلخ من حمر لحمها، وبان شحمها، يروق الشاعر ويحسن في نظره، ويثير في نفسه شهوة الأكل؛
فهو منظر جاذب، مؤثر، يستهوي القلوب، ويأسر الأبصار :

وسوداءَ تذرّى به محسّـــرا ... كما اعترنَ اللّيلُ تحتَ الشّفـــقْ
وأقسمُ لو مُلّتْ ليلـــــةً ... لصفتُ الكرى واستطبتُ الأرقْ
ستخلعُ من قرّوِها ضحــــوةً ... سوادَ الدُّجى عن بياضِ الفلـــقْ
فيا حسنَ منظرٍ لها أخضـــرٍ ... ومئزرِ شحمٍ عليه يقـــــقْ *
وما رفلتْ في ثيابِ الدُّجـــى ... ولا اشتملتْ برداءِ الغســـقْ *
ولكنْ تسيلُ عليها القلـــوبُ ... هوىً وتذوبُ عليها الحـــدقْ (٢)

---

(١) الديوان : ١٥٢ - ١٥٣ * شحم يقق : شديد البياض ناصعه، الغسق : الظلام.
(٢) نفســـه : ١٥٢

* الارنب :

يصف الشاعر من الارانب ، الارنب الأبد ، فيصوره في شكله العام ، وسرعته ، وحالته أثناء المطاردة ، فهو أملس الأطمار ، أبيض البطن ، حاد السمع ، يراوغ الكلاب التي تطارده ولا يمكنها من نفسه ، يجري حذرا خائفا ، يقفز القفزات البعيدة ، ويهوي أثرها منعطفا كالسوار ، وينطلق مسرعا ، حتى ليبدو كأنه كرة تهاداها الأقفار :

فلربّ روّاغٍ* هنالك أنبطٍ*	ذَلِقِ المسامعِ أملسِ* الأطمارِ
يجري على حذرٍ فيجمع بسطةً	يهوي ، فينعطف انعطاف سوارِ
متقدّ مثلِ الشأو يخبل رائفا	فيكاد يفلتُ أيدي الأقدارِ
مترددا يرمي به خوف الردى	كرةً تهاداها أكفُّ قفارِ (١)

كما يصوره مرة أخرى خائفا ، هلعا ، فارا من الكلب ، يجري بسرعة مذهلة تخاله فيها كأنه يطير في الهواء :

وأطلس مل ُ جانحتيه خوفٌ	لأشوسَ* مل ُ شدقيه سلاحُ
نجا مرتا يطير حِذار طاوٍ	له رِدْنٌ يغصُّ به البَراحُ* (٢)

* الذئب :

من دون شك أن جبال شرق الأندلس كانت مأوى للكثير من الحيوانات المفترسة وعلى رأسها الذئاب التي كانت كثيرا ما يرغمها الجوع على النزول الى البساتين ، والاقتراب من الديار ، وربما الاغارة على الاناسي والانعام ؛ ووصف ابن خفاجة الراتعي لها يوحي بذلك ، فذئبه زوّار ، مناور ، ختال ، غدّار ، لا يطرق ساحات الديار الا ليلا ، ويخبرنا أنه لقيه في عرض المفازة التي جابها وحيدا في ليل شديد الظلمة وأنه طاف به وحاول المكر به

---

(١) الديوان : ٣٥ - ٣٦

(٢) نفسه : ١٤٧

* - روّاغ : من راغ يروغ ، وهو الذي يذهب ههنا وههنا
- الأنبط : الذي في بطنه بياض ، أو الابيض البطن
- الاطلس : في لونه غبرة الى السواد ، ذلق المسامع حادها .
- الشوس : النظر بمؤخر العين تكبرا وتغيظا
- البراح : المتسع من الارض .

ولكن الشاعر لا يستمر في عرض المشهد ، ولا يتابعه إلى نهايته ، فينسى الذئب ، وينصرف بوجهه الى البهدة من حوله ، يصفها ويصورها في فتنة واضحة :

ومفازةٍ لا نجمَ في ظلمائهـــــا	يسْرِي ولا قلبًا بها دوّارُ
قد لقّني فيها الظلامُ وطافَ بي	ذئبٌ يلمّ مع الدُّجى غـــدّارُ
طراتُ ساحاتِ الديارِ مُغـــاورُ*	ختّالُ أبناءِ الدُّجى غـــدّار
يسري وقد نضحَ الندى وجه الصبا	في فروةٍ قد مسّها اقشعـــرارُ
فحشوتُ في ظلماءَ لم تقدحْ بهـــا	الا لقلته وبأسي نـــارُ
ورقلتُ في يَلَقٍ علتّي من الدُّجـى	عقدتْ لها من أنجمٍ أزرارُ
والليلُ يقصرُ خطوُه ولربّمـــــا	طالتْ ليالي الرّكبِ وهي قِصارُ
قد شابَ من طرقِ المجرّة مفرقٌ	فيها ومن خطِّ الهلالِ عِـذار (١)

ويلتقيه مرة أخرى في جوف الليل ، فيصوره لنا في مشهد مرعب ، فهو مغبر الشعر أغبشـــه يتثاءب من شدة الجوع ، ويعوي مشتكيا ، تغريه نفسه بالشاعر ، فيندفع نحوه مكشرا ، ولكنـــه سرعان ما يتراجع خوفا من سطوته وبأسه ، وشرارة لهذه الذي يحكي في وميضه بريق عينيـــه ؛ ويترك ذئبه في حركة مستمرة ، ما بين اقدام واحجام ، وطمع وخوف ، تاركا بذلك مجالا واسعا أمام خيال القارئ أو السامع لاتمام الصورة :

وأطلسَ* زوّارٍ مع الليلِ أغبـــشَ*	سرى خلفَ أستارِ الدُّجى يتنكّـــرُ
تثاءبَ من مسِّ الطوى فهو يشتكي	فيعوي وقد لقّته نكباءُ صرصَـــرُ
ويرونَ آمانيه شرارةُ لهـــذمٍ	يقلّبُ منها مثلها حين ينظـــرُ
فمن جوعةٍ تغريه بي فهو يدّني	ومن روعةٍ تثنيه عنّي فيقصُـــرُ (٢)

فابن خفاجة كما هو واضح ، لم يتجاوز في وصف الذئب الواقع المشاهد ، ولم يتفاعـــل معه على نحو انساني كما هو الحال عند كل من الشنفرى والبحتري ، ولكن ما يمكن ملاحظتـــه

(١) الديوان : ٨٥ - ٨٦

(٢) نفســـه : ١٨٠

* ـ المغاور : كثير الغارة
ـ الاطلس : الذي في لونه غبرة الى السواد . أو هو الذي تساقط شعره ، وهو أخبث ما يكون من الذئاب .
ـ الأغبش : الادلم : هو الذي يخالط بياضه سواد .

في هذا الوصف ، هو صبغة الطبيعة الصامتة بظواهرها المختلفة على ما فيها من تشبيه واستعارة ، فهي الاطار ، وهي مادة التلوين ، هذا اذا لم تستول على احساس الشاعر وتصرفه إليها عما سواها كما في المقطوعة الاولى .

* الحيـــة :

حظيت الحية من الشاعر بوقفة أطول ، فقد صورها في شكلها ولونها ، وحالاتها المختلفة ، مستعينا في ذلك بكل ما وقعت عليه عينه من الظواهر التي تحيط به ، فالحباب وقد بدا أمامه في منحنى النهر يذكره بالفرس ، فيتخيل النهر فرسا له ذؤابة هي الحباب واكفال هي الربا ، كما يذكره الحباب في انسيابه وتثنيه بالثمل السكران المتمايل في سيره ، وبحال شعيرة لينه متطايرة تعطفها الريح هنا وهنا ، كما يذكره في سرعته بالنيزك وفي تهاديه بالهلال ، ويذكره جلده في قوته وملاسته بالدرع ، فكأنه - في تلك الحال درع التي يحاكي أو ثوب موشى نزعه عنه انسان مختال . ثم يستعرض الشاعر حال الحباب حرا وقرا ، فهو اذا اشتد عليه الحر امتد ، وتثنى في سهولة ويسر كأنه السوط الخافق واما اذا احس بلسعة البرد ، فانه يستدير حتى يصير كالخلخال ، وقد وفق الشاعر في تشخيص صورته ، وتحريك اجزائها ، عندما تصور أن للهاجرة يدا تلوح بسوط هو الحباب ، وان لليلة القر ساقا اتخذت من الحباب خلخالا ، ولكن الشاعر لا يقف عند هذا الحد ، وانما يتابع الحية في حالاتها المختلفة ، في نظرها اليه بعينين تقدحان شررا ، ثم في اندفاعها نحوه كأنها السيل المزبد ، وهناك شيء ملفت للنظر في هذا الوصف ، هو ذلك الاطار الطبيعي الملئ بالحركة والحياة ، فمياه النهر تجري ، محركة الحصى ، ومحدثة أصواتا كأنما قام بينها جدال . والغصون تتحرك بفعل ريح الشمال فيلامس بعضها بعضها ، ويشتبك بعضها ببعض كأنها أطراف متنازعة ، وهو بهذين التشبيهين اللذين أوحت اليه بهما بيئته العلمية والاجتماعية ، يخلع على الطبيعة ما في اعماقه من احساس بالصراع فالغصون تتنازع ، والمياه تتجادل ، وكأني به في هذا ، يهيء الجو النفسي الملائم الموحي بالحية ، والممد بمعاني القوة والغلبة ، التي تفيده في موقفه ، في ملاقاته الحية

...ه معها ، ومكافحتها بسيفها الاخضر ، الذي يحكيها شكلا ورقشة :

ووراءَ سَفّانِ النِّجادِ ضُبارِمٌ* ... يسري به خلفَ الظلامِ تَخَيّالُ
ألقى العصا في حيث يعثر بالعصى ... نهرٌ وتعبثُ بالغصونِ شمالُ
فكأنما بينَ الغصونِ تنازعٌ ... وكأنما بينَ المياهِ جِدالُ
وأربَّ يبرد من حشاه مُكَرَّعٌ* ... خَصِرٌ* يُسَحُّ وتلعةٌ مِخْضالُ
ما بين عِطفَيْ جدولينِ كأنما ... بسطت يمينٌ منهما وشمالُ
مثل الحباب بمنحناه ذؤابةً ... فتناعمت الربا أكفالُ
وانسابَ ثانيَ عِطفِهِ فكأنه ... هيمانُ نشوانٌ هناك مُذالُ
أو ظلَّ أسمرَ باللونِ متأطر ... عطفت جنوبٌ متنَه وشمالُ
فلم أدرِ هل يزهى فيخطرُ نخوةً ... أم لا عبثت أعطافَه الجريالُ*
فإذا استطار به النجاءُ فنيزكٌ* ... وإذا تهادى فالهلالُ هلالُ
زُرَّتْ عليه حبيرةٌ موشيّةٌ ... يَقتليه أختٌ لها أسمالُ
مرّت كما يحتثُّ في يومِ الوغى ... عن لبّتَيْ مستلئمٍ* سربالُ
فكأنما ألقى هناك دروعَه ... بطلٌ وجرّد وشيَه مختالُ
بيدِ الهجيرةِ منه سوطٌ خافقٌ ... وبساقِ ليلةِ قرّةٍ خلخالُ (١)

ثم يستمر في الوصف ، فيصور المعركة التي خاضها مع الحية بسيفه الذي يحكيها رقشة
...طرا ، ويستسلم لمخيلته ، فتتداعى الصور أمامه ، وتكثر وتتنوع ، وهو تصوير يستغرق
...ه الشاعر صفات الحية من حيث شكلها وحالاتها ، مستعينا على ذلك بما يحيط به من
...اصر الطبيعة المتنوعة ؛ وابن خفاجة ، وإن اتكأ في وصفه هذا على الموروث مما قيل في الحية
...ن شعر ، إلا أنه أجاد في العرض ، وأحسن التوليد في المعاني والصور ، وتوغل في ذلك
...ى درجة الغموض .

---

(١) الديوان : ١١٩

- الضبارم : الأسد ، والرجل الجريء على الأعداء . المكرع
الخصر : الماء البارد ، أرب : أقام ومكث ، الحباب : الحية
الجريال : الخمر . النجاء : الهرب والخلاص ، النيزك :
الرمح القصير ، أو أحد أقسام الشهب المتساقطة ،
الحبيرة : البرد ، المستلئم : لابس اللأمة ، وهي الدرع

ـو النحلـــــة :

واما الحشرات الطائرة ،فلم يصف منها الشاعر غير النحلة ، وحتى هذه لم يصفها لذاتها ، إنما جاء ذكرها في معرض وصف شهدة أهديت اليه ، حيث نوه بجهد النحلة وسعيهـــا جوبها الارض برياها وشعابها ، حيث ترشف من رحيق الازاهير ، وتغشى انواع الثمــار تعالى في آخر الدلال ،نتاجا طيبا فيه شفاء للناس :

للّهِ ريقــــــــةُ نحلـــــــلِ	رَعَتِ الرُّبا والشِّعابـــــا
وجابت أرضاً فأرضـــــا	يغشى هضاباً فهضابـــا
حتى ارتوى من شفــــاءٍ	يجنى منه رُضابـــــا
ان شئتَ كان طعامـــــاً	أو شئت كان شرابـــا (١)

ـو الطيــور :

لم يستغرق ابن خفاجة في وصفه الطيور كل ما عرفته بيئته منها ،فقد وصف الحمـــام إنواع الطيور المغردة ، والقطاة ، والبازي ، واشار في مجال التشبيه والاستعارة الــى الظليم ، ولا ندري ان كان رآه في الاندلس أو في اثناء سفره الى عــدوة المغرب ، وذكــر الطاووس ، والغراب ، والعقاب أيضا . ولكن فتنته بالحمام والطيور المغردة عامة كانــت كبيرة . فهو لا يفتأ يصورها في شعره ،إما ساجعة ، مغردة ،تبعث على الطــــرب الاستمتاع ،أو نائحة باكية ،تبعث الأسى والألم وتذكي نار الحنين ، وتهيج الشوق فـــي عماق القلوب .

---

(١) الديوان : ٣٧٥

* الحمام :

لم يفرد الشاعر الحمام ، بكل أنواعه وأشكاله ، بالوصف الا في مقطوعة واحدة ، ولكنه أكثر من ذكره في درج الاغراض الأخرى من رثاء ، وحنين ، وغزل ومدح ، ومجلس أنس وهو في ذكره له ، لا يعنى بصفاته المادية المنظورة الا في النادر ، وانما يوجه أكبر عنايته الى صوته ، وغنائه وشدوه ، الذي يؤوله تبعا للحال الشعورية التي يكون عليها ! فهو اذا شعر بنشوة الحياة ، وأحس بالفرحة تملأ كيانه ، خلع مايحس به في أعماقه على الحمام فصوره شاديا ، مغنيا ، مترنما ، ساجعا ، تطرب الشجرة لتغريده ، فتهتز له وتنثني وربما نثرت عليه نورها معبرة بذلك عن تأثرها ونشوتها (١) .

ولكنه اذا أحس بثقل الحياة ومتاعبها وأحزانها ، وشعر بآلام الغربة زمانا ومكانا نظر الى الحمام من واقع هذا الاحساس ، فجاءت صورته مناقضة للاولى ، فهو ينوح بعد غناء ويبكي بعد فرح ، ويذكي لواعج الهوى ، ويهيج الإحساس بالآلام والأحزان ، بعد أن كان يوحي بغنائه وهديله بمعاني الفرح والانشراح للحياة ، فالحمائم تؤثر في نفسيته الرقيقة بهديلها ، فيطرب لها ، ويستعيد لسماع اصواتها الشجية ذكرياته بما فيها من أفراح وأتراح :

ألا أطربتني والنعيمُ طروبُ	حمائمُ تبكي والبكاءُ ضُروبُ
لها خلفَ أستار الظَّلام مآتمٌ	تُمزّق فيها للقلوب جُيُوبُ
ستُحسنُ وعهدي بالهوى متقادمٌ	فما ودّ شجوي والخطوبُ تنوبُ (١)

وقد يشوقه الحمام بسجعه ، ويذكره بماضيه السعيد مع الأحبة ، فيشتد به الحنين اليهم ، فيبكي كما يبكي الحمام ، ويعيشانها لحظات تغمرها فيها احساسات وجدانية واحدة

---

(١) الديوان : ٨٢ ، ٢٥٤ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٣٦

(٢) نفســـه : ٢٩٨ - ٢٩٩

ويشعران في ظلها بشيء من التقارب والوحدة ، حتى إنه ليصعب التمييز فيها بينهما :

وما شاقني الاَّ عفيف أراكـــةٍ وسجْعُ حمام بالغميم ترنّمـــا
وحسْبُك من صبٍّ بكى وحمامـــةٍ فلمْ تدرِ حقَّاً أيُّها الصَّبُّ منهُمَـــا (١)

وهذه النظرة الى الحمام ، قد تدفع الشاعر الى الاحساس به على نحو أعمق ، فيستعيره بعض صفاته ، يفصح بها عما تنطوي عليه جوانحه من شدة الشوق وحرارة الحنين الى صديقه البعيد عنه ، فالحمام يشوقه في حديثه ، فيهتز لذكره ، وتخفق أضلعه لذلك خفقان الحمام الأورق بجناحيه :

ويهيّجني نفَسُ النّسيم اذا سَرى ويشوِّقني فيكَ الحمامُ الأوْرَقُ
خفقَتْ لذلك أضلُعي فكأنّ لــي في كلِّ جانحةٍ جناحًا يخفق (٢)

والشاعر اذا اشتد به الحزن ، وأرّقته الذكرى ، فاشد الحمام أن يطارحه شجوه وأحزانه لعله يجد في ذلك بعض التخفيف لما يحسه به من آلام وأشجان :

ألا ساجِلْ دموعي يا غمَـــامُ وطارحْني بشَجْوِكَ يا حَمَـــامُ (٣)

ولكن هذا الإحساس بالحمام يتروج بعدئذ ، فتارة ينظر اليه على أنه مثل أعلى في رقة الاحساس ، وصدق العاطفة ، وحرارة الشوق ، فيقيس عليه نفسه ، مبينا بأنه لا يقل عنه إحساسا وشعورا :

فما بِتُّ أبكِي بالعَراءِ مرنّـــةً تُنادِي هديلًا قد أضلّتْه نائحــا
وتَنْدُبُ عهداً قد تقضّى برامـــةٍ* وذكرًا باكنافِ المشَقّرِ خاليـــا
بأخفقَ احشاءً وأنْدى حشيّـــةً وأضْرمَ أنفاسا وأندى مآقيــا (٤)

---

(١) الديوان : ٢٣٦
(٢) نفســه : ٢١٢
(٣) نفســه : ٦٤
(٤) نفســه : ١٩٩ - ٢٠٠ * - رامة : اسم موضع ، والمشقر مثله .

وينظر اليها طورا آخر ، من منطلق نفسيته التي استبدت بها الهموم ، وتناوشتها الالام والاحزان ، فيصوره دونه في الاحساس ، فهو يندب صحبه الذين قضوا نحبهم ، ويحكمهم في شجو لم يعرفه الحمام :

وأندب أشجى رنةً من حمامـــةٍ وأبكي فأقضي من ذِمامٍ رِمـــامِ* (١)

واذا تغنى الشاعر بآلامه واشواقه ، ولوعته وحرقته ، وتغنى الحمام منه موقف التلميذ من معلمه ، يتعلم منه ويفهمه :

وسمعتُ أنَّ بِ لوعةً ولَوَنَمــــا صدقَ الحمامُ بحبهني فتعلَّمــا (٢)

ولكن هذا الاحساس الوجداني بالحمامة يفتر عندما ينظر اليها الشاعر بعقله لا بقلبه فيقارن فيما بين مظهرها ومخبرها ، متهما اياها بالتناقض والكذب فيما تدعيه من شكوى الفراق ، والحنين الى الإلف والمحبوب ، اذ لو كانت صادقة في ذلك لما جاوبها من كل ناحية إلف ، ولما خالف مظهرها الحزين الموحي بالفرحة رنة صوتها الشجي الحزين :

وهاتفةٍ في البَانِ تُملِي غرامَهـــا علينا وتتلو من صَبَابتها صُحْفَـــا
عجبتُ لها تشكو الفراقَ جهالـــةً وقد جاوبَتْ من كل ناحيةٍ إلفَـــا
ويشجِي قلوبَ العاشقِينَ أنينُهـــا وما فهِمُوا مما تغَنَّتْ به حرفَـــا
ولو صدقَتْ فيما تقولُ من الأســى لما لَبِسَتْ طَوْقًا ولا خَضَبَتْ كفّـــا (٣)

وهو وصف يعتمد الشاعر في رسم بعض صوره على معطيات بيئته العلمية والاجتماعية فيذكر تلاوة الصحف ، وفهم الحرف ، كما يذكر الطوق ، وخضب الكف ، وهما ما تتزين به المرأة في أيام الافراح .

---

(١) الديوان : ٥٣ .
(٢) نفســه : ٢٨٣
(٣) نفســه : ٣٧٠

* - الذمام : الحق والحرمة . الرمام : جمع رمة : العظم البالي

* الطيور المفردة :

نفس ما قيل عن الحمام ، من حيث علاقة الشاعر به يمكن أن يقال عن الطيور المفردة فهو لم يعن باشكالها ، واعتنى باصواتها ، فجعل منها عنصرا رئيسا في روضياته وربط بينها وبين الشجر برباط وثيق ، فهي تطربه بغنائها ، وتشنف سمعه برجع ألحانها كما أنه في وصفه لها لا يذكرها بأسمائها الا مرتين ، ذكر فيهما المكاء ، والعصفور ، واما فيما عدا ذلك ، فان ذكره لها يأتي عاما ، كأن ينعتها بالطائر ، أو الطير ، أو الطيور ، دون تحديد ، وقد مرّت معنا صور كثيرة منها في هذا المجال (١) .

* القطـــاة :

وصف الشاعر القطاة مرّة واحدة في شعره ضمن قصيدة مدح ، وفي سياق الحديث عن الصيد ، وقد وهم هنري بيريس (٢) عندما ظن أن الشاعر عنى بوصفه هذا النعامة (Autruche) لا القطاة (Ganga) ، وذلك لان الصفات المادية التي ذكرها الشاعر تنطبق على القطاة لا على النعامة التي لا تنفي أن يكون الشاعر قد رآها ~~لان الصفات المادية التي ذكرها الشاعر تنطبق على القطاة لا على النعامة التي لا تنفي أن يكون الشاعر قد~~ في الاندلس أو في اثناء سفره الى المغرب ؛ فالقطاة قصيرة الساقين قصيرة المنقار ، متقاربة الخطا ، فهي توصف ، لذلك ، بحسن المشي ، وتتميز ، فضلا عن ذلك ، باستطالة ودقة ريشتين من ذنبها تكتنفان الذنب ، كما تمتاز بقوة جناحيها ، وسرعة طيرانها ، وتعيش في صحراء افريقيا وآسيا متنقلة من مكان لاخر في شكل أسراب كثيرة العدد بحثا عن القوت والماء . وقد عرفت منطقة البحر الابيض المتوسط ، وجنوب فرنسا ، أحيانا

---

(١) الديوان : ٦٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٢٣٦ ، ٣٦٤

(٢) La Poesie Andalouse. P ; 245

نوعا منها يدعى القطا الكدرية (Gangas catas) (1) . وابن خفاجة في وصفه لها يذكر بعض هذه الصفات ، فهي خضيبة ، شديدة السرعة ، قاصرة الخطا ، تختال في مشيتها ، كأنها فتاة تجر خلفها فضل إزارها ، وهي مخضوبة المنقار ، كأنما كرعت في كأس من الخمر ، ثم يجهد نفسه لغرض البديع ، فيصورها في حال من الرعب والهلع شديدة ، فهي في حركة مستمرة ، وحذر دائم ، لا تأمن في ليل ولا نهار ، ولو أنها استجارت بصقر وهو مما تخاف لأجارها ، ولوجدت في كنفه حماية وأمن واستقرار :

ولربّ ليّارٍ خفيفٍ [illegible]   [illegible]ـــارِ

من كل قاصرة الخطا مختالــــة   مشي الفتاة تجرّ فضـــل إزار

مخضوبة المنقار تحسب أنّهـــا   كرعت على ظمأٍ بكأس عقـــار

لا تستقرّ بها الأداحي خشيـــةً   من ليل ويلٍ أو نهارِ بـــوار

ولو استجارت منهما بصقر أبـي   يحيى لآمنها أعزّ جـــوار

حرم إذا اشتمل الطريد بإلّــه   لم يخش من جور منال بجـــار (2)

* الطيور الكاسرة :

وأما الطيور الكاسرة فلم يصف الشاعر منها إلا قليلا فقد خص البازي منها بقطعة نثرية (3) ، أجمل فيها صفاته وخصائصه ، كما وصفه بثلاثة أبيات من قصيدة مدح ، لخص فيها ما ذكره في القطعة النثرية من خصائص وميزات ، وذكرت العقاب (4) ، والنسر (5) ذكرا سريعا لم يحفل بصفاتها الجزئية .

---

(1) نهاية الارب : ١٠ : ٢١١ - ٢٦٢) الموسوعة في علوم الطبيعة : : ٣٠٤
Le grand Larousse t . 5 . P : 359.

(2) الديوان : ٣٦

(3) نفســه : ٥٤ - ٥٥

(4) نفســه : ٢٥

(5) نفســه : ١٣٦

* البازي :

نجد من وصف الشاعر للبازي أن هذا الطائر كان ، الى جانب الكلاب ، من الوسائل المهمة المستخدمة في عملية الطرد ، التي كان يقوم بها الاندلسي من حين لآخر ، ومن هنا كانت العناية به كبيرة ، فكان يروض ويدرب على الصيد تدريبا يؤهله لأداء عمله بنجاح . والشاعر في وصفه له يعنى بمظهره ، كما يعنى بصفاته الاخرى ؛ فهو سريع الطيران ، لا تفلت منه الطريدة لشدة سرعته ، قوي الجناحين ، مورد الاظفار ، موشى الريش ، أحمر الاجفان كأنما لف على اطرافه حبيرة ، او اكتحل بنضار ، موثق في سجنه ، فلو رمي به الأمل القصي لرجع ظافرا ، مخضوب المنقار والاظفار :

طرق القنيص بمثل تبد طريدة   زجلِ الجناح* مورَّدِ الأظفارِ
ملتفة أطرافُه* بحبيرةٍ*   مكحولة أجفانُه بنضارِ*
يرمى به الأمل القصيّ فينثني   مخضوب راء الظفر والمنقارِ (١)

هذا عن الطبيعة الحية في شعر ابن خفاجة ، وهو كما رأينا ، لم يحفل بها عنايته بالطبيعة الصامتة تلوينا وتنويعا ، ولم يعقل منها الا ما له علاقة به ، أو بالطبيعة الصامتة التي أحبها من كل قلبه ، كالفرس ، والطيور ، فوصفها وصفا شمل صفاتها المادية ، من لون وصوت وحركة ، مستعينا في ذلك بما يحيط به في الطبيعة من ألوان وأشياء .

ولم يقف الشاعر في وصفه عند هذا الحد ، بل تجاوزه الى ما صنعته يد الانسان من سلاح ، وبناء ووسائل حضارية متنوعة ، فوصف الكثير منها في عناية واعجاب .

---

(١) الديوان : ٣٥

* - زجل الجناح : أي ذو صوت وجلبة . الأطراف : الجوانب . الحبيرة ، من البرود : الموشى المخطط . النضار : الذهب الخالص .

الفصل الثامن

في
الاشياء المصنوعة

لقد سلف القول ان الاندلس قد بلغت في القرنين الرابع والخامس، وما بعدهما، مستوى حضاريا راقيا، تعددت فيه ضروب النشاط الفكري والاقتصادي وتنوعت، فبنيت المساجد والقصور وشيدت الجسور والمباني المستلفتة بهندسة دقيقة وعلمية متقنة، وازدهرت صناعة الزجاج والنحاس والحديد، ومواد البناء، والنسيج بانواعه، ومواد الكتابة وغيرها، وأخرجت في صور جميلة تشهد لصانعيها بالبراعة وحسن الذوق (١). وابن خفاجة، وهو ابن اندلس القرنين الخامس والسادس، ابى الا أن يخلد بشعره بعض معالم حضارتها ووسائل تمدنها، فوصف الدار والقصر، والحمام والسفينة والقراب والمداد والقلم، والزجاجة والكأس، والخاتم والياقوتة والموقد والشمعة والسراج، كما وصف من وسائل الحروب: السيف والرمح، والقوس والسهم والدرع، ودنو الهيجاء واللواء وغيرها، وهي موصوفات، كما سنلاحظ، متفاوتة من حيث عناية الشاعر بها ووقوفه عندها.

* وصف السلاح :

لا شك في أن تفشي الحروب بسبب كثرة الفتن والصراعات فيما بين دول الطوائف أو فيما بينها وبين نصارى شمال شبه الجزيرة قد يجعل الاندلسي يفكر تفكيرا جديا في الوسائل التي يدفع بها عن نفسه الاخطار المداهمة في الليل والنهار، فأخذ يهتم بها، ويحرص عليها حرصه على أي شيء عزيز لديه، وما بناء الحصون والقلاع، وتسوير المدن بالاسوار العالية الا سعي منه وراء الامن والاستقرار اللذين قلما توفرا في ذلك الحين. كما أننا قلنا كذلك لا بد من أن تكون سوقا رائجة لا تزال الاسلحة المتداولة من سيوف ورماح ودروع وغيرها ...

---

(١) انظر هذا البحث : ١٥ - ١٦

بل ونجد من أوصاف ابن خفاجة فيها أن السيف كان يرقى الى مرتبة الصاحب لضرورته
صه ، وهي علاقة قد تنقل السيف من جو الحرب ، الى جو المتعة الجمالية ، فيحلى
ين ، ويختم ويزركش ، استجابة لذوق الحضارة ومستوى التمدن .

السيف :

يرد وصف السيف في شعر ابن خفاجة في معرض الفخر والحماسة ، وغرض المدح وما
زمه من وصف شجاعة الممدوح وبأسه ، وعزمه ونجدته ونصرته ، فيشبهه به في بياضه
ألقه وحدته ومضائه ، ولأن هذا لم يمنع الشاعر من افراد السيف بالوصف في بعض
مقطعات ، فسيفه سيف منقوش ، مزركش ، صافي النصل ، يتألق ضياء ، كأنما جمد بمتنه
دير ماء ، أو كأنه أشبه ما يكون بالشجاع عند ملاقاته به ضاربا اياه :

فدرأت بادرة الشجاع بأخضر ... في رقشة هو للشجاع مثال
يقد الغدير بمتنه ولربما ... أعشاب إفرنده * له سيال
وجمعت بين المشرفي * وبينه ... فتلاقت الأشباه والأشكال (١)

وهو اذا سافر كان السيف أنيسه واخا غربته ، يعاونه في تحقيق مطلبه ويدرأ به الاخطار
فهو لذلك يتفاءل به فيرى في بريق إفرنده سنى برق اليمن المؤذن بالخير والخصب :

و وظاهرني بمفترس حسام * ... أنست به ونعم أخو الغريب
أشيم به سنى برق يمان ... يخفق إلى المرعى الخصيب (١)

وقد تقوى علاقة الشاعر بسيفه الى درجة يرى فيه صورة محبوبه ، فيبيت ليله مضاجعا
له ومعانقا جاعلا من نجاده ذراعين يطوق بهما عنقه :

---

(١) الديوان : ١٢١

(٢) الديوان : ٩٢

* - الشجاع : نوع من الحيات ، إفرند السيف : وشيه وأثره
- المشرفي : منسوب الى المشارف ، وهي قرى من أرض العرب
- الحسام : السيف القاطع .

فبتُّ ولا غيرُ الحسامِ مضاجعٌ ... ولا غيرُ ظهرِ الأعوجيِّ* مهادُ
معانقُ طولٍ لا يُغلُّ وإنما ... كأنّ ذراعَه عليّ نجادُ* (١)

ويغازله لأنه رأى فيه وقد لونه الدم بحمرته لمى شفة محبوبه :

ولكنْ على عهدِ السلوِّ يشوقني ... حسامٌ تغنّى لأوهام ترنّما
أغازلُ من عَضْبٍ أثيرٍ مُبتّلا ... ومن علَقٍ عَبْلٍ بمَضْربه لَمَى* (٢)

والسيف لبياضه وتألقه يذكره بنجم الليل فيشبهه به ، فهو يتألف من فرسه الأشهب وسنان رمحه ، ونصل مهنده ثلاثة أنجم ، تنير له الدرب ، وتحميه من كل خطب :

وظلامِ ليلٍ لا شهابَ بأفقه ... إلا لنصلِ مهنّدٍ أو لهذمِ*
أطلعتُ منه من سنانٍ أزرقٍ ... ومهنّدٍ عضبٍ ثلاثةَ أنجمِ
إن يحتفز ليل الصباح تستتر ... أو يحترق شهلانُ نجمٍ ترجمِ (٣)

وقد يشبهه كذلك بالجدول ، فيتمثل الفارس المجندل على أرض المعركة ، وقد توسد نصل سيفه صريعاً معفراً ، مستلقياً على شاطئ جدول جار :

موسّداً فوق نصل السيف تحسبه ... مستلقياً فوق شاطئ جدولٍ ثملا* (٤)

وقد يتصور الفتى فرساً أدهم أغر محجلاً ، ولكن يبرين أسنة الرماح ونصال السيوف :

---

(١) الديوان : ١٣٣
(٢) نفسه : ١٧٢
(٣) نفسه : ٢٤٤
(٤) نفسه : ٢٠٦

* ـ الاعوجي : ضرب من جياد الخيل تنسب الى أعوج حصان لبني هلال ، نجاد السيف : حمائله
ـ عضب : قاطع ، الأثير : معدن ، العبل والعبيط : الدم الطري .
ـ المهند : المطبوع من حديد الهند .
اللهذم : سنان الرمح
ـ الثمل : السكران

والنقعُ أدهمُ للرماحِ بروجِهِ ... غُرَرٌ تلوحُ وللسيوفِ حُجُولُ (١)

كما يذكره بريقه وتوهجه بالنار المضطرمة ، واللهيب المشتعل فيستعير من ذلك :

وحسامٍ بكفِّ أشوسَ* أبيضٍ ... في الدُّجى ماءٌ وأعينُ نارُهْ (٢)

ويشبه جمع العدا ، وقد استأصلت بيضُ السيوف شأفتهم ، بهشيم قد أضرمت فيه النار فهي تلتهمه التهاما :

وقد غصَّ الفضاءُ بجمعِ قومٍ ... وأقفرَ بالحدِّ والى النَّقيبِ
وما جمعُ العدا الا هشيمٌ ... وما بيضُ السيوفِ سوى لهيبِ (٣)

وقد يستنجد ثقافته الفقهية في تصوير ماء سيفه وصفائه ، فيستعير له صورة الحاج في حاله محرما ومحلا فيقول :

ترى الإثرَ* منه كلما كان مغمدًا ... مُحِلًّا ، وتلقى الصارمَ العضبَ مُحرِمًا (٤)

ويصف بلدته - (بلنسية) - قبل استرجاعها من أيدي النصارى بأنها كانت جنبا ، وأنه لم يكن يجزئها في طهارتها ، ولم يكن ليبيح غسلها مما هي عليه لو لم تستخدم ماء السيف مغتسلا لها :

فطهَّر السيفُ منها بلدةً جُنُبًا ... لم يُجزِها غيرُ ماءِ السيفِ مُغتَسَلا (٥)

وسيفه سيف قاطع ، مرهف النصل ، لا يخيب حامله ، يكاد لخفته وحدته ، يمضي فيفتت

---

(١) الديوان : ٢٥٥
(٢) نفسه : ٢١١
(٣) نفسه : ٩٣
(٤) نفسه : ١٧٢
(٥) نفسها : ٢٠٩

* - النقع : الغبار
الأشوس : الكمي الجري
- الإثر : الفرند

... فهو حامله

العدا وهو لم يزل بعد في غمده ، ثم يزيد الوصف حيوية عند ما يشخص السيف ، فهو لذلك يهتز في كفه

مجاور حامله فيبشره بالنصر ، وكأنه أيقن بنهاية المعركة لصالحه ، فهو لذلك يهتز في كفه

منتشيا :

وأبيض عضب ما انتضى صاحب ... فناد ولم يشتكِ بحبي فيفتين

يبشره بالنصر إرهاف نصله ... فيهتز في كف الكمي وينخشك (١)

ويوحي بريقه ، ومضائه ، وسرعة فتكه بالعدا واصطباغه بدمائهم بحكي جذلان قد تناثرت

دموعه من شدة الفرح وكثرة الضحك :

ومرقرق الإفرند يمضي في العدا ... أبدا فيفتي ما أراد وينسف

وكأنه والنار تضحك فوقه ... جذلان يبدي للسرور ويضحك (٢)

كما أنه في سطوعه كالشهاب ، وقد خضب نصله بالدم يحكي عند الشاعر ثغرا ملطخا

بحمرة السواك :

لله أي شهاب بأس سابح ... أثنى ظباه أي يوم عبرات

فكأنه والنصر خضيب نصله ... ثغر عليه حمرة السواك (٣)

ويجمل الشاعر معظم ما لحقت به السيف من صفات في مقطوعة شعرية أفردها له ، يشبهه

فيها في رهافته وانصلاته ، بلسان النار ، وفي بريقه من خلال الضجاج بشعلة البرق ، وفي تلهبه

وسرعة حركته وراء النقع بالكوكب المضي ، كما يشبهه في فتكه بالأعداء وإهلاكهم بالنار الموقدة

ولكن بما ورد نصله ، وتلألؤ ضبائه بجمانة بيد وللسان وكأنها غرن غدير في متنه أو كأنه الثلج

بياضا وتألقا ، وهو أمر يجعل الشاعر يتصور أن معجزة خارقة قد تمثلت فيه ، فقد اجتمع فيه

النقيضان :

---

(١) الديوان : ٢٧٠

(٢) نفسه : ٢٧٠

(٣) نفسه : ٢٦٩

الثلج والنار ، وامتزجا وتآلفا بكيفية تثير الحيرة والدهشة في آن :

ومهند كلسان النار منصلت	يشفي من النار أو يشفي من العار
تجال شعلة برق منه طائرة	في عارض من عجاج الخيل سوار
يغيض فيه وراء النقع ملتهبا	كما تصوب يجري كوكب سار
يغشى فتقرق نار فيه موقدة	تحت بحرق ماء فوقه جار
فما تألق إلا للثمين منصلت	سبحان جامع بين الثلج والنار (١)

وهي صور - كما نلحظ - أكثرها معروف مألوف ، ولكن نظره الى السيف من خلال الأبعاد يجذب انتباهنا للكثيرة بأد وواضح ، كما أن تمثيله للسيف في بياضه وتألقه بكتلة شمعة يخترق في غمرتها الماء الجاري تمثيل فيه طرافة وتوليد .

* الرمح :

يقترن وصف الرمح - غالبا - في شعر ابن خفاجة بوصف السيف ، وخاصة عندما يصف المعركة أو يفخر بحماسته وشجاعته ، وقد مرت معنا صور منها ، وهو في ذكره لها ينسبها الى أصولها المعروفة ، فهي رماح ردينية ، وسمهرية ، وخطية ، ويصفها بما توصف به في العادة ، فهي سمر وعزال وقنا ، والرمح عامل وسنان وخطار ، فما قاله فيها ، وهو قول يلمح فيه استيلاء الابيهة والطمأنينة على نفس الشاعر ، فهو ينظر الى الرمح الملقى على الدرع ، فيرى الدرع نهرا ، والرمح ثعبانا ساكنا عليه ، قوله :

ثم ألق إلا سعدة نرق لأمتي * فتلقى ثعيبا قد أطل على نهر (٢)

كما يصف الرمح بمقطوعة من أربعة أبيات ، شبهه فيها في سمرته ، وسنانه الأزرق اللامع بالشهاب المتوقد ، واستعار لتصوير قوة تأثير وسرعة نفاذه فعل الذرى في العيون ، والحزن في القلب ، ثم يرسم للرماح - بعد ذلك - صورة وسط المعركة ، حيث يصور الوغى بحرا

---

(١) الديوان : ٢٧١
(٢) نفسه : ٢٤

* - الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك ، اللأمة : الدرع .

ون الممدوح أمواجه والعوالي زبده فقال :

وأسمر يلحظ عـــــن أزرق ... كأنه كوكب رجم وقـــــد
يختطف العين اعتطاف الكـــرى ... منتحي القلب انتحاء الكمــد
حيث الوغى بحر وبحر الأســى ... موج وخرصان العوالي زبــد (١)

ولكن الشاعر قد يتجاوز هذه النظرة الحسية ، الى الاحساس بالموصوف والتفاعل معــــه
عند ما يصور رمحه مشاركا له في أحزانه وآماله وأشواقه ، يشتاق لاشتياقه ، ويهتز لاهـــتزازه
ويتأثر كما يتأثر ، حتى انه ، وقد اشتبها شحوبا ونحولا ، يصعب التمييز بينهما :

ومثقف لدن المهز يشوقــــه ... ما شاقني فإذا اهتززت تأطـــرا
وقد اشتبهنا سمرة ونحافــــة ... فلو التفت لما عرفت الأسمـــرا (٢)

* القــــوس :

يصف الشاعر القوس في مقطوعة من بيتين وصفا حسيا يستمدين فيه بما حوله من عناصر الطبيعة
الحية والصامتة ، فهو يشبه القوس في انعطافها وتلويها ، وسهولة انثنائها حال الرمي بهـا
بالحية المنسابة ، كما يشبهها في تقوسها وانطلاق السهم منها بهلال قد انقض منه شهاب :

عوجاء تعطف ثم ترسل تـــــارة ... فكأنما هي حية تنســـاب
وإذا التقت والسهم منها خـــارج ... فهي الهلال انقض منه شهاب (٣)

* الـــدرع :

وأما وصفه للدرع فحسي أيضا ، يتكئ فيه على الطبيعة من حوله ، فهو يشبهها في صفائهـــا
وبريقها بالغدير الدافق :

---

(١) الديوان : ١٣٤
(٢) نفســــه : ٢٥٦
(٣) نفســـه : ٣٦١

يقصدنا عن بيان تهيب طَفْا ... فهو من درع غديرٍ جَمِد (١)

وجبال عرمرم فيه لأمة* ... قد قام منها في غدير جامس* (٢)

ويصور لنا حال ممدوحه في القتال ، وقد اعتصم بدرع حصينة ، وتقنع الحديد فيقول :

وخضراء تزرى بالسنان حصينة ... ووجه وقاه بالحديد مقنع (٣)

كما يشبهها في لونها الاخضر وقد لبسها الفارس الكمي وكرّبها ببحر متلاطم يصدم الجبال بأمواجه القوية :

قد كرّ في لأمةٍ خضراء تحسبها ... بحراً يلاطم من أعطافه جبلاً (٤)

ثم ينتقل ببصره من الأرض الى الفضاء ، ومن الطبيعة الصامتة الى الطبيعة الحية يرسلها وراء الشابهات ، فيرى في الغمامة وفي جلد الحية ، شبهها بصورة الفارس الذي شق عجاج المعترك ، وقد كسا جسمه بسربال من حديد :

زرّ الحديد عليه جُبّتغماضة ... زرقاء في غبش العجاج الأقتم

فكأنّ جلدة حية مُلِمَت به ... يوم الكريهة فوق علقٍ ضيغم (٥)

* الابنيـــة :

لم يحسن ابن خفاجة في وصفه بالبناء عناية كبيرة ، فما جاء في ديوانه في هذا المجال لا يعدو أن يكون اشارات لا تواكب ما عرفه عصره من تقدم وتفنن في بناء المساجد والقصور والابنية والمآثر المختلفة ، فهو يحدثنا عن دار جديدة ملكها ويصفها بأنها كانت فسيحة الارجاء كثيرة الضياء ، لا يقدّ لها الليل بالامه لحسنها وبياضها ، ثم يخبرنا أن هذه الدار كانت مسرحا لكثير من خلواته ومغامراته العاطفية ممن يحبونه :

---

(١) الديوان : ١٣٤

(٢) نفســه : ٢٢٠

(٣) نفســه : ٨٩

(٤) نفســه : ٢٠٩

(٥) نفســه : ١٣١

* ـ اللأمة : الدرع ، الغدير الجامس : الثابت الماء أو جامده

وقوراء* بهناء المحاسن للقبة ... لبست بها الليل البهيم نهارا
بزّ عليها الليل بهجة قميصـ ... وقد لبس الجو الظلام سدارا
حززت لأغصان القدود معاطفا ... بها ولرمان النهود ثمارا (١)

ووصف الحمام مستلهما ثقافته الفقهية ، مشيدا بما يحس به في داخله من متعة وراحة بقوله :

أهلاً ببيت النار من منزل ... شيد لأبرار وفجار
يقيده ملتمس لـذة ... فقد نقل الجنة في النار (٢)

وهو يرثي قصرا بقسر حسن الموضع ، جميل المنظر ، قد تكلف صاحبه الكثير من أجل تشييده ثم تركه الى غير رجعة ، فأقفر بعد ما كان آهلا ، وعمه صمت رهيب لا تسمع فيه غير بكاء الغدير ونياح الطائر ، حزنا على سكانه ومليكه :

ومرتبع حلّ الزمان منه ... بحيث الظل والماء القراح*
تخرّم حسن منظره مليك ... تخرّم ملكه القدر المتاح
فجرية ماء جدوله بكاء ... عليه وشدو طائره نياح (٣)

وتعد هذه الوقفة والوقفة التي وقفها الشاعر أمام ولنه بلنسية بعد عودته اليها وقد غير النصارى محاسنها ، بعد ما وتعرفا قبل خروجهم منها مرغمين في سنة (٤٩٥ هـ) لبنة مهمة في بناء فن رثاء المدن الذي جوّده من بعده أبو البقاء الرندي وابن الابار وأبو المطرف بن عميرة المخزومي وغيرهم .

---

(١) الديوان : ٢٢٣ ... * قوراء : واسعة
(٢) نفسه : ٣٧٢
(٣) نفسه : ١٣٧ ... الماء القراح : الصافي . تخرم : اقتطع واستأصل
(٤) انظر هذا البحث : ١١ - وديوانه : ٣٥٤

*** المراكب المائية :**

لقد أشرنا من قبل (١) الى أن الأندلسي قد أعجب بما في بلاده من أنهار، وما يحيط به من بحار، وأن عنايته بذلك كانت كبيرة، فقد استغل هذه الثروة المائية في تنشيط الحركة الاقتصادية، وتوسيع آفاقها، كما استغلها في أموره الحربية فأنشأ السفن الحربية والمراكب التجارية والزوارق على اختلافها وهو أمر مكنه من هذه الظاهرة الطبيعية بحسن التمكن، فأفاد منها في بناء حضارته على الرغم مما كان يشعر به إزاءها من خوف وحذر، وابن خفاجة مارس ركوب السفن في سفره الى المغرب، كما عاين حركة المراكب في نهر جزيرته وهي تنقل الناس أو الأشياء من ضفة الى أخرى، ولكنه لم يصفها الا في مواضع محدودة، عني فيها بأشكالها وألوانها، فهو يشبهها لسوادها بالظلام والفرس الأدهم والغراب، كما يشبه شراعها بالصباح في البياض، أو بالبنان في الاضطراب والخفقان، وقد درسنا هذه الصور في فصل المائيات .

فهو قد يرقب للنزهة زورقا ينساب به فوق سطح نهر جزيرته في منظر جميل حسن، ولكنه في وصفه للمشهد لا يصور ما تشعر به نفسه من معاني الروعة والجمال، وإنما ينصرف بمخيلته عن ذلك الى عقد مشابهات شكلية حتى وإن كانت متناقضة من حيث أبعادها المعنوية للجو العام للوصف، فلا تثير في مخيلته صورة الزورق الذي استقله وتهادى به فوق النهر المنساب، غير صورة العقرب والحية فيشبه الزورق بالعقرب والنهر بالحباب في انسيابه وتثنيه :

وانسابَ بي نهرٌ حُبابٌ وزورقٌ ... فتحمّلتني عقربٌ وحُبابُ (٣)

---

(١) انظر هذا البحث : ١٨٥ - ١٨٦

(٣) الديوان : ٢٦٥

ويصيد التشبيهات نفسها عند ما يصف جسرا مقاما على زوارق مصطفة للعبور عليها ، فهو يشبهها في تناسقها بمواكب الاعجاب ، كما يشبهها في لونها الأسود بالأفراس الدهم وبالغربان ، ولعل الحميري في الروض المعطار قد عنى هذا النوع من الجسور عندما قال : إن جزيرة شقر كان " يدخل إليها في الشتاء على المراكب ، وفي الصيف على مخاضة ".(١)

يقول ابن خفاجة :

حيث استقل الجسر فوق زوارق	نسقت كما تتواكب الأعقاب
لم تستبق وكأنها مطفـــة	دُهمٌ* تنازعت السباق عـــرابُ*
من كل غربيب الأديم* لوأنه	قبل التشيب لصيغ منه غـرابُ (٢)

ولعله قد اتضحت الآن صفة المركب الاندلسي في عصر الشاعر ، فهو مركب كان يطلى بالقار ، أو الزفت ، للمحيلولة دون تسرب الماء الى داخله ، وهو ما يكسبه اللون الاسود ، وهو مركب يعتمد أولا وأخيرا في سيره الماء على المجاديف أو على الشراع الذي ينصب في وجه الريح ليندفع المركب الى الامام .

* أدوات الكتابة :

لقد عني ابن خفاجة - بحكم كونه أديبا - بذكر ما عرفه عصره من وسائل الكتابة فذكر القلم والحبر والقرطاس ووصفها وصفا أبرز من خلاله قيمتها ومكانتها وخطرها ، فالقلم في نظره لا يقل خطرا وتأثيرا في تحقيق الأهداف من السيف القاطع في كف الكمي الشجاع :

نِضْوٌ* تمجّ ذُعافَ الموت شعبتُه	كأنه لهذمٌ في كف عسّالِ* (٣)

---

(١) الروض المعطار : ٣٤٩
(٢) الديوان : ٢٦٦
(٣) نفسه : ٢٥٦

* - دهم ، جمع أدهم : وهو الجواد الاسود .
- عراب : عتيقة أصيلة . غربيب الاديم : حالك .
- النضو : القدح الرقيق ، والسهم بلا نصل ولا ريش والهزيل . الذعاف : السم .
عسال : شديد الضرب سريعه .

والملك في ناره يكون أعز وأرفع وأحصن عندما يحضن اللهذم القلم ، وتناغم صلصلة السيوف أسرار الحروف :

فيا حسن مرأى الملك بين مهند ... خضيب وردء* للبراع نصير

وقد طارق السيف اليراع فأطربا ... برجع صليل رائع وصرير (١)

وهو يصف ممدوحه بما يخلع عليه من الصفات والميزات ؛ فممدوحه وزير كاتب ، ومن ثم فإن مكانة القلم لديه أعظم من مكانة الرمح ، بل إن الرمح ليحسد القلم على تلك الحال :

استعبد الأشراف حين شرعته ... فمشى اليراع بكفه متبخترا

فلرب سمراء الأديم طويلة ... حسدت براعته القصير الأصفرا (٢)

كما ينوه بفضل القلم ، وقيمته عنده ، وكيف أنه قد يحقق به ما لا تحققه الرماح من الآمال ؛ فالقلم على قصره يفوت صدر الرمح على طوله :

ولكم قصير من يراعك شاحب ... قد فات صدر الرمح وهو طويل (٣)

وللأقلام مكانتها ، ودورها في بناء الدولة وحمايتها إذا ما هددتها النوائب ، وقوضت أركانها صروف الدهر :

وإن هدت الأيام أركان دولة ... فثم من الأقلام أقوى دعائم (٤)

ولعل هذه العلاقة بالقلم هي التي هدته إلى انشاء خمسة أبيات في الإلغاز فيه ، أجمل فيها ما نعته به من قبل ، وزاد عليها صفات وميزات جديدة ، أبرزها تلك الصورة التي عكس فيها حقيقة ظاهرة لونية هي البرق ، فما هو معروف أن البرق إذا ومض ملأ الدنيا إشعاعا

---

* الردء : العون والدعم . اليراع : القلم .

(١) الديوان : ١٨٣

(٢) نفسه : ٢٥٧

(٤) نفسه : ٢١٤

(٥) نفسه : ٢٦١

...ياء ، ولكن الشاعر يعكس الامر فيجعل البرق يسوّد وجه الصباح ، ويطغى بياضه بالظلام
...الضيم ؛ ولكننا لا نعجب اذا علمنا أن الشاعر قد عنى بوجه الصباح الصحيفة البيضاء ،
وعنى بالبرق ما يمجه القلم من حبر اسود ، وان الامر الذي ألجأه الى استخدام هذه الاستعارة
إرادته تصوير فعل القلم في الصحيفة ، فوجد في ظاهرة البرق ، من حيث وميضه وانتشار
ضيائه وغلبته على ما عداه ، شبيها بما هو بصدده من تصوير لفعل وأثر القلم في الصحيفة ، من
حيث تسويده بياضها بما يسيله من حبر في أثناء الكتابة ، يقول :

ما سافَ القَبَرات لـــم ... يحزَنْ ويَقُول يتـــمْ
يَفْرِيّ* ولا يدري بعلـم ... بالأمور وليدري بمقلـم
تلقى سنان ربيعـة* ... من صدره ولسان أكثـم*
إن ثار بارقُه دجـا ... وجه الصباح به وقتـم (١)

وكان ذكر الشاعر القلم ذكر ما يتصل به من صحيفة ، وحبر أسود ، في سياق تقريظ قصائده أو قصائد غيره من الشعراء سلوته منها بما به وخلافه ؛ فمما وصف به شعرا ورده قوله :

يشفّ سواد النِّقْس* عنه كما سرى ... وراء الدجى برقٌ تألّق لامعُ (٢)

وقوله من قصيدة خاطب بها القاضي ابا امية بن عصام :

لله طرس* ... أسطرا ... تألّق لفظا فهو أبيض أسود (٣)

وقد وصف القلم أثناء عملية الكتابة وصفا أقرب الى الغزل منه الى وصف الطبيعة ، والقلم عاشقا يلثم أثناء تلك الرقاع ومراشف
فيصور الرقاع خدودا بيضا ، والسطور مراشف لعسا ، والقلم عاشقا يلثم ...

---

(١) الديوان : ٣٤٣ — يفري : يشق ويقطع . ربيعة : هو ربيعة بن مكدم : احد فرسان مضر المعدودين في الجاهلية .
أكثم : هو أكثم بن صيفي : حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين .

(٢) نفسه : ٧٦ — النِّقس : مايكتب به .

(٣) نفسه : ١٦٦ — الطِّرس : الصحيفة

سطورها ، ثم يتساءل عما اذا كان القلم قد استمد حبره من سواد الليل أو من بياض الشعور وهو وصف تلمح فيه الشاعر يستغل مشاعره وأحاسيسه المادية الدفينة بوضوح :

اذا ما جرى فوق قرطاسه ... يراعٌ جرى حبرُه بالعُبُور
فليتَ أوضاحَ تلك الرِقاع ... ولثم مراشف تلك السطور
فهل نقشُه من سواد الدجى ... ومُهْرَقُه من بياض الشعور ؟ (١)

* آنية الشرب :

يرتبط ذكر آنية الشرب في شعر ابن خفاجة بوصفه الخمر ، فقد وصف الكأس والزجاجة والزق والدنان في جو مجلس الأنس ، حيث أومت اليه ، وقد امتزجت ألوانها بلون الخمر بصور كثيرة متشابهة ، ولم يصف الشاعر هذه الآنية بعيدا عن الخمر الا مرة واحدة وصف فيها كأسا مرقشة أهديت اليه ، وهي هدية جميلة ، فرح لها الشاعر وسر بها ، فمنظر الكوب الأزرق المزين برقشات صفراء منظر بهيج يروقه ويأسر بصره ، ويذكره بالطبيعة التي أحبها من كل قلبه ؛ فهو في زرقته وصفرته يذكره بالبرق ويصوره بوصفه ظلمة السحر ، كما يذكر بالجنان التي تعلق بها حتى شغف بها بقول :

ومثلث مثل يمين الندى ... بملءٍ يُطيقُ عنانَ النظر
بأزرقَ سالتْ به صفرةٌ ... كما طرّزَ البرقُ ثوبَ السَحَر
أتتني به النارُ في صورةٍ ... أرى للجنان عليها صور
لطارقة ما رأتْ من سحابةٍ ... عليه وللشمس نور القمر (٢)

---

(١) الديوان : ٦٠

(٢) نفسه : ٢٧٢

* أدوات الانارة :

وصف الشاعر من أدوات الإنارة السراج في مقطوعتين احداهما من أربعة أبيات والثانية من بيتين ، والشمعة في مقطوعة من بيتين . فهو اذا أوقد مصباحه في ظلمة الليل ، تصوره نورا مضيئا ، قد تعلّت به لبة الدجى ، وسنانا أزرق ينحسر دونه جنح الدجنة ويمزق جيب الظلام ، كما يرى فيه مؤنسا سامرا ، يشافهه ويبوح اليه بالاسرار ، ويخفف عنه وطأة الليل ، ويسرع بطرفه الابلق في السير نحو الصباح :

تحلّت به من كوكب لبّةُ الدُّجى	فأوجفَ في طِرْفٍ من الليل أبلقِ*
وبتُّ وعندي للصّبابة صلاةٌ	تروقُ وجيبُ للظلام يمزّقُ
يشافهني منه لسان ابن رطلة	يبوحُ بسر اللّيل واللّيلُ مطرقُ
ينحَسِرُ دونَ جنحَ كل دجنة	سنانٌ صقيلٌ للذُّبالةِ* أزرقُ (١)

وقد يوازن الشاعر بين نور المصباح ونور جبين صاحبه ، فكلاهما منير ، متألق ، ولكن نور ذات الصاحب هو الأقوى والادوم ، والاكثر اشعاعا ، ومن ثم فهو المصدر الذي يستمد منه السراج مادة نوره ، وقوة اشعاعه ، اذا ما خبا أو ضعف نوره :

وأغرّ ضاحك وجهه مصباحه	فأنار ذا قمراً وذلك فرقدا*
ما إن خبا تلقاء نور جبينه	حتى ذكا بذكائه* فتوقدا (٢)

وأما الشمعة فيخلط الشاعر في تصويرها بين جوين : جو الحب حيث الهموم والاحزان وحرقة الهوى ، وسكب الدموع ، وجو الحرب ، حيث الطعن والضرب وسيلان الدماء ، فالشمعة المشتعلة ، وقد ذاب اعلاها بتأثير الحرارة فسال من على جوانبها تذكر الشاعر بحال محب يبكي من شدة الوجد ، كما تذكره في استوائها ، ودقة وتلألؤ شعلتها بصورة الرمح ، فهي

---

(١) الديوان : ٢٠٥ - اللبة : المنحر . طرف أبلق فرس فيه بياض وسواد .
الذبالة : الفتيلة .

(٢) نفسه : ١٨٣ - الفرقد : نجم يهتدى به . ذكا : اشتعل .

تلطمن صدر الليل ، ولا تزال تلح في طعنه بلهذمها حتى تسيل دم شفقه ، وتصوير
وان كان مسبوقا اليه ، قد وفق في عرضه وتقديمه في اسلوب مشحون طمح بالحركة والحياة :

وصَعْدةٍ لبِسَتْ سِربالَ مشتهرٍ* بالحبِّ منغمسٍ في الدمعِ والعَرَقِ
ما زالَ يطعن صدرَ الليلِ لهذمُها* حتى بدا سائلاً منه دمُ الشَّفَقِ (١)

* النـار :

وأما النار فقد خصها الشاعر بعناية أكبر ، فقد وصفها في خمسة عشر نصا من ديوانه ، سجل فيها ما رأته عينه ، وما أوحى به اليه منظرها في اطواره وعناصره من صور أغلبها مستعار من البيئة المحيطة ، فهي بنت الزناد ، وهي في حمرتها وتراقص لهيبها في وجه الريح مهرة شقراء ، قد ذعرت من ريح الشمال القوية ، أو مزدوة نشوى ترقص في قميصها الأحمر كما أنها في ذكائها وتوهجها تحكي حدقتين مطروفة ، فكأنها واياه من عنصر واحد :

ولقد عبأتُ النابَ أشأل ليلةً عن صُبْحِ سرٍّ في حشاهُ مُضمَرِ
وسألتُ عن بنت الزِّناد قناعها ليلاً لسارٍ تحته متنوِّرِ
وسرت منها من صا الجمهرة شقراءَ تُذعَرُ من شمال صرصرِ
ويجرى الحديثُ ببعضِ ذكرى طاهرٍ فجملتُ جزلَ وقودِها من عنصرِ
وابتسمتُ أذنيها واذكرن حبّه فياكأنّ ذا وهذه من عنصرِ
وكأنها والريحُ عابثةٌ بها ترقى فترقصُ في قميصٍ أحمرِ (٢)

ثم يتتبعها بوصفه في أطوارها المختلفة ، منذ أن تكون حمراء تضطرب شعلتها أمام الريح

---

(١) الديوان : ٣٧٦ * الصعدة : القناة المستوية . اللهذم : السنان

(٢) نفسه : ٥٥

وكأنها تنازعها رداءها ، وقد ارتفع لهيبها ، وتعالى دخانها ، وتطاير شررها كأنه كواكب في سماء دخانها الى أن يسكن اشتعالها ، ويصفر لهيبها ويخبو ، فلا يبقى غير الرماد والجذا التي تبدو من خلاله وقد اتقدت كأنها مهرة شقراء تمرح في العجاج الأكهب :

حمراء نازعت الرياح رداءها	وقتاً وزاحمت السماء بمنكب
ضربت سماءً من دخان فوقها	لم تدر فيها الشعلة من كوكب
وتنفست من كل نفحة جمرة	باتت لها ريح الشمال بمرقب
قد ألهبت فتذهبت فكأنها	لسكون شرز شرارها لم تلهب
تذكو وراء رمادها فكأنها	شقراء تمرح في عجاج أكهب (١)

واللهب في اشتعاله واضطرابه في وجه الريح يروق الشاعر ويجذبه ، فيميل اليه مسامرا نداماه أنه طرب منتشي ، واللهب لصفاء لونه يظنه الناقد ذهبا ، وهو خد محمر خجلا تلثمه الريح غير مبالية بأعين الشرار التي ترقبها ، ثم ينظر الشاعر الى الموقد من خلال الطبيعة في ظواهرها الكونية فيخال المتقد وقد رقّ ضوء الصبح لون رماده وجمره ماء حبابه ذهبي الـ . واذا نظر الى الموقد في رماده الازرق ، وجمره المتقد بادرت الى ذهنه صورة كونية عنيفة هي تصدع السماء وانكدار الشهب ليلا ، فيشبه موقد النار بذلك ، فهو في زرقة رماده ، واتقاد جمره يبدو كأنما وقعت السماء فوقه ، فانتثرت شهبها ليلا عليه يقول :

لاعب تلك الريح ذات اللهب	فعاد عين الجد ذات اللعب
وبات في مسرى الصبا تصفحه	فهو لها خطر مضطرب
سامرته أحسبه منتشيا	يهز عطفيه هناك الطرب
لم جاءه منتقد لما درى	اللهب متقد أم ذهب
تلثم عنه الريح خدا خجلا	حيث الشرار أعين ترتقب

---

(١) الديوان : ٧٤ هـ - الزهر والموهين : نحو من نصف الليل أو حين إدباره
أكهب : أغبر مشرب بالسواد .

في موقدٍ قد رقّق الضبُّ بــــــه   ما أطلبه من نوم حتبــــب
متنفسٍ بين رمادٍ أزرقٍ   وبين جمرٍ خلفه تلهــــب
كأنما خرّت* سماءٌ فوقـــــــه   وانكدرت* لها على شُهُــــب (١)

كما أن الموقد وقد شب لهيبه ، وصف به وصفه كما يصف العقد بالجيد يحطـــون بناره ، وقد انعكس ضوؤه على وجوههم يسترعي انتباه الشاعر ، ويجذب نظره ، فيصوره معتمداً على التجسيد من حوله في الوان المتنوعة ، فهو يذكر فيما يتضمنه من رائحة بالند ، وفـــي داجي دخانه بالبنفسج ، وتوقد شذاه بالورد ، كما يذكر سواد دخانه بالعـــــذار ويصور الاحمرار بالخد الورد ، فالربيع تبدو منه عذاره وخده ، وتثيره وتهب به حتى ليبـــدو كأنه تورد ورد يبدو في خدان الصبا ، ثم يلقي الضوء على تشبيهها ، مصوراً حركة الجمر بين الرماد بفصل الربيع ، فيجعل للربيع جفوناً مكحولة بإثمد الليل وأعيناً رمداً تتقلب ، كما يخلـــع عليـــه صفات الاحياء* ، فيصور الجمر يحمر ويشعر بالبرد ، فيرتعد من ذلك ويرتعش :

ومتقدٍ نارٌ كأنمـــــــا   يشبّ الندى فيه لسارب الدجى تَندا*
فلاح من داجي دخانٍ بنفسجـــا   جنياً ومن قاني شذا لهبه وردا
أرى غير نارٍ حولها غير فتيــــة   أنا قتلهم بعداً ومثوا بها عقـــدا
أنا الربيع باشتت* من سواد دخانها   عذاراً ومن محمرّ جاحمها خـــدا
وثارت فتاماً بحلاء* السين أتهبـــا   وجالت جوانا في عنان الصبـــا وردا
وأبصرت جفون الربيع والليل إثمـــدٌ   تتقلب من جمر الغضا أعيناً رمـــدا
وبالجمر في أكنافها مر رعشـــةٍ   كأن بحامي الجمر من شدة بـــردا (٢)

والموقد في لونه الاسود يذكر الشاعر بحطام بن نوح عليه السلام ، فيتصور كأن حاما مثلـــه عليه بولدته ، ولكنه وقد أشعلت النار فيه فتذكالهيبه يذكر الشاعر بنار مرة كرنية هي الـــــــرق تشبيه الموقد في اشتعال بجمر فحمه وبجمر زهرين تمزقت منه الغيوم ، كما يذكره في اصـــرار

(١) الديوان : ٧٥   * خرّ : سقط من على الى اسفل ، انكدرت : تناثرت
الند : الطيب ، باشت : قبلت ، الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال ،

لهيبه وجمره بالشفق ، فيشبه بدء النار في جنباته بشفق لونه بذيل ظلام ، وهو تشبيه
أضفى على الصورة جمالا ، ويضفي عليها الروعة والحياة :

وأحمّ* مسودّ الأديم كأنما | عُلّقت على عاتقه جلدة ظلام
نادى لسان النار تحسب أنه | برق تمزّق عنه جلباب غمام
وكأنّ بدء النار في أطرافه | شفق لونه بذيل ظلام (١)

* أدوات الزينة :

وأما الحلي فقد وصف الشاعر منها الخاتم في مقطوعتين ، والياقوتة في مقطوعة من بيتين :
وفي وصفه لها يعتني بإظهار جمالها الحسي ، فيصور شكلها وألوانها وبريقها مستعينا بعناصر الطبيعة
وألوانها وضيائها ، فالياقوتة الحمراء ، وقد وضعت في وعاء من الدر أبيض مشرقا ، تثير في
مخيلته صورا طبيعية مشابهة فهي تبدو في وعائها كشقيقة في نورة أو برقة في مزنة أو جذوة
في ماء :

تبدّت من ياقوتة حمراء | في حقّة* من درّة بيضاء
كشقيقة في نورة أو برقة | في مزنة* أو جذوة في ماء (٢)

وأما الخاتمان فكلاهما جميل ، متلألئ متألق ، يبرق في الظلام ويروق الناظر ، وقد
تحلى كل منهما بما زاده جمالا وحسنا ، فهذا الأول بفصه الأسحم كأنه جذوة متقدة على
ماء سائل ، أو كأنه نجم اقترن بهلال في سماء من الكرم والجود :

متحمل فحماً بورده وحلقة | من عسجد وتوقدت رصاء سالا
في راحة خلقت سماء سماحة* | فتقارنا نجما بها وهلالا (٣)

---

(١) الديوان : ٨٤
(٢) نفســه : ٣٧٣
(٣) نفســه : ١٤٨

* ـ الأحم : الأسود من كل شيء
ـ الحقة : الوعاء . المزنة : السحابة الممطرة
ـ السماحة : الكرم والجود .

ويبدأ الثاني بنصه الأزرق في منظر جميل بهيج ، تكاد الشمس تلتمسه به لحسنه فتفتتن به السنين لجماله وبديع صنعه ، فكأن البد الذربة وقد تنحلت به تفتحت بقامة ترى أمامها بقصبة القد ، حتى ترى لها ، وتمطر عليها من مائها ، وهو تصوير وفق الشاعر في عرضه وتلوينه بعناصر الطبيعة ، فجاء بجمال رائعا :

ومرتقى الإفرند أبرق بهجة ... وندى فأطلع بالكلام ضياء

تشفق به للشمس في المشرق ابنة ... تستوقف الرائي لها حرباء *

وتفتقت من فوقه بقامة ... تدون على السماء سماء

قد يعي صيدة فتنة أصبى لها ... نفس الحليم رنا حج العذراء

ما إن ترى لها بقصبة بـه ... حتى ترى لها فتجري ماء (١)

هذا عن الطبيعة الصناعية في شعر ابن خفاجة ، ووصفها - كما رأينا - يعنى بما هو حسي ظاهري ، يتفنن في عرضه وتصويره ، معتمدا على ما في الطبيعة حيها وصامتها من عناصر وألوان متشابهة ؛ تلك الطبيعة التي ملكت عليه حسه ومشاعره ، وسيطرت بظلالها وبعض آياتها المتنوعة لا على باب الوصف عنده ، وإنما على الكثير من معانيه وصوره في أغراضه الشعرية المختلفة .

---

(١) الديوان : ١٤٩   * - الافرند : الوشي ، أصبى : شاق وفتن .
الحرباء : دويبة نحو العظاية تستقبل الشمس برأسها .

الفصل التاسع

في

الطبيعة والانسان الشعرية

ان أهم أمر يلحظه دارس شعر ابن خفاجة هو تلك الصلة القوية التي كانت تشد الشاعر الطبيعة ، حيها وصامتها ، من حيث توظيفه لمعطياتها في عمله الفني ، واستنساده ا في تشبيهاته واستعاراته لا في موضوع الوصف فحسب ، بل في موضوعاته الشعرية على رفها من مدح ورثاء ، وغزل وحنين ، وخمرة ومعارك حربية ، ووصف قصائده أو قصائد ته من اصحابه وخلافه ، وما ذلك إلا لان الطبيعة قد تمكنت منه تمكنا ، حتى صار ر بمعطياتها عما يتصل به ، ويصور خلجات نفسه ، وهواجسه من خلالها ، وبالاعتماد وا في استغراق يقل أن تجد مثله عند غيره من الشعراء (١) ، هذا الاستغراق ت التمكن ، والى أي مدى تجلت الطبيعة في الموضوعات المتنوعة هو ما سنحاول اضاءته هذا الفصل ، ولنبدأ بقصيدة المدح :

الطبيعة وقصيدة المدح :

ليس في قصيدة المدح الخفاجية ، من حيث معانيها العامة ، ما يشذ عما هو مألوف قصيدة المدح العربية القديمة والمحدثة منها خصوصا من معان وأفكار ، وإن كانت مرونة بطريقته الخاصة ، فهو اذا مدح أميرا نوه بشجاعته وكرمه ، وعراقة نسبه ، وحرصه حده ته وتقواه وصلاحه ، واذا مدح وزيرا نعته بما يناسب صفاته ومكانته الاجتماعية ، من كاء وفهم ، ورجاحة وحسن تدبير ، كما يمدح القاضي بمثل هذه الصفات ، منسبا اليها لاصة لها علاقة بطبيعة عمله ، كالعدل والاخذ بالحق ، والرأي الصائب ، والفهم النافذ والتنون والورع (٢) ، وغيرها من الصفات والمعاني التي تختص بها قصيدة المدح في تراثنا

---

(١) ابن خفاجة : ٦٦

(٢) المصدر السابق : ٤١ - ٤٥

الشعري القديم ، وليست هذه المعاني هي هدفنا من هذه الدراسة ، ولكن هدفنا هو محاولة التعرف على المكانة التي تبوأتها الطبيعة من هذا الغرض الشعري المهم في ديوانه ، والتعرف على الكيفية التي استخدم بها الشاعر معطياتها وعناصرها في بناء صوره وصياغة معانيه في هذا المجال . ومما تجدر ملاحظته هنا : هو أن اصطناع عناصر الطبيعة في هذا الغرض القديم قدم المديح في شعرنا العربي ، فلطالما شبه الممدوح بالبحر في الكرم ، وبالأسد في الشجاعة ، وبالشمس في رفعته واشراقه وجهه وبالقمر في الحسن وغير ذلك ، وابن خفاجة يردد هذه المعاني في مدحياته ، ولكنها تأتي معروضة بطريقته الخاصة ، ومنسجمة مع ذوقه وحسه المرهف ؛ فهو معجب بشجاعة ممدوحه تميم بن يوسف وكرمه ، وقوة عزمه وشدة بأسه ، ووضاءة واشراقة وجهه من وراء اللثام ، فيصور ذلك متكئا على ظواهر الطبيعة من حوله يستمد ها معاني القوة والجمال ، ويستعين بها على ابراز تلك الصفات ، وبيان تلك الخصال والميزات ، يقول :

يَهُبُّ هبابَ البحر في السِّلْمِ والوَغَى	بِبَذْلِ اليد الغَرَّاءِ والفَتْكَةِ البِكْرِ
له فتكة لو زَاحمَ الدَّهرَ تحتها	لغدثَ به دُهْمُ الليالي من الشُّقْرِ
وعزمٌ بَرقُ الطَّوْدَ* هدًّا وشِدَّةً	تهزّ قدودَ السُّمْرِ في الأَسَلِ الحُمْرِ
ووجهٌ وضيءٌ شقّ عنه لثامه	كما شقّ رقراقُ الغمام عن البدرِ
إذا لثمته بالمفاضة* روعة	تراءى هلالٌ منه يطلع من بحر (١)

ولا يخفى ما في النص من ذكر لعناصر الطبيعة استخدمها الشاعر في سياق التشبيه والاستعارة . كما أن جود ممدوحه الفياض ، وهمته العلية ، وحسن فعاله وآثاره تذكره بالطبيعة من حوله ، فيلجأ اليها ويتكئ عليها مستمدا اياها تشبيهاته واستعاراته ؛ فجوده سيل غمر ، وهمته جبل وعر ، وحسن صنيعه حوّل المصائب المهيم نهارا عامرا بالضياء والبهاء :

---

* الطود : الجبل المفاضة : الدرع الواسعة .

(١) الديوان : ٢٥

بتقسمه جودٌ يفيض وهمّـــــةٌ فمن متّهمٍ غمرٍ ومن مُنجدٍ وغــــرِ
له كلّ نفسٍ نهضت كلّ سفينة بكلّ مكانٍ فالمهجُ من الفقــــرِ
فلو سفّهت يمناه عن وجه ليلـــةٍ لجلّت قناع الليل عن قمرٍ يسري (١)

ويعيد ذات المعاني تقريبا ، وبذات الطريقة في قوله :

إمامٌ في الذؤابة من قريــــشٍ وحسبُ المجد من عودٍ صليـــبِ
تشيمُ بصفحتيه بروقَ بشــــرٍ تعيد بشاشة الروض الجديـــبِ
تمجّ الرىّ أنفاسُ العطايــــا به ومغارس العود الصليـــبِ
ويحمل في محيّاه طودَ حلـــمٍ تمدّ خلاله رطل الكثيـــبِ (٢)

وهي أبيات يبدو فيها توظيف الطبيعة في هذا الغرض بوضوح ، فالبرق والروض ، والعود المغروس ، والطود والكثيب ، عناصر طبيعية عرف الشاعر كيف يستمد منها في شعره ، ويستعين به على تصوير مزايا ممدوحه ، وتعداد محاسنه .

وكان ابو بكر بن ابراهيم بطلا مقداما ، وقائدا مظفرا ، حسن التدبير ، سخيا كثير العطاء ، ولعل الشاعر في تصويره صفات ممدوحه هذا ، مستعينا بعناصر الطبيعة ، كان يصدر عن عاطفة صادقة ومحبة خالصة ، فقد وجد فيه كان صديقا وأميرا في آن ، وهو ما جعله يرفع من قدره الى درجة تفضيله على الطبيعة التي أحبها وهام بها ، فالرياض النضر لا تكاد تضاهيه في سماحته وسخائه ولا تلحق به في ذلك المضمار :

وبدا الإمارة في رفيف نضـــارة جليت الدجى في حلة الأنـــوار
في حيث وشّى لمّة بقيـــادة منها وحلّى معصما بســـوار
يبدلا ن بهاءً نضرة وبشاشـــة أيدي الصفاة وأعين الــــزوّار
متقسّم ما بين شمرد نجنـــة ظلمت وبين غمامة مـــدرار

---

(١) المصدر السابق : ٧٥
(٢) نفســه : ٩٢

أين الندىُّ بذكره فكأنـــــه — متنفّس عن روضة معطـــار
بادر الرياح الى السماح فما جرتْ — معه الرياح النُّكْبُ في مضمار (١)

وهو ذن يعتمد في تشبيهاته واستعاراته على ما في الطبيعة من عناصر ومعطيات اعتمادا جليا . كما يدعو الى شد الرحال الى الممدوح ، والتعرض لنفحات كرمه وعطائه ، فديمته هطلاء ، تنصب لها الزهرة ، وتعشب لها ساحة الدار ، ويظل المرعى تستهام بخصبها :

دع عنك تيّبَ كلِّ نُغْضٍ والتيسْ — مِنَ ابن ابراهيم فهي عَـذار
وارتعْ بحيث تصوبُ أرضك ديمـةٌ* — ليمينِ يُمْنٍ أو يَسَارِ يَسَـــارِ
هطلاءُ* تنصبُ كلُّ زهرةِ مفعَـةٍ — عنها وتُعْشِبُ كل ساحـــةِ دار (٢) .

وان أراد أن يميزه بأصل ممدوحه وبكاتنه رتوبه من السيادة ، جعلهم شموسا ، ويجعل غيرهم أقمارا ، ويجعل منهم بحارا في الكرم والسخاء ومن غيرهم أمطارا ، فهم الاصل وغيرهم الفرع ومنهم يتعلم السراة كيف يسودون ، والأسخياء كيف يجودون :

سادَ السَّراةُ* بما استفادوا منهـمُ — إنَّ الشموس لَعِلَّةُ الأقمـــار
وسخا الكرامُ بما استمدّوا منهـمُ — إنَّ البحارَ لمنشأُ الأمطـــارِ (٣)

وأما الامير المظفر ابراهيم بن يوسف فكريم سخي ، فهو في جوده بحر طام ، وهو أنـدى من المزن راحة ، وأطيب ظلالا ، وأخصب تلاعا ، وأمرع مراعي ، قد تأثر الغيث بجـــود كرمه فانهل واكفا ، وتأسى به الحيا فعاود النزول بعد طول إقلاع ، إنه الظل الــــوارف والمرعى الخصيب ، والمنهل الثر ، اذا ما كف عارض الندي ، وخب البرق عن مرتقبه :

---

(١) الديوان : ٣٦ - ٣٧
(٢) نفســه : ٣٨
(٣) نفســه : ٥٨ .

* الديمة : السحابة الممطرة بلا رعد ولا برق .
هطلاء : [illegible]
السراة : علية القوم وسادتهم .

غشيت بها نداء من المزن راحـــة وألهب أفناء وأمرع مرتعـا
طمى الجود في يمناه بحراً وإنمـا تدفق في أرجائها فتقطعا
وأعدى نداه الغيث فانهل واكفـاً وحسبت من سقياً أن استجمعا معا
فيا شاطئي نهر توسع موهنـاً وتفتح إرعاداً بتجليد فأسمعا
إن إذا من قطريكما عارض النـدى ورافكما برق البشاشة فارتعا
فإن أبا إسحق أخصب تلعــة وأشهى ندى ظل وأعذب مكرعا
وحسبكما أن تأتيا به العنيـا فما وقف من رشاه ما كان أقنعا (١)

وكيف يقصد غيره ويمناه للبحر منح ، ومرعاه أخصب ، وهضبته أحمى وأمن وأمنع :

ولم أرد الأوشال أنقع غلـة ويمنى أبي إسحق للبحر منتـخ
وهضبته أحمى جناباً للخائـب وأبطحه أندى مراداً وأمـرع* (٢)

ويتمنى أن يتعرف الامير ابو اسحق للجهاد في فصل الربيع ، فيصادف ذلك هوى في نفس الشاعر ، فيفيض في وصف مظاهر الطبيعة الساحرة في جو الربيع البديع ، فالزهرة نضرة والقضيب لدن مكتس مزهر ، يميس ويتثنى في وجه النسيم معبرا عن فرحته بقدوم الامير الاجل الذي حكى الربيع بمحاسنه وبمن فعاله ، فلم يدر الشاعر أهو الذي أطل ، فاهتزت له الطبيعة فرحة مستبشرة أم فصل الربيع بطلعته الجميلة وجوه الفتان ؟ ، ونلحظ هنا توظيف الشاعر للمصطلح الفلكي ، حلول الشمس برأس الحمل ، وهو يدل على بدء فصل الربيع (٣) ، وقد عني الشاعر ذات الاسر ، مما يؤكد ما ذهبنا اليه من قبل ، من أن الشاعر كان يصدر في أوصافه للظواهر الكونية ، والتشبيه بها عن ثقافة واطلاع (٣) .

ألا هل أطل الامير الأجـل أم الشمس حلت برأس الحمـل ؟*
فما شئت من زهرة نضـرة ترد القضيب بها واشتمـل
وهز معاطفه والثـرى بمثرى النسيم الثراة الجـدل*

(١) المصدر السابق ، ٢٨
(٢) نفسه : ٨٩ * أمرع : أخصب - الحيا : المطر . الحمل : من الابراج ، الجدل : المبتل .
(٣) كتاب الانواء لابن قتيبة : ١٠١

سرورا به من فتى دولـــــــــة	تباهي بعلياه خيرُ الـــــدُّول
يشدّ اللثامَ على صفحـــــــــة	ترى البدرَ منها بمرقى زُحَـــــل (١)

ان قدوم الأمير المرابطي يوحي الى الشاعر بقدوم الربيع، فكلاهما يبعث الحياة في نظره، فالأول كان سببا في انقاذ الاندلس من فناء يهددها ، والثاني يمثل يقظة الطبيعة من سباتها العميق وانبعاث الحركة والحياة في ظواهرها ، وعناصرها المختلفة ، ومن هنا فنحن لا ننكر على الشاعر هذا التشبيه ، كما أنكر الاسكندري ذلك (٢) ، فليس في الامر ما ينكر لان ذلك يتلاءم ونفسية الشاعر المحبة للحياة ، النافرة من الموت والفناء .

وأما القاضي أبو أمية بن عصام ، فكان مراعيا للشاعر في شؤونه ، برّا به ، مقبلا عليه وقد عرف الشاعر له فضله ، فدبج في مدحه قصائد عدة ، عد فيها محاسنه ، وخلد من خلالها أعماله وصفاته ، فهو قاض عادل سديد الرأي ، عالي الهمة رفيع الشأن ، تقي ورع ، كريم سخي ، وهي صفات ونعوت يعتمد الشاعر في ابرازها على ما يحيط به في الطبيعة من عناصر ومعطيات ، فيذكر القمر والنجوم ، والثريا وكواكب الجوزاء ، والسماء والظلماء والانواء ، والابطح والهضبة ، والانوار والريحانة ، ويستعير لممدوحه من صفاتها وألوانها ما يجلي مناقبه ، ويبرز خصائصه وميزاته :

وسرى فجلّى ليلَ كل ملمّـــــــــةٍ	قمرُ العلاءِ وأنجمُ الآراءِ
من منزلٍ قد شبّ من نار القِـــــــرى	ما شابَ عنه مفرقُ الظلماء
لو شئتَ طلتَ به الثريا قاعـــــــدا	ونثرتَ عقدَ كواكبِ الجوزاءِ
ولثمتُ ظهرَ يدٍ تندّى حــــــــرّقٍ	فكأنني قبّلتُ وجهَ سمـــاء
وملأتُ بين جبينه ويمينـــــــــــه	جفنيّ بالأنوار والأنـــواء
متهاديا ما بين أبطحِ شيمـــــــــةٍ	دمثٍ وهضبةِ عزةٍ قعسـاءِ
عبقُ الثناءِ ندى الجنابِ كأنـــــــه	ريحانةٌ مطلولةُ الافيــاء
وكأنه من عزمةٍ في رقـــــــــةٍ	متركّبٌ من جذوةٍ في مـــاء (٣)

---

(١) الديوان : ١٠٢

(٢) احمد الاسكندري . مجلة المجمع . مج ١٢/ ج ١ : ٣٥

(٣) الديوان : ٤٠ - ٤١ الدماثة : السهولة . قعساء : ثابتة ومرتفعة

وقد وجد الشاعر في صور النَّور، وبهجة الماء، والروض الغض، والغصن اللدن المهتز ما يشبه صفات ممدوحه، فاتكأ عليها واستعان بها على تصويره:

تَنَوَّرَ بالبِشْر أخلاقُـــه ... ويجري بكفّيه ماءُ الكَرَمْ

فنُزْهَةُ تَبعَثُ روضةً غضّــــةً ... وهزٌّ تجدّدُ هزّةَ الغصن ثَمّ (١)

وهو صديق حميم، يهتم الشاعر لعزله وإبعاده عن منصب، كما أن عودته إلى القضاء تخفف أحزانه، وتبدد همومه، ويملأ قلبه فرحا، فلا يجد أسلوبا يعبر من خلاله عن فرحته غير الالتجاء إلى الطبيعة، في أجوائها البهيجة، يصور مظاهرها، ويبرز نواحي الحسن والفتنة فيها، فالرعد يرتجز، والمطر ينزل، والزهر يتفتح وأريج الزهر يملأ الأجواء، والغصون تتثنى، والطائر يغرد، وقد مد جناحه معبرا عن فرحته وسروره، إنها لوحة طبيعية واقعية بديعة، خلع الشاعر عليها إحساسه بالفرحة، وصور بوساطتها ما أحس به في أعماقه من سعادة غامرة لعودة صديقه أبي أمية إلى منصبه بعد عزله منه مدة من الزمان:

بِشْرٌ كما أسفر وجهُ الصبـــاح ... واستشرف الرائدُ برقاً ألاحْ

وارتجز الرعدُ بحثّ النـــدى ... ريّاً وجدّ وبطايا الرياح

فدثّر الزهرُ متونَ الربـــا ... ودهّم القطرُ بطونَ البطاحْ

هبّت رياحاً وغنّى نفاحـــةٌ ... فطابَ ريّاها نشرُ ذاتِ الرواح

أفصحَ غرّيدٌ بها مطــــرِبٌ ... ينشر من طربٍ قدامى جناحْ (٢)

وقد يكرر الشاعر بعض صفات ممدوحه، ولكنه يفتن في طريقة عرضها وتصويرها، وقد اتخذ من الطبيعة متكأً يستند إليه في تشبيهاته واستعاراته، كما في قوله:

له شيمةٌ تندى فتشفي من الصدى* ... وتنقعُ أحشاءَ الهجير فتبردُ

تمدُّ عليك الظلَّ سرحةُ أبطـــح ... بها وغنّت الحمامُ المطرِبُ

---

(١) الديوان : ٤٦

(٢) نفسه : ١٦٥

* الصدى : العطش

فمن نور رأي لو تراءى لناظر   تلألأ به تحت الدجنة فرقد *

ومن حزم رأيٍ قد أفاضته همة   فسار به في سفح ثهلان* سؤدد (١)

ولا شك أن وجود كهذا وفي عصر كعصر الشاعر ، قد يكون عرضة للكثير من الدسائس والمؤامرات التي يحوكها الحساد والمنافسون ، وقد أشار الشاعر الى ذلك في معرض الموازنة بين ممدوحه ومنافسيه ، وهي موازنة ينتهي منها الشاعر بتفضيل ممدوحه على غيره؛ فهو يملك من الصفات والميزات ما يجعله يرتقي صهوة المجد ، ويتبوأ من السؤدد مكانة لا يطاله فيها أحد ، ولا يلحقه فيها لاحق ، حتى أن الأقمار على رفعتها تغار منه ، وتحسده على ما هو فيه ، فهي لا تكسف إلا غيرة منه وحسداً له على مقامه ورفيع شأنه :

ولا تكسف الأقمار إلا حسادة   لمطّلع بالمجد يسمو فيحسد (١)

ويكتب الى القاضي ابي عبد الله بن حمدين ، متشفعا لصديق له من أهل بلدته مادحا اياه بما يناسب من صفات الكرم والسخاء ، واللين من غير ضعف ، والقوة والصرامة معتمدا على عناصر الطبيعة في التصوير والبيان ، موجها صديقه قائلا :

فافزع الى قاضي الجماعة راحة   تضع العنان بخير راحة سائس

واستسق منه إن ظمئت غمامة   يخضرّ عنها كل عود يابس

واذا رويت بماء ذات السلسل   فحذار من ألهوب ذات الهاجس* (٢)

والشاعر في سياق المدح ، قد تجره المبالغة ، أحيانا ، الى مساواة الممدوح بالطبيعة بل ربما الى تفضيله عليها ، وقد مرت معنا بعض من هذه الحالات ؛ ومن حالات التفضيل ما نعت به صاحبه الفقيه أبا بكر بن مفوز من أنه اكرم آثارا من المزن ، وأشهر أوضاحا من المجد

---

(١) الديوان : ١٩٦ - ١٩٧   * الفرقد : نجم يهتدى به ، ثهلان : اسم جبل

(٢) نفسه : ٢٢٨   * الهاجس : الخاطر

الساري ، وأن الغصن المطلول المزهر ، وقد ماد بلا صفحة الماء بالحلي ليس ألين منه أعطافا ، ولا أحسن مشقولا أعطر اخلاقا ، يقول :

وقد تُلْتَ آمالي بأبلجَ واضـــح	تجشّمها أمضى من السيف عاريـــا
وأكرمَ آثارا من المزنِ غاديـــا	وأشهرَ أوضاحاً من البدرِ ساريـــا
فما الغصنُ المطلولُ أمرقُ باسمـا	وماد أصيلانا على الماء صافيـــا
بألينَ أعطافا وأحسنَ مشيـــة	وأعطر أخلاقا وأندى حواشيـــا (١)

وقد تذكره خلال مدوحه مجتمعة ، بمشهد من مشاهد الطبيعة الجميلة في أيام الربيع الزاهية ، هو مشهد الغمام الذي تساقط طله على الرياض المزهرة فزاد ما تحت أشعة الشمس بريقا الى بريقها ، وجمالا الى جمالها :

خلالٌ كما مرَّ الغمام بتلعـــةٍ	فطرّز أثواب الربيع وسهّمـــا *
وألقى السحاب بين الأباطح والرُّبا	فدبّر أعطاف المجاني ودرهمـا
وقلّد نحر الروض عقدا مفصّـلا	وطوّق جيد الغصن وشياً منمنماً *(٢)

وهي أوصاف لمالمحة حسية وأصيلة ، أظهر فيها الشاعر براعة فائقة في النقل والتصوير ، مستوحيا معطيات بيئته الأندلسية ، ومسقطا صور المرأة الحسية على الطبيعة ؛ فالغمام يقلد نحر الروض عقدا مفصلا ، ويطوق جيد الغصن وشيا مزركشا ، وهذه الظاهرة أي النظر الى الطبيعة من خلال أوصاف المرأة الحسية ، ظاهرة تطرد عنده ، وتطفو على شعره من حين لآخر ، ولذلك صلته بطبيعة شخصيته ونفسيته ، وهو اذا وصل في مدحه للمرة سريم ، نزق أبي الطاهر تميم بن يوسف ، الى صفة الكرم التي تحلت بها وقف عندها

---

(١) الديوان : ١٧٧

(٢) نفســه : ١٧٥

* - الثوب المسهم : المخطط ، الوشي المنمنم : المزركش

...يلا ، واستظهر ما في مخيلته من صور طبيعية ذات علاقة بتلك الصفة من قريب أو بعيد
...ن حيا منسجم الى غمام مرزم ، ومن ريح طيبة الى هشيم بندى نضارة الى غير ذلك
...ن الصور التي حشدها الشاعر ليبرز من خلالها ما اتصفت به الممدوح من كرم وسخاء :

من ذلك بارقة كما انسجم الحيا ... وافترّ بارقُ مزنةٍ عن مبسمِ
عقلت بها حزن الثناء عقيلة ... أندى يدين من الغمام المُرزِمِ *
بحرٌ تنوءُ به الرياح على السُرى ... من منجدٍ أرِجِ الرياح وشيّمِ
يندى به النّبت الهشيمُ نضارةً ... ونسيم ذيلِ الريح طيبت تنسّمِ
فيه البلادَ بحرٌ غير مغيّمِ ... في حالة [illegible] غير مديّمِ (١)

والتمثيل لصفة الكرم والمجد بعناصر الطبيعة يلازم الشاعر أيضا في مدحه لآل رحيم .
فهم متميزون في الفخر والسؤدد ، ومعروفون في الكرم ، وهم اذا ما سخوا أو جادوا أروت المزن
الشباب بساحتهم ، وبدوا أماما في ظرفهم وبشرهم وسماحتهم بدورا نيرة لامعة في
صور مترجرجة ، يقول :

من آل رحيم حيث لا هضبة العُلا ... لهدٍ ولا بحرُ النّدى لعُبُورِ
ترى المزنَ ثجّاجا بهم متهلّلا ... سماحة أيدٍ وابتسام ثغورِ
ترى بهم من البشرى في سماحةٍ ... طلوعَ بدورٍ في ارتجاج بحورِ (٢)

وهو بهذا افترض الشاعر فيه قدرته العجيبة على التصوير ، وزاده النضج من الصد...
والاخيلة فعرض تلك الصور وغيرها مما تتوفر عليه شخصية الممدوح مما غلبت عليه الطبيعة
بعناصرها ومعطياتها المتنوعة ، وهو أمر إن دل على شيء فانما يدل على تمكن الطبيعة
من نفس الشاعر ، وسيطرتها على احساسه وشعوره ، وهو ما يظهر - كما ظهر من قبل -
في مدحه لأبي الحسين بن رحيم الوزير ، وذلك في قوله :

---

* - الغمام المرزم : المتصل القطر

(١) الديوان : ٩٨
(٢) نفسه : ١٨٢

وأغرّ أزهر باتت بحبوة نفحةً ... فكأنّ في بُرديه روضاً أزهرا
لقيَ الصِّبا والبدرين كأنّه ... قمرٌ تجلّى في غمامٍ أمطرا
لبسَ الرّداءَ من الثّناء مطرّزا ... فوقَ القميصِ من العفافِ معصفرا (١)

فالزهر والنفحة العبقة ، والروض المزهر ، والقمر والغمام الممطر ، عناصر طبيعية وظفها الشاعر في مدحه واستعان بها على ابراز صفات ممدوحه المعنوية والمادية . وهو يفضله لكرمه ومحاسنه الكثيرة ، على الطبيعة ، فالروضة الغناء ، وقد تفتق زهرها ، وتضوع أريجها ليست أجمل منه منظرا ، ولا أعبق نشرا من أخباره الطيبة وسمعته الحسنة ، وقد ذاعت بين الناس وانتشرت :

فما روضةٌ غنّاءُ في رأسِ ربوةٍ ... تملّ بمنهلٍّ من المزنِ ساجمِ*
بأحسنَ مرأى من علاك لناظرٍ ... وأعطر نشرا من ثناك* لناسمِ (٢)

وهو ينقل احساسه بالفرحة لقدوم ممدوحه على الطبيعة ، فيصورها في نشوة عالية الشعورية ، مهتزة طربا ، ممتلئة بشرا وسرورا ، فالطير يصفق والحمام يغني ، والغصن يهتز ويميس ، والزهر يتفتق ويفوح شذا وعطرا ، احتفاء منها واحتفالا بممدوحه الذي راقت أخلاقه ، وحسن خبره ومخبره :

لذكرك ما عبّ الطيرُ يصفّقُ ... وباسمك ما غنّى الحمامُ المطوّقُ
ومن أجلك اهتزّ القضيبُ على النّقا* ... وأشرف نوّار الربا يتفتّقُ
وما ذاك الا أنّ خُلقك رائقٌ ... يهزّ كما هزّ الرحيقُ* المعتّقُ
حسنتَ غناءً وابتداءً ومخبرةً ... فكلّك موموقُ* الحُلى متعشّقُ (٣)

كما أنه اذا أراد أن يهنئ ممدوحه ، وجد في عناصر الطبيعة ما هو أهل لتبليغ ذلك عنه ، فيناشد النسيم العليل ، والبرق المتألق ، أن ينوبا عنه في تهنئة كورة بلنسية

---

(١) الديوان : ٢٥٧
(٢) نفسه : ٢٦١
(٣) نفسه : ١٨٤

* ساجم : من سجم القطر : اذا قطر وسال . الثنا : ما يخبر به عن الرجل من حسن وسيء .
النقا : من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة .
موموق : من ومق ومقا : أحب . الرحيق : الخمر .

ولاية أبي عبد الله بن الحاج إياها فيقول :

فهل من نسيم قد تنشّق ينتحي ... مع الفجر أو برقٍ تألّق يخفقُ

يبلّغ عني كُورةَ الشرق إنهـــا ... لبحرت شطٌّ أو لشمسِ مشـــرقُ

تطالبه بقربها مرأى جميلا ومنظـــرا ... فما أنقط تاجٌ بروقه ـــــرقُ (١)

كما يحمل نسيم الصبا شوقه وحنينه الى صديقه أبي عبد الله بن أبي الخصال الاديب الكاتب ، ويطالبه بان ينوب عنه في لثم يده ، وضمه وعناقه ، وأن يبلغ تحيته اليه ، يفتقها بنادبه زهرة عطرة ، كشمس الدجن في جمال منظرها ، وحسن اشراقتها ، فيقول :

والثِمْ يد ابن أبي الخصال عن العلا ... متشكرا واضممه ضمَّ عنـــاقِ

وافتق بنادبه التحيةَ زهــــرةً ... نفّاسة تغني عن اشتنشـــاقِ

كالشمس يوم الدَّجْنِ* تندى مجتنى ... طلٍّ وتحسُنُ مجتلى إشْـــراقِ (٢)

وان اسأل حاجة من ممدوحه تلطف الى ذلك مصطنعا عناصر الطبيعة ، فقال :

ومُرْ بها أندى نسيما من الصَّبـــا ... لديَّ وأحلى موقعا من جنَى النَّحـلِ

ولا تحتقرها من يديك بـــبرَّةٍ ... فللطَّلِّ* معنًى ليس للماطر الوَبْـلِ* (٣)

والامثلة في هذا الباب تكثر وتتنوع ، ولكن نكتفي بهذه النماذج ، وهي تصور لنا الى أي مدى استخدم الشاعر عناصر الطبيعة ومعطياتها في صياغة معانيه ، وتلوين صوره ، وأظن لا أحيد عن الصواب اذا قلت - اعتمادا على هذه النماذج الواضحة ، وغيرها من الجزئيات الكثيرة المبثوثة في قصائده المدحية - : إن إحساسه بالطبيعة كان قويا ، وإن حبه لها كان عميقا ، ولكننا نلاحظ أن الرجل كان يتخلى - أحيانا - عن إحساسه بالطبيعة ، وحبه لها ، تحت ضغط الجو الرسمي ، أو خضوعا لأسلوب المغالاة في وصف الممدوح والمبالغـــة

---

(١) الديوان : ١٨٦

(٢) نفســه : ١٥٩

(٣) نفســه : ٢٠٧

* - الدجن : الغيم

- الطل : أضعف المطر ، الوبل : المطر الشديـــد

في نعته ، فينظر اليها بعقله لا بقلبه ، وبفضل ممدوحه عليها ، ولكن الحالات نادرة ،
لا تقوح في عاطفة الشاعر نحو الطبيعة ، ولا في علاقته الوثيقة بها .

* الطبيعة وقصيدة الرثاء :

تقل قصائد الرثاء عن قصائد المدح من حيث الكم في ديوان ابن خفاجة ، فقد ضم الديوان بين دفتيه ثماني قصائد ، أربع منها في رثاء الوزير أبي محمد بن ربيعة ، وواحدة في رثاء محمد بن أخته ، وأخرى في رثاء والد القاضي أبي أمية بن عصام ، وأما القصيدتان الباقيتان فقد تعرض فيهما لرثاء جملة من أصحابه وخلانه ، وهي قصائد تتسم في جملتها بحرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، وتزخر بالمعاني الرقيقة المشجية ، والصور الحزينة الناتجة ، فقد كان لموضوع الرثاء صلة بما كان الشاعر يعبر به في أعماقه من احساس بالزمن وفرق من الموت ، ومن ثم جاءت قصائده في هذا الباب محملة بالكثير من احساساته ، ونظراته للكون وتصوراته للحياة ، فالأحداث الدامية التي شهدها عصره ، وفراق الصحب ، ومضي الشباب بلذاته ونزواته ، وزحف الشيخوخة بشيبها وأسقامها ، وحب الشاعر للحياة وفرقه من الموت والفناء ... ، عوامل أثرت كلها في نفسيته الرقيقة ، وعمقت إحساسه بالألم وطبعت نظراته الى الحياة - احيانا - بمسحة من القلق والتشاؤم ، أفصحت عنها الصور والمعاني التي اشتملت عليها مراثيه ، فالشاعر اذا أثقلته الهموم ، وداهمته الخطوب والكروب يلجأ الى الطبيعة ، لعله يجد في أجوائها ما ينسيه آلامه وأحزانه ، أو يخفف وقع مصابه لفقد أترابه وخلانه ، ولكن مصابه جلل ، وبلاء عظيم ، لم تحتمله نفسه الرقيقة ، فـ... تغير كل شيء في نظره ، فأضحت الحلاوة مرارة ، واللذة ألما ، والأفراح أحزانا مؤرقة لا يذهبها برد لندى ، ولا ينسيها ظل لمزنة :

وقل لغمام الصف الأرض ذيلــه فلق فجاجا تحته بأكـــام
أما لك من ظل يبرد مضجعــي أما فيك من ظل يبل أوامي* ؟

---

* الأوام : حر العطش .

وأي نعيم أو برد حال لمرتقى ... على عقب أترابي وردته كرام (١)
نفسه

وقد يدون المصائب ونقصها الشديد على الرقيقة ، ومزاجه الحساس ، فهو بعد تولي الشباب ، وبعد الأصحاب لم يعد يرى في الحياة ما كان يراه فيها من جمال ولذة ومتعة فقد غيرت الأحداث مزاجه ، فأصبح لا يستسيغ الماء على الظمأ ، ولا يستطيب برد الظلال ساعة الحر ، ولم يعد يجد في أنفاس الرياح ما كان يجده فيها من طيب ونداوة :

فما أستسيغُ الماءَ يبرُد ضاحيا ... ولا أستطيبُ الظّلّ يبرُد ضاحيا (٢)

* * * * * * *

وأنشقُ أنفاسَ الرياحِ تعلُّلاً ... فأعدمُ فيها طيبَ ذاتِ التنشُّقِ (٣)

وقد يشتد عليه الكرب ، وتتراكم عليه الهموم ، فيقلق وييأس ، وتضيق به الأرض على سعتها ، وتظلم الدنيا في عينه ، فلا يعود يرى سوى الظلام يلف الكون ويغمره بالسواد :

فها أنا أبكي كلَّ معهدِ راحةٍ ... تضاحكَ أحبابٌ به وصحابُ
أقلّبُ طرفي لا أرى غيرَ ليلةٍ ... وقدْ غابَ عن وجهِ الصباحِ نقابُ
كأني وقد طارَ الصباحُ حمامةٌ ... يمدُّ بها جناحيه عليَّ غرابُ

. . . . .

فأظلمَ آفاقُ الشموسِ منيرةٌ ... وما تنهلُّ الله وهي رحابُ (٤)

* * * *

وألقى بياضَ الصبحِ بسودِ وحشةٍ ... فأمسيتُ أمسي على حينَ أصبحُ
وأستقبلُ الدنيا بذكرِ محمدٍ ... فيقبحُ في عينيَّ ما كانَ يملحُ (٥)

---

(١) الديوان : ٥٢
(٢) نفسه : ٢٠٠
(٣) نفسه : ٢٢٦
(٤) نفسه : ٢١٨-٢٢٠
(٥) نفسه : ٢٦٧

وهي أبيات تنمّ عن عاطفة جياشة ، وإحساس صادق ، كما تفصح عما في أعماق الشاعر من قلق ورهبة من شبح الموت الذي تخطف أصحابه وأخلى ساحته من أترابه وخلانه ، وقد يصور حالته الشعورية مستوحيا طبيعته الحية ، فيذكر الفرس الأدهم والفرس الأشهب مستعيرا لونيهما وحركتهما لتصوير نظرته السوداء ودمعه المتناثر حزنا على فقده ابن أخته محمدا :

ففي ناظري للّيل مربط أدهـــم   وفي وجنتي للدّمع أشهب يجمـــح (١)

ولكن هذا الموقف المحتم من الطبيعة لم يصرف الشاعر عن الطبيعة بظواهرها ومعطياتها المتنوعة ، فقد اتكأ عليها في تصوير حالته النفسية ، فشبه بكاءه على أصحابه وخلانه الذين تخطفهم الموت من حوله ، بسح الغمام ، كما شبه لوعته وحرقته على فراقهم ، وقلقه واضطرابه بعدهم ، بشهاب تضربه ريح الشمال ، فتزيده توهجا وحريقا :

ألا عرّس* الإخوان في ساحة البلى   وما رفعوا غير القبور قبابـــا
فدمعٌ كما سحّ الغمام ولوعـــة   كما ضربت ريحُ الشمال شهابـــا (٢)

كما يفتتن إعجابه بقصائده في رثاء الوزير أبي محمد عبد الله بن ربيعة بمطالع يستقي تشبيهاته واستعاراته من طبيعته المحيطة به ، حية وصامتة ، فيذكر الروضة ، وجدول الماء والغصن الندي ، والحناء ، والأنواء والأنوار ، مستعينا بها على تصوير الجو الحزين الذي أعقب موت صديقه الوزير فيقول :

في كل ناد منه روضُ ثنـــاء   وبكلّ خدّ فيه جدولُ مـــاء
ولكل شخص هزّة الغصن الندي   تحت البكاء ورنّة المكّـــاء
يا مطلع الأنوار إنّ بمقلتـــي   أسقاطيا لمطلع الأنـــواء (٣)

---

(١) الديوان : ٢٦٧
(٢) نفســه : ١٧٧
(٣) نفســه : ١٧٨

* عرّس : نزل وأقام .

وقد يخلع على الطبيعة حزنه وألمه ، فيصورها ناحة باكية ، يطرها القلق ، ويسودها الاضطراب ، وتنشرها ظلال الحزن والاسى فيقول :

فكم للعيا من أدمع فيه تشرق ... وللرعد من تهيام له مشقق
وللبرق من قلب به متلهب ... وللنجم من طرف عليه مؤرق (١)

والشاعر يفتن في تصوير هول المصيبة ، وفداحة الخطب ، مستمدا من الطبيعة ما يعينه على ذلك من عناصر وألوان ، فصباح يوم الخطب أربد معتم كأنه يجر وراءه ذيول الظلام ويومه مضطرب قلق كأنه بحر تلاطمت أمواجه ، قد حزن القوم فيه فبكوا وناحوا كأنهم الحمائم الورق ، إنه ليوم عظيم مروع ، ذلك اليوم الذي تذوي فيه دوحة العلياء ، وتستقل فيه الأم البرة من علياء العز الى ظلمة القبر ، تلك الأم هي أم صديقه القاضي ابي أمية بن عصام ، وذلك اليوم هو يوم وفاتها :

أهول به من يوم رزء فادح ... سحب الصباح له ذيول مساء
متلاطم الأحشاء تحسب أنه ... بحر طمى متلاطم الأرجاء
جمع الجداد الى العويل فما ترى ... في القوم غير حمامة ورقاء
من ماسح عن وجنة مسطورة ... أو رافع من زفرة صعداء
وكأنما يستن بما يجني ثرى ... ما قد ذوى من دوحة العلياء (٢)

وصورة البحر المتلاطم ، والنعام الممطر ، والحمام النائح ، صور يرددها الشاعر في معرض تصوير حزنه والاعراب عن آلامه وأشجانه ، فهو يمثل لحاله الحزينة ، ونفسيته القلقة الواجفة ، ودمعه المتناثر بالبحر الهائج المائج قائلا :

وقد بات بي بحر من الهم مائج ... له زمرا في وثيق ومتساء ( )

وان اشتدت عليه وطأة الهم ، واستبدت به الأحزان ، وطال عليه الليل ، نا ، ويكى

---

(١) الديوان : ٢٢٧ .
(٢) نفس المصدر : ٢٧٣
(٣) نفسه : ٢١٨

ويخال ... ثم يوغل في تصوير معاناته ، فيخال الهم والدمع والدجى أبحرا متلاطمة ، ويخال نفسه غريقا بها ، مستسلما لفرقتها ، تغمره بأمواجها العاتية حينا ، وتتقاذفه بعدائية مرة حينا ... فيقول :

تري بي إذا أعولت حزنا حمامة   تبنّ ولو أيكة تترنّـــــح
غريقا ببحر الدّمع والهمّ والدّجى   ولو كان بحرا واحدا كنت أسبـــح
أحنّ انفاس الشمال حقيبـــة   تنوء بها من ماء جفني فـــترزح (١)

ولكي يوضح عمق حزنه ، وشدة كربه ، واضطرام لوعته وأشواقه ، يلجأ الى الطبيعة الحية ، الى الحمامة النائحة الباكية على هديلها الضال ، فيوازن حاله بحالها ، وواقعه بواقعها ، فيرى أنها ليست أعمق منه حزنا ، ولا أشد لوعة واحر اشواقا فيقول :

فما بنت أيك بالأراك نســة   تنادي هديلا قد أضلّته نائيـا
وتندب عهدا قد انقضى برامــة*   ووكرا باكناف المشقر* خاليــا
باخفق أحشاء وأنى وحشيـــة   وأضرم أنفاسا وأندى مآقيـــا (٢)

وقد يستلهم في ذلك ظاهرتي الغمام الماطر ، والبرق الخافق ، فيبرز عن طريق موازنة حاله الشعورية بهما ، شدة حزنه ، وعمق أساه وألمه ، وقلقه ومخاوفه وهواجسه كما في قوله :

فما ابن شمال بات يهفو كأنما   به خلف أستار الدّجى مسّ أولـــق*
سرى بين دفّاع من الودق مغدق   يسح ولمّاع من البرق مخـــرق
بأندى ذلولا من جفوني موهنـــا*   وأهفى جنانا من ضلوعي وأخفـــق (٣)

وهو يدعو لقبر من يحب بالسقيا ، كما يهدي اليه تحيته وسلامه ، وغالبا ما يكون رسوله في ذلك ماطر الغمام المرن المتدفق (٤) ، الذي يروي القبر بمائه ، ويكسوه عشبا ...

---

(١) الديوان : ٢٦٨
(٢) نفسه : ١٩٩ - ٢٠٠
(٣) نفسه : ٢٢٧
(٤) نفسه : ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ .

* رامة : اسم موضع ، المشقر : اسم حصن أو جبل
- الاولق : الجنون . الودق : المطر
الموهن : منتصف الليل أو ما بعده

...الشاعر الفني ... ا ، وهو مذهب قديم في قصيدة الرثاء العربية ، إلا أنه يتفق ومذهب الشاعر الفني ... على اصطناعه عناصر الطبيعة ، واتكائه الواضح على عناصرها في بناء صوره ولا عراب ... ... معانيه : ... ه بمثل قوله :

كما يمدح صديقه القاضي أبا أمية بن عصام على الصبر ، ويذكره بالدعاء ...

وافترَّ لها باب السماء بدعـــوة	تستمطر الخضراء للغبــراء
حتى تجود بكل عارض رحمة	يستضحك الأنوار للأنـــواء
زجل الرعود كأنما سحبت بـــه	كفّ الصبا عن تامة عشـــراء
فيخلها من تربة قد قدست	نثر النسيم قلائد الأنـــداء
وسرى يمس شذاه قمر الدجــــى	ويذيل فضل غديرة الجـــوزاء (١)

وهو توجيه يبدو فيه استناد الشاعر الواضح الى عناصر الطبيعة ، ومعطياتها الكثيرة ، كما يفصح ، الى جانب الامثلة السابق ذكرها ، على مكان الطبيعة المرتفع من نفس ابن خفاجة وحسه ، وعلاقتها القوية به ، وسيطرتها على فكره وخياله ، مما جعلها تقتحم معطياتها المتجددة عالمه الشعوري ، ملونة صوره بألوانها ومصطبغة بلون إحساسه وانفعالاته ... فرحا وحزنا ، وقلقا واضطرابا ، وهي ظاهرة لا يفصح عنها غرضا المدح والرثاء فحسب بل تفصح عنها كافة أغراضه الشعرية ، على تفاوت فيما بينهما من ذلك .

* الطبيعة ووصف المعارك :

لقد اسهم ابن خفاجة بنسط في تصوير المعارك الطاحنة التي شهدها عصره ، خاصة منها ، تلك التي خاضها أمراء وقواد الدولة المرابطية التي أحبها واصبح من دعاتها ، المدافعين عنها ، والمخلدين لمآثرها ، ومفاخرها وانتصاراتها ، فقد تعرض في قصيدة المدح لما كان يتصف به ممدوحه من شجاعة وقوة واقدام على خوض غمار المعارك وصبر على ... ومكابدة لمشاقها واهوالها ، وقدرة على إلحاق الهزيمة بالعدو والمتربص بها ، مهما كانت عدته وعتاده ، كما قصد المعركة بالوصف لذاتها ، في قصيدتين ، إحداهما في وصف ...

---

(١) الديوان : ٢٧٤ - ٢٧٥

والثانية التي وصف ملابسات وكيفية
ماجمة القائد ابو عبد الله بن الحاج في نواحي قرطاجة ، وهو في ذلك يستلهم آثار
استرجاع بلنسية من أيدي النصارى في سنة (٤٩٥ هـ) . ولكن الذي يجدر ملاحظته
من سبقه من شعراء العربية ، ويفيد من طرائقهم الفنية ، واسطاع الشاعر لعطايات الطبيعة وعناصرها الحية والصامتة في وصفه
في هذا المجال ، هو اصطناع الشاعر لمعطيات الطبيعة وعناصرها الحية والصامتة في وصف
وتصويره ، فهو اذا وصف غزو ممدوحه الى العرب بجيشه وسلاحه ، تداعت صور العناصر
الطبيعية في مخيلته ، وأسهمت باشكالها وألوانها في تلوين صوره وتجميلها الى حد قد
تصير فيه أقرب الى جو الطبيعة منها الى الجو الحربي وما يتطلبه من صلابة وخشونة ، وشدة
بأس : يقول :

سرى بين نوار لزرق أسنة هداية وأوراق لراياته خضر
فهزت إليه عاطفها رايته تهز عنه الغصن في الورق النضر (١)

واذا وصف الحديد بادرت الى ذهنه صور طبيعية يستخدمها فيها دون بعد من تصوير
الرماح شجرا تميد ، وبريق السيوف والأسنة ماء جاريا ، كما يوحي إليه منظر الجيش الزاحف
بسيوفه المشرعة وأسنته اللامعة بصورة العارض الممطر المبرق ، ولكنه لا يغادر الماء وانما
السطوة والشدة والبأس ، وهي ظاهرة كونية أفاد الشاعر منها في رسم صورته ، يقول :

قد ماس في أرجائه شجر القنا وجرت به ماء الحديد فسال
ملء الأعين منه عارض سطوة برق الحديد لجانبيه فلاحا (٢)

ثم ينتقل وصفه لحال بلنسية بعد استرجاعها بقوله :

الآن سح غمام النصر فانهملا وقام صفو* عمود الدين فاعتدلا (٣)

ويصف معترك القتال ، فيصطنع عناصر الطبيعة ، ويتكئ عليها في تشبيهاته الكثيرة فيقول :

والشهب شهب والعجاجة سدفة والنقع جو والقتام دخان
والترب روض فيه من خرصانه زهر ومن سمر القنا أغصان (٤)

فالشهب والسدفة والروض والزهر ، والجو والدخان ، والأغصان ، عناصر الطبيعة اعتمدها

---

(١) الديوان : ٢٦
(٢) نفسه : ٢٥١
(٣) نفسه : ٢٠٨
(٤) نفسه : ٢٤٤

* ـ الصفو : الميل

الشاعر ، وأفاد منها في عرضه وتصويره مشهد المعركة بكيفية تغلب فيها جو الملحمة على جو الحرب ، وهو بفعله هذا يرضي ميله ، ويشبع نزعته الفنية في الاعتماد على الطبيعة وتوظيفها في بناء صوره وصياغة معانيه ، ويوحي إليه مشهد جيش العدو المنهزم أمام قوة المرابطين وسيوفهم بصورة الهشيم الذي تلتهمه النار التهاما ، فيشبه جيش العدو بالهشيم وسيوف الجيش الذي يلاحقه باللهب الذي يلتهم ذاك الهشيم وحرته قائلا :

وهل جيشُ العداة إلا هشيمٌ ... وهل بيضُ السيوف سوى لهيبِ (١)

وهو مشهد يوحي إليه بالكثير من الصور الطبيعية ، الحية والصامتة ، يعرف الشاعر كيف يستمد منها في وصفه ، يستعيرها صفاتها ، ويشبه بها ، موضحا قوة ممدوحه وسطوته وذلة العدو وصغاره :

وأمطرته غيثًا من النبل وابلًا ... بظاهره وبْلٌ من النبل يهمعُ

....

ويا ربَّ جيشٍ للعدوِّ كأنه ... عبابُ خضمٍّ قد طمى يتدفَّعُ

عرضتَ له والليثُ دونك جرأةً ... فأجفلَ إجفالَ النَّعامة يجزعُ

ولقّته ريحٌ للمهابة زعزعٌ ... فأقلعَ إقلاعَ الغمامة تَقشَّعُ (٢)

فالغيث الوابل ، والوبل الهموع ، والبحر الطامي ، والليث الجريء ، والنعامة الخائفة والريح ، والغمامة ، عناصر طبيعية ، اتكأ عليها الشاعر في تصويره ، واعتمدها في وصفه واستوحاها صفاتها ودلالاتها في التعبير عما هو بصدده من الموازنة بين شجاعة ممدوحه وقوة جيشه ، وكثرة العدو وسرعة تشتت شمله وانهزامه .

ثم يشيد بشجاعة ممدوحه وإقدامه وسرعة نجدته ، مخوفا ابن ردمير* عدوه ومنذرا وناصحا إياه بالفرار ، وألا يتعرض لسطوة ممدوحه وإلا ناله منه كل مكروه ، والشاعر في

---

(١) الديوان : ٩٣

(٢) نفسه : ٨٨

إبرازه لهذه المعاني ، وتجسيده لهذه الصفات والمواقف ، يلجأ الى الطبيعة باستمرار ويتكئ* عليها اتكاء واضحا في استعاراته وتصويره ؛ يقول :

أتى الشَّرْقَ يخفق جناح السُّرى	به وتهبُّ رياح العجل
وألمع في مشرقٍ ثاقبٍ هيجه*	واقشاع عارضٍ همٍّ أطل
فقل لابن رذمير* مهما تشزّ*	يقوم صفاتُ* الأمير الأجل
يمزّقه منه سنا شعلةٍ	هنا نه ويفرق الوشل*
فيل عن طريق شهاب سرى	فأهوى وواد أتيّ* هتمل
وعد رغبة عن عباب طمى	ولذ رهبة بصياصيّ* جبل (١)

والوصف ، كما هو ملاحظ ، يعتمد الطبيعة اساسا تستمد منه الاستعارة ، وهو اعتماد أضفى على الوصف بهاء وقوة ، فجناح السرى ، ورياح العجل ، وعارض الهم المنتشر ، وسنا الشعلة ، ... ، وافتراق الوشل ، والشهاب السارى ، والأتي الهاطل ، والعباب الطامي ، استعارات توحي بالقوة ، استمدها الشاعر من الطبيعة وأبرز من خلالها توفر شجاعة ونجدة ممدوحه ابراهيم بن يوسف . ومن أغراضه الشعرية التي أفاد فيها من عناصر الطبيعة باب العتاب ، فهو يخاطب صديقه الوزير أبا محمد بن عامر ، معاتبا اياه لتأخره عن زيارته ، في اسلوب لطيف يندى بطل الغمامة ، ويفوح برائحة الورود قائلا :

أنسأت* ما أنشأته من عتبة	فأتاك دون غمامة لم تمطر
ولو التقينا حيث يصفي ساعة	لسقته بين ملامة وتشكر
تبهي بماء الورد في أردانه*	وبلا وتعبيث سمحه بالعنبر
وعده لولا برقّ وعد شمتته	في عارض من بشره مستمطر

---

(١) الديوان : ١٠٤

* ... : أصحاب . شزّ ، شزازة : يبس يبسا شديدا الصفا : الميل والاعوجاج . الوشل : الماء الكثير (من الاضداد) . الاتي : السيل . الصياصي : الحصون . أنسأت : أخرت . الأرداف ، جمع ردن : أصل الكم

لنسمعتُ أسطارالذنابِ كتائبــــا   مصافَةً وطرقته في عسْكَــــرِ (١)

كتابها تب صديقه الفتح بن خاقان ويلومه على نيله منه في كتاب القلائد ، وكشفه لأمور كان يحرص على سترها ومواراتها لمنافاتها واتي حياته الجديد ، وتعارضهما مع نهجه السلوكي في ظل الدولة الجديدة ، فلِمَ لم يكتف هذا الصديق بذكر محاسن صديقه وعد فضائله ، والثناء عليه دون التعريض به ، وهتك عرضه بكشف أسراره ؟ . ذلك ما يأخذه الشاعر على صديقه فيعاتبه عتابا يفيض رقة وعذوبة قائلا :

ماذا ثناك عن الثناء ونشــــرِهِ   يُزرا على الرّسم الجميل جميــــلا
أَرِيئًا كما عثر النسيم بروضــــةٍ   لذّ تأكما نضّ الغمام مُقيـــــلا (٢)

ويصور نفسية هذا الصديق الذي يهش عند اللقاء ، ويغتاب في الخفاء معتمدا على الطبيعة قائلا :

لك الخير أنّي الخير في ودّ صاحبٍ   مُغيرٍ على عِرْضِ الصديق مُقامِـــرِ
يهشُّ مع اللقيا إليّ كأنـــه   أخلّ بربح للمشاشة عامـــــر
ومهما نأت عنه مُتعلّق سمـــاره   وباتت بصوبٍ للغضاضة هامِـــر (٣)

وهذا الاتكاء على الطبيعة بمعطياتها الكثيرة ، والاعتماد عليها في مجال التشبيه والاستعارة يلازم الشاعر في فن آخر من فنون القول ، هو وصف القصائد الشعرية ، وهو فن معروف لدى الشعراء من قبله وتفنن شعراء الاندلس (٤) في القرنين الرابع والخامس في نظم المقطوعات فيه ، مشبهين شعرهم أو شعر غيرهم معنى ومبنى بوشي الرياض ونور الغمام والسيل والمسك والعطر ، وأنواع الاحجار الكريمة ، وبالبرود الموشاة وغير ذلك وهم في هذا يسبقون الشاعر في الكثير من المعاني والصور التي سيطرقها أو يصورها ، ...

(١) الديوان : ٥٠
(٢) نفســـه : ٢٠٥
(٣) نفســـه : ٢٠٦
(٤) التشبيهات لابن الكتاني : ١١١ - ١١٧

بيقته الخاصة ، ونزوقه الفنان ، فمن ذلك قوله في ختام قصيدة مدح :

فالتقى لرونقها صدا حا نسترا   يستضحك الأنوار للنوار (١)

وفي قصيدة أخرى قوله :

تدور هاكلما هبت بها الهند سكة   تعطر أنفاس الرواق فتعبق
وخضرة شهباء تحمل نفسة   تنفس في صدر الندى فتنشق (٢)

وقولـه :

فيا دوحة العلياء هيئت روضة   عليها رداء للربيع منمق
لها من صقيل النور ثغر مفلج   يشوق ومن سجع الحمامة منطق (٣)

فقصيدته روضة عاطرة ، مفتحة الزهر ، مخضرة الجنبات ، عامرة بالنماء ، وممدوحه دوحة علياء ومما قاله في وصف شعر غيره :

قصائدا نافقة تساغ بباردة   من منهل طافى الأذي سلسال
وزهرة غضة تفتق عاطرة   من روضة لذة الأنفاس مختال
في ملتقى ربوة للفضل مشرقة   ومنتحى عارض للملح هطال (٤)

وقولـه :

وصحيفة مز الهدين صفيحة   منها وثقف بالسطور رماحها
رقت تذكرني الحديقة نفحة   وتهزني هز القضيب مراحها
نفح الهدان بمعاطفها دهمة   جرت الهاسين فوقها وتماحها

---

(١) الديوان : ٣٩

(٢) نفسـه : ١٨٧

(٣) نفسـه : ٢٠٢

(٤) نفسـه : ٢٥٦

* الأذي : الموج .

تألّقَ روضًا باتَ يفتقُ نَوْرَه ... فيهَا وطاووسًا يمدُّ جناحهــا (١)

وهذه الأوصاف وغيرها، وإن كانت تعتمد التشبيهات الحسية أساسًا، إلا أنهـا تدل على أن إحساس الشاعر بالطبيعة وإدراكه كان قويًا، وأن حبه لها كان شديدًا، وهـو ما جعلها تستولي على حسه وشعوره وتهيمن بظواهرها ومعطياتها على فكره ومخيلته، فتطبع معانيه بطابعها، وتلون صوره ومخيلته بألوانها الزاهية، وأشكالها المتنوعة، وتطفـو على شعره بأغراضه المتعددة في يسر وعفوية ظاهرة.

* الطبيعة والخمر :

لقد هتف ابن خفاجة بالخمر في مجالس أنسه التي كان يقيمها في أحضان الطبيعـة حيث الروض الفواح والغصن المياد، والفيء الندي، والطير الصادح، والجدول الرقراق كما "هتف بها في جو الصبوح والغيم والثلج والمطر" (٢) ولكن قيمتها، كما أشرنـا من قبل - تظل محدودة إذا ما وزنت بقيمة الطبيعة عنده، ومكانتها من نفسه، فقـد "كان صوت الطبيعة عنده لا يقاس إلى صوت الخمر، لأن حب ابن خفاجة للطبيعة لا يعدله حب، وطربه بها لا يقاس إليه طرب" (٣) بل إن أوصافه في الخمر، كما سنرى بعد قليـل تعتمد في تشبيهاتها واستعاراتها على ما في الطبيعة من عناصر وألوان وأشكال، وإن كنـا عمومًا، لا نجد فيها ما يستطرف ويزاد على ما أورده فيها شعراؤها المبرزون في وصفهـا وعلى رأسهم أبو نواس، الذي أختص بها ووهبها حياته وفنه.

إن وصف ابن خفاجة لخمرته وصف مادي، لا يتجاوز المظهر الحسي للموصـوف في شكله ولونه، إلى معانيه وأسراره إلا نادرًا، فالكأس الزجاجية، وقد صبت فيها الخمـر الحمراء أو الصفراء، فمازجها الحباب، تروق الشاعر بمنظرها، فيندفع إلى تصويرها مستعملا

(١) الديوان : ٢٨٨، أنظر أيضا ص: ٧٩، ٩٩
(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي : ٢٨١
(٣) نفسه : ٢٧٩

بما حوله في رحاب الطبيعة الفسيحة من عناصر وألوان ، فهو يشبه الكأس بالماء في الرقة والصفاء ، والخمر باللهيب في الاحمرار ، وحباب صفو النهر الذي يطفو على صفحته مستمتعا بالنور ، وارتفاعه بالكثيب ، فيقول :

وجاءَ بها حمراءَ أمّا زجاجُها | فماءٌ وأمّا لونُه فلهيبُ
على لجّةٍ ترتجُّ أمّا حبابُها | فنورٌ وأمّا موجُها فكثيبُ (١)

وقد تذهب به النشوة بعيدا ، فلا يعود يفرق في غمرتها بين صور الأشياء ، فهي تتقارب في مخيلته ، وتتماثل إلى حد لا يرى فيه الشاعر حرجا في نعت بعضها بصفات بعضها الآخر ، والعكس ، فتضحي الدوحة المنورة كأسا مزبدة ، وتصير الكأس المزبدة دوحة مزهرة :

وعلى الأقداحِ والأدواحِ من | حَبَبٍ نثرٌ ونورٍ جوهرُ
فكأنّ الدوحَ كأسٌ أزبدتْ | وكأنّ الكأسَ دوحٌ مزهرُ (٢)

والخمرة في حمرتها وبريقها تذكره بالكوكب المضيء فيشبهها به قائلا :

وقامتْ بأجيدَ من كأسها | لأوقصَ* من دنّها أحدبا
فباتتْ بحمراءَ وقّادةٍ | تلهّبُ في كأسِها كوكبا (٣)

ويصور الخمر حال امتزاجها بالماء تصويرا فيه ودّ ووئام ، وانسجام وصفاء ، ويخلع لها في أعماقه من أحاسيس مادية دفينة فيقول :

وقد قبّلَ الماءُ كأسَ المدام | فأضحكتْ ثغرًا لها أشنبا
وشبَّ المزاجُ بها جمرةً | تكادُ بها الكأسُ أن تلهبا

---

(١) الديوان : ٨٣
(٢) نفسه : ١٣٥
(٣) نفسه : ٢١٣

* الاوقص : قصير العنق .

عروساً ترى خدّها أحمـرا ... يشوبُ ومفرقُها أشمطا (١)

...الخمر في حمرتها وبريقها تحكي عنده النار ، فكأنها نار مستعرة يصطلي بها شاربها :

لله ندمانُ صدقٍ بات مصطليـا ... ناراً من القدح الملآن تستعر (٢)

...واجتماع لوني السواد والحمرة في شخص الساقي يوحي الى الشاعر ببعض الصور المتقابلة : ...جمرة متقدة يصطلي بها الأسود المحدودب ، وهي شرارة تلتهب بين فحمة أطرافه ...مذهب في لباس حداد ، وكوكب مضيء في قطع من الليل المظلم :

وجمرة تضرم من جمـرة ... يصلى بها أسود محدودب

• • •

واحتملت فحمة أطرافـه ... شرارة من كأسه تلتهب

فيا لها من [illegible] بـه ... ثوب حداد كله مذهب

كأنه والكأس في كفـه ... قطع من الليل به كوكب (٣)

...كما تذكره الخمرة ناراً متقدة ومتلألئة ، في ألوانها وبريقها وابتسامته الحيية ، بالأعراس المنتشر... وأعراس الشهب تستضيء بألوانها وحركتها تراوحاً ، في رسم المشهد الحي لمجالس... ...مع الاحباب والخلان ، على ضفة نهر جزيرته الفاتنة ، فوصف ذلك قائلاً :

ما زال بمنعطف الخليج مجـرة ... فيه يطلع للسلافة كوكب

يكرّ من كأس المدامة أشقـر ... يجري ويصدر للزجاجة أشهب (٤)

...والناري رقة زجاجها وصفائه ، وصفرة لونها توحي إلى الشاعر بشيء جميل في طبيعته... ...عمة ، هو زهرة النرجس فيشبهها بها قائلاً :

---

(١) الديوان : ٢٦٨

(٢) نفسه : ٣٧٤

(٣) نفسه : ٣٧٥

(٤) نفسه : ٢٨٦

طاف بها أسودُ ... ودبّ   يطربُ من لهوِه مرلسته

فعلتُه من سحيقٍ ربـــوةً   قد أنبتتْ من ذهبٍ نرجسةْ (١)

كما توحي إليه في ذلك ، بهذه الصورة الطبيعية المنتزعة من بيئته المائية ، إنها صورة " شمس الغروب " وقد انعكست أشعتها الذهبية الهادئة على صفحة الماء الصافية الرقراقة :

مدّت لنا الشمس إليه صارةً   مفترّةً عن لؤلؤِ الأنداءِ

صفراءَ في بيضاءَ تحسبُ أنها   شمسُ العشيّةِ في إزارِ الماءِ (٢)

والشاعر ، في هذه الأوصاف الحسية ، يلتقي ومن سبقه من شعراء المرية في كثير من الصور ، وهو التقاء يمكن أن يكون أثرا من آثار مطالعاته في ديوان الشعر العربي كما يمكن أن يكون ، في بعض جوانبه ، نتاجا لظاهرة الحسية التي طبعت شعرنا العربي بطابعها في عصوره المختلفة ، ولكن ما يمكن ملاحظته بهذا الصدد ، هو أن الخمر ليست الا جزءا من كل ، " ومعنى " من معاني الطرب المتعددة في الطبيعة (٣) ، وأنها ليست سوى وسيلة من وسائل المتعة ، لا غاية تطلب لذاتها ، وتصرف الشاعر عن التغني بالطبيعة التي أحبها ، وتعلق بها ، الى التغني بها على نحو ما نجده عند أبي نواس مثلا ، فالطبيعة عند ابن خفاجة هي الغاية ، والمتعة بها في مفاتنها ومجاليها الرائعة هي الهدف ، وما الخمر الا خادم لها ، تصطبغ في أوصافها بصبغتها ، وتتلون بألوان عناصرها المتنوعة :

---

* السحيق : المرداد

(١) الديوان : ٢١٠

(٢) نفسه : ٢٥٠

(٣) شعر الطبيعة في الادب العربي : ٢٨٠

الطبيعة والغزل :

يأتي موضوع الغزل في ديوان ابن خفاجة في مقطوعات وقصائد خاصة ، حينا ، وضمن موضوعات أخرى ، كالحماسة والمديح ، والرثاء ، حينا آخر ، وهو في بعضه يسلك طرائق من سبقه ، " فقد حاكى الشريف الرضي ومهيار الديلمي في الغزل الرقيق العفيف ، والالتفات إلى نجد والحجاز ، واستيحاء نفحاتها والحنين إليها ، وساير عبد المحسن الصوري في تصوير عشق المحبوب ، والتلهف على لقائه ، والاسراف في التودد إليه .. وجرى في بعض غزله على طريقة المتنبي من لف الغزل بالحماسة " (١) ، وهو في بعضه لا يعدو أن يكون مقلدا ، ولكنه صدر في كثير من شعره الغزلي عن نفسه ، وأعرب فيه بطريقة وجدانية ، " عن موقف انساني ذاتي ، كان وليد تجربة شعورية واضحة " (١) . وغزله يتسم في مجمله ببعض الخصائص نوجزها في ما يلي :

* انه غزل عام لم تبرز فيه شخصية غزلية واضحة ، فقد عاش ابن خفاجة عزوبة ، لم يعرف عنه أنه تزوج طوال عمره ، كما لم يعرف عنه أنه كان مغرما بواحدة من بنات عصره ، ولم تتملكه امرأة من نساء بيئته الجميلات ، على نحو ما تملكت " ولادة ابن زيدون " (٢) " ونويرة ابن الحداد " (٣) ، يقصر غزله عليها ويتغنى بصفاتها ومحاسنها دون غيرها ، فقد كان مولعا بالجمال بطبعه ، يهتز للحسن ويهيم بعشقه أنى كان :

إني وإن كنت منبتا بلـــدا	أهتز للحسن لوعة غصنـــا
فإنني والمنى من شيمـــي	أبى الدنايا وأعشق الحسنـــا
طورا منيب وتارة غـــزل	أبدي الدنايا وأندب الدمنـــا (٤)

---

(١) ابن خفاجة : ٧٥ - ٧٦

(١) نفســه : ٧٥

(٣) تاريخ الادب الاندلسي . الطوائف والمرابطين : ١٦٠

(٤) الديوان : ١٢١ - ١٢٢

فهو يتغزل بالساقي والساقية ، والمرأة والغلام ، يغفل ذكر الاسم حينا ، ويصـرح حينا آخر ، ولكن تحت اسم مستعار هو أقرب الى الرمز الشعري منه الى الحقيقة الدالـة على أسماء محبوبات مخصوصات ، كأن يذكر ليلى ، ودعد أو مي ، ومية ، وسعدى وسليمى و...الب ، كما نجد في الديوان قصيد موجهة الى أمة صغيرة له تدعى " عفراء " وفيهـا يتغنى الشاعر بالكثير من المعاني الحسية الجنسية ، بعد أن بلغ من العمر الســتة وخمسين سنة .

* انه غزل حسي في مجمله ، يعنى بابراز محاسن المحبوب ، وتصوير صفاته المادية المنظورة وقلما يلجأ فيه الى " اظهار ما في النفس من خلجات ، واضطرام ما يلاقي ... بالمحب من صد المحبوب ، أو يعاني من بعده وهجره ، أو يعاني من أشواقه وهيامه " (١) .

* انه غزل رقيق العبارة ، نقي الاسلوب ، " لم يعمد فيه الشاعر - عموما - الى التهتك أو المجون ، ولم يزد في الوصف على المفهوم العادي من الحديث " (١) ، الا مرة واحدة في مقطوعة واحدة وصف فيها سويدا " وصفا حسيا مكشوفا " (٢) ، ولكنه صرح بأنها ليست من الحقيقة في شيء ، كما لم يفته أن ينوه بين الحين والحين بعفته ، وكرم نفسه ، وعفة ... قصد منها الشاعر التورع من الوقوع في المعصية ، أو التحرج عن مقارفة الزنى لا كما ظن هنري بيريس " من أنه قصد بها الوفاء لامرأة واحدة بعينها (٣) .

* انه يلتقي في معانيه الغزلية ، وصوره وتشبيهاته ، مع شعراء العربية من قبله ، كما أنه قد يتفق مع بعضهم في الاتكاء على الطبيعة في تصوير محاسن المحبوب ، ولكن أسلوبه في ذلك يبقى متميزا ، كثرة وتنوعا ، فقد رأينا في الفصول السابقة من هذا الباب أن الشاعر كان كثيرا ما ينظر الى الطبيعة من خلال المرأة ، فيصفها بصفاتها ، وينعتها بنعوتها ، ولكنه هنا يعكس الأمر ، فينظر الى المرأة من خلال الطبيعة ، ويستمد ألوانها ، وعناصرها المختلفة في تصوير صفاتها وإبراز محاسنها ، ولعله يحلو بنا البحث لو تتبعنا هذه الـ...رة

---

(١) ابن خفاجة : ٧٥ - ٧٦

(٢) الديوان : ١٥٧

(٣) La poesie andalouse ;p.424.

المعنوية في شعره ، بكل جزئياتها وتفرعاتها ، فلا تكاد تخلو مقطوعة أو قصيدة في هذا
...جمال من صور ذات علاقة بالطبيعة ، بيد أننا نرى أنه لا بد من الوقوف عند أبرز تجليات
... هذه الظاهرة للتعرف من خلالها الى أي مدى استطاع الشاعر أن يفيد من الطبيعة في بناء
... الغرض الشعري المهم في ديوانه .

لقد فتنت المرأة ابن خفاجة بحسنها ، وأسرت قلبه بجمالها وبهائها ، وهي فتنة تدفع ... من
... ، وهو الشاعر المرهف الحس ، الذواقة لمعاني السحر والجمال، في كل مايحيط به من ... الطبيعة
...ظواهر وأشياء الى التصوير ، تصوير محاسن المرأة وابراز مفاتنها جاعلا من ... معالم
...ظواهرها المتنوعة مادة لتصويره ، ومعينا ثرا يستمد الصور والالوان ، لتجسيد ... فالمرأة الشابة
... الصورة الجميلة التي استرعت انتباهه ، وملكت عليه مشاعره واحاسيسه ... واهتزازها في مشيتها
...الرائعة الحسن ، تذكره في احمرار وجنتيها بالوردة ، وفي تثنيها ... بالعناب
... الاسلية الميّاد ، وفي بياض جيدها بالسوسانة ، وفي خضاب أطرافها ...
... وفي بياضها وحسنها بالماء وفي اشراقتها وبهائها بالشمس ، كما تذكره في حسن صوتها ورجعة
ترنيمها ، بسجع الحمام ولون الشراب وهي صور متراكمة يوظفها الشاعر كلها في تصوير محاسن
المرأة ، وتجسيد جمالها الذي يلفت نظره ، ويهز قلبه ، وذلك في قوله :

فتق الشباب بوجنتيها وردة ... في فرع إسحلة تميد شبابا
ونمت سوالف جيدها سوسانة ... وتوردت أطرافها عنابا
بيضاء فاض الحسن ماء فوقها ... ولقا بها الدُّرُّ النفيس حبابا
نادمتُها ليلاً وقد طلعت به ... شمساً وقد رقَّ الشراب سرابا
وترنمت حتى سمعت حمامة ... حتى إذا حسرت زجرت غرابا
بين النجوم تلادة تحت الظلا ... م غمامة خلف الصباح نقابا (١)

... يخاطب أمته الصغيرة ، عفراء ، مسلما ، وراجيا أن يراها في حال ترضي احساساته ال...ية
وتشبع رغباته الجنسية ، ويتوصل الى ذلك بعناصر الطبيعة قائلا :

---

(١) الديوان : ٢٨٠

وأقرنُ* عُفَيْراء السلامي قل لهــا ... ألا هل أرى ذات السُّهَى* قمراً تمّا
وهلْ يتثنّى ذلك الغصن نضــرة ... بجزعي وهل ألوي معا طفه ضمّا
ومن لي بذات الخِشفِ* من متنقّــص ... فآكله عضاً وأشربه لثمـا (١)

فهو ينعت أمته بالسها لصغرها ، ويتمنى لو تصير قمرا مكتملا ، وغصنا متثنيا ، وثمرة دانية ، فيلوي عطفها ، ويشبع منها لثما وعضا ، وهي رغبات ذات صلة قوية بشخصيته وحياته الذاتية .

ويتذكر ليل الوصال ، ويصف حاله في ظلمه مستعينا بما يتراءى له في ليله من نجوم وبرق وظلام ، فيقول :

فما أنسَهُ لا أنسَ ليلاً على الحِمى ... وقد زلّت أوضاحا ورن جمـالا
وزار به نجمُ السّها قمرَ الدُّجى ... فباتا بحال الفرقدين* وصالا
اذا ما بدا في فيه بارقُ مبسم ... أجنّ دجى فرع فحزتُ ضلالا (٢)

كما يذكر شخصي المتغزل بها بالبانة في الاهتزاز والتثني ، وبالروض في طيب رائحتها يسميها بذلك ويناديها به ، وينشد على طريقة عبد المحسن الصوري في رقة ظاهرة فيقول :

يا بانةً تهتزُّ فينانةً ... وروضةً تنفحُ معطـارا
لله أعطافك من خوطـةٍ ... وحبذا نورك نُــوّارا (٣)

ومحبوبه أهيف ضامر الخصر جديبه ، مكتنز الردف خصيبه ، يحكي الروضة في جمال واشراقة وجهه ، والقضيب في لينه وحسن قده :

وأغيدَ في صدر النديّ لغشيه ... حليٌّ وفي صدر القصير نسيب
من الهيفِ* أما ردفُه فمنعّم ... خصيبٌ وأما خصرُه فجديب
ترى بروض الحسن من نورِ وجهه ... وقامته نوّارةٌ وقضيبُ (٤)

---

(١) الديوان : ٨١ — ضمير أقرن يعود على البرق . السهى : كوكب صغير جدا . الخشف : ولد الظبي أول ما يولد
(٢) نفســه : ١٢٤ — الفرقدان : كوكبان نيران
(٣) نفســه : ١٢٥
(٤) نفســه : ٨٣ — الاهيف : الضامر البطن والخاصرة

ويتغزل في امرأة قد تناسب لون كسائها الاصفر مع لون بشرتها البيضاء ، فازدادت جمالا جمالها ، ويربط بينها وبين عناصر الطبيعة لونا وتأثيرا فيقول :

وبيضاء في صفراء تميلُ نعمـــة تنقص عنها المندَلُ الرطب والجمر*
خلعتُ رداءَ الصبرِ فيها علاقـــة ويحسُنُ إلا في هوىً مثلها الصبرُ
ولا غروَ أن تروى بها عينُ ناظـــر وباطنُها ما وطاهرها خـــــــر (١)

ويخاطب محبوبه بمثل قوله :

يا غصنَ مُشبهٍ تام ينشر فرعـــه ورقاً ويفتق نوره نــــوّارا
ما كان ضرّك لوهصرت لبليــة فنثرت من قبل عليّ ثمــارا (٢)

فمحبوبه ،في حسن قده ، وجماله وروعته ،غصن غض مورق ، قد تفتق نـــوره وأما ما يجنيه أو ما يأمل جنيه من محبوبه من قبل ،فثمار يانعة ، دانية تنتثر ، وهذه كلها صور يبدو من خلالها اتكاء الشاعر على الطبيعة واعتمادها أساسا في التشبيه والتصوير .

وهو يحدثنا عن احدى مغامراته ، ويصف لنا الجو الذي زار فيه حبيبته ، كما يصفهـــا هي نفسها ، مستعينا بصورة كل من الهلال والقمر ، والروض ، والقضيب المثمر ، فـــي تصوير محاسن هاته المحبوبة ، وتجسيد نواحي الجمال والفتنة فيها فيقول :

لم أنس ليلةَ زُرتُ سربك زائـــرا فكأنما روّعتُ فيها جوذرا*
فأقمتُ علقاً أزوراً وجلوتُ وجهــــا أزهرا وأدرتُ طرفاً أحورا*
وبدا* رداءٌ من شبابك أبيـــض ولربّما اعترض الحياءُ فصفّرا
وبدا هلالا في نقابك طالــــع ولربّما . انحدر النقاب فأقمرا
فجنيتُ روضاً في قناعك زاهــرا وقضيبَ بانٍ في وشاحك مثمرا (٣)

---

(١) الديوان : ٢٢٣
(٢) نفســـه : ٢٧٢
(٣) نفســـه : ٢٠٠

* - المندل : من العطور
- الجوذر : ولد البقرة الوحشية . الحور : شدة بياض العين في شدة سواد هـــا
- عفا : أسبغ .

وقد يمر به من بعيد، يرفل في أثوابه الجميلة، ويجرر رداءه زهوا وخيلاء، يهتز
تثنى في مشيته، فيهتز له الشاعر، ويزداد به لوعة، ولا يملك غير التصوير وسيلة، فيصور
حاسنه في إعجاب قائلا :

مرّ بنا وهو بدرُ تِـــــمّ ... يشحبُ من ذيلهِ سحابـــا
قد سالَ في صفحتيهِ مــاءٌ ... يعودُ من خجلةٍ شرابـــا
بقامةٍ تنثني قضيبـــاً ... وغرةٍ تلتظي شهابـــا
كأنه موجةٌ تهـــادى ... تلبسُ من وشيهِ حبابـــا
فهو صباً رقةً وغصـــن ... لينا ونوّارة شبابـــا (١)

وهو نص يظهر مدى استفادة الشاعر من الطبيعة في مظاهرها وعناصرها المتنوعة
في بناء صوره، والإعراب عن معانيه بكيفية واعية، طبعته بطابع جميل، زاد من رقته
…بما فيه من موسيقا عذبة. وما وصف به لحظات اللقاء بمن يحب، وما ناله
في ظلال الوصل من محبوبه، متكئا على الطبيعة في مظاهرها المتنوعة، تشبيها واستعارة
…ه على طريقة أبي الطيب المتنبي في خلط الغزل بالحماسة :

أروح إليه ثم أغدو وإنمـــا ... أنحبعن مجْدٍ إلى ملتقى وجـــد
إلى حيث أجنى الأقحوانة من فمٍ ... شهيٍّ وأثني الخيزُرانة من قـــدّ
مشى يتثنّى خوطةً فسألتُـــه ... قطافَ ثمارِ الوَصْلِ أو زهَرِ الوعـــد
وليلٍ تعاطينا المدامَ وبيننـــا ... حديثٌ كما هبّ النسيم على الورْد
ونقلي أقاحُ الثغرِ أو سَوسنُ الطُّلى ... ونرجسة الأجفان أو وردة الخـــدّ (٢)

وهو نص يحفل أيضا بعناصر الطبيعة، على اختلافها، فالأقحوانة، والخيزرانـــة
والخوطة، والثمر والزهر، والنسيم والورد، والسوسن، والنرجس، عناصر طبيعية وظفها
الشاعر في بناء صورة محبوبه، وتصوير لحظات الأنس به بكل معانيها وظلالها .
لقد وجد الشاعر في الطبيعة من حوله معينا ثرا أسعفه بالكثير من الصور، عـــ

---

(١) الديوان : ٣٢٨
(٢) نفســه : ٣٤٨

كيف يستخدمها في تصويره لمحاسن محبوبه ، وابرازه لمفاتنه ؛ فالمحبوبة خيزرانة تميل بها ريح الشباب ، وهي تحكي في جمال عينيها وعنقها عيني الغزال وعنق الريم ، كما أنها تحكي في رقتها وبياض ثغرها الخمر والحباب ، وانها في ثوبها الحريري اللامع تشبه البدر المنير وقد حفت به النجوم الزهر :

ومَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيلِ عنها وإنَّما	رفعتُ جناحَ السِّترِ بهضبة البَدْرِ
وقَبَّلْتُ ما بين الصَّبا الى الطُّلَى	وعانَقْتُ ما بين التَّراقي الى الخَصْرِ
وأطربَ سجْعُ الحلي من خَيْزُرانَةٍ	تميلُ بها ريحُ الشَّبيبةِ والسُّكْرِ
غزاليَّةُ الألحاظِ ريميَّةُ الطُّلَى	مدامية الألمى حبابيَّة الثَّغْرِ
ترنَّتْ في مُوشِيَّةٍ ذهبيَّة	كما اشتَبَكَتْ زهْرُ النجوم على البَدْرِ
وقد خلعتْ ليلاً علينا يدُ الهوى	رداءَ عِناقٍ مزَّقته يدُ الفجْرِ (١)

فهو يلجأ ـ دائما ـ الى الطبيعة ، يستمد ألفاظها وألوانها ، وضياءها ، ويستعين بها على رسمه وتصوير صورة محبوبه الذي جنى منه ما جنى ، وسهر معه في غفلة سادرة لم يوقظهما منها غير صورة صوت رداء الليل الاسود وهو يتمزق بين يدي الفجر الذي كشف عنهما ، وأسبغ عليهما من نوره وضيائه ، في مشهد جميل ، قوي ومشخص في آن .

كما أن وجه من يحب في بياضه وتورده خجلا ، وارتسام العذار بسواده على صفحته يرق الشاعر ويلهمه بأبيات يصفه فيها قائلا :

غازلتُه من حبيبٍ وجهُه فلقٌ*	فما عدا أنْ بدا في وجهه شفقٌ*
وارتجَّ يخطر في أذيال خجلتِه	غصْنٌ بمعطفِه من إستبرقٍ* وَرَقُ
تخال عذارَه في نُور صفحتِه	كواكبًا في شعاع الشمس تحترقُ
عجبتُ والعينُ ماءٌ والحشا لهب	كيف التقتْ بهما في تيه الطُّرقُ (٢)

فهو يحكي الفلق في نصاعة بياض وجهه ، والشفق في احمرار وجهه خجلا ، كما يحكي في تشبيه الغصن الاخضر الندي ؛ وجهه شمس ، وعذاره كواكب تحترق لوهجها وإشعاعها

---

(١) الديوان : ٢٤ - ٢٥

(٢) نفسه : ١١٥   * ـ الفلق : الصبح بعينه ، الشفق : حمرة العشي . الاستبرق : الديباج الغليظ .

تشبيهات واستعارات تفصح عن مدى اعتماد الشاعر على الطبيعة ، تكائه عليها في
تلوين صوره .

من قصائده الغزلية الرقيقة التي يسطلق فيها معطيات الطبيعة في وصف المحبوب ،
جماله الجسدي ، وما يقدمه الهجر في القلب من لوعة وشوق، هذه التي يقول فيها :

يا رُبَّ ليلٍ بِتُّـــــــــهُ ... وكأنه من وحف شَعْـــرِك
تنهل د معة مزنــــــــــق ... فيه وبينك ما نزرُ ذكـــرك
أتبعتُ فيه وقد بكيـــــت ... عقيق خدك درّ ثغـــرك
وشرقتُ فيـــه بعبـــــرة ... قد وردتها نار هجـــرك
فكأنما ينفض عـــــــن ... حَبَبٍ بها رمّانُ نحـــرك
ولربَّ ليل قد صدعْـــتُ ... ظلامه بجبـــين بدرك
ولهوتُ فيه بــــــذرةٍ ... مكنونة في حُقِّ خـــدرك
تندى شقائق وجنتيـــك ... به وتنفحُ ريحُ نشـــرك
وقد استدار بصفحتـــي ... سوسانُ جيدك طل دُرّك
وتمبّ من رجراج ردْ ـ ـ ـ ـ ـ ... فٍ موجة في شط خصرك (١)

وهو نص يفيض رقة وعذوبة ، ويكاد يحيط ما استمده الشاعر من الطبيعة من تشبيهات
واستعارات ، ونعت به من يحب ، مبرزا محاسنه ، ومجليا مفاتنه ، في أسلوب جميل ، وعرض

وابن خفاجة وهو الشاعر المرهف الحس ، الرقيق القلب ، يؤلمه الفراق ، ويذكي بين
جوانحه الشوق فيشتد لوعة ، ويضطرم حنينا ، ويرجو من ريحي الشمال والجنوب ألا ينقطع
هبوبهما ، لانهما الرسول الامين ، الذي يحمله من يحب ، ويحط اليه أنفاسه ، ويجعله
يستحضر معاني اللقاء ، ويستشعر لذة لحظات الوصال ، يقول :

أبداً أحِنُّ إليك شرقـــا ... لا الغريب مع الغروبْ
وأقول للريح الجنـــوب ... من الأصيل على الهبوبْ
فهل استطبت بي الشمـــال ... كما استطبت بك الجنوبْ (٢)

---

(١) الديوان : ١٢٢ - ١٢٣

(٢) نفســه : ٢٥١

ويقول :

ومن لي بهاتيفٍ يطرقُ مَضجعي ... وبين الكرى والعينِ فرقٌ ضروبُ
وإني لمهتزٌ لذكراك لوعةً ... كما اهتزَّ في مسرى النسيمِ قضيبُ
فهلْ تهاداني الرياحُ فليتها ... شمالٌ تهادى بيننا وجنوبُ
تهبُّ بنا طوراً جنوباً فنلتقي ... وتجري شمالاً تارةً فتئوبُ (١)

وهي أبيات رقيقة عذبة ، أفصحت عن عاطفة الشاعر ، وعبرت بألفاظها السلسة ، وموسيقاها الشجية عن نفسية حزينة وقلب معذب ، ونظرة عذرية إلا أنها لا تطرد في شعره الغزلي ، فالرجل محب ولهان ، يؤرقه الفراق ، وتهزه الذكرى ، وينحله الحب ، فيهف حتى ان الرياح لتتهادى به كأنه الغصن في مهب النسيم ؛ وياليتها كانت ريح الشمال والجنوب ، وعندها يتلاقى الحبيبان ، فيهنأان ويسعدان .

ولكن هذه النغمة العاطفية لا تكاد تظهر الى جانب التصوير الحسي لنواحي الجمال الجسدية في المرأة ، والذي استوحى فيه الشاعر معطيات الطبيعة بأنواعها ، واستطاع بحس انتقائي شاعري ، أن يصنع تمثالا جميلا للحبيبة مركبا من عناصر الطبيعة الحية والصامتة . ونجد أنفسنا الآن ، وجها لوجه أمام سؤال يفرض وجوده في هذا المقام وهو : ما السر في هذا التداخل بين صورتي كل من المرأة والطبيعة في شعر ابن خفاجة ؟ . لقد أجاب الدكتور محمد رضوان الداية عن هذا السؤال بقوله " لقد وجد الشاعر في الطبيعة مجالي كثيرة تذكره بالمرأة بصورة إجمالية ، كما ذكرته معالم جميلة من الطبيعة بمثل ما صور جمالية في المرأة ، ولد ذلك إحساسه العام بالجمال ، وسعيه وراء " الصورة الجميلة " أينما كان واستطاع ابن خفاجة أن يجد - وبشكل مطرد تقريبا ، علاقة وثيقة بين المرأة والطبيعة بل هي علاقة متبادلة ، فقد يتغزل ، ويتحسر وكأنه يصف شجرة أو جزءا من جزئيات الطبيعة ، فـ[illegible] وقد يكون في أثناء رسم لوحة أو تصوير مشهد ، أو تقرير انفعال ما في جو الطبيعة ، وحافزه الى [illegible] هو يستخدم معطيات الغزل ، أو يربط ربطا وثيقا بين المرأة والطبيعة ،

---

(١) الديوان : ٢٦٩

وهو تحليل (١) . المتغاير للموصوفات المتماثلة الايحاءات بين والتداعي ، الجمال عد جوانب الى مضيفا ، أرى أني غير ، وأدبه الشاعر لحياة عميقة دراسة على يدل ، جيه ان من ، البحث هذا فصول في الامر هذا بشأن اليه أشرت أن ماسبق وموكدا ، ستاذي منفصلا ، الشاعر عن غريبا شيئا تعد لم الطبيعة أن في أيضا يكمن ربما الظاهرة هذه في لسر الشاعر أن الاخر الوجه أضحت ، لاهتماماته وهدفا ، كيانه من جزءا أضحت بل ، عنه في المرأة صورة مع اتحادها كان هنا ومن ، الحياة : أعماقه في اليه ويحن ، به يهيم كونه حيث من عنده بها حظيت التي الاهمية جانب الى الاخيرة هذه لأن ، الشعوري عالمه بينهما فالرابط ، استمرارها تعني ، أيضا الحياة تعني ، عمره طوال منها محروما عاش واحبها ، وتنصيقا تزويقا ، بهما عنايته فكانت ، وأسرارها معانيها بكل ، الحياة هو عنده خوف من نفسه قرارة في به يشعر لما وتعويضا ، للحياة حب من به يحس لما ارضاء ، وتخليدا الموت والفناء . شبح من وقلق

---

(١) ابن خفاجة : ٦١ - ٦٢

الفصل العاشر

في

الدراسة الفنية

القسم الأول

في

الشكـــــل

(أ) - البناء الشعري :

ان كل من يتصفح ديوان ابن خفاجة ، يخلص الى أنه شاعر مطبوع (١) ، قسوي الشاعرية ، قد انقاد له الشعر ، فأعرب بوساطته عن آلامه وآماله ، وصور من خلاله بيئتـه ووطنه أجمل تصوير ، كما يحس بثقافة الشاعر في مجال الادب شعره ونثره ونقده ، وطرائقه على اختلافها ، ويحس مرة ثالثة بتنوع الطرائق وتعدد المذاهب لدى الشاعر ، فهو لا يسير على سنن واحد ، يترسمه ولا يحيد عنه ، وانما ينوع في مجاله الفني ، فينسج على منـوال طريقة المتنبي في مزج الغزل بالحماسة تارة ، وينهج ... مهيار والشريف الرضي فـي التلذذ والتلدد تارة ثانية ، وينظم على طريقة عبد المحسن الصوري الفنية والغزليـة تارة ثالثة ، وقد لا يكتفي بأن يكون متمثلهم ، بل يعارضهم في أشهر قصائدهم ، ولا يتردد في ابداء رأيه في اشعارهم ، مما يدل على تمكنه واقتداره الفني ، وهذه أمـور أشرنا اليها قبلا (٢) . ومع هذا كله ، فقد ظل الشاعر مدينا في عطله الفني لاسلوب بناء القصيدة العربية القديمة والمحدثة منها خصوصا ، وعلى الأخص في مطولاته ، فقد كـان يميل - أحيانا - وخاصة في قصيدة المدح الى تنويع الاغراض، فمن مقدمة في النسيب أو في وصف الطبيعة أو في الحنين الى الوطن والشوق إلى الأصحاب والديار الى وصف عام تتعدد مناحيه وتتشعب قضاياه ، حيث يصف الليل وسراه فيه ، ويتحدث عن وحدته واغترابـه أو يصف فرسه أو غير ذلك ، ثم يطرق الغرض الرئيس ، مدحا أو رثاء فيفتن ما شاء ، ويقفـي ذلك بتقديم شعره ، أو يعرض المه من دون الماح ، ثم يختم قصيدته بتحية الممدوح واتراثه السلام أو الدعاء له ، وغالبا ما تكون تحيته ، وهديته إليه هي قصيدته التي يطنب فـي نعتها بما يزينها ويبرز صفاتها وخصائصها الفنية الجمالية . وهو لدربته وتمكنه من فنـه يحسن التخلص ويبرع في الانتقال من غرض الى غرض ، ومن موضوع لآخر .

---

(١) قلائد العقيان : ٢٣٦ ، الذخيرة ٣/٢ : ٥٤١ ، المطرب : ١١١

(٢) راجع الصفحة : ٤٣

، بوجود الوحـــدة وقد يجمع في قصيدة واحدة الغزل والرثاء والمدح ، مسوغا لذلك

ومع ذلك فاننـــا بالخطاب (١) للنفسية والاشتراك الشعوري بينه وبين من يتوجه اليه

نلحظ ، كما يلحظ ذلك قارئ الديوان ، أن هنالك قصائد ومقطوعات كثيرة عرف الشاعـــر

فيها وحدة الموضوع ، فقد وحد الموضوع في الرثاء ، ووصف المعركة ، والغزل والوصف ، ووصف

الليمونة ، جميعها وصاغتها منه خاصة ، والشكوى والحنين ، فهو يحصر القصيدة أو المقطوعـــة

في الغرض المقصود وما يتصل به لا يحيد عنه الى غيره ، ولعل هذه الوحدة المتطورة في عمـــل

ابن خفاجة الشعري قد تحققت عن قصد ووعي منه ، وجاءت نتيجة لتطور نوعي في فن بنـــاء

القصيدة عنده ، فقد كان يعدل عن المقدمة أحيانا ، ويختزل في مراحل بناء قصيـــدة

المعروفة أحيانا أخرى ، ويدل ذلك [illegible] ن سعة اطلاعه وعمق معرفته بفنه وبأساليبه المتنوعـــة

ومع ذلك فقد ظل شاعرا تقليديا ، [illegible] فنا على نمط الشعر القديم ، ولم يحاول مرة فـــي

حياته الفنية الخروج عليه ، فقد رأيناه من قبل يعد الشعر من خلال الجلة ، وحلية النبلاء

الحلية (٢) . وهذا يعني أنه لا يعد من الشعر ذلك الفن الذي اكتظت أدواتـــه

الفنية في عصره ، وضرب على أوتاره الكثير ممن عاصره من الشعراء ، أي الموشح والزجل ، فهمـــا

من اختصاص العامة لا الخاصة ، وكلام السوقة الذي يترفع عنه الأشراف ، وهو بحكم كونه مـــن

الجلة وطبقة النبلاء العلية ، فانه يأبى الخوض فيه تنزها أو تحفظا ، فهما (اي الموشـــح

والزجل) مما لا يرقى الى رتبة الشعر ، ولا أن يناضاه فنيا أوفي تحقيق الأهداف وبلـــوغ

المآرب ، ولعله في هذا يساير بعض نقاد ومؤرخي الأدب في عصره الذين لم يعترفوا بهـــذا

اللون من فن القول ، على الرغم من اعجابهم به ، ولم يرضوا بتقليده في مؤلفاتهم وإدراجـــه

ضمن اختياراتهم الشعرية . فابن خفاجة اذاً شاعر محافظ ، لم يتجاوز التقاليد الفنيـــة

لقصيدة الشعر القديمة ، ولم يرض بسواها بديلا في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه .

وهو قد ينظم من أجل النظم ، لا عن تجربة شعورية يعيشها ، وما ذلك إلا لقدرتـــه

الشاعرية ، وامتلاكه لناصية فنه ، وهي ظاهرة لحظها صاحب منهاج البلغاء في فنه ، فيلحقه

في زمرة الشعراء المتصفين بالقوة على التشبه والمتمرنين بالقدرة على نظم الشعر ، وتجويـــده

الى درجة لا يمتاز فيها المطبوع من المتطبع (٣) . ولكن ذلك قليل في شعره ، فشعره في

---

(١) الديوان : ٢٠٣

(٢) الديوان : ٦

(منهاج البلغاء وسراج الادباء : ٣٤١ - ٣٤٣

وكيف يصر الفكر ... للوشي المذهب ، للطبع المهذب ، لأريته كيف سوك
... صده عن الشعر ، ولأطلعت منه في سماء معاليه نجوما تنير ورجوما تثير *(١) ، وتبعا لهذا
... ل وبدر البكر ، ... ظاهرة الجزالة ، وظاهرة الرقة ، ويبدوان تجليا صادقا
لقد اجتمعت في شعره ظاهرتان : ... في شعره . كقوله :
لطبيعة شخصيته التي تجتمع فيها الصفتان اللتان عبر عنهما غير مرة

إني وإن كنت مهجة جلدا ... أهتز للحسن لوعة غدا
تسوت بأسا ولنت مكرمة ... لم ألتزم حالة ولا سننا
لست أحب الجمود في رجل ... تحسبه من جموده وثنا (٢)

وقوله :

ويا عجبا لي كيف أجبن في الهوى ... وإني لمقدام إذا الذمر* أحجم (٣)

وقوله :

وأطلع للأعداء من عيشتنحي ... طلوع جبين الشمس للأعين الرمد
على أن لي قلبا تطلّه الهوى ... فللحب ما يخفي وللشوق ما يبدي (٤)

فلا ينبغي حينا برقة شعره ، وعذوبة لفظه وسلاسته ، وبخاصة في سياق الفخر وهبته
الشعرية وأعماله الفنية فيقول :

وحسبك من شعر يكاد لذونة ... يغني به النبت الهشيم فيورق (٥)

ويقول مزدوا :

فطار بذكري ما شئته ... كلام إذا ما طرا أطربا
تحمّل ما شاء من رقة ... فهبا عن المشرق المغربا
وكاد بما فيه من بلة ... يقوم الصحيفة أن تعشبا
فلله قولي ما أعذبا ... ولله لفظي ما أعذبا (٦)

---

(١) الديوان : ٣٣٠
(٢) نفسه : ١٢١
(٣) نفسه : ١٧٤
(٤) نفسه : ٣٤٧
(٥) نفسه : ١٨٨
(٦) نفسه : ١١٧ - ١١٨

* - الذمر : الشجاع

ويقول في عنايته بجزالة اللفظ وجلالته في موضعه ، ورقة المعنى موجزاً :

وركبتي اللفظ الجليـــــل ... وسر الى المعنى الدقيق (١)

فهو إذاً يتراوح في صنعته الفنية بين اللفظ الجزل ، واللفظ الرقيق تبعاً للمعاني الرقة ، دون أن يصرفه ذلك عن العناية بالمعنى توليداً واختراعاً ، ولفظه على الرغم من جزالته (٢) ، سهل غالباً ، لا يحوج القارئ الى قواميس اللغة الا في النادر ، ويرى أن منشأ الغموض الذي يكتنف شعره - أحياناً - ليس راجعاً الى الالفاظ كما كان أحد الباحثين حيث قال : « ولو ألقينا نظرة على هذه الالفاظ الشعرية لرأينا أن ابن خفاجة كان يهوى اللفظ الغريب ، فجاء شعره صعباً ، وفي بعض الاحيان غامضاً (٣) » .. انما يرد الى اسلوب الايجاز والتكثيف في شعره ، والى ظاهرة الاستعارة التي حفل بها [illegible] ، وهو نفس الامر الذي كان شيوخ ابن خلدون يعيبون من أجله شعر ابن خفاجة ، فقد كانوا ينكرون عليه « كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد » (٤)

وهي ظاهرة لها صلتها بنفسية الشاعر القلقة المتوجسة ، وبما كان يصطرع في أعماقه من معان وأفكار ، فقد كان ينطوي على طاقة شعورية زاخرة ، كانت تضغط عليه [illegible] ، فكان يلجأ الى الافصاح عنها ، ولفظها خارج عالمه الشعوري ، بغية التخلص منها او استراحة من آلامها المؤرقة ، ولعل هذا هو الذي جعله يلجأ الى أسلوب التكثيف ، وصميم البحث عن اللفظة الدالة ، الموحية ، المعبرة بعمق عما يود قوله ، والاعراب عنه ، يتوخى من ذلك الدقة في الاستعمال ، والانسجام الموسيقي والتعبيري في شعره ، وهو أمر أكده الدكتور محمد رضوان الداية بقوله : « نجده يحسن اختيار ألفاظه ، ويأتي بها كما يقتضي المقام ، وكما تتلاءم مع الموضوع المطروق ، انك تحس بأناقته ودقته ، وقدرته على ابراز اللفظة الدقيقة المناسبة في اطار الجملة ، والعبارة ، وفي حيز الفكرة المناسبة .. » (٥) .

---

(١) الديوان : ٤٣

(٢) ابن خفاجة الاندلسي . احمد الاسكندري ٢٦١

(٣) حياة وآثار الشاعر الاندلسي ابن خفاجة : ٢٩٣

(٤) مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٩٨

(٥) ابن خفاجة : ٧١ ، ١٠٥

وإذا ألقينا نظرة فاحصة في قاموس ابن خفاجة الشعري ، وجدناه زاخرا بالالفاظ أفعالا وأسماء ، استمدها الشاعر من ثقافته الادبية واللغوية والدينية ، ومن بيئته الطبيعية بكل ما فيها من عناصر ومعطيات ، مع ميل واضح الى الاكثار من الافعال التي تفصل من دلالة على الحركة كان الشاعر يحرص عليها في عنصر التشخيص ، وميل الى العناية بالصفات المنطوية على طاقة حركية وإيحائية ، كما في قوله على سبيل التمثيل :

سقيا لها من ليلة متنفس ... تحت الدجى عن طارق متسمر (١)

وقوله :

تحفّت بها بين بليلٍ وربوة ... بمسرى غمام جاد ها متبجس (٢)

وقوله :

وإذا اطمأنّت فمن تنفس قلة ... وإذا شربت فمن غطا راجس (٣)

فلا يخفى ما في الصفات : متنفس ، متسمر ، متبجس ، راجس .. من حركة ضمنية وإشعاعات إيحائية ، وقد يلجأ الشاعر ، الى استخدام الرمز ، فيجعل مادته أسماء الاماكن النجدية والحجازية ، والشامية ، والعراقية ، فيذكر : منعرج اللوى ، واللوى ، ووادي الغضا والحمى ، وسلع ، وتهامة ، ودجلة والفرات ، وأم الرأل ، والضميم ، ورامة ، ونجد والخيف ، وذا النقا ، والعقيق ، وجاسم وغيرها ، مبينا أنه لم يوردها في شعره الا على سبيل الايماءة والاشارة (٤) . وهو واثق منه لما للرمز من قيمة فنية في بناء العمل الادبي وعلى كل حال ، فاستخدامه لتلك الاسماء أعطى شعره نفسا جديدا ، وأمده بطاقة إيحائية ونفحات من الحنين محببة . وتمثل عنايته باللفظ من حيث دقته وجرسه ، وموقعه في الجملة ، ملاءمة وانسجاما ظاهرة بارزة في صنعته الفنية ، أكسبت شعره جمالا وإمتاعه بموسيقا تطرب لها الاذان وتهتز لها القلوب ، وهو أمر تنبه له هو نفسه فنعته بمثل ما ذكرناه (٥) ، كما تنبه له معاصره ابن خاقان فدل عليه بقوله : إنه " تصرف في فنون الابداع كيف شاء ، وأبلغ دلوه من الاجادة الرشاء ، فشعشع القول ورققه ، ومد في ميدان الإعجاز طلقه ، فجاء نظامه أرق من النسيم العليل ، وآنق من الروض البليل ، يكاد يمتزج بالروح ، وترتاح له النفس كالغصن المروح " (٦) .

---

(١) الديوان : ٤٨
(٢) نفسه : ١٥١
(٣) نفسه : ٢٢٨
(٤) نفسه : ٢٠٤ ، وهذا البحث : ٤٤
(٥) راجع هذا الفصل : ٣٢٣
(٦) القلائد : ٢٦٦

ت) الموسيقا :

تمثل الموسيقا من حيث قدرتها التأثيرية ، وقوتها الايحائية عنصراً أساسا في عملية البناء
شعري ، هذا اذا لم نقل إنها صفة تغلب عليه ، وتلحمه بطابعها المميز ، فليس الشعر
المتميزة كما يقول ابراهيم أنيس " الا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر بها
تطرب " (١) ، ولغة الشعر الموقعة الموزونة كما يقول " جويو " انما هي موسيقا " (٢) ،
كان " نيتشه " يميل الى هذا العنصر الموسيقي في الشعر و " يقدر جانب الوزن الموسيقي
يه أكثر من سائر الجوانب ، فهو " يفضل الشاعر الرائع الرنين ، الفائق الايقاع ، المسيطر
لى مادة الاوزان ، وأعظم مناقب الشاعر ، في نظره ، أن يكون شعره وقصائده سلاسل من
الاناشيد الصالحة للترقيص " (٣) . ويذهب " كروتشه " أبعد من ذلك عندما يوحد بين
البحر واللفظ والقافية ، وهي مادة الموسيقا الرئيسة في الشعر ، وبين الفكرة الشعرية
فيقول : انك لو جردت الشاعر من أبحره وألفاظه وقوافيه ، لما بقي هنالك فكرة شعرية
كما يميل الى بعضهم ، بل لما بقي شيء ألبتة ، فانما نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه
القوافي وهذه الابحر " (٤) ، كما يعد " رتشاردز " الايقاع ، وفي معظم الحالات ،
" المفتاح لتأثيرات الشعر " (٥) . ويؤكد " كولردج " دور الوزن والقافية الايقاعي في
الشعر فيقول : " إن الوزن هو الشكل المميز للشعر ، وان الشعر يصبح ناقصا معيبا
بدون الوزن " (٦) .

ولقد أدرك نقادنا القدامى ما لهذا الجانب الموسيقي في الشعر من تأثير ، فعنوا به
وأكدوه ، فاشترطوا في الشعر أن يكون موزونا مقفى ، كما أحسوا بدور الالفاظ في هذا
الشأن ، فاشترطوا فيها " أن تكون سمحة ، سهلة مخارج الحروف من مواضعها ، عليها
رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة " (٧) . فللشعر مهمة جوهرية ، ودور أساس هو
أن " يطرب ، ويهز النفوس ، ويحرك الطباع ، فهذا بابه الذي وضع له ، وبني عليه
لا ما سواه " (٨) .

---

(١) موسيقا الشعر : ٢٢
(٢) مسائل فلسفة الفن المعاصرة : ١٦٩
(٣) في الشعر الاوروبي المعاصر : ١٣٢
(٤) المجمل في فلسفة الفن : ٧٠
(٥) عن موسيقا الشعر العربي : ١٤٠
(٦) كولردج : ١٧٨
(٧) نقد الشعر : ٢٨
(٨) العمدة ١ : ١٠٧ ، الصناعتين : ١٣٢

وقد كان ابن خفاجة ، لرهافة حسه ، وسعة ثقافته ، يحس بهذا ا ا ، يحس بها في
الشعر من موسيقا فيطرب لسماعه أو قراءته ، ويشعر بنشوتها مرة ، يقول : "إن خطابات الذي هم
في فانهن تضمة ، وهزتني أريحية ، هز المدامة تتمشى ، والحمامة تتغنى ، فلولا أن يقال
ا ، لالتزمت سطوره ولثمت مسطوره ، وما أنطقتني صبوة ، استفزتني ، فهزتني ، ولكن
وقر في كأس الشباب تناولته فكلما شربت ، طربت ، فلولا توقي تغامز الشيب ، بتدرت شق
الجيب ، ثم صحت ، واطرباه ، وناديت واحر قلباه " (١) . ولعل هذا الإحساس ، هو
سر في عنايته بنظامه ، تزويقا وتنميقا ، وتهذيبها واتقانا حتى أتى عذب اللفظ ، حلو
العبارة ، " تشيع فيه رنة موسيقية قل أن تجد مثلها عند شاعر آخر " (٢) . ولكن هذا
لا يعلم ، فلنفصل قليلا ، أي لنلحظ ، من كثب ، تجليات هذا العنصر الموسيقي في شعره :
ولنبدأ بالوزن والقافية ، أو ما يسمى بالموسيقا الخارجية :

نظم ابن خفاجة شعره على أوزان الشعر العربي التي استقرأها الخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الثاني للهجرة ، فهو يتحرك في اطارها ، ويضرب على أوتارها إلا أربعة منها تجنبها نهائيا ، هي المضارع والهزج ، والمقتضب ، والمتدارك أو المحدث وهو البحر الذي اضافه الأخفش ، وقد أحصى أحد الدارسين (٣) - وهو الاستاذ حمدان حجاجي ما استعمله الشاعر منها ، وحدده في نسب مئوية يتضح منها ما يلي : إن البحرين الطويل والكامل هما أكثر البحور الشعرية استخداما لديه ، يليهما في الدرجة بحر المتقارب ، ثم بحر البسيط ، ثم السريع ، ثم الوافر ، ثم المديد ، فالخفيف ، والمجتث والمنسرح ، والرمل والرجز . وان استعرضنا الموضوعات واستخدام في التعبير عنها من أوزان ، وجدنا أن أكثر البحور استخداما لديه في موضوع الوصف هي : الكامل ، ثم الطويل ، ثم يليهما غيرهما ، وفي الغزل ، نجد بحر الكامل أكثر استعمالا ثم تليه الابحر الاخرى ، وفي الرثاء يستخدم الطويل أكثر من غيره ، ثم تتوزع الموضوعات المطروقة الأبحر الشعرية على تفاوت فيما بينها في ذلك .

ولعله كان ينحو هذا المنحى عن وعي وادراك لمعاني البحور الشعرية ومواضع استخدامها

---

(١) الديوان : ٢٤١ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٢٨٦

(٢) تاريخ الادب العربي : د . عمر فروخ ، ٥ : ٢١٩

(٣) حياة وآثار الشاعر الاندلسي : ٣٢٨ - ٣٢٩

" فالعروض الطويل – كما يقول حازم القرطاجني – تجد فيه بهاء وقوة ، وتجد للبسيط سباطة وطلاوة ، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد ، وللخفيف جزالة ورشاقة ، وللمتقارب سباطة وسهولة ، وللمديد رقة ولين ، وللرمل لينا وسهولة " (١)

والوزن مشتمل على القافية ويطالب لها ضرورة كما يقول ابن رشيق (٢) . فللقافية دورها وفعاليتها في الايقاع الموسيقي لقصيدة الشعر ، فهي " بالاضافة الى أنها تنظم ايقاع الشعر فانها تسهم في نقل رواسب الشعور ولطائف المعنى ، وبعيد التأمل مما لم تفلح مفردات البيت في أدائها " (٣) . هذا من حيث دورها ، وأما من حيث تعريفها فللقدماء في ذلك رأيان مشهوران ، أحدهما هو رأي الخليل بن أحمد ، وهو أن القافية من آخر حرف في البيت الى أول ساكن يليه من قبله ، مع [illegible] الحرف الذي قبل الساكن " أو هي " المقطع الشديد الطول في آخر البيت ، أو المقطعان الطويلان في آخره مع ما قد يكون بينهما من مقاطع قصيرة بحسب الاصطلاح الحديث " [illegible] بينهما ، وهو رأي الفراء يحيى بن زياد ، يرى أن القافية هي حرف الروي (٤) وعلى كل حال ، فابن خفاجة كان مراعيا للتصريع في قصائده ومقطوعاته يقتني قوافيه ، ويعرف روحها اقتناء ، وكما يقتضي المقام ، فهي تتلاءم وموسيقا البيت ، قوة أو لينا ، وتوحي بحركة أصوات حروفها وامتداد تلك الاصوات في معظم الاحيان بكثير من المعاني والاسرار ، وهو قد يذهب مذهب المعري في لزومياته ، فيلتزم حروفا وأصواتا بعينها في جميع أبياته ، وقد يوفق – أحيانا – في سعيه ، فيمنح قافيته بذلك طاقة موسيقية أكبر . وقد يتكلف ذلك – أحيانا أخرى – الا أنه لم يكثر منه (٥) .

وهو يحرص على التصريع في شعره ، يلتزمه في مطولاته – غالبا – ويقل منه في مقطعاته لما له من جرس موسيقي ، تطرب له الاذن ، وتهتز له النفس ، وقد يصرع أبياتا أخرى في القصيدة كما فعل في قصيدته (٦) التي قالها في التشوق الى الوطن ، والحنين الى أيام

---

(١) منهاج البلغاء : ٢٦٦

(٢) العمدة ١ : ١١٣ ، ١١٩

(٣) العروض وموسيقا الشعر العربي : ١٦

(٤) العمدة ١ : ١٢٩ ، ١٣٠ و موسيقا الشعر العربي : ٨٩

(٥) الديوان : ١٠١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ٢٤٥ ، ٢٦٢

(٦) نفسه : ٣٦٤ – ٣٦٥

ا ومجالس الانس من الاصحاب أيام الشباب ، وفيها يجد لصوت حرف الهاء الـ[...]وفي
متد عبر ألف الإطلاق مجالا لتنفيس أحزانه ، وإرسال آهاته وتأوهاته ، فمن الابيات
رثة الاولى ، والبيت الحادي عشر ، والقصيدة لا يتجاوز عدد أبياتها الثلاثة عشر .

ثم ان أغلب قوافيه مطلقة ، ومعظمها تنتهي بمقطع طويل مفتوح ، وأما المقيد منهـا
لى قلته يسبقه - أحيانا - مد ، أي أن القافية كانت تشتمل على حركة قصيرة ومد وحـرف
ي ساكن ، الأمر الذي يجعل القافية تمثل مقطعا شديد الطول ، وكأن الشاعر كـان
تريح لهذا الامتداد الصوتي في القافية ، ولعله كان يفعل ذلك لانه كان يعب لانفاسـه
ن تستد ، ولمشاعره أن تنطلق ، وعساه - بذلك - يخفف من ثقل همومه ، ووخز آلامه .

وأما حرف الروي فقد كان منتقى أيضا ، لسهولة مخرجه ، أو لما يوحي به من معـنى
وحركة صوتية ، فهو يميل الى حرف الراء ، ثم حرف الميم ، ثم اللام ، ثم الباء ثم الدال ، ثم
القاف ، ثم الهمزة ، فالنون فالحاء فالسين ، فالفاء ، فالعين والياء ، فالكاف والهاء ، فالتاء
والثاء والجيم ، ثم تأتي الزاي والشين والصاد والضاد والطاء والواو في الرتبة الاخيرة ،
ونلاحظ أن الشاعر قد استثنى من الحروف الأبجدية أربعة لم يستعملها هي : الخاء والغين
والذال والظاء ، ولعله كان يدرك أسرار جرس الحروف وما تصلح له من مواضع ، يدل علـى
ذلك ما جاء في مقدمة القصيدة التي بعث بها الى الفقيه القاضي أبي أمية بن عصام إثـر
اصابته بألم في رجله ، فقد قال عن نفسه : " والتزم الفتحة قبل الروي لمعنى اقتضى ذلك " ،
وجاء في الهامش ، نقلا عن نسختين أخريين : " ويقول هذه القصيدة في هذا الـروي
في هذه العروض لمعنى " (١) ، فحرف الروي هو الميم الساكنة ، والعروض بحر المتقـارب
وقد وفق الشاعر في اختياره لان الموقف موقف مواساة وإحساس بالمشاركة ، فهو يحس بما يحس
به صديقه القاضي ويتألم لألمه ، ويسارع في الكتابة اليه ، مخففا ومصبرا ، فجاء الوزن بمـا
لديه من زحاف مناسبا للموقف ، كما أتت القافية بمقطعها الاخير (أي الفتحة المتبوعـة
بالميم الساكنة) موحية بحركتها وجرسها بمعاني الأسى والألم والمشاركة الوجدانية .

وقد يحس الشاعر برتابة الموسيقا التي يحدثها الوزن المرسل أحيانا ، فيلجأ الى التنويع

---

(١) الديوان : ٤٤ - والقصيدة مطلعها : بذاتي لمنار ذات الألمْ
وفي اللّه ما نابَ تلك القَدمْ

بوزن ألفاظ البيت، مقاطع متساوية متفقة معنا آخر
يقاع، فيصل الأشطار معنا (١)، وهو ما يسمى بالموسيقا الداخلية في
ما يسمى بالترصيع أو التشريع أو التقسيم (٢)، وهو ما يسمى بالمر
للاح النقدي الحديث، فهو يقول متغزلا :

(١) لم أنسَ ليلةَ زارتْ سربكَ زائراً فكأنما روعت فيها جــ ـوذرا
(٢) فأضاءت [illegible] أزهرا، وتلوث وجهها أزهرا، وأدرت طرفا أحـــورا (٣)

ويقول من وصف ليوم أنهر في جو الطبيعة :

(٣) والروضُ وبهُ أزهَرٌ، والظـــلُّ فرع أسود والماء ثغرٌ أشنَــبُ
(٤) حيث التقى نفر العزامى والصبا وشدا بقَيْنِنا الحمام المطرب (٤)

ويقول في صفة ياقوتة حمراء :

(٥) قد ستْ من ياقوتةٍ حمـــراءِ في شقّةٍ من دُرّةٍ بيضـــاءِ
(٦) كشقيقةٍ في نورِها وبرتِـــهِ في مزنة أو جنة وترفي ســـاء (٥)

فهذه المقاطع المتساوية في كل من الابيات (٢، ٣، ٦)، ثم ذلك التنوين الذي
ينتهي به القافية الداخلية، سواء كانت مسجوعة كما في البيتين (٢، ٦) أو غير مسجوعة
كما في البيت الثاني، والذي هو بالفاصلة أشبه، تخف عنده ما حدة النغم ثم لا تلبث أن تستمر
في قوتها، ثم تخفت تعاود قوتها الى أن تصل الى قافية البيت، فتخف لتمتد، وهو تغير
في ايقاع البيت وموسيقا القصيدة، معبر عن درجة إحساس الشاعر، وقوة انفعاله، وتغير
مستوى ذاك الاحساس وهذا الانفعال، وهي خاصة تكسب شعره جمالا، وتمده بالاقـــة
من الصوتية والتأثير ملحوظة (٦) .

ولا يخفى ما للألفاظ وأصوات الحروف من أثر في موسيقا الشعر، وقد تنبه ابن خفاجة لذلك
ولا غرابة في ذلك، فقد كان ذا حس انتقائي مرهف، وذوق رفيع
شعرا طبعا، ولا غرابة في شعره، وما يطرب منها وما لا يطـــ
بأذن موسيقية قادرة على التمييز بين الاصوات وأنواعها ودرجاتها، وما يطرب منها وما لا يطـــ
ولعله لذلك عني بالبطر لما له " من صلة وثيقة بموسيقا الالفاظ " (٧)، يوشي به شعـــره

---

(١) الديوان : ٤٢-٤٣، ٨٠-٨١، ٢٢٩، ٢٤٢-٢٤٣، ٣٦٥
(٢) نقد الشعر : ٤٠، العمدة ٢ : ٢٦، موسيقا الشعر : ٥٦، العروض وموسيقا الشعر العربـــي : ١٤
(٣) الديوان : ٣٠٠
(٤) نفســه : ٢٨٦
(٥) نفســه : ٣٧٣
(٦) نفســه : ٤٦، ١٠٣، ١٠٥، ١٣٤، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٤٤
(٧) موسيقا الشعر : ٥٣

[illegible] في أثنائها وتراكيبها ، مما يدل على أنه كان يتحكم

[illegible] بأنواعه المختلفة ، في مطالع قصائده أو في [illegible] الصبغة الموسيقية المطلوبة ، أكسبت شعره طابعا

[illegible] أعطا شعره قوة الإيقاع المناسبة ، و[illegible]

[illegible] ، [illegible] والموسيقا الداخلية (التصريع)

وتعاون الموسيقا الخارجية (الوزن ، القافية ، الألفاظ) [illegible] أثر فـــــي

[illegible] ، والصور في اشاعة نوع من الموسيقا الخفية [illegible] ، [illegible] قرأنـــا

[illegible] ، [illegible] لا شعوريا - الى الانفعال والتجاوب ، والمشاركة الوجدانية [illegible] أنفســه

[illegible] الشاعر الذي يتشوق [illegible] الى وطنه "شقر" ، والى معاهدها ومراتع صباه [illegible]

[illegible] :

بين شقر وملتقـــى نهريهـــــا حيث ألقتنا الأماني عصا متـــا (١) .

لا حسسنا بمشاعر الأسى والألم تنتابنا ، ولشعرنا بنوع من التجاوب مع الشاعر في مشاعـــره

[illegible] الآلة التي يرسلها آهات متوالية ، تفصح عن عمق حزنه ، وتعرب عما في أعماقه من حرارة

الشوق الى وطنه ، وعظيم التعلق بالحياة ، وشدة الاحساس بالوحشة وحرقة الحزن ، [illegible]

[illegible] بها القصيدة ككل ، بما في ذلك كله من وزن خفيف ، دال على الرقة ، وما فيهـا

من قافية معبرة ، وحرف روي مرح ، ثم بتلك الألفاظ المنتقاة المتناسقة ، والحروف المنسجمة

المتآلفة ، والمدود الموزعة بذكاء في كل بيت ، ثم بتلك الآهات المتتالية ، والأنات المنبعثـة

[illegible] ، كل هذه العناصر تتعاون وتتآزر ، لتشيع تلك الموسيقا الشجية ، وتوحي بتلك

المعاني الرقيقة المؤثرة .

ثم اننا لو قرأنا أو سمعنا مقطوعته التي نظمها في وصف متفرج وصدرها بقوله :

ومقلية النوار تلوي عطفهـــا ريح تلف فروعها معطـــار (٢)

لا حسسنا مع الشاعر بجمال المكان المرسوم ، ولاحسسنا معه بروعة المشاهد المصورة ، بحركتها

وحيويتها ، وعناصرها وألوانها ، ولشعرنا معه بالفرحة تغمر قلوبنا ، وبالحبور يملأ جوانحنا

ونحن نتملى جمال الحديقة ، ونتفيأ ظلال أشجارها الندية ، ونستنشق شذا زهرها المتفتح

---

(١) هذا البحث : ١٤٢

(٢) نفسه : ١٣٥

... إننا نحس ... ، ونستمتع بغناء طيورها ال... ، إننا نحس
... الناظر بمشهد مياهها العذبة الرقراقة ، ولعل ذلك يرجع إلى القدرة
... حين نقرأ هذا الشعر ، كأننا نعيش في جو الطبيعة حقا ، ولعل ذلك يرجع إلى القدرة
التصويرية التي تميز بها الشاعر ، والتوفيق الملحوظ في انتقاء الوسيلة التعبيرية الملائمة
من حيث الوزن والقافية والألفاظ ؛ فالوزن ، وهو بحر الكامل مناسب - بطول مقاطعه
وكثرة حركاته ، لسياق وصف وتملي المكان ، والاستغراق في جو مشاهد الطبيعة الفاتنة
والقافية بمقطعيها الطويلين ، وصوت الروي (الراء) المفخم المكرر المناسب
للمقام ، فكأنه ترجيع لأصوات عناصر الطبيعة ، ثم تلك الألفاظ الرقيقة الموحية ، المعبرة
بمعانيها وأصواتها ، وعن فتنة الشاعر
بمعانيها وأصواتها عن جمال المشاهد ، وروعتها وبهائها ، وعن فتنة الشاعر من جنان في
واعجابه بها ، وقد زاد الوصف إيحاء ، والتصوير تأثيرا ما اصطنعه الشاعر من جناس في
البيت الثاني ثم ما استخدمه من التقسيم في البيت الثالث ، ثم ما أحدثه في تفعيلات الأبيات
من زحاف ، أسهم في تنوع الايقاع الموسيقي للمقطوعة وزادها حيوية تناسب حيوية سياقها
العام ، وهذه الظاهرة ، أي عناية الشاعر بفنه ، وعلاقة فنه بنفسيته وعاطفته ، ثم علاقة
ألفاظه وموسيقاه بمعانيه (١) ، ظاهرة بارزة في شعره ، وخاصة ... في فنه ، مما يدل
على قدرته الشاعرية وتمكنه من صنعته ، ومعرفته لعناصرها وأساليبها .

(ت) - الاسلوب :

لقد عني ابن خفاجة بأسلوبه عناية كبيرة ، فقد كان يعتقد أن الشعر صنعة ، تنمق
وتروق ، وتصقل وتهذب ، لتكون أدق تعبيرا وأوضح بيانا (٢) . وقد كان ولعه بتصوير
الطبيعة وجمالها وفتنتها ، ثم ربطه ذلك كله بمشاعره وأحاسيسه الدفينة
ومحتوياته ، وانجذابه وحرصه على ذلك ، وتوشيته بأنواع البديع من
داعيا إياه الى الإكثار من التشبيهات والاستعارات في شعره ، وتوشيته بأنواع الجناس
والطباق وغيرها من المقومات الاسلوبية المتنوعة ، وقد ساعدته معرفته العميقة لعلوم العربية
على حسن استخدام هذه العناصر الاسلوبية في شعره ، كما أمدته مخيلته القوية
بزاد ضخم من الصور والمعاني التي قد تزدحم لديه في القصيدة ، بل في البيت الواحد

---

(١) انظر ابن خفاجة الاندلسي . جبيبر : ٤٦ - ٥١
(٢) هذا البحث : ٤٤

الامر الذي يسمح شعره - أحيانا - بمسحة من الغموض ، وهو غموض لا يخفي على الشعر جزءا من السحر تجد النفس في ظلاله متعة غامرة ، الا أن شيوخ ابن خلدون أنكروا ذلك عليه ، وعدوه عيبا في شعره (١) •

وسنشرع الآن في دراسة هذه الظواهر الفنية في شعره ونبدؤها بالتشبيه •

(١) التشبيه :

للتشبيه قيمة كبرى في تراثنا النقدي القديم ، لما له من حضور في النتاج الأدبي على مر العصور ، فهو عندهم " من أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف ، كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق ، كان بالحذق أليق •" (٢) والتشبيه أحد الأسس التي تقوم عليها نظرية عمود الشعر في نقدنا القديم (٣) ، لانه والاستعارة : " يخرجان الاغمض الى الأوضح ، ويقربان البعيد " (٤) •

وابن خفاجة قد أدرك - بحكم ثقافته الأدبية والنقدية - ما لهذه الظاهرة الفنية من دور في بناء العمل الأدبي ، فراح يخوض فيها القول ، وكأنه يغرف من بحر ، فقد يشبه الطبيعة بالطبيعة ، وقد يشبه الطبيعة بالانسان في صفاته وأحواله أو العكس ، ولكن ظاهرة التشبيه تغلب على تشبيهاته ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كان معجبا بالطبيعة ، محبا لها ، هائما بنواحي الجمال والفتنة فيها ، حريصا على تصويرها في شعره ، والافادة منها في الافصاح عن مشاعره والابانة عن معانيه ، وهو في تشبيهاته ، قد يأتي بالتشبيه التام ، والتشبيه المرسل المجمل ، والمؤكد المفصل ، والتشبيه المقلوب والبليغ ، وتشبيه التمثيل ، وهو لهذا الاخير أميل ، وعليه أحرص ، تشهد على ذلك كثرة وروده ، ونسبة التشبيهات التي قيلت فيه بالموازنة مع غيره • فمما قاله في التشبيه التام قوله في صفة النهر :

---

(١) هذا الفصل : ٢٢٣

(٢) نقد النثر : ٤٩

(٣) الوساطة : ٣٢ - ٣٣

(٤) العمدة ١: ٢٨٦

لله نهرٌ سالَ في بطحـــاءِ ... أشهى ورودًا من لمى الحسناءِ
متعطفٌ مثلَ السّوار كأنّـــه ... والزهرُ يكنُفُه مجرّ سماءِ
قد رقَّ حتى ظُنّ قوسًا مفرغــًا ... من فضةٍ في بُردةٍ خضراءِ
وغدتْ تحفُّ به الغصونُ كأنّهـا ... هُدْبٌ تحفُّ بمقلةٍ زرقاءِ (١)

حيث يشبهه في تعطفه بالسوار ، وفي إحاطة الزهر به بالمجرة ، كما يشبه في رقته وصفائه وبريقه ، وسط البساتين الخضراء بتور فضي وضع فوق بردة خضراء ، كما يشبهه وقد حفت بضفتيه الشجر بمقلة زرقاء ، حفت بها أهدابها ، وهي تشبيهات كما نلاحظ مستمدة من بيئته بأنواعها المتنوعة .

ومنه قوله في وصف المفازة :

ومفازةٍ لا نجمَ في ظلمائهـا ... يسري ولا فلكٌ بهــا دوّارُ
تتلهب الشعرى بها وكأنهـا ... في كفّ زنجيِّ الدجى دينارُ (٢)

فالشعرى في تلألئها وبريقها في عرض الليل الحالك تحكي دينارا قد وضعه زنجي في كفه ، والتشبيه له صلته ببيئته أيضا ، فقد عاش في ظل الدولة المرابطية ، وتعامل في كنفها بالدينار الذهبي المرابطي ذي القيمة الشهيرة .

وقوله في الحنين والشوق إلى منبته في كلام دقيق جميل موح :

أبدًا أحنّ إلى الـ شرقـ ... كالغريب مع الغروب
وأقول للريـــح الجنـــوبـ ... مع الأصيل على الهبوب (٣)

فهو يشبه نفسه في لوعته وحنينه بالغريب الذي تشتد به الإحساسات ، وتؤرقه تلك المشاعر عندما تكون مع الغروب حيث يخلو بنفسه ، وتعود إلى مخيلته ذكرياته مع أهله وخلانه في ربوع وطنه ، فيحترق قلبه شوقا ، وتخفق جوانحه لوعة وحنينا .

ومما قاله في التشبيه المرسل المجمل قوله :

---

(١) هذا البحث : ١٩٢ ، أو ديوانه : ٣٥٦
(٢) نفســـه : ٢٢٥   نفسه : ٨٤
(٣) نفســـه : ٢١٥   نفسه : ٢٥١

وبكل مرقبة مناخ غمامـــة ... مثل الثريا ... تاج لغمامٍ (١)

فذكر الاداة وأخفى وجه الشبه ، بين الثلج والغمام الجمل أو الفرس ... زبده الذي يلفظه ... فيه ، وهو البياض .

ومما قاله في التشبيه المؤكد المفصل قوله في صفة مزن مرعد مبرق :

والمزن طرفٌ جال يفتهل أشهب ... والبرقُ بُرْدٌ قد تمزّق أ... جبر (٢)

فشبه المزن المرعد بالفرس ... ويصهل ، كما شبه البرق في لونه ، وشدة بريقه ببرد أحمر ممزق .

وقوله من ذلك في التشبيه المقلوب :

والنَّوْرُ طرفٌ قد تنبّه دامـــعٌ ... والماءُ مبتسمٌ صقيـــل (٣)

فالنّور وقد بلله قطر الندى يحكي الطرف الدامع ، والماء في صفائه وترقرقه يشبه المبسم الصقيل .

ومن ذلك قوله في صفة سحابة :

وغمامةٍ لم يستقرّ بها السُّـــرى ... فمشتْ على الأَمْلاءِ مشيَ مقيَّد (٤)

فهي تحكي في سيرها ومرورها مشية المقيد من حيث البطء في الحركة والتنقل .

ومنه قوله ، وهو من التشبيه المقلوب كذلك :

والروض وجه أزهر والظـــل ... فرع أسود والماء ثغر أشنـــب (٥)

وهو هنا يعكس الامر ، فيشبه الطبيعة بصفات الانسان المادية ، من وجه وشعر وثغر ... وهو أمر بدهي لديه ، خاصة وأنه قد أتاه وحدة بين المرأة والطبيعة في شعره ، فالـــ... هنا يحكي وجه المرأة الازهر ، والظل شعرها الاسود ، والماء ثغرها الشنب .

ومن التشبيه المقلوب وهو تشبيه تمثيل أيضا قولـــه :

---

(١) هذا البحث : ١٩٨ ، أو ديوانه : ٨٤

(٢) نفســـه : ٢٠٩

(٣) نفســـه : ١٨٨ ، الديوان : ٣٤

(٤) نفســـه : ٢٠٧ ، نفســـه : ٢٤٣

(٥) نفســـه : ٢٢٩ ، نفســـه : ٢٨٩

أستقيُّ من سنِّ ... | ومرتفعٌ من ... أرق ... واقي
يسيلُ في ... صفاءَ سريرة | وتجري دموعٍ واضطرابَ جوانحي (١)

فالماء في صفائه وشفافيته وانسيابه وخريره واضطراب أمواجه ، يحكي الشاعر صفاء سريرة وجريان دموع ، واضطراب جوانح .

ومنه في وصف الزورق قوله :

يطير بنا فيه شراعٌ كأنّه | إذا ضربته الريحُ أحشاءُ خائفِ (٢)

فالزورق في تنقله على ظهر الماء ، وقد أمالته الريح يمنة ويسرة ، يحكي الخائف الهلع في رعدته وعدم استقراره .

ومنه في صفة نهر ، وفيه يستعين الشاعر بصفات الإنسان المادية الجميلة في رسم صورته بصفائه الصافية وشدة اخضراره * قوله :

ونهرًا كما ابيضَّ المقبّلُ سلسلًا | وجزعًا كما اخضرَّ العذارُ نضيرا (٣)

فالنهر في صفائه ورقته يحكي الثغر ، كما أن الجزع يحكي العذار في اخضراره .

ومن التشبيه البليغ قوله في صفة ليل :

والليلُ سترٌ دوننا مرسلٌ | قد طرّزته أنجمٌ زهرُ (٤)

فالليل في شدة ظلمته ، وحجبه الأشياء عن الأنظار يحكي سترًا مطرزًا ، ولكن بنجوم السماء الناصعة البياض ، وهو تشبيه مستوحى من بيئته التي اشتهرت بصناعة النسيج بأنواعه .

ومنه في صفة النيل والمركب :

---

(١) هذا البحث : ١٩٠ ، الديوان : ٢٩١
(٢) نفسه : ١٨٩ ، نفسه : ٢٢٠
(٣) نفسه : ١٣٩ ، نفسه : ١١٢ / * الجزع : منعطف الوادي
(٤) نفسه : ٢٢٦ ، نفسه : ١٥٦

واللّيلُ فسطاطٌ ... ملتَـــــبُ ضرِبَتْ له من أنجُمٍ أوتــــادُ (١)

فالليل في ... ظلمته ... طبيه لظاهر الذين الا ما بدا من نجوم متناثرة في عرض السماء فسطاط ضربت أوتاد ... وشدت حباله ، وذلك أدعى لرسوخه وثباته .

ويقول في إحدى خمرياته :

ما زال ينعطف ... مجـــرّة فيه ويلمع للسُّلافة كوكـــبُ

ويكرّ من ... أشقـــرٌ يجري ويعدو للزّجاجة أشهبُ (٢)

فالألوان تثيره ، وتوحي ... بصور مشابهة ، قريبة أو بعيدة ، في بيئته أو في الكـــون فسيح ، فالنهر في زرقته وانبساطه وصفوف الزهر به يحكي المجرة ، والسلافة تحكي في لونها كوكب السماء ، فالشراب تحكي الخمر بلونها الاحمر ، وهي تتحرك في أيدي الصحب ... أو ... يجري ، فتشبه الزجاجة ، وقد خلت من خمرتها ، وبدت شبيها شفافة ، فرسا ... ، ... تصور ... ورغاريسها .

ويقول في إحدى غزلياته يصف امرأة :

غزاليّةُ الالحاظِ ريميّةُ الطّلَـــى مداميّةُ الألمَى عبابيّةُ الثّغـــرِ

ترقّ في موشيّةٍ ذهبيّـــــةٍ كما اشتبكتْ زهرُ النّجومِ على البـــدرِ (٣)

فهو يستمد الطبيعة الحية والصامتة ، في رسمه لصورة المرأة التي نعم بصلات قربها ، ولون ... ، فهي تحكي الغزالة في سواد وسعة عينيها ، فتشبه الريم في طول عنقها ، ولون ... بلون شفتها ، ولون السحاب الابيض بثغرها ، ولكنها تبدو أكثر جمالا وفتنة وهي تختال ... باسها الذهبي البراق ، فكأنها البدر قد حفت به نجوم السماء ، وهذه الصورة الاخيرة ... تشبيه تمثيل جميل ، وقد ذكرنا أن ... المرأة في لباسها الذهبي ببدر السماء ونجومها ، تشبيه تمثيل جميل ، وقد ذكرنا أ... ابن خفاجة قد مال الى هذا اللون من التشبيهات ، أكثر من غيره ، وما ذلك ... الا لان نزعته التصويرية ، فقد وجد في تشبيه التمثيل فسحة لم يجد بها في غيره ، من حيث كون وجه الشبه فيه مستمدا من متعدد ، ومتولدا من أمرين أو أكثر (٤) . فهو على كل حال ... وذلك يتفق وذوق الشاعر ، ويتلاءم وطريقته في الوصف والتصوير ...

---

(١) الديوان : ٢٣٤ ، هذا البحث : ٣٠٦

(٢) نفســه : ٢٨٩ ، نفســـــه : ٣١٤

(٣) نفســه : ٢٤

(٤) صناعة الكتابة : ١٤٠

ما إن يذكر المشبه حتى تقفز إلى مخيلته صور موحية شتى ، قد يضمها مشهد أو مشاهد
ـها الشاعر على بعضها في تسلسل فني بديع ، كقوله في سياق عتاب :

ماذا ثناك عن الثناء ونشره ... بُرداً على الرَّشإ الجميل جميلا
أرجاً كما عبق النسيم بروضة ... لَدْناً كما نفح الغمام مقيلا (١)

فهو يجسم معاني الأخلاق الحسنة ، والصفات الحميدة ، والسمعة الطيبة ، في صور حسية جميلة تزيدها سمواً ، فيلوم صديقه على هتكه ستر أسراره ، وكشفه لسقطاته ، ونشرها بين الناس ، وإضرابه عن نشر حسناته التي تحكي البرد الجميل على الرشأ الجميل ، وتأرج كأنها النسيم المتضمخ بأريج زهر الروض وعطره ، وتندى في الذكر ، كأنها [illegible] :

وكقوله في سياق المدح :

تنزّل كما مرّ النعام بتلعة ... فطرّز أثواب الربى وسهّما
وألقى الحيا بين الأباطح والربا ... فدثّر أعطاف المجاني وقمّما
وقلّد نحر الروض عقداً مفصّلا ... وألقى بجيد الغصن وشياً منمنما (٢)

فصور كرمه في عظيم نوائله ، وكريم آثاره ، وحسن فعاله في أمته ، بما يحكي فعل الغمام في الأرض ، وبعثه الحياة في أوصال عناصر الطبيعة ، من نمو عشب ، وتفتح زهر ، وانتشاء غصن ، وتفجر عيون ، وتدفق مياه ، وكقوله في موضع في نفس السياق :

وأغرّ أزهر بات يقري نفحة ... فكأن في بُرديه روضاً أزهرا
ملء الحيا والبحر إلا أنه ... ثمرات الحلى في غمام أمطرا (٣)

وكقوله في صفة موقد نار :

ذاكي لسان النار تحسب أنه ... برق تمزّق عنه جيب غمام
وكأن بدء النار في أطرافه ... شفق لوى بيده بذيل ظلام (٤)

والصورتان حسيتان ، مرئيتان ، موحيتان ، وقد أسبغ الشاعر على الصورة الثانية جمالاً بما أضافه فيها من تشخيص ، فجعل للشفق يداً ، وجسم الظلام كما أسود تمسك به يد الشفق من أطرافه ، وهذا نوع من البيان ، وإلا فإن هذه الصورة الفنية ، الصورة التشبيهية والتمثيلية

---

(١) الديوان : ٢٠٥ ، هذا البحث : ٣٠٢
(٢) نفسه : ١٧٥ ، نفسه : ٢٨٩
(٣) نفسه : ٢٥٧ ، نفسه : ٢٩١
(٤) نفسه : ٨٤ ، نفسه : ٢٧٩

الأمثلة السابقة تمثيلا لها ، لنفسح

منه بنماذج ، تطرد في شعره ، ويكثر حضورها ، وحسبنا بالأمثلة السابقة تمثيلا لها ، لنفسح

ل أمام ظاهرة فنية أخرى كان لها دورها في أسلوب الشاعر الفني تلك هي ظاهرة الاستعارة .

الاستعارة :

تعد الاستعارة الى جانب التشبيه عنصرا مهما في بناء العمل الشعري عند ابن خفاجة

ني بها عناية تربو على عنايته بالتشبيه والعناصر الاسلوبية الاخرى ولعل كثرة ورودها في

ره راجع الى نزعته في إحياء الطبيعة ، وتأكيد الوحدة بين ظواهرها المختلفة ، ثم الى

العلاقة الوطيدة التي أقامها بين الطبيعة والانسان ، والتي وصلت الى درجة امحت فيها الفوارق

شت فيها حدود التمايز ، فتبودلت الصفات والخصائص بطريقة عفوية واضحة . وكأنه أدرك منذ

بعيد ابعاد هذه الظاهرة الاسلوبية ، ودورها الذي أبرزه أحد مشاهير النقاد المعاصرين ،

ورتشاردز " في قوله : " ان الاستعارة هي الاداة الرئيسية التي ترتبط بوساطتها الاشياء

تغايرة وغير المترابطة (١) . وهو نفس ما ذهب اليه الدكتور مصطفى ناصف في رده ما قرره القدماء

نظرية الاستعارة من أنها تشبيه حذف أحد ركنيه ، وأن وظيفتها تقريب الشبه بين المستعار به

مستعار منه ، أو اثباته (٢) وذلك في قوله : " إن المشابهة الموضوعية لا وجود لها في الاستعارة

فاليا - ومن الواضح أننا لسنا أمام أشياء تتداعى لاشتراكها في صفة أو صفات ، فالاستعارة بنت الحدس

لحدس نشاط يتجاوز المشابهة ولا يتقيد بها " (٣) . وهو أيضا نفس ما ذهب اليه " والتز " عندما

أكد الفرق بين الاستعارة والتشبيه بقوله : " إن الاستعارة تبدو قاب قوسين من التشبيه ، ولكن

فرق بينهما في الحقيقة عميق ، وليست الاستعارة تشبيها ملخصا موجزا ، ولكنها صورة مستقلة ،

صادرة عن حركة فكرية مخالفة له كل الخلاف ، فعملية الفكر التي تتطلبها الاستعارة ، بل تفرضها

فرضا ، عملية تتسم بمزيد من الشدة والسرعة " (٤) .

وابن خفاجة في توظيفه لهذه الأداة الاسلوبية يذهب في اتجاهين واضحين ، فهو تارة ينسب

الى عناصر الطبيعة من أخلاق عناصر الطبيعة فينسب لهذه ما تمتاز به تلك والعكس ---

---

(١) الشعر والتجربة : ٩٥

(٢) أسرار البلاغة : ٢٢٨ . الرسالة : ٤٠

(٣) الصورة الادبية : ١٤٠

(٤) عن حياة وآثار الشاعر الاندلسي : ٢١٧

فيكسبها بذلك حركة وحياة يضفي على عناصر الطبيعة الموصوفة صفات الانسان وأحواله ، فيكسبها بذلك حركة وحياة
ما يستعير من الطبيعة صفاتها وأحوالها ، لإبراز محاسن الإنسان ، وتصوير آلامه
ومخاوفه ، أو مشاعره وأحاسيسه ، وقد أسعفته مخيلته في ذلك ، فجاء شعره عامرا
بالاستعارة ، حافلا بالصور المشخصة الدالة المعبرة ، فهو إذا أراد أن يصف حاله وصحبه
وهم يركبون الخيل ، ويغذون السير في الليل المدلهم الذي لم تهتد فيه كواكبه ، استعار
صورة البحر ، بما فيه من ظلمة وموج متلاطم ، وبما يتعلق به من غرق وعوم ، ورسم هذه
الصورة قائلا :

فبتنا وبحرُ اللّيلِ ملتطِمٌ بنـا ترى الصبحَ غرقى والكواكبُ عُوَّمـا (١)

وصورة البحر بظلامه وارتطام أمواجه ، صورة يستمدها الشاعر غير مرة في وصفه ،
فهو يجسد خوفه من الليل المظلم ، وقلقه من جوه الموحش ، ورغبته في النور والنجاة ،
في هذه الصورة التي نلمس فيها معنى الصراع والصدام ، ومحاولة التخلص :

لأركبُ لجَّتَهُ بموجةِ أشهبٍ يرمي بها بحرَ الظّلامِ فيرتمي (٢) .

فهو يصدم لجة بحر الظلام بموجة فرسه الأشهب ، فيشقها ويعبرها .

وهي صورة يستعيرها كذلك لتصوير ما يعانيه في أعماقه من آلام وأحزان ، تفصح عنها
وجنته التي تصبّ عباب البحر المائج الزاخر :

وقد جاش بحر بين جفنيّ مائج له زخرةٌ في وجنتي وعُبـابُ (٣)

ويستمدها في نفس السياق ، سياق وصف الحال ، وتصوير ما ألم به من أحزان ، وما
أثقله من هموم ، فهو غريق أبحر ثلاثة ، قد أطبقت عليه مجتمعة ، وغمرته ، فمن بحر دمع
الى بحر هم ، إلى بحر ظلام ، ولا يخفى ما يوحي به هذا التركيب في الصورة من تعبير
دقيق عما يحس به الشاعر من أسى ووحشة ، وعما برحته من هموم وآلام :

ترى بي إن أعرضت حزنا حمامة تريك ولورا أيكة تترنح
غريقا ببحر الدمع والهمّ والدجى ولو كان بحرا واحدا كنت أسبح (٤)

---

(١) الديوان : ١٧٣ ، هذا البحث : ٢١٢
(٢) الديوان : ٢٤٤ ، هذا البحث : ٢٣٢
(٣) نفسه : ٢١٨ ، نفسه : ٢٩٦
(٤) نفسه : ٢٦٨ ، نفسه : ٢٩٧

والشاعر قد يحس بوحشته ، وبقفر ساحته من الخلان والاصحاب والاهل ، فقد تخالفهم
صوت الراحد تلو الآخر ، وبقي عونها للآلام والأسقام ، لا مؤنس لا معين ، ويصور
اله ، فلا يجد أدق تصويرا ، ولا أقوى تعبيرا من هذه الصورة التي يستوحي عناصرها
ن الصحراء ، الصحراء في وجهها القفر الاجدب ، دون أن ينسى ما يلائم السياق ، فيذكر
رجناء ، وهي الناقة القوية ، فهو يسير في صحراء ، لا نبت فيها ولا ماء ، فلا شيء غير
...مل ، والوجناء الناقلة :

فسرتُ وقد أجدبتْ أرتادُ مرتحلًا فلم تلذَّ الوجناءُ بي غير ماحل (١)

ومظاهر الخصب والجدب ، والرياض الحسنة المنظر ، مظاهر طبيعية يستعيرها الشاعر
في وصف ردف المحبوبة الممتلىء وخصرها النحيف ، وحسنها وجمالها ، فيقول :

من الهيف أما ردفه فمنعَّمٌ خصيبٌ وأما خصره فجديبُ
ترف بروض الحسن من نورِ وجهه وتاميه نُوَّارةٌ وقضيبُ (٢)

هذا الى غير ذلك من الصور التي يستوحيها الشاعر من الطبيعة ، ويستعيرها في سياق
تصوير آلامه واحزانه ، أو أفراحه ومسراته ، فهي كثيرة ، وكثيرة مثلها تلك الصور التي يستعيرها
الشاعر من الانسان وما يتعلق به ويتصف به ، ويخلعها على الطبيعة ، فيبعث في عناصرها
الحركة ، وينفخ في أوصالها روح الحياة ، فتغدو أقرب إلى النفس وأدنى إلى القلب والشعور
منها ، لو أنها بقيت جامدة ، أو وصفت وصفا موضوعيا لا أثر فيه لعاطفة الشاعر ومشاعره
وتصوراته . وكله في ذلك ، أي في نزعته الى إحياء الطبيعة وأنسنتها ، كان يرضي ميله
وحبه للحياة ، لا حساسه بالموت والفناء على سبيل التعويض . فالانسان بصفاته الداخلية
والنفسية يضحي منبعا ثرا يستمده الشاعر الاستعارة تلو الاستعارة لا يمل ولا يكل ، فالاغصان
ريتة بالقطر ، وتنفتح زهرها ، وتتفجر عيونها ، فبدت تحت ضياء الشمس ، متلألئة
زاهية تذكر الشاعر بالوجوه الجميلة ، التي تسفر عنها أقنعتها ، فيصفها بقوله :

---

(١) الديوان : ٢٦٢ ، نفسه : ٢٤٥
(٢) نفسه : ٨٣ ، نفسه : ٣١١

بيض وتتنالر عن عهون عيـــون (١)

والأرض تسفر عن وجوه نماسيـــن

والأرض تسفر عن وجوه نماسين ... وتشوة :

والشجرة تسر وتسمع الغناء وتطرب ، فتهتز من أعطافها تأثرا ونشوة :

والشجو يثير عن جبين نهـــار (٢)

وأراكةٍ سجع الهديل بفرعهـــا

وللبرق قلب يخفق هلعا ورعبا ، كما أن للنجم جفنا لا يعرف النوم من ... الخوف :

به ولجفن النجم فيه سهاد (٣)

بمفرق لقلب البرق خفقة روعـــةٍ

والريح تكل فترقد في هذا الطريق الأفيح :

به وتكل الريح فيه فترقـــد (٤)

مهيبٍ يبيت النجم يسهر وحشة

والغبار ينام والنور يستيقظ بعد سقوط الطل :

وجه الثرى واستيقظ النـــوار (٥)

نام الغبار بها وقد نضح الندى

والشمس تمرض فتعالج بما يعالج به الانسان ، فمن رقية يقدمها الرعد ، الى نفثـــة

تنفثها الغمامة :

والرعد يرقي والغمامة تنفـــث (٦)

والشمس تجنح للغروب مريضـــةً

والأرض وقد غطاها الثلج ، يشيب شعرها ويشمط مفرقها :

واشمط مفرق كل غصنٍ أملـــد (٧)

شابت وراء قناعها لمم الربـــا

والرعد يرتجز ويملي ، والبرق يكتب :

فأملى وجالت راحة البرق تكتب (٨)

وقد ارتجز الرعد المرن بأفقـــه

والثريا قدم تتعثر في برد الليل المزركش بنجوم المجرة :

---

(١) الديوان : ٢٤٤ ، هذا البحث : ١٤٦

(٢) نفســـه : ٣٣٦ ، ٢٨٩ ، ٢٨١ ، هذا البحث : ١٤٦

(٣) نفســـه : ١٣٢ ، نفسه : ١٧٩

(٤) نفســـه : ١٤٤ ، نفســـه : ١٧٦

(٥) نفســـه : ٢٥١ ، نفسه : ١٣٥

(٦) نفســـه : ٢٨٥ ، ٢٧٧ ، نفسه : ٢٠٦

(٧) نفســـه : ١٤٣ ، نفســـه : ١٩٩

(٨) نفســـه : ٢٠١ ، نفســـه : ٢٠٦

وتعثّرت قدم الثريا ... قرّة في برد ليلٍ بالمجرّة مُظلِمِ (١)

... والجوزاء تنتفض والبهمة تسس، فتحزن مشاركة الشاعر مصابه الجلل ...

... منها :

وسرى يمرّغ خدّه قمرُ الدجى وهُذيلُ فضل ضفيرةِ الجوزاءِ (٢)

والكلب في تقصيه آثار الطريدة ، يسأل عن بني الأرض ، فتجيبه الرياح وتهديه :

يشرّف الأرض يسألُ عن بنيها فتخبرُ أنفَه عنها الرياحُ (٣)

وقد يلجأ الشاعر في تصويره الى التجسيم ، تجسيم المعنوي وإبرازه في صور حسية ، فيجعل للردى وجها يستهدف به فرسه الأدهم :

وأقبلت وجه الردى أدهمًا ركضَ الصباحَ به فادلهمّ (٤)

ويجعل للموت فما يفغره ، وللقدر جيدا يمده :

وقد فغر الحِمامُ هناك فاه وأتلع جيدَه القدرُ المتاحُ

فما أدري أموتٌ أم قلوبٌ وأنفاسٌ تصعّدُ أم رياحُ ؟ (٥)

ويجعل للهوى يدا تخلع عليه وعلى محبوبه رداء الود والأنس ، في ظلام الليل ، ولكن يد الفجر تمزقه فتفسد عليهما اللقاء ، وتكشفهما للعيان :

وقد خلعت لنا أيدي الهوى [illegible] رداءً [illegible] مزّقته يد الفجر (٦)

وهي الصورة تبدو جلية في وصفه لكل من الزورق والشجرة المنورة ، حيث يخلع عليهما من صفات المرأة وخصائصها ، ما يجعلنا نحس وكأن الشاعر يصف امرأة لا عنصرا طبيعيا ماثلا أمامه ، وهو أمر قد مرّ بنا ، وفصلنا فيه القول في مواضعه من هذا البحث .

(٣) الجناس :

لقد أحس ابن خفاجة بطبيعته ما في الجناس من تناغم وتآلف وانسجام بين أصوات الحروف فمال إليه ، ووشّى به شعره ، فلا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة من بيت أو أبيات فيها نوع أو أنواع

---

(١) الديوان : ٢٤٢ ، هذا البحث : ٢٩٤

(٢) نفسه : ٢٧٤

(٣) نفسه : ٥٤ ، نفسه : ٢٤٧

(٤) نفسه : ٤١ ، نفسه : ٢٣٧

(٥) نفسه : ١٢٨ ، نفسه : ١٩٥

(٦) نفسه : ٢٥ ، نفسه : ٣١٤

وهو أمر أكسب شعره إيقاعا موسيقيـــا

منه ، كما لا تخلو قوافيه منه في كثير من الأحيان ، عذبا ، وقد أشرنا الى هذا من قبل (١) . فهو يستخدم التجنيس التام أو المستوفي أو المماثل كما يسميه علماء البلاغة ، ولكنه لا يكثر منه كقوله في صفة شجرة نارنج مثمرة :

تجمّت ترفّ بها نجوم سمــــاء ... بالأيكة الخضراء منه خضـــراء (٢) .

فجانس بين (نجمت ونجوم) والخضراء الاولى وهي صفة للأيكة ، وخضراء الثانية وعنى بها السماء . وكما في قوله في صفة معترك :

والشُّهْبُ شهبٌ والقَنا مُنْدَفِقةٌ ... والشُّقْر جَمْرٌ والقتامُ دُخَــانُ (٣)

فجانس في سياق التشبيه البليغ بين الشهب وهي الافراس الشهب ، وشهب : جمـع شهاب ، وهو الشعلة الساطعة من النار .

ويستخدم التجنيس الناقص ، وهو ما اتفق حروفا لا وزنا ولا يكثر منه كذلك ، كقولــه من شعر يصف فيه حاله وقد أدركه الكبر :

لقد أَنَّتْ بين الرَّعْدِ والقَابِرِ أشتكي ... بسمعيَ من وَقْرٍ وظهريَ من وِقْـرِ (٤)

فجانس بين وَقْر الاولى ومعناها ذهاب السمع بعضه أو كله ، ووِقْر الثانية وهي الحمــل الثقيل .

وقوله في قصيدة غزل :

وإن سقمي لمن طرف به سَقَـــمٌ ... خلوٍ من الكُحْل مملوءٍ من الكَحَلِ (٥)

فجانس بين الكُحْل والكَحَل ، وبين سُقْم وسَقَم .

ولكن النوع الذي مال إليه الشاعر واطمأنت اليه نفسه ، فأكثر فيه القول ونوّع ، انمـــا هو تجنيس المضارعة (٦) بمختلف ضروبه ، فقد يأتي بالتجنيس الذي تتساوى حروفـــه ولكنها تختلف من حيث الترتيب ، كما في قوله في صفة شعر :

---

(١) هذا البحث : ١٦٣ ، ٣٢٩/١٦٨ ، انظر أيضا : ابن خفاجة : ١٠٨ - ١٠٦

(٢) نفســـــه : ١٥٦ ، الديوان : ٧١

(٣) الديـــوان : ٣٤٤ ، هذا البحث : ٢٩٩

(٤) نفســـــه : ٢٠٧ ، نفســــــه : ١٩٤

(٥) نفســـــه : ١٤١

(٦) العمـــدة : ٣٢٥ .

وصحيفة هزّ المدين صفيحة — منها وثقف بالسطور رماحها
وردت تذكرني الحديقة نفحة — وتهزني هزّ القضيب مراحها (١)

فجانس بين (الصحيفة) و (الصفيحة) ، و (رماحا) و (مراحا) في قافيتي البيتين ، كما جانس بين (تهزني هز) في البيت الثاني . وكقوله :

لا أبتغي لمحا حتى أعي ملحا — عدلا من الحكم بين السمع والبصر (٢)

فجانس بين (لمحا) و (ملحا) تجنيسا اتسق وزنا واختلف ترتيب حروف ، وهو جناس مايا ... بالجناس الناقص ، أي ذلك الذي تتفق فيه الكلمتان في بعض الحروف لا كلها ، كقوله في صفة التمر :

تمرٌ من ناعم حورا ومكتمل كورا — ومن مرتقٍ طورا ومنحدر (٣)

فجانس بين الكلمات : (حورا ، كورا ، طورا) تجنيسا ناقصا ، وكقوله في صفة ممدوحه :

يكفي ويكفل في حالة — فيهني المعالي كفى أو كفل (٤)

وقوله :

فما كان الا أن طوتهم يد الردى — وطارت بهم ريح النوى والنوائب (٥)

فجانس في البيت الأول بين (يكفي ويكفل) و (كفى ، كفل) ، كما جانس في البيت الثاني بين (النوى و النوائب) .

وقوله في سياق المدح أيضا :

---

(١) الديوان : ٢٨٨

(٢) نفسه : ١٣٠ ، هذا البحث : ٢٢٢

(٣) نفسه : ١٣٠ ، نفسه : ٢٢٣

(٤) نفسه : ١٠٣

(٥) نفسه : ٢١٦ ، نفسه : ١٨٢

أضاف الى مجتلى مجتنى ... فهرقٌ بشامٌ وروضٌ يشم
وذات الرّياح ، وظال الرّماح ... فطولٌ عميمٌ وخُلقٌ عَمَمْ (١)

فجانس بين (مجتلى ومجتنى) و (بشام ، ويشم) و (الرياح ، الرماح) و (عميم عمم) . وقد يحرص على أن تكون الحروف التي حدث بسببها الاختلاف بين اللفظتين المتجانستين ، من نفس المخرج الصوتي أو متقاربة في ذلك ، مما يضفي على الكلمتين نوعا من الانسجام الصوتي ، وتناغما يعوض ما بينهما من الاختلاف ، كأن يأتي بلفظتين تشتركان في جميع الحروف ، ماعدا حرفين قد يكونان الراء واللام كما في قوله :

وعاذرٍ قد كان لي عاذِلاَ ... في آمر ما رابه آملا

وقوله من ذات القصيدة :

علقتُهُ أحوى اللمى أحورا ... عاطرَ أنفاس الصبا عاطلا (٢)

وقد يكونان الراء والنون ، كما في قوله :

فياليت شعري هل لدهري عطفةٌ ... فتجمع أوطاري علي وأوطاني (٣)

وقد يكونان الباء والميم كما في قوله :

وبات في مسرى الصبا تصفحه ... فهو لها مضطرم مضطرب (٤)

وقد يجانس في أحيان كثيرة بين ألفاظ تجمعها وحدة الاشتقاق ، كقوله في الغزل :

وحنت ركابي والهوى يمنت الهوى ... فلم أر في تيماء إلا متيما
فها أنا والظلماء والعيس صحبة ... ترامى بنا أيدي النوى كل مرتمى (٥)

فجانس بين (تيماء ومتيم) وبين (ترامى و مرتمى)

وقوله في سياق الدعاء للممدوح :

وقيت تنافس النفوس نفاسةً ... وسياسةً ووقيت عين النافس (٦)

---

(١) المصدر السابق : ٤٥
(٢) نفسه : ٢٤٨
(٣) نفسه : ٣٤٥
(٤) نفسه : ٧٥
(٥) : نفسه : ٢٣٧
(٦) نفسه : ٢٣١

وقوله في صفة خمر :

(٢) عقاراً نماها الكرم فهي كريمة ولم تزن بابن المزن فهي حصان (١)

فجانس في الاول بين (وقيت ووقيت) تجنيسا ناقصا، وبين (النفوس نفاسة و النافس) وجانس في الثاني بين (الكرم وكريمة) ، تجنيسا جامعا الأصل الاشتقاقي الموحد في كل ركن جانس بين ألفاظه في درج الابيات ، جانس بينها في القوافي كذلك ، وخاصة في مطولاته (٢) . وقد ألجأه إلى ذلك حسه الانتقائي ، وحرصه على التلاؤم اللفظي والانسجام الصوتي في شعره ، مما يجعله أقوى على التأثير ، وأبعث على الطرب ، والنشوة والاستمتاع .

(٤) الطباق :

وهو ثاني ظاهرة بديعية استعان بها الشاعر في تلوين فنه وتحسينه ، ولكنه لا يكثر منها (٣) وأنه لم يكن يميل اليها لما كان يوجده بين موصوفاته من تعاطف ، ويحس به من وحدة خفية تجمعها ، وهو يوردها كما عرفها علماء البلاغة : أي يجمع بين الشيء وضده في الكلام سلبا أو إيجابا ، ولا يخفى ما للطباق من دور في إبراز المعنى وتوضيحه ، فما يقوله في ذلك في سياق الاحساس بالزمن قوله :

فحتى متى أبقى ويظعن صاحب أودع منه راحلا غير آيب

وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالع أخرى الليالي وغارب (٤)

فقد طابق بين (أبقى ويظعن) وبين (راحلا وآيب) في البيت الاول ، و طابق في البيت الثاني بين (طالع وغارب) . ويقول في صفة أغصان تميلها الريح فتتماس و تشابك :

أمقام وصل أم مقام فراق فالقضب بين تصافح وعناق

أنسينني خلق الوقار وربما أذكرنني بمواقف العشاق (٥)

---

(١) الديوان : ٢٣٥

(٢) نفسه : ٢٢٨ - ٢٣٠ ، ١٤٧ ، ٢٦٣ - ٢٦٦ ...

(٣) ابن خفاجة : ١٠٨

(٤) الديوان : ٢١٧ ، هذا البحث : ١٨٩

(٥) نفسه : ١٥٨ ، نفسه : ١٥٣

فطابق بين (وصل وفراق) وبين (أنسيتني وأذكرتني) .

وطابق بين (البياض والسواد) و (الليل والصبح) ، في معرض وصف حاله ، وقد اشتد به الحزن ، وآلمته الوحشة ، فيقول :

وألقى بياض الصبح بسود وحشة فأ سيلني أمسي إلى حين أصبح (١)

ويستعرض حال القمر في أطواره وحركته ، ويصور أثر ذلك في الانسان فيخاطبه بقوله :

تمر من ناقص حورا ومكتمل كورا ومن مرتق طورا ومنحدر

والناس من معرض يلهى وملتفت يرعى ومن ذاهل ينسى ومدكر (٢)

فطابق بين (ناقص ومكتمل) وبين (مرتق ومنحدر) وبين (معرض وملتفت) وبين (ذاهل ينسى ومدكر) . وهو قد يرد الجناس الى جانب الطباق الذي ينطوي على معنى الاستعارة كما في قوله من وصف الجمل :

تمهد من كل ركن ركانة فقد أب إطراقا وقد ضحك الصدر (٣)

فجانس بين (ركن وركانة) وطابق بين (قطب وضحك) ، وفي نسبة التقطيب ، الذي هو دلالة على الحزن ، الى الجهل ، ونسبة الضحك إلى الصدر وهما من صفات الانسان واحواله استعارة جميلة معبرة . وقد نعثر في شعر ابن خفاجة على الجوانب الأسلوبية القصر (٤) ، وصيغ التفضيل (٥) ، والتعجب (٦) ، ورد العجز على الصدر (٧) ، وصيغ المبالغة (٨) ، ومراعاة النظير (٩) ، وتجاهل العارف (١٠) وغيرها من أساليب بناء العمل الفني ، وهو أمر يدل على تمكن الشاعر من أدواته الفنية وسعة وعمق ثقافته اللغوية والادبية ، كما يدل حسن استخدامه لها ، على سلامة ذوقه .

---

(١) الديوان : ٢٦٧ ، هذا البحث : ٢٩٤

(٢) نفسه : ١٣٠ - ١٣١ ، هذا البحث : ٢٢٣ ، نفسه : ١٧٩

(٣) نفسه : ١٥٠

(٤) نفسه : ٦٣ ، ١٤٤ ، ٢١٥ - ٢١٦

(٥) نفسه : ١٧٧ ، ٢١١ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٢٨

(٦) نفسه : ١٣٩

(٧) نفسه : ٣٦ ، ٢٨٠

(٨) نفسه : ٢٨٣ ، ٣٦٤

(٩) نفسه : ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠

(١٠) نفسه : ١٩٨ ، ١٣٨

ورهافة حسه، وقوة شاعريته، وهي براعة لا تبدو في الاهرة الا اوب فحسب، بل في نزعتـــه التصويرية أيضا، فقد كان ومعظم شعره الوصفي يشهد على ... رساما بارعا، يحسن بالصورة وما يتصلق بها من عناصر ومعطيات، ينتقي لها الاداة المعبرة، والالوان المناسبة ويبث فيها الحركة والحياة، ما جعل شعره يزخر بالصور الجميلة الحية الموحية.

(٥) الصورة الشعرية :

لقد عني ابن خفاجة في شعره بالصورة، واتخذ منها وسيلة مهمة في عمله الفني، لمـــا التمسه فيها من فعالية وقدرة على ... بها والتأثير، فهي وسيلته في تصوير طبيعته الـــتي يهيم بها قلبه، كما أنها وسيلته في الافصاح عن مشاعره، والاعراب عن معانيه وتصوراتـــه ومن هنا كان تركيزه على الصورة، ... احتلالها تلك المكانة في شعره، والصورة "الخفاجيـــة" قد تكون مركبة، بمعنى أنها قد تكون مشهدا يشتمل على عدة عناصر، وقد تكون صـــورة مفردة، وبمجموعها يدل على براعة الشاعر، ودقته في التصوير؛ إنك تحس، وأنت تقـــرأ للشاعر، كأن الطبيعة شقر بعوالم ... حيويتها وأصواتها قد نقلت إليك، فأنت تشاهد هـــا المشهد تلو المشهد، والصورة تلو الصورة، تسمع الاصوات، وتشم الروائح العطـــرة وتحس باحساس الشاعر من خلال ذلك كله، فتنفعل له، وتشاركه الاحساس بالشعـــور فرحا أو حزنا، وهو قد جرّك إلى ... ك ببراعته في الوصف وقدرته على التصوير، فلو رجعت الى احدى روضياته، ولتكن الروضية الاولى (١)، مثلا لدهشت من الشاعر لحظات ... في روضته الشعرية، وأنت تنتقل معه من صورة الى أخرى، ومن مشهد لآخر، فـ... براعة يستدعيها تنوع المناظر وجمال العرض، فمن مشهد الصبح وهو يكشف بضيائه سر ... روضة فتلألأ قطرات الندى على زهرها فتزداد جمالا، الى مشهد الغمامة التي تروي الـ... بمائها فتشرب الاقاحة، وتبتل الأشجار، الى مشهد الماء السائل المترقرق، وهو يشق ... مسراه وسط المروج الخضر، الى مشهد الاراكة، والطائر الشادي على غصنها، وهي مشاهـــد متعددة، يضمها اطار واحد هو الروض، ولكنك تلحظ أن الشاعر لم يعرض عليك مشاهـــده

---

(١) هذا البحث : ١٣١

... الانسان وأحاسيسه
الهادئة ، وانما عرضها عليك في صور حية متلاحقة ، متلونة بمشاعر الانسان وأحاسيسه ، وإتاحة ترضع أخلاف
الصبح بعد رضاع الزهرة ، وتفتق كمامتها ، وتكشف عن جمالها ، والريح تتنفس لهم الربا ، والظل يخضع
لخاطمة المطرة ، وبد الصبا تنثر درر الندى ، وتخلع عليه من نورها تعبيرا
ويه الاشجار ، ثم تلت التي طرب لها الدليل ، فتهتز له ، وتخلع عليه من نورها تعبيرا
من فرحتها ونشوتها ، فالطبيعة في شعر ابن خفاجة ، وان كانت متفرقة ، احيانا ،
عن الواقع الموضوعي بعض الشيء ، الا أنها لا تفقد سماتها ، وحركتها ، بل تزداد جمالا بما
يخلعه عليه الشاعر من أحاسيس ومشاعر ، وبما يوجده بين عناصرها من ارتباط وتعاطف
وهي خصائص نرى ضرورة التحدث عنها ولو باختصار .

* اللـــون :

لقد أحس ابن خفاجة بقيمة الالوان ودورها في التصوير والتزويق الى جانب فعاليتها
في التأثير ، فعني به ، وزين بها صوره بطريقة تشهد له بسلامة الذوق ، ورهافة الحس
وحسن الانتقاء والاستخدام (١) وابرز مثال على هذا قوله

ويوم جرى برقه أشقرا	بالارض من مزنه ...
ترى الأرض فيه وقد فضضت	ووجه السماء وقد ذهبها
وقد ألمع الروض من أبيض	سماء ومن زهرة كوكبا
ولز أثواب تلك الغصون	ورشح تيجان هام الربا
وقد تبل الماء كأس المدام	فأضحك ثغرًا لها أشنبا
وشب المزاج بها جمرة	تكاد بها الكأس أن تلهبا (٢)

وهو يتدرج فيه الالوان ، من البرق الاشقر الى المزن الأشهب ، الى الارض
المفضضة ، والسماء المذهبة ، والأيكة المخضرة ، والزهرة البيضاء ، الى لون الذهب
الشفق عما بداخله من مدام أحمر ، وهي ألوان كما نلاحظ ، صارخة ، تزيد الصورة سطوعا
والمشهد ضياء ووضوحا ، وهو جو مناسب لاقامة الافراح ، وعقد مجالس الأنس والطرب
مع الصحب ، في أحضان الطبيعة الفاتنة ؛ وقد يستخدم الشاعر اللون للتعبير عن أحزانه

---

(١) ابن خفاجة : ١٠٩
(٢) هذا البحث : ١٣٦

واشجانه ، فيصور النهار والمافاتها كما في قوله :

فأحسبني أمسي على حين أصبح (١)
وألقى بياض الصبح بسود وحشة

وهو يستمد ألوانه من الطبيعة ، بسدا باتها وعناصرها المتنوعة ، ويلون بها صوره بالقدر الذي يزيد من جمالها وبهائها .

* الحركة والحياة :

الميزة الثانية التي تميز صور ابن خفاجة هي الحركة والحياة ، فهي في غالبها صور مليئة بالحركة ، عامرة بالحياة ، وقد شهد ذلك على نزوع ابن خفاجة الى احياء الطبيعة وتحريك اجزائها ، وقد اتخذ من التشخيص وسيلة فعالة في ذلك ، فهو يبعث الحركة والحياة في كل ما حوله من ظواهر الكون ، ولذلك علاقته بنفسيته المحبة للحياة ، النافرة من الموت ، وكأن هذه الظاهرة ، ظاهرة التشخيص ، اسقاط لحبه وتعلقه بالحياة ؛ فقد أضفى على موصوفاته الطبيعية حياة انسانية ، ولعل للعلاقة التي أوجدها الشاعر بين الطبيعة والمرأة أثرا في ذلك ، فكلاهما ترمز الى الحياة في نظره ، والحديث عنهما ... وتعليل ... تخليد للحياة ... اتها ، ومن هنا جاء تشخيصه للطبيعة تعبيرا أصيلا عن نفسيته ... ن ... اعترافه قرنيا بها ... سبق اليه غيره من الشعراء (٢) ، وقد لاحظ الدكتور محمد رضوان الداية هذه الظاهرة ... شعر ابن خفاجة ، فأشار اليها بقوله : "ويبرز عنصر "التشخيص ... ينقل عنه أو يحمله في مطولاته ومقطوعاته . فالطبيعة تتحرك بشكل ... (٣) ، كما أشار ... ه شخوص ترتفع لتبرالى مراتب الانسان" ... والجبال ... يتكلم ، والأشـ... ... وهو ما ذكرناه غير مرة في هذا البحث ، وتعد قصيدة ... من ... الجبل" أوضح مثال ... على ذلك (٥) .

* الأنس :

وهي خاصة تتولد من الخاصة التي قبلها ، اي خاصة التشخيص ، فنحن نشعر في تصوير ابن خفاجة بجو من الود والتعاطف ، يربط الانسان والطبيعة ، كما يربط عناصر

---

(١) هذا البحث : ٢٩٤
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٤٤٥
(٣) ابن خفاجة : ١٠٧
(٤) الفن ومذاهبه : ٤٤٥ ، ٤٤٧ . الطبيعة في الشعر الاندلسي : ٥٧
(٥) هذا البحث : ١٨١- ١٨٤ .

الطبيعة بعضها ببعض ، ونادرا مانحس في صوره بمعنى الصراع والتنافر ، وما هـو موجود منه انما هو تجل للصراع الناشب في أعماقه بين الحياة والموت .

... الواقعية والخيال :

لقد رأينا من قبل ، أن الشاعر قد ذكر مصطلح " التخييل " ، ولكنه قرنه بفكرة الكذب ... دفاعا عن شخصيته وفنه في وجه الاتجاه النقدي الاخلاقي الذي كان يحاسب الشاعر على قولـه إني " فعلت " واني " صنعت " (١) ، ولكننا لو أنعمنا النظر في شعره ، والوصفي منـه خاصة ، لوجدناه يصور الواقع حينا ، ويستسلم لخيلته يستمد منها الصورة تلو الصورة حينا آخر فنحس نحن بواقعيته في رسم المشهد في إطاره الكلي ، وجزئياته ، كما نحس بدور مخيلتـه في اثراء وصفه بالصور المتتابعة ، والتي أثارها مشهد بعينه ، أو واقعة ، بعينها ، فتتابعت وتلاحقت ، ولكننا نحس مع ذلك كله بقدرة الشاعر على التوحيد والصهر ، أي ضم تلك العناصر أو الصور المتفرقة في وحدة ، وصهرها في بوتقة واحدة . مما يدل علـى أنه كان يتمتع بخيال حي متقد ، يشبه ما أسماه " كولردج " بالخيال الثانوي ، أي ذلك الذي " يذيب ويلاشي ويحطم لكي يخلق من جديد ، وحينما لا تتأتى له هذه العملية ، فانه علـى ... يسعى الى ايجاد الوحدة ، والى تحويل الواقع الى المثالي " ، أو تلك " القـوة ... التي بوساطتها تستطيع صورة معينة أو إحساس واحد أن يهيمن على عدة صور أو أحاسيس ... فيحقق الوحدة فيما بينها بطريقة أشبه بالصهر ... " (٢) ولعل قدرته على التوحيد بين عناصر الطبيعة ، وبين الطبيعة والانسان ، بما استمده من تشخيص واستعارة كانت ... لهذا الخيال الذي يشهد تصويره ، بحيويته وابداعـه .

وعلى العموم ، تظل الصورة عند ابن خفاجة ، وسيلة مهمة ، عبر بوساطتها عن ... ساته ومشاعره ... من خلالها بنزعاته وميوله وتصوراته ، فجاءت معبرة عن نفسيته الرقيقة ، ... بما كان يحس به في باطنه من صراع بين حياة يعشقها ، ويهيم بها ، وموت يرهبه ويكرهـه وسنحاول فيما يـ...ـلي إضاءة هذا الجانب المهم في حياته ، ورصد تجلياتـ...ـه من خلال فنه .

---

(١) هذا البحث : ٤٣ ، ٤٤ ـ تاريخ النقد الادبي عند العرب : ٤٦٩

(٢) كولردج : ١٥٦ ، ١٥٨ .

القسم الثاني

في
المعنى

لقد أسلفنا أن ابن خفاجة كان يحتفي بالمعاني الى جانب احتفائه بالالفاظ لايمانه بالعلاقة الجدلية بينهما ، وأنه كان ينطلق في معانيه من أرضية ثقافية واسعة ومتنوعة . . . فجاء شعره زاخرا بالمعاني ، ومما زاد بروز هذا الجانب في شعره احتفاؤه بالصورة ، وحرصه على توشيه شعره بأكبر قدر منها ، وشحنها بأحاسيسه ومشاعره الامر الذي جعلها تزدحم إلى درجة أضحى فيها شعره غامضا عصيا على الفهم أحيانا وابن خفاجة كشاعر موهوب ، ذي شاعرية مبدعة ، يضرب بسهم في كل فن من فنون الشعر المعروفة في عصره ، فقد مدح ورثى وتغزل في ذلك ، ووصف الطبيعة وغيرها وتنزل ، وتفنن فيها وتفنن ، ووحد الموضوع أو الغرض تارة ، ويخلط المواضيع في القصيدة الواحدة تارة أخرى ، ولكن الظاهرة التي تبدو جلية واضحة في فنه ، هي غلبة موضوع الطبيعة بمدلولاتها المتنوعة على معاني الشاعر وصوره ، فهو يستمد ها استعاراته وتشبيهاته ، ويتكئ عليها في إبراز معانيه و[illegible]ره بكيفية ملفتة للنظر . وقد أشار الدكتور محمد رضوان الداية الى هيمنة الطبيعة على [illegible]ره ، وأثرها في معانيه ، فقال " إنها سيطرة تعطي الشعر رونقا خاصا ، وبهاء ، وتضفي عليه نفحة خاصة ، رقيقة جميلة " (١) وهو يمضي في معانيه في اتجاهين : " محاولة الاختراع والابداع في المعاني ، وصياغة بعض المعاني التي سبق اليها [illegible] جديدة ، أي هو كان بين الابداع والتوليد " (٢) . وهو أمر تنبه له القدماء شاروا اليه في مؤلفاتهم استحسانا وموازنة كما أشار اليه دارسوا ابن خفاجة من المعاصرين (٢) وقد تعرضنا ، الى هذا في اثناء هذا البحث ، والذي يهمنا هنا هو التركيز على معنيين مهمين شاعا منها الحياة والموت أو البقاء والفناء في فن ابن خفاجة .

---

(١) ابن خفاجة : ١٠٣ ، ١٠٤ ، غرائب التنبيهات :٢٥٣ ، بدائع البداهة : ٥٧٣ - ٥٧٦ .
(٢) الذخيرة ٢/٣ : ٥٧٣ - ٥٧٦ ، الغيث المنسجم : ١٩٥ ، ١١٧ ، ١٣٥ ، ١٦٠ - ١٦١ ، المطرب : ٥ ١١ - ١١٦ ، ٢٩١ - ٢٩٧ ، ٢ : ٦١ ، ٢٦٠ ، ديوان الصبابة : تزيين الاسواق : ٢ : ٧٦ ، ٩٤ - ٩٥ ، نفح الطيب : ٣٧ ، معاهد التنصيص ٢ : ٢٢٠ ، ٣ : ١٥٢ ، ١٠٦ ، ابن خفاجة الاندلسي ، لأحمد الاسكندري : ٢٩ - ٣٥ . [illegible] ، ابن خفاجة الاندلسي : ١١٣ - ١٢٧
ابن خفاجة : ١١٠ - ١١٢ .

إن الحديث عن الحياة والموت أو البقاء والفناء في شعر ابن خفاجة هو حديث عن فلسفة الشاعر ونظرته وتصوره للكون والحياة والإنسان ، فقد عاش الشاعر في شبابه مقبلا على الحياة ، منصرفا بجمعه الى كل ما فيها من متع وملذات ، يغرف من معينها وينهل غافلا ، سادرا في غفلته ، غير منتبه لما يدور حوله من تقلبات وتغيرات وأحداث ، فمثلت مجالس اللهو والطرب مع الصحب أو المحبوب في ربوع الطبيعة ولبنه الغناء ، كان هدفه في أيام شبابه الغض ، وساعات صباه الهادئة الهنية ، كان العيش في نظره مداما أحمر يسقيه غلام أحور (١) ، وكانت محبة المحبوب دينا له ، ومثواه كعبته ، ورؤيته حجه ، وذكراه قرآنه (٢) . وان اغتنام اللذات وعدم تفويت الفرص هو عين العقل وحسن التدبير (٣) وان ذلك العيش لا يطيب في أجواء الطبيعة الفاتنة ، ولا يحلو بعيدا عن ظلالها الندية (٤) . ولكن ساعات الانس وأيام الوصال - كما يقول - قصيرة (٥) . فلم يكن وهو ذو النفس الرقيقة ، والحس المرهف ، ليبقى بمنأى عن تأثير الزمن ، والاحساس بالحياة في تغيرها وصيرورتها وتناقضاتها والاحساس بالموت هادم اللذات ، والشعور بالفناء الذي يهدد الاحياء وما على الأرض من موجودات . فأعرب عن احساسه بذلك ، وأبرز مخاوفه وفرقه من الموت ، وقد عمق هذا الاحساس لديه دواع وأسباب أوضحنا القول فيها قبلا (٦) . وهو احساس ينمو لديه حتى يضحي حالة مرضية تراوده في حله وترحاله ، وليله ونهاره ولكن حبه للحياة يظل ينمو - في مقابل ذلك - ويتعمق ، فيكثر الشاعر من الحنين الى أيام الصبا ، وساعات الانس ويذوب شوقا الى معاهده وذكرياته التي قضاها في ظل شبيبته وشرخ عمره ، ويبكي لذهابها بكاء مرا ويتأوه لذلك الآهات تلو الآهات مما يدل على تعلقه بها وحبه الشديد لها :

---

(١) الديوان : ١٢٥

(٢) نفسه : ٣٤٥

(٣) نفسه : ٢٤٩

(٤) نفسه : ٢٦١

(٥) نفسه : ٢٨٥

(٦) هذا البحث : ٥٠

فآهٍ ولا شراه لكسرةٍ ... بكيتُ على فقدِ الشبابِ بتهادتــا (١)

* * *

ألا بانَ عمرٌ كان يندى غضارةً ... فيا ليتَ ذاكَ المبتدا لو كان ينعكسُ (٢)

* * *

فيا ليت شعري هل لدهري عطفةٌ ... فتجمعَ أوطاري عليّ وأوطانـي

ميادينُ أوطاري ومعهدُ لذتـي ... ومنشأُ تهيامي وملعبُ غزلانـي (٣)

لقد أثرت ثقافة الشاعر الدينية ، وواقعه الاجتماعي والسياسي في شخصيته ، فحول مجرى حياته ، وعاش حياة إيمانية صادقة ، وتطورت نظرته الى الحياة ، وأقبل على نفسه يحاسبها ويلومها ، ويطيل التفكير في ما يضرها وينفعها :

غيريَ يحتثُّ مِنْ أُنسـه ... ما نالَ من ساقٍ ومِنْ كأسِـه

وشأنُ مثلي أنْ يرى خاليـاً ... بنفسِه يبحثُ عنْ نفسِـه (٤)

وهو تحول نوعي ، يجعله وجهاً لوجه أمام شبح الموت الذي يغفل عنه مدة من الزمان ، كما يجعله يفكر ملياً في مصيره الذي ينتظره ، ونهايته التي سيؤول إليها ، وهو أمر لا ترغبه نفسه المحبة للحياة ، المتعلقة بها تعلقاً شديداً ، فازداد حبه للحياة ، بقدر ما ازداد فرقه من الموت والفناء ، وهو شعور طغا على شعره ، وعبرت عنه صوره الشعرية في عفوية ووضوح . وأظنني لا أبالغ اذا قلت : إن فكرتي الحياة والموت قد تجلتا بصورة أو بأخرى في وصفه للطبيعة ، وانهما تمثلان ظاهرة بارزة في نتاجه الأدبي عامة ، وشعره في الطبيعة على وجه الأخص . فلو أنعمنا النظر في شعره وربطناه بحياته ونفسيته لالفيناه :

- يتغزل بداعي الاحساس بالجمال ، والانجذاب الفطري الى الطرف الآخر الذي بمشاركته تستمر الحياة ؛ ويمدح المرابطين لانه رأى فيهم القوة المنقذة التي وقفت بحزم في وجه الفناء الذي كان يهدد الوجود الاسلامي في الاندلس ، ورثى من تخطفه الموت من الاصحاب والخلان في نغمة حزينة مشجية ، تتخللها آهات وأنات تعبر عن أساه وأسفه على ذهابهم ؛ فيهم

---

(١) الديوان : ٢٣٧

(٢) نفســه : ٢٧٨

(٣) نفســه : ٣٤٥

(٤) نفســه : ٦٢ .

كانت تطير الحياة رثاءه ، ويقرن بين الغزل والرثاء (١) حينا ، وبين المدح والرثاء (٢) حينا آخر ، وكأنه بذلك يقابل بين الحياة والموت ، والبقاء والفناء .

* ولوجدناه يخلع على موصوفاته من نفسه ، يحركها ، ينطقها ، يبعث فيها الاحساس والحياة ، مما جعل عنصر التشخيص يبرز بجلاء في شعره ، وكأنه بذلك يخلع عليها ما يبطنه من حب للحياة ، وتمسك بالبقاء .

* وهو يوحد بين المرأة والطبيعة ، ويعرب من خلالهما عن حبه للحياة ، فالمرأة سبب في استمرار الحياة ، حرمه الشاعر ، فعاش وحيدا ، كغصن وحيد في شجرة مهددة بالفناء ، والطبيعة مسرح يتجدد فيه معنى الحياة ، فمعنى الحياة المشترك بين الطبيعة والمرأة هو هدف الشاعر الاول ، وغايته القصوى ، وكأنه بتوحيده بين المرأة والطبيعة ، وتخليده لهما في شعره ، كأنه بذلك يخلد معنى الحياة ، الذي تتعلق به نفسه ، ويهواه قلبه على سبيل التعويض .

والاحساس بالحياة والتشبث بها ، والاحساس بالموت والنفور منه يبدو واضحا في تصويره الليل والنهار والبحر ، فالضياء يعني – عنده – الحياة ، والظلام يوحي بالوحشة والانفراد ، فكأنه قبر يغمر الاحياء بأستاره الثقيلة ، ويحجب عنهم الحياة ، فهو لذلك يصدعه بجرأته ، بشهبة فرسه ، أو بضياء الصبح أو بنور المصباح ، أو لوميض البرق ، في صور عنيفة قوية ، توحي بمعنى الصراع ، ومحاولة التخلص من أمر ترغمه نفسه ، وتتوجس منه خيفة ، فالليل يعني – في دائرة الموت – كما أن البحر يعنيه كذلك . فهو لذلك يوحد بين صورتيهما ، فيصور الليل بحرا متلاطما ، والبحر ليلا قاتما ، فكلاهما يغرق ، ويوحي بالموت والفناء .

والشجرة توحي بمعنى الحياة ، فهي – دائما – أما مورقة أو مزهرة ، تنتشي وتهتز ، وتطرب وتتمايل وكأنها رمز حياة الشاعر في عز عمره ، وريعان شبابه (٣) .

والسيف يعني صاحب الشاعر وخله الوفي ، بل ويأخذ مكان المحبوب أحيانا ، فيعانق ويضاجع ، وما ذلك إلا لأنه سلاح يساعد على استمرار الحياة ، ويدفع عنها عوامل الموت والفناء (٤) .

---

(١) الديوان : ٥٤

(٢) نفســه : ٦٨ ، ٢٧٥

(٣) هذا البحث : ١٦٧ - ١٦٨

(٤) نفســه : ٢٦٢ - ٢٦٣ وما بعدها .

- والنمر عنده رمز للزمن في مذهبه وصيرورته (١) . والجبل رمز الثبات والرسوخ ، وعنوان الصبر والتحدي ، فهو لذلك يلجأ إليه ، يستشيره ويستنصحه ، ويستمد منه العبرة والصبر على مواجهة مصيره (١) . ولكن صورة الصراع بين الحياة والموت - مع ذلك كله - ظلت تلاحقه وتؤرقه ، فهو وحيد يسير نحو الفناء تدريجيا ، وواقعه الاجتماعي والسياسي لا يرحم ، فعوامل الفناء فيما حوله من عوامل البقاء ، وتصارع الحياة والموت في عناصر الطبيعة التي ركن إليها ، وبثها آلامه وأفراحه ، ماثلة أمام ناظريه ، ولا وسيلة تنجيه مما يحدق بمصير فرسه الذي يجري به بسرعة مذهلة ، تسبق الريح والبرق ، بل ويطير ويحلق به بعيدا ؛ وكأنه بذلك يسابق الزمن ويتعالى عما في واقعه من دواعي وعوامل الموت والفناء ..

لقد عاش ابن خفاجة متحمسا للحياة ، مرتبطا بها ارتباطا وثيقا ، يلهج بذكرها ، تصريحا وتلميحا ، ولكنه عاش - في مقابل ذلك ، وخاصة في سن الكهولة والشيخوخة - خائفا من الموت ، قلقا من كل شيء يحذر إليه أو يذكر به ، ولكن ، وبعد هذا كله ، هل كان ابن خفاجة أبيقوري المذهب في الحياة (٣) ؟ . للإجابة عن هذا السؤال يحسن بنا أن نذكر أن ابن خفاجة شاعر مسلم ، وهذا يعني أن تصوره للحياة والكون والإنسان ، تصور إسلامي يعترف بوجود إله واحد مدبر لهذا الكون ، ويؤمن بأن الدنيا مهما طالت ستزول إلى نهاية محتمة وفناء محقق ، وأن هناك يوما هو يوم القيامة ، يعرض الناس فيه على ربهم ، فيحاسبون على أعمالهم ، فإما إلى رحمة وإما إلى عذاب ، ويرى أن حياته في شبيبته ما هي إلا رعونة ولهو وآثام ، قد أقلع عنها ، وبكى وتوجع فيها ، وندم على ذلك ندما شديدا (٥) . وقد يهول أمامه ، ويستحضر ذنوبه إلى درجة يزيد فيها توتره ، ويقوى فيها إحساسه بالموت الذي يشتهي لديه لذة ويود معرفة أسراره فينادي الصحب الذين تقدموا ، ويسألهم عن سر السرى ولكن لا مجيب (٦) . وهو أمر يحمله يقدموا له فيها نفحة من شك ، إلا أنها عارضة لا تقدح في يقينه باليوم الآخر ، وما فيه من خلود وثواب وعقاب (٧) .

---

(١) هذا البحث : ٢٢١ - ٢٢٣

(٢) نفســـــه : ١٧٩ - ١٨٣

(٣) دراسات في تاريخ الأدب العربي : كراتشوفسكي : ١٢٦ ، حياة وآثار الشاعر الأندلسي : ٣٣١

(٤) الديوان : ١٠٥ ، ١٥٧ ، ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٣٠٦

(٥) نفســـه : ٢٥٨ ، ٣١٠

(٦) نفســـه : ٢٢٤ ، ٣٠٦

(٧) نفســـه : ٢٢٦ ، ٢٦٣ ، ٣١٥

وأما "أبيقوروس" فيلسوف يوناني أخلاقي ، هاله مايعاني الناس من شقاء واضطراب ، فبحث عن أسبابه ودواعيه ، فوجد أن مايعانيه الناس من ذلك مترتب عن الخوف : الخوف من الالهة ، والخوف من الموت ؛ وأن تخليص الناس من هذا الشقاء الذي ينغص عليهم حياتهم يكمن في تخليصهم من هذين السببين ، فأعلن أن الآلهة موجودون ولكنهم " لا يعنون بنا ولا يكدرون صفوهم بشؤوننا ، ولا يعلنون عن اراداتهم بالنذر كما تعتقد العامة .. فعلينا أن نطمئن نحن من جهتهم ، وأن ننفي عن نفوسنا الخوف منهم . " وأن النفس الانسانية جسم صائر الى النهاية تتألف مع الجسم وتنحل بانحلاله " (١) .

وما دام الالهة يعيشون بعيدين عنا ، غير معنيين بشؤوننا ، وما دامت الروح تحيا مع الجسد ، وتتفكك بتفككه ، وتتأثر بما تتأثر به ، فما الداعي الى الخوف اذا ؟ . وعلى هذا الاساس يقيم "ابيقوروس" مذهبه الاخلاقي ، فيرى : "ان الغاية من الحياة هي الحصول على السعادة ، وما السعادة الا في اللذة " ثم يقسم اللذة قسمين : لذة الجسد ، ولذة النفس من أمان واطمئنان وراحة بال ، وهي أفضل من الاولى ، وهذه تنقسم بدورها قسمين : لذات متحركة ومثالها المتعة ، ولذات ساكنة ومثالها عدم الالم ثم يتكلم عن الرغبات الانسانية فيرى أنها ثلاث ، أولاها طبيعية وضرورية للحياة كرغبة الأكل والشرب والثانية طبيعية غير ضرورية للحياة كلذة النكاح ، والثالثة غير طبيعية ، ولا ضرورية كلذة السيطرة ، والحكيم عنده هو الذي يشبع الاولى ويقلل من اشباع الثانية ، ويعرض عن الثالثة . وهو يعرف مفهومه للذة منعا لسوء الفهم والتأويل فيقول : " عندما أقول إن اللذة هي غاية الحياة لا أقصد بذلك لذات الذين لا يستطيعون كبح شهواتهم ، ولا اللذة الجسدية ، كما يدعي الذين لا يفهمون مذهبي أولا يعرفونه ، وإنما أعني باللذة عدم الالم الجسدي والاضطراب النفسي " (٢) . هذا باختصار جوهر مذهب "أبيقوروس" وتصوره للحياة ، وهو كما نلاحظ يناقض في أسسه ومنطلقاته تصور ابن خفاجة الشاعر المسلم للحياة ، وصحيح أن ابن خفاجة أحب الحياة، وأقبل عليها بجوارحه ، متمتعا ملتذا ، وأن حلاوتها ظلت تراففه طوال حياته ، ما جعله

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية : ٢٩١ - ٢٩٢

(٢) تاريخ الفلسفة العربية ١ : ٩٦ - ٩٨ . تاريخ الفلسفة اليونانية : ٢٩٢

اليها ، ويتمنى عودتها ، ويحكي على ذهابها في حوار وتشوق ، وصح أيضاً أنه عاش
رذل لم يتزوج قط ، وأنه انصرف من مسرح السياسة في عصره ، وأعرض عن التهافت على
ك ، وطلب المراتب ، وكان يهاجد يوا (١) ، وهي صفات قد ذكرها "أبيقوروس" في
ريفه للانسان الحكيم (٢) ولكن هل يكفي أن يتوفر شرط أو شرطان لمذهب معين في
سان ، لأن ننسب ذلك الانسان الى ذلك المذهب ؟ . انني أرى أن هذا المسلك
قعنا في أخطاء منهجية تضللنا عن الاهتداء الى الحقيقة ، أو ما يقرب منها ، وهو ما ينشده
بحث العلمي ، وهذا يعني أنني أرى أن نسبة ابن خفاجة الى "الابيقورية" نسبة غير
قيقة ، أو لأقل غير صحيحة منهجيا ، فالابيقورية مذهب فلسفي أخلاقي له أسسه وفروعه
الشريحة بروشيجة ترتد إلى الاساس الذي يتكىء عليه وينطلق منه ، وابن خفاجة عاش حياته
بساطة ، وفي غير تعقيد فلسفي ، بنفسية معينة ، في واقع اجتماعي معين ، غرته النعمة
والشباب ، فغفل عن حقيقة وجوده مدة ، ثم لم يلبث أن استيقظ من سباته ، وتنبه لنفسه
وثاب اليه رشده ، فتغير تبعا لذلك مجرى حياته ، وإن ظل يحن الى حياته في ظل شبابه
يلهج بذكرها ، ويتغنى بحلاوتها ، وصفوة القول : إن نظرته الى الحياة نظرة ذاتية
تأثرت بواقعه ، وأثرت في سلوكه وتصوره ؛ وقد وجد في طبيعة وطنه الجميل فسحة ، فركن
اليها واستراح ، وأقبل عليها يصور مشاهدها ، ويجسد نواحي الجمال فيها ، ويشهد
الآلام والاشجان ، ويعبر من خلالها عن مشاعره وانفعالاته ، وتصوراته ورؤاه بأسلوب مباشر
حينا ، وبطريقة عفوية تلقائية حينا آخر ، الأمر الذي طبع شعره بطابع خاص ، وصبغه بصبغة
مميزة ، هي صبغة نفسية ابن خفاجة بكل خصائصها وميزاتها .

---

(١) هذا البحث : ٤٧ - ٤٨

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية : ٢٦٦

القسم الثالث

مكانة ابن خفاجة بين وصافي الطبيعة في الشرق والمغرب

هذا هو ابن خفاجة ، ذو الحس المرهف ، والنفس الرقيقة ، والذوق الانتقائي سليم ، وتلك هي طبيعته بأشكالها ومعطياتها ، جمال وتناسق ، ورقة وابداع ، فكانت لقد التقى الاحساس المرهف بالجمال ، والنفس الرقيقه بالتناسق والابداع ، فكانت الهزة ، وكان الميل والحب ، وكان - ثمره لذلك - أي ارتباط ابن خفاجة بالطبيعة ، وتعلق بها تعلق المحب الولهان بمن يحب ويهوى ، فركن اليها ، يتغنى بجمالها ، ويصور معالم الروعة والفتنة في عناصرها وظواهرها المختلفة ، ويبثها من حين لآخر آلامه وأحزانه ، ومشاعره وتصوراته ، تبعا لما ماثل

وهو في هذا كله قد يلتقي وشعراء العربية من قبله ، في معانيه وصوره ، وسار التسطح الثقافة الواحدة ، والمشترك الحضاري ، أو خضوعا للنزعة الحسية ، ثم ان الحديث الذي طبع معظم شعرنا الوصفي ، قديمه وحديثه ، بطابعه الخاص ، سواء منهم من سبقه أو من عاصره ، أو من عن مكانة الشاعر بين شعراء الطبيعة ، وهو باب خطير ، لا يقوم الا على بناء بعده ، وهو حديث يدخل في باب الموازنات ، وأدب كل شاعر على حدة ، الدراسة الجزئية المفصلة والعميقة المتجردة لحياة والقريب من الصحة على وهذه الدراسة هي وحدها التي تخول لنا الحكم الصحيح أو أضاف جديدا ، أو عاش عالة على هذا الأديب أو ذلك بأنه أسبق من غيره ، أو أنه لا يخفى صعوبته غيره ، يتأثر معانيهم وصورهم ولا يخرج عن اطارهم ، وهو أمر موازنته بشعراء وصورته ، ولكنني - مع ذلك - حاولت تحديد مكانة ابن خفاجة عن طريق على دواوين أولئك العربية من قبله ، وفي عصره وبعده موازنة سريعة وعامة ، معتمدا الشعراء ، ومستعينا بالدراسات الأدبية المتوفرة عنهم •

فهو قد يلتقي وذا الرمة في ربط الطبيعة بالحب والنظر الى الحياة ، والتعلق بها من خلال ذلك ، كما يلتقي واياه في نزعته الى إحياء الطبيعة وتشخيص عناصرها ، وهي خاصة (أي التشخيص) تجمعه بأبي تمام والبحتري وابن الرومي أيضا ، مضافا اليها تأثره طريقة الأول في القصد إلى استعمال المحسنات اللفظية والمعنوية ، متجنبا تعقيده الفلسفي ، مع الميل الى الطبيعة والاتكاء عليها في ذلك ، وتشبهه بالثاني ، فضلا

عن ظاهرة التشخيص ، في العناية بالاسلوب الشعري وموسيقاه الصوتية ، ويشبه الثالث في صياغته المعنى المسبوق اليه صياغة جديدة ، ونزوعه الى محاولة الاختراع المستمر للمعاني الجديدة .

أما ابن المعتز ، فيمكن أن يكون الشاعر قد استوحى طريقته في التشبيه ، والاكثار منه ، واعتماده فيه على المادي المحسوس ، وخاصة بريق الذهب والفضة ، وألوان الاحجار الكريمة ، ولكنه يفترق وإياه في ولعه بالتشبيه التمثيلي ، وتوجيهه فيه الى الطبيعة يمثل بها لأحاسيسه ومشاعره ، ويتكئ عليها اتكاء عرف به واشتهر (١) .

ويتأثر طريقة أبي الطيب المتنبي في مزج الغزل بالحماسة ، وينهج نهج عبد المحسن الصوري في رقة أغزاله ، وولعه بالجناس الناقص ، كما يسير على ذات نهج عمر بن أبي ربيعة في أغزاله الحسية ، وعدم تقيده بواحدة تملك عليه احساسه ومشاعره ، في تتبعه للجمال الحسي في المرأة ، ويسلك درب أبي نواس ومن تأثره ككشاجم والوأواء الدمشقي والصنوبري ، في جعل الطبيعة مسرحا لتعاطي الراح ، وعقد مجالس الأنس ، ولكنه لا يوغل إيغالهم في ذلك ، ولا تنسيه الخمر طبيعته الجميلة ، ولا تصرفه عن تصوير مشاهدها الرائعة الفاتنة (٢) .

وهو يستلهم طريقة الشريف الرضي ، ومهيار الديلمي في اللهج بذكر الأماكن النجدية والحجازية والشامية على سبيل الرمز (٣) ، كما يلتقي وشعراء الأندلس في الولع بالطبيعة ، والانكباب على تصويرها ورسم مشاهدها في حب وهيام ، فنجده يلتقي مع ابن عبد ربه في الاحتفاء بالطبيعة ، والتغزل بعناصرها غزلا حسيا مكشوفا ، ومع ابن هانئ في خلع صفات المرأة الحسية على عناصرها الطبيعية ، وفي الاحتفاء بالسماء ونجومها في بناء صورة الشعرية ، ويلتقي وابن دراج القسطلي في وصفه الحسي لعناصر الطبيعة وجعله من الطبيعة مذكرا بالخمر وداعيا لها .

---

(١) - انظر هذا البحث : ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٢ .
(٢) - المصدر نفسه / ٤٢ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ .
(٣) - نفسه : ٩٣ .

كما يلتقي مع غير هؤلاء ، وهم شعراء البديع[1] ، في التصوير الحسي لعناصر الطبيعة تارة ، وفي خلع صفات المحبين والعشاق على عناصرها الموصوفة تارة ثانية ، ولكنه يتنكب نزعتهم في المفاضلة بين الأزاهير ، وهي نزعة تأثروا فيها ابن الرومي ، وكأنه فاته لعقمها وعدم جدواها ، ويلتقي وابن زيدون في مزج الطبيعة بمعاني الحب والغرام ، من جهة ، وهي عند ابن زيدون أصدق وأعمق ، وبالحنين من جهة ثانية كما يلتقي وابن حمديس في طلب الصورة ، وحرارة الحنين أيضا ، والحنين الى الوطن ، ومرابع الصبا ، ومجالس الأنس ، خاصة يكاد يشترك فيها شعراء الأندلس في القرنين الخامس والسادس ، وما تلاهما من قرون ، وكان لظروف بيئتهم ، وأطوار حيواتهم أثرها العميق في ذلك . ولكنه يتميز عنهم جميعا في انصرافه الى الطبيعة ، وكلفه بها ، ولجوئه اليها ، يستمد منها معانيها وأسرارها ، ويستعين بصورها على الافصاح عن مشاعره وأحاسيسه وتصوراته وأفكاره ، وهي ميزة أكدناها غير مرة في هذا البحث .

ولعل الشاعر الذي تمكن موازنته بابن خفاجة في هذا المضمار ، حتى أنه لقب بلقبه ، هو شاعر الطبيعة في المشرق أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبري[2] فكلاهما أحب الطبيعة وأخلص لها الحب والتعلق ، وهام بها وركن اليها ، وكلاهما صور الطبيعة وعني بذلك عناية فائقة .

ولعل ابن خفاجة قد اطلع على شعر الصنوبري ، وأخذ عنه طريقته في تلوين الطبيعة واسباغ الضياء على مشاهدة وصوره فيها ، وخاصة في ثلجياته ، ولكنه يختلف واياه في طريقة التصوير ، ففي الوقت الذي يعرض فيه الصنوبري صوره في وضوح وبساطة وجمود في غالب الأحيان ، نجد ابن خفاجة يعرض صوره في دقة قد تصل الى الغموض أحيانا ، دون أن يفقدها خاصة الحركة والحياة التي تزيدها جمالا وروعة ، كما يختلف عنه ، وعن شعراء العربية جميعا في قدرته على خرق حاجز الحس في التعامل مع الطبيعة ، والنفاذ الى أعماقها ، والاحساس بها على نحو عميق ، وقصيدته في الجبل مثال رائع على هذا التجاوز والسبق في تصوير الطبيعة والتفاعل معها والانفعال لها على نحو ايجابي حي .

---

١ - أي كتاب البديع في وصف الربيع لاسماعيل الحميري ومنهم : (ابو عمر يوسف بن هارون الرمادي ، والحاجب المصحفي ، وابو عمر أحمد بن فرج ، وابو مروان عبد الملك بن جهور ، وابو جعفر بن الابار ، وابو بكر بن القوطية ، .... وغيرهم) .

٢ - نفسه المبحث / ٨٧ - ٨٩ /

لقد كان ابن خفاجة صادقا مع نفسه - أولا - عندما أقبل على الطبيعة يصورها تصويرا ينم عن تعلق شديد وحب عميق ، واحساس قوي بالجمال والتناسق فيما يحيط به في تلك الطبيعة الجميلة والكون الفسيح من حوله من ظواهر وكائنات ، فقد كان يعتمد الصورة وسيلة للاعراب عن معانيه ، والافصاح عن مشاعره وأحاسيسه وتأثراته ، فكانت الطبيعة ، لذلك ، بكل عناصرها ومعطياتها معينا ثرا استمد ه استعاراته وتشبيهاته وصوره بكيفية ملفتة للنظر .

كما كان صادقا معها ، ثانيا ، عندما أوجد في عالمه الشعوري ، تلك العلاقة الحميمة والوحدة المتماسكة بين صورة كل من المرأة والطبيعة في وصفه ، فهو ينظر الى المرأة من خلال الطبيعة ، وينظر الى الطبيعة من خلال المرأة ، وفي ذلك اعراب عن احساسه بالجمال ، وبما لها في أعماقه من حب للحياة .

كما صدق ، مرة ثالثة ، عندما أعرب من خلال الطبيعة عن احساسه بالزمن ، ثم بالموت والفناء ، فقد كان محبا للحياة ، متبلا عليها ، لهجا بذكرها ، كارها للموت ، نافرا منه ، ومن كل ما يدعو اليه أو يذكر به ، لقد أحس بالزمن يسرع به نحو الفناء ، وهو الوحيد في أسرة تخطف الموت أفرادها ، كما أحس بالفناء يهدد الوجود الاسلامي في الاندلس ، فكان نزوعه الى تشخيص الطبيعة ، من تحريك ساكن وانطاق صامت ؛ وكان موقفه النافر من كل ما يذكره بالموت والفناء ، وتصويره القوي المنيف لذلك تعبيرا حيا عما كان يعتلج بين جوانحه من حب للحياة والبقاء ، وكراهية للموت والفناء ،

ولعل هذه المعاني مجتمعة ، مضافا اليها ما تميز به أسلوبه من عذوبة لفظ ، ورقة موسيقا ، هي التي أكسبته الشهرة والذيوع ، وجعلت القدماء والمحدثين ، من المهتمين بالأدب وشؤونه ينظرون اليه على أنه صاحب مدرسة في شعر الطبيعة لها أتباعها وأنصارها المتأثرون ما ريقتها في عصره وبعده [1] .

فقد عد محقق الديوان جملة مما ذكرته المصادر من أسماء تلاميذ ابن خفاجة ورواة شعره ، كما ذكر صاحب المغرب ، نقلا عن المسهب للحجاري أن ابن الزقاق استمد من خاله أبي اسحق بن خفاجة ونزع منزعه [2] . وذكر الدكتور إحسان عباس أن الرصافي البلنسي " هو الوريث الشرعي للمذهب الذي اختاره ابن الزقاق وخاله ابن خفاجة

---

(١) - الديوان (مقدمة المحقق) ٨ - ٩ / انظر أيضا ، صلة الصلة : ١٨٥ - ١٨٦ ، التكملة ١ : ١٥١ - ١٥٢ . المغرب في حلى المغرب ٢ : ٣٨١ ، الاحاطة ١ : ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) - المغرب في حلى المغرب ٢ : ٣٢٣ .

في الشعر " ، وأنه تأثر طريقته في وصف الجبل في قصيدته التي مدح بها عبد المؤمن بن علي(١) وقال المقري ، عند ذكره لأبي عبد الله بن زمرك ، إن شعره خفاجي النزعة (٢) ، وعدّ الدكتور محمد رضوان الداية كلا من أبي البقاء الرندي ، وابن خاتمة الانصاري ، من جملة من تأثر طريقة ابن خفاجة ونهج نهجه (٣) . ولعل غارثية غومث قد اعتمد ما ذكرته المصادر السابقة في قوله : " إن الطريقة الخفاجية ظلت محتذاة حتى أواخر أيام مملكة غرناطة " (٤) .

وفعلا ، فإننا لو رجعنا الى دواوين هؤلاء الشعراء وغيرهم ، لوجدنا أثر ابن خفاجة فيها ، من حيث معانيه وطريقة تصويره واضحا جليا ، فنجد عند ابن الزقاق نزوعا الى تتالب الصورة ، وتشخيص عناصرها أحيانا ، ونجد لديه قدرة على صياغة المعاني وتوليدها واختراعها ، كما نجده يمزج أوصاف الطبيعة بأوصاف المرأة ، والنظر الى المحبوب من خلالها ، كما يمزج معاني أغراضه الشعرية المختلفة بوصف الطبيعة ، ويلونها بألوانها ، ويصبغها بصبغتها ، ويربط بين الطبيعة وموضوع الحنين برباط وثيق ، كما يلهج في المجال ذاته بأسماء أماكن نجد والحجاز على طريقة خاله ابن خفاجة ، وقد يعيد معانيه وصوره ، وخاصة في وصفه للورد (٥) .

ويمكن أن نتلمس أثره في شعراء بلنسية وغيرهم في العصر التالي ، عصر الموحدين فقد تأثر الرصافي طريقته في تطلب الصورة ، وفي اللهج بذكر أسماء الأماكن المشرقية وفي الركون الى الطبيعة والتعبير من خلالها عن معانيه في الأغراض الشعرية المختلفة ، ولعل أثر النزعة الخفاجية يبدو أوضح ما يكون في وصفه لكل من الوردة والجبل ، فقد شخص الجبل على طريقة ابن خفاجة ، فأشار اليه على أنه شيخ كبير ، قد جرب الحياة ، وخبر الأيام ، قد قعد مطرقا ، يفكر في مصيره ، حتى ان لونه اكفهر من شدة خوفه مما سيؤول اليه في يوم القيامة من دك وتسيير ، وهو تصوير لا يصل الى مستوى الصورة الفنية الرائعة التي رسمها ابن خفاجة للجبل (٦) .

---

(١) - ديوان الرصافي البلنسي (مقدمة المحقق) : ١٦ - ١٨ - ١٩ .
(٢) - أزهار الرياض ٢ : ٩ .
(٣) - ابو البقاء الرندي : ٥٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، فديوان ابن خاتمة الانصاري (مقدمة التحقيق) : ٢٤ .
(٤) - الشعر الاندلسي : ٥٩ .
(٥) - انظر ديوانه : ٩٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢٧٦ - وهذا البحث : ١١٤ - ١١٦ .
(٦) - ديوانه : ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ - ٨٣ ، ١١١ ، ١١٧ ، والشعر الاندلسي عصر الموحدين : ١٩٩ - ٢٠٠ .

كما ينزع أبو بحر صفوان بن ادريس نزعة ابن خفاجة في تشخيص الطبيعة ووصف الجمال ، ويذهب مذهبه في الحنين الى الوطن ، واللهج بذكر مواطن اللهو ، ومجالس الأنس فوق ربوعه ، وبين أحضان طبيعته الغناء (١) .

ويولع ابن من الكمل ولع ابن خفاجة بالطبيعة ، ويمنى عنايته بالتوليد والاختراع مما يتأثر بطريقته في تصوير الطبيعة وتشخيص عناصرها (٢) ، كما يمكن أن نتلمس آثار ابن خفاجة في شعراء " زاد المسافر " (٣) من أمثال أبي جعفر بن عاصم المرسي وأبي عيسى بن عبد الودود ، وأبي عمرو بن بدل الشريف ، وأبي الحسن ابن الغيير البلنسي ، وأبي القاسم بن البراق الوادي آشي ، في تصويرهم الطبيعة ، وتوظيفهم لها في موضوعات الغزل والمدح والعتاب واللهج بذكر الأماكن النجدية والمجازية في سياق الحنين .

وينزع ابن سهل الاندلسي نزعته أيضا في تشخيص عناصر الطبيعة ، وخلع الاحساسات والنزعات الجنسية على الطبيعة ، وتصوير المحبوب من خلالها ، وفي توظيف الطبيعة في شتى الموضوعات كالمديح ، ووصف القصائد الشعرية ، والغزل والرثاء ، ووصف الحرب وغيرها (٤) .

كما يمكن أن نجد مشابه لنزعته لدى شعراء التصوف ، كابن خميس التلمساني وأبي مدين شعيب التلمساني والعفيف التلمساني (٥) وابن عربي وغيرهم ، وان كانوا ذهبوا بها الى الرمز للمعاني الروحية والفيوضات الربانية ، التي كانوا يشعرون بها في سياقات المناجاة والمناجاة والتوجه الى الله والتفكير في آلائه ونعمه ، ولعل الشاعر الوحيد الذي ضرب على الوتر الحساس والمهم في وصف ابن خفاجة للطبيعة ، وترا "الطبيعة الرمز" ، و"الطبيعة المعبرة" ، هو ابن خاتمة الانصاري ، فقد وصف الطبيعة على أنها في جمالها وتناسقها وروعتها ، كتاب الله المنظور ، الناطق بالعبرة ، والدال بوضوح على الصانع المبدع ، والمشير الى عظمته وبديع صنعه .

---

(١) ـ زاد المسافر : ١٩ ، ١٣٠ - ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ - ١٣٧ .

(٢) ـ المصدر نفسه : ٢٨ والمغرب في حلى المغرب ٢ : ٣٧٣ .

(٣) ـ المصدر نفسه : ٤٧ ، ٥٦ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١٠٩ .

(٤) ـ ديوانه : ٦٨-٦٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦-١٢٧ ، ١٦٣ - ١٦٦ ، ١٩٩-٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٤٧-٢٤٨ .

(٥) ـ أزهار الرياض ٢ : ٣٠٨ ، ٣١٥ ، والعفيف التلمساني شاعر الوحدة المطلقة : ١٥٢ - ١٧٤ .

الطبيعة ، وفي توظيف كما يتأثر طريقته في خلع الاحساسات النفسية على الطبيعة وقد يقتبس بعض معانيه وصوره (١) . وصف الطبيعة في شتى الموضوعات الشعرية على ما يماثلها من حيث العموم في ديوان حازم القرطاجني أمور من السهل العثور فهو أيضا نهج مسلك ابن خفاجة في تصوير المحبوب من خلال الطبيعة ، ووصف القصائد الشعرية من خلالها كذلك ، وتوظيف عناصرها ومعطياتها في بناء قصيدة المدح (٢) .

كما يمكن أن نجد أثر " المدرسة الخفاجية " واضحا في شعر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ، فقد نزع الأول منزع ابن خفاجة في تشخيص الطبيعة ، ومن أوصافها بصفات المحبوب ، وتوظيف الطبيعة بمعطياتها في سياق المدح ، والرثاء ووصف القصائد الشعرية ، ويقتفي أثره أيضا في اللهج بأسماء أماكن نجد والحجاز في سياق الحنين والاحساس بالزمن على سبيل الرمز (٣) ، وهي آثار تبدو واضحة أيضا في شعر ابن زمرك ، فاننا نحس ونحن نقرأ شعره بوجود خصائص المدرسة الخفاجية ، من تطلب الصورة ، وتشخيص للطبيعة ، وخلع للاحساسات النفسية تجاه المرأة على عناصر الطبيعة الموصوفة ، واستخدام لعناصر الطبيعة على اختلافها في بناء الموضوعات المختلفة ، كالمديح ، ووصف المعركة واللهج بذكر أسماء الأماكن النجدية والحجازية ، في سياق الحنين ، وتذكر مجالس الانس مع الصحب في أحضان الطبيعة الفاتنة ، فقد نجد عنده وعند غيره صور ابن خفاجة ومعانيه مكررة دون كبير تحوير ، وهو أمر يدل على أن أثر ابن خفاجة كان قويا ، وأن اشعاع شاعريته ظل قويا وهاجا حتى بعد موته بزمن طويل . بل اننا يمكن أن نتلمس آثاره في شاعري الطبيعة الدمشقيين ، ابن الساعاتي ، وابن النقيب ، في العصرين المملوكي والعثماني ، فنجد عند الأول صدى لطريقة ابن خفاجة في تشخيص الطبيعة ، والنظر الى المرأة ، من خلالها والعكس ، واستخدام الطبيعة بعناصرها ومعطياتها في تلوين معاني المدح ، والحرب كما نجده يتأثره في تصوير النهر والسفينة ، ووصف العذار ، وقد تنبه الصفدي لهذا التأثر فأشار اليه . (٤)

---

(١) ـ ديوانه : ١١ - ١٢ ، ١٩ ، ٢٢ - ٣٠ ، ٤١ - ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٥٠ .

٦٠ - ٦١ ، ٦٣ .

(٢) ـ ديوانه : ٢٨ - ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ٦٠ - ٦١ ، ٦٣ .

(٣) ـ ديوانه : ٣١٧ - ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ، ٤١٤ - ٤٢٢ ، ٤٢٢ - ٤٤٣ ، ٤٩٨ ، ٥٤١ ، ٥٥٠ - ٥٥١ ، ٥٥٤ - ٥٥٥ ، ٥٦٤ ، ٥٩٤ - ٥٩٥ ، ٦٢٥ ، ٦٣٥ - ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

(٤) ـ الغيث المنسجم ١ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

كما يلهج على طريقته التي نهج فيها نهج الشريف الرضي ومهيار الديلمي ، بأسماء الأمكنة النجدية والحجازية ، في مجال الحنين الى الديار والتشوق الى الحبيب(١)
ونجد الثاني يلتقي وابن خفاجة في الاحساس القوي بالطبيعة والحب لها ، كما يشتركان في تشخيصها ، وخلع الصفات الانسانية ، وخاصة ما تعلق منها بمعاني الغزل، على عناصرها الموصوفة ، وقد يشتركان في وصف الشجر والغصون ، ونعت الحمام وفي بث موضوع الطبيعة في الموضوعات الأخرى ، كما يلتقيان في الاستطراد في ذكر شاهد طبيعية بين (ما النافية) و (الباء الزائدة) المتبوعة باسم تفضيل يهدف من ورائه الى بيان صفات الممدوح أو المحبوب وابرازها أو الاعراب عما بالنفس من شوق ولوعة وحرقة شوق (٢) .
بل اننا نجده في ركونه الى الطبيعة ، وتصويره لها تصويرا يوحي بالحب والاحساس بالجمال ، وفي اندماجه فيها ، وبثه اياها الالام والأحزان ، وفي الاحساس بهما على نحو عميق كما في قصيدة الجبل ، من حيث تشخيصه الطبيعة ، وخلعه الشاعر والأحاسيس الانسانية عليها ، نجده ، يلتقي في ذلك كله مع شعراء وأدباء ما قبل الرومانتية من أمثال : تومسون ، وبروك ، وروسو ، ورامون ، وشكسبير ، وغوته ، وشيلر ومع شعراء الرومانتية من أمثال لامرتين ، وهوجو ، وكولريدج ووزدزوورث وشيلي وكيتس ولنمنج وغيرهم في القرنين الثامن والتاسع عشر ، فهم أيضا نزعوا ذات النزعة في الركون الى الطبيعة والاحساس بها ، ولكن مع فروقات اقتضاها تقدم الفكر الانساني وتنوع التجربة الشعورية واختلاف التصور ، فهو يلتقي معهم في " أنسنة الطبيعة " وجعلها اطارا لشتى المشاعر والتصورات ، والشكوى والحنين ، وهو يميل الى الطبيعة الباسمة ، العامرة بالضياء في معظم الحالات ، على حين يميل الرومانتيون الى الجانب الكئيب والمظلم فيها ، ولذلك احتفوا بالطبيعة في جو الخريف والشتاء ، واستسلموا فيها لأحلامهم وأفكارهم ، ويلهج بذكر الموت والفناء كما يلهجون ، ولكنه يرهبه ، وينفر منه ، لأنه يعلم مصيره الذي سيؤول اليه ، ولنهايته التي سينتهي اليها ، على حين يطلب الرومانتيون الموت ، ويهرعون الى الأرض الخراب ، ويجدون في ذلك راحة

---

(١) ـ ديوانه : جـ ١ : ٧١ ـ ٧٢ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٥٥ ، ٢١٢ ، جـ ٢ : ٥ ، ١٥ ، ١٧ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٤٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨ ، ٤٠٠ .

(٢) ـ ديوانه : ٥٦ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٢ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٥١ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٣٠٣ وابن النقيب شاعر الطبيعة : ٦٢ ـ ٦٣ ، ٩١ ـ ٩٢ .

وانطلاقا ، وبجوا ساعدا على الاحساس بالحياة على نحو عميق ، وهم يهرعون الى القبور في جو الليل ، ويجعلون منها سرحا للذكرى والتأمل ، والاحساس بالزمن ، والاعتبار ، وهو يفصل ذلك الا أنه ينفر من الليل ، ولا يستريح اليه ، وكأنه كان يذكره بالموت الذي ترهبه نفسه وتفرق منه . وهو يسبقهم في وصف الجبل ، والاحساس به على نحو عميق ، هذا اذا لم نقل : إن وصفه للطبيعة قد كان من جملة المؤثرات التي أثرت في الشعر الغنائي الأوروبي عن طريق جماعة " التروبادور " وقد كانت الصلة وثيقة بين الأندلس الاسلامية والدول الأوروبية المجاورة [1] .

واذا ، فقد استلهم ابن خفاجة ثقافته الشعرية والقرآنية ، كما استوحى بيئته الطبيعية الفاتنة ، مستعينا على ذلك باستعدادات فطرية وشعورية ، في ميله الى الطبيعة والاحساس بها ، وتصويرها تصويرا فيه جدة ، وأصالة ، جعلته قمينا بلقب شاعر الطبيعة في أدبنا العربي القديم .

---

(١) - الرومانسية في الأدب الاوروبي ١ : ٧٥ - ٩٦ ، ١٣٦ - ١٤٣ ، ١٩١ ، ٢٣٠ ، ٢ : ١٩ - ٢٤ .

دول الطوائف: ٢٨٥ Histoire de l,Espagne : 16

خاتمــــــــة

وبعد ، فقد بدأنا هذا البحث بمدخل أضأنا فيه جوانب عصر ابن خفاجة ،السياسية
لاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، ورأينا أن الاندلس في القرنين الرابع والخامس تشهد
لغت مستوى حضاريا راقيا ورائدا ، ولكن زوال الخلافة ، وانقسام الأندلس الى
ويلات متنافسة ومتصارعة ،وظهور القوة النصرانية في الشمال ورفعها لواء الاستقلاب
شنها الهجمات المتتالية على تلك الدويلات الواهنة ،قد قلب حياة الاستقرار لدى
سلمي الاندلس الى قلق واضطراب ، وكاد النصارى يستولون على الأندلس في القرن
لخامس لولا تدخل المرابطين ، وحيلولتهم دون ذلك ، بعد أن استجابوا لصريخ
الاندلسيين ونداءاتهم المتكررة ، فدخلوا الأندلس في بداءة الأمر مساعدين ، ولكنهم
لم يلبثوا مدة حتى رجعوا اليها فاتحين ، بعد أن تبين لهم أن ملوك الطوائف لضعفهم
وتنافسهم ،لا قبل لهم بالقوة النصرانية المتربصة بهم ، والتي فرضت عليهم هيمنتها وجبروتها
واضطرتهم الى دفع جزى ثقيلة أرهقوا بها كاهل الأمة ،وانتزعوها من الرعية انتزاعا
مقابل الكف عن شن الغارات ونسف الزروع أو الدخول في حماية مزيفة من جشع هذا
الملك أو ذاك من ملوك الطوائف الكثيرين ؛ وقد وفر المرابطون الأمن والاستقرار في
الأندلس ،وظلوا يدافعون عنها حتى تفرقت قوتهم بين العدوتين ، بسبب ظهور المهدى
بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، كمنافس ذي دعوة وقوة لها حسابها ، وهو أمر
أثر في الوجود المرابطي في الأندلس وأضعف من قوتهم أمام قوة النصارى المتزايدة ،
فمنوا بهزائم عدة ، مما جعل أهل الأندلس يثورون بهم ،ويستبدلون بسلطانهم سلطان
الموحدين الذين ظهروا في المغرب على المرابطين واستولوا على ملكهم فيها .
ورأينا أيضا أن الهبوط السياسي ،والقلق الذى أصاب الحياتين السياسية والاجتماعية لم
يؤثر في الحياة الفكرية بفروعها المختلفة ، فقد ظلت الحركة الفكرية نشطة مدة ملوك
الطوائف واستمر نشاطها بعد استقرار حكم المرابطين في الأندلس على تفاوت في
ذلك النشاط ،بين ملك وملك ، ومرحلة وأخرى .
ثم تناولنا في الباب الأول ، درسا وتحليلا ، حياة ابن خفاجة ،من حيث نشأته وتعلمه
وشخصيته ونفسيته وعلاقاته وأسفاره ، ورأينا أنه كان يتمتع بشخصية ذات ميزات واستعدادات
وخصائص ، أهلته لأن يلتجىء الى الطبيعة ،ويرتبط بها برباط وثيق يجعلها تستولي
على حسه ومشاعره ، وتستأثر بحبه وهيامه ،وتحظى بعنايته وتصويره ، ثم خلصنا
بعد ذلك الى باب الطبيعة في الشعر العربي ،فأضأنا في شمول وتركيز ،اسهام شعراء
العربية في مجال وصف الطبيعة قبل ابن خفاجة ، وحاولنا الوقوف على نواحي التطور في
هذا الفن عبر العصور التاريخية للشعر العربي ، ورأينا أن ارتباط الشاعر العربي ببيئته

كان قويا ، وأن ارتباطه هذا ظل ينمو ويتعمق على مر الزمن ، ولكن الولع بالتشبيهات الحسية ، والتنافس في اطارها ، توليدا واختراعا ، طبع شعرنا الوصفي ، وشعر الطبيعة بالتالي ، بطابع الحسية والتسطح في معظم الأحيان ، فقلما نجد في هذا الشعر محاولة سبر واستكناه ، لعناصر الطبيعة الموصوفة ، والتفاعل معها ، والانفعال لها على نحو عميق حي •

ثم انتقلنا الى الموضوع الرئيس في هذا البحث ، وهو الطبيعة في شعر ابن خفاجة وبدأناه بوصف لبيئة الشاعر الطبيعية ، وحاولنا الربط بين حياته ونفسيته وشاعريته وبين الطبيعة التي نشأ في أحضانها وترعرع بين ربوعها ، ورأينا أن احساس الشاعر ببيئته كان قويا ، وصادقا ، وهي صلة أثرت ذلك الديوان الشعري المفعم بمشاهد الطبيعة بعناصرها ومعطياتها •

واتبعناه بدراسة الوصف ذي الطابع الكلي للطبيعة ، ويتمثل ذلك في روضياتــــه التي صورها في حب وإعجاب ، وإحساس قوي بجمال الطبيعة وروعة مشاهدها • فروضياته مشاهد عامة ، مصورة تصويرا واقعيا ، غالبا ، ولكنه تصوير ملئ بالحركة والحياة ومعبر بقوة عن مشاعر الشاعر واحساساته تجاه كل من المرأة والحياة •

ثم رأينا أن نفتت هذا المجموع الى أجزائه وعناصره ، وأن ننظر الى تصوير ابن خفاجة لأجزاء الطبيعة ونتبين من كثب علاقته بها ، ونظرته اليها ، فوجدناه يصورهــا في إعجاب ، ويعرضها عرضا جذابا ، يدل على رهافة حس ورقي ذوق ، كما يفصح عن شعور ابن خفاجة ازاء المرأة التي حرمها في حياته كزوج تشاطره حياته ، بأفراحها وأحزانها ، وأوصافه في الشجرة ، منورة حينا ، ومورقة ندية الظلال حينا آخر ، لاعارية جرداء دليل على حبه الحياة ورغبته في البقاء •

ثم انتقلنا معه الى ما في طبيعته الغناء من ربا وسهول ، فمتعنا النظر بمناظرها البهيج ثم وقفنا وقفة مطولة ، نستمع الى حواره الانساني الخالد مع الجبل الــذي نفض عنه الشاعر غبار الخمول ، وألان جساوته وبعث فيه الحركة والحياة ، فاذا هــو ينطق ، ويحدث ، ويطوي الصبر والعظات ، في أسلوب مهيب موثر يدل علــى تجربة شعورية عميقة ، ومعاناة نفسية صادقة ، ثم سرنا معه في سهول وطاح أرضه الفيحاء ، ومتعنا البصر بمنظر نهرها الجميل ، وعشنا معه أطواره المختلفة في هدوئه وصفائه ، وخريره ، وفي تفرعه الى سواق وجداول تتخلل البساتين والحقول ، ثم فــي تحوله ، بعد نزول المطر الى سيل عات يجرف ما يعترض مجراه من مراكب وأشجار وجبال ، كما وقفنا معه نرقب البحر من كثب ، في إعجاب ممزوج بالخوف والرهبـة

ثم شهدنا مع الشاعر ظاهرة الثلج ، وظاهرة البرَد ، فأخذنا بما في تصويره من ألوان وضياء ، كما أوهمنا تصويره البرَد على أنه غضب إلهي منزل ، يرجم الأرض والناس عقابا لهم على عصيانهم وجحودهم .

ثم حولنا البصر الى الظواهر الكونية ، من ليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم ، وسحاب ورعد وبرق ، فشعرنا بأحاسيس الشاعر ومشاعره ممتزجة بوصفه هذه العناصر الكونية ؛ فهو لا يستطيب صوت الرعد ولا يستريح لظلمة الليل ، ولكنه يهفوا الى الضياء والنور فهو ينفر من الليل ، على الرغم من تفننه في وصفه ، فيمزقه ويصدع ظلامه بشهبة فرسه أو بضياء البرق ، أو لمعان نصل سيفه أو ببياض الصباح ، فكأن ذلك كان انعكاسا لما كان يكنه في أعماقه من احساس بالزمن ، وصراع بين الموت والحياة ، والفناء والبقاء .

ثم انتقلنا معه الى طبيعته الحية ، فلاحظنا أنه لم يعن بكل ما عرفته طبيعته من حيوان ، ولكنه عني بعنصرين فيها هما الفرس والطيور ، فأحسسنا بالمتعة ونحن نتملى المشاهد الملونة والمتنوعة التي رسمها لفرسه ، وهي مشاهد تجسد الى جانب الصفات الحسية المتناظرة الصفات المعنوية والنفسية ، كما تركز على ابراز قوة الفرس وسرعة عدوه وتجسيمها ، فسرعته تشتد حتى تصل الى درجة الطيران ، فنلحظه يسبق البرق ويندفع كالعاصفة ، وهو تصوير له علاقته بنفسية الشاعر ، الرقيقة القلقة ، الخائفة المترقبة . كما شنفنا الآذان بترنيم طير طبيعته ، فطربنا لمكائه ، وأحسسنا بالحزن لسجع حمامه الباكي ، ولكننا لم نتمتع النظر بمنظرها الحسي الا في النادر .

ثم تجولنا مع الشاعر في بيئته الحضارية ، فلفت انتباهنا تصويره المتعمد للسيف ، ثم للقلم والخاتم ، من دون غيرها من الوسائل الحضارية التي تنوعت في عصره ، وبلغت صناعتها مستوى فنيا راقيا ، ولعل قصده السيف بالوصف ، والفرس من قبله ، وعنايته بهما ، فضلا عن الجانب الجمالي ، رمز الى ما كان ينبغي التحلي به ، والمحافظة عليه واستخدامه في وقت ، من أشد أوقات الاندلس الاسلامية قلقا واضطرابا ، فهما وسيلتا الجهاد الذي بوساطته يدفع الخطب ، ويذاد عن الوجود الاسلامي في الاندلس ، المهدد بالزوال من قبل حركة الاستغلاب النصرانية .

وقد لحظنا أن ابن خفاجة قد اعتمد في تصويره للطبيعة الحية ، والمصنوعة ، الطبيعة الصامتة ، واتكأ عليها بما اشتملت عليه من عناصر ومعطيات في تلوين صوره ومشاهده المرسومة ، وهو اتكاء بدا واضحا في كل الأغراض الشعرية التي طرقها ، من مدح ورثاء ، وعتاب ، ووصف المعركة ، والخمر والقصائد الشعرية ، ولعل الغرض الذي بدت هيمنة

الطبيعة عليه بوضوح هو غرض الغزل ، ففيه انعكست الآية ، فبعد أن كان ابن خفاجة ينظر الى الطبيعة من خلال صفات المرأة الحسية ، أضحى ينظر الى المرأة من خلال الطبيعة ، وهو تداخل وتمازج ، لعل السر فيه يرجع ، زيادة على المشترك الجمالي الى احساس الشاعر بالحياة ، فكأنه رأى فيهما رمزا للحياة التي كان يحبها ويتعلق بها ، فعني بوصفهما ، والتوحيد بينهما ، وتخليدهما على سبيل التعويض .

ثم ثنينا ذلك كله بدراسة مكثفة للجوانب الفنية في شعر ابن خفاجة ، فأشرنا الى ما يلي :

١ - عناية الشاعر بأسلوبه الشعري ، من تخير للألفاظ السهلة الموحية ، وانتقاء للأوزان حسبما يقتضيه المقام ، وعناية فائقة بالجانب الموسيقي في قصائده الشعرية ، وقد أسعفته ثقافته الأدبية وذوقه الحضاري ، وحسه المرهف في ذلك ، فجاء شعره سهل العبارة ، متقنها ، متناغم الأصوات ، تطرب له الأذن ، وتهتز له النفس .

٢ - اكثاره من التشبيهات ، والتشبيه التمثيلي منها خاصة ، والاستعارات ، وحشده لها في البيت الواحد - أحيانا - مما يطبع شعره بمسحة من الغموض ؛ وهي وسائل فنية اعتمد في استخدامها على الطبيعة من حوله ، يعب منها وينهل ، دون كلل أو ملل .

٣ - اعتماده الصورة الشعرية وسيلة للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه ، وقد رأينا أن فكرة الصراع بين الحياة والموت ، واحساسات ابن خفاجة النفسية ، قد لونت صوره ، وابعتها بطابع خاص .

٤ - واقعيته التصويرية - غالبا - وأنها واقعية احتفظت الموصوفات في اطارها بحيويتها وحركتها .

٥ - مزجه بين الخيال والواقع في بناء الصورة وهو مزج يبدو في حرص الشاعر على أنسنة الطبيعة ، وتشخيص عناصرها الموصوفة بوضوح .

٦ - سعيه الى ايجاد الوحدة فيما بين عناصر الطبيعة من جهة ، وبين الطبيعة والانسان من جهة أخرى ، وهي خاصة تجعلنا نحس في وصفه بالانس ، والحب والانجذاب ، وقلما نشعر بالصراع والنفور ؛ وما نشعر به منها هو تجل لما كان يصطرع في أعماقه بين حياة يحبها وموت يرهبه ويفرق منه ، ولعله لهذا السبب لم يكثر في وصفه من الطباق لما يوحي به من معاني التضاد والتقابل والصراع .

ثم حاولنا أخيرا تحديد مكانة ابن خفاجة بين لذاته من شعراء الطبيعة في أدبنا العربي القديم . وهي محاولة لا تخفى صعوبتها ووعوثتها وخطورتها ، فأشرنا اشارات عامة الى نواحي الالتقاء والاختلاف بينه وبين من سبقه ومن جاء بعده من شعراء وصف الطبيعة ،وهي محاولة أبرزت مكانة ابن خفاجة ، من حيث كونه حلقة مهمة في سلسلة وصف الطبيعة في شعرنا العربي القديم ، كما أشرنا الى أن ابن خفاجة قد ضرب على أوتار حساسة في شعر الطبيعة ،سبق بها شعراء الرومانتية بما يزيد عن ستة قرون .

وكل ما أرجوه هو أن أكون قد وفقت في تقديم صورة واضحة عن الطبيعة في شعر ابن خفاجة الاندلسي كما هي في الواقع او كما تمثلتها نفسه ومخيلته ممزوجة بعواطفه ومشاعره وتصوراته ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهارس البحـــث

١ - فهرس الاعلام والامم والقبائل والطوائف

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(غ)

(ف)

(ق)

(و)

٢- فهرس الأماكن والبلدان

٣ - فهرس المصادر والمراجع

- العربيــة والمترجمــة :

١- الاحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب لسان الدين (- ٧٧٦) تحقيق . محمد عبدالله عنان . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٧٣-١٩٧٧ .

٢- الأدب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة . د . أحمد هيكل . ط٥ . دار المعارف بمصــر ١٩٧٠ .

٣- الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه . د مصطفى الشكعة . ط ٢ . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤ .

- أزهار الرياض في أخبار عياض لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (- ١٠٤١هـ) تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٣٩ .

- اسبانيا شعبها وأرضها . تأليف دورثي لودر ترجمة طارق فوده . الدار القومية . مصر ١٩٦٥

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري . تحقيــق جعفر الناصري ومحمد الناصري . دار الكتب . الدار البيضاء ١٩٥٥ .

- أسرار البلاغة . لعبد القاهر أحمد بن محمد الجرجاني (- ٤٨٢ هـ) تصحيح وتعليــق السيد محمد رشيد رضا دار المعرفة بيــروت ١٩٧٨ .

- أعمال الأعلام لابن الخطيب - لسان الدين . تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال . دار المكشوف، بيروت ١٩٥٦ .

= = = : القسم الثالث ، في تاريخ المغرب العربي . تحقيق وتعليق . د . أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب . الدار البيضاء . المغرب الأقصى ١٩٦٤ .

- أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري (جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (-٥٣٨هـ) ط١ . دار الوراقــة ١٣٦٢ هـ .

١- كتاب الأنواء لابن قتيبــة أبي عبدالله بن مسلم الدينوري (- ٢٧٦هـ) ط ١ حيدر آباد الهنــد ١٩٥٦ .

- الأنيس المطرب بروض القرطاس لعلي بن أبي زرع الفاسي (-٧٢٦هـ) دار المنصور ، الرباط ، المغرب الأقصى ١٩٧٢

١ - بدائع البدائه لعلي بن ظافر الازدي (- ٦١٣هـ) . تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيــم . مكتبــة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٧٠

١ - البديع في وصف الربيــع . لأبي الوليد اسماعيل بن عامر الحميري توفي قريبا من (٤٤٠هـ) تصحيح ونشــر . هنري بيريس . الرباط . المغرب الأقصى ١٩٤٠ م

١ - بغية الملتمس للضبي أحمد بن عميرة (- ٥٩٩ هـ) دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٧ .

١٤- بغية الوعاة . للسيوطي جلال الدين عبدالرحمن (- ٩١١هـ) ط١ . تحقيق . محمد ابوالفضل ابراهيم . مطبعة عيسى بابي الحلبي . القاهرة ١٩٦٤.

١٥ - أبوالبقاء الرندي شاعر الرثاء في الاندلس : د . محمدرضوان الداية ط١ موسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦.

١٦ - البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (ت نحو ٦٩٥ هـ) حقق الاجزاء (١-٣) ج . س . كولان وا . ليفي بروفنسال . وحقق الجزء الرابع د . احسان عباس . ط ٢ . دار الثقافة . بيروت ١٩٨٠

١٧ - تاريخ الادب الاندلسي . عصر سيادة قرطبة . د . احسان عباس . دار الثقافة بيروت ١٩٧٥.

١٨ - = = = . عصر الطوائف والمرابطين . د . احسان عباس ط٤ . دار الثقافة بيروت ١٩٧٤.

١٩ - تاريخ الادب العربي . احمد حسن الزيات ط ٢٥ الفجالة . القاهرة . السنة (؟)

٢٠ - تاريخ الادب العربي . العصر الاسلامي . د . شوقي ضيف ط٣ دار المعارف بمصر ١٩٦٣

٢١ - = = = . العصر الجاهلي . د . شوقي ضيف ط٤ دارالمعارف بمصر ١٩٦٠

٢٢ - = = = . العصر العباسي الأول . د . شوقي ضيف . ط ٦ دارالمعارف بمصر ١٩٦٦

٢٣ - = = = . العصرالعباسي الثاني . د . شوقي ضيف ط٢ دار المعارف ١٩٧١

٢٤ - تاريخ الادب العربي في صقلية . أمبرتوريزيتانو منشورات الجامعة الاردنية . عمان ١٩٦٥

٢٥ - تاريخ الادب العربي جـ ٥ . عصر المرابطين والموحدين . د . عمر فروخ ط١ دارالعلم بيروت ١٩٨٢.

٢٦ - تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين . يوسف أشباخ ترجمة . عبدالله عنان مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٠.

٢٧ - تاريخ ابن خلدون او كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) . تاليف عبدالرحمن بن خلدون (- ٨٠٨ هـ) . مطبعة بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ .

٢٨ - تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي عبدالله بن محمد (- ٤٠٣هـ) . الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦.

٢٩ - تاريخ الفكر الاندلسي . لآنخل جنثالث بالنثيا . ترجمة . د . حسين مؤنس . ط١ مطبعة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٥.

٣٠ - تاريخ الفلسفة العربية تاليف حنا فاخوري وخليل الجر . دار المعارف بيروت ١٩٥٨

٣١ - تاريخ الفلسفة اليونانية . تأليف : يوسف كرم . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر ١٩٣٦.

٣٢ - تاريخ النقد الادبي عند العرب د . احسان عباس ط٢ دار الثقافة بيروت ١٩٧٨
٣٣ - البيـــان (او مذكرات الامير) . عبدالله بن بلقين . دار المعارف . القاهرة ١٩٥٥
٣٤ - تزيين الاسواق للانطاكي داود بن عمر (- ١٠٠٨ هـ) المطبعة البهية . القاهرة ١٣٠٢هـ
٣٥ - التشبيهات من أشعار أهل الاندلس لابن الكتاني أبي عبدالله المتطبب (- ٤٢٠ هـ) تحقيق د . احسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٦٦ .
٣٦ - التصوير الفني في القرآن . سيد قطب . دار الشروق . بيروت السنة ؟
٣٧ - التطور والتجديد في الشعر الاموي . د . شوقي ضيف . ط٣ . دار المعارف مصر ١٩٦٥
٣٨ - التكملة لكتاب الصلة لابن الابار ابي عبدالله محمد بن عبدالله ابي بكر القضاعي (- ٦٥٨هـ) نشر السيد عزت العطار الحسيني . القاهرة ١٩٦٠
٣٩ - ثلاث رسائل في آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق إ . ليفي بروفنسال . القاهرة ١٩٥٥
٤٠ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس لابي عبدالله محمد الحميدي (-٤٨٨) - القاهرة ١٩٦٦ .
٤١ - جغرافية الاندلس وأوربا للبكري ابي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (- ٤٨٧ هـ) تحقيق د . عبدالرحمن علي الحجي . دار الارشاد بيروت ١٩٦٨ .
٤٢ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . تأليف آدم متز . ترجمة محمد عبدالهادي أبوريدة ط٤ . مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٧ .
- حلبة الكميت لشهاب الدين محمد بن حسن النواجي (-٨٥٩هـ) القاهرة ١٩٣٨ .
٤٣ - الحلة السيراء لابن الابار ابي عبدالله القضاعي . تحقيق د . حسين مؤنس . ط١ . الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٣ .
٤٤ - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول تحقيق د . سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ط١ دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء ١٩٧٩ .
٤٥ - حياة وآثار الشاعر الاندلسي ابن خفاجة . حمدان حجاجي ط١ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع والتوزيع الجزائر ١٩٧٤
٤٦ - ابن خفاجة . د . الداية محمد رضوان . ط١ . المكتب الاسلامي دمشق ١٩٧٤ .
٤٧ - ابن خفاجة الاندلسي . عبدالرحمن جبيهـــر . دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠
٤٨ - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني الكاتب (- ٥٩٧هـ) . قسم شعراء المغرب والاندلس . تحقيق . آذرتاش آذرنوش . تنقيح . محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي . الدار التونسية للنشر ١٩٨٠
٤٩ - كتاب الخيل لابي عبيدة معمر بن المثنى (- ٢٠٩ هـ) ط١ . مطبعة دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الهند ١٣٥٨هـ .

٥٠ - دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربيـــة .

٥١ - دراسات في تاريخ الادب العربي . أغناطيوس كراتشوفسكي . ترجمة . محمد المعصراني علم . موسكو ١٩٦٥

٥٢ - دراسات في الشعر الاندلسي . د . سعد اسماعيل شلبي . دار نهضة مصر للطباعة والنشر . الفجالة . القاهرة ١٩٧٣ .

٥٣ - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي . محمد عبدالله عنان ط١ لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٠

٥٤ - ديوان الاعشى ميمون بن قيس . تحقيق محمد حسين . مكتبة الاداب القاهرة ١٩٥٠

٥٥ - ديوان الاعمى التطيلي (- ٩٥ هـ) تحقيق د . احسان عباس . دار الثقافة بيروت ١٩٦٣ .

٥٦ - ديوان البحتري . تحقيق . حسن كامل الصيرفي . دار المعارف . مصر ١٩٦٣ .

٥٧ - ديوان ابي تمام بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق محمد عبده عزام . دار المعارف مصر ١٩٥١ .

٥٨ - ديوان حازم القرطاجني . تحقيق . عثمان الكعاك . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٤

٥٩ - ديوان ابن حمديس (- ٥٢٧ هـ) نشر د. احسان عباس دار صادر ١٩٦٠

٦٠ - ديوان ابن خاتمة أحمد بن علي الانصاري الاندلسي (-٧٧٠ هـ) تحقيق د . محمد رضوان الداية . منشورات دار الحكمة . ١٩٧٨ .

٦١ - ديوان ابن خفاجة . د . السيد مصطفى غازي . منشأ دار المعارف . مصر ١٩٦٠

٦٢ - ديوان ابن دراج القسطلي (- ٤٢١ هـ) تحقيق د . محمود علي مكي . ط٢ . المكتب الاسلامي . بيروت ١٣٨٩ هـ

٦٣ - ديوان ذو الرمة (- ١١٧ هـ) تحقيق د . عبدالقدوس أبوصالح . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٢ .

٦٤ - ديوان الرصافي أبي عبدالله بن غالب البلنسي (-٥٧٢ هـ) تحقيق د . احسان عباس ط١ . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٠

٦٥ - ديوان ابن الرومي . تحقيق د . حسين نصار . مطبعة دار الكتب . مصر (١٩٧٣-١٩٧٧)

٦٦ - ديوان ابن الزقاق الحسن بن عطية تحقيق عفيفة ديراني . دار الثقافة . بيروت . السنة ؟

٦٧ - ديوان ابن زيدون (- ٤٦٣ هـ) تحقيق . علي عبدالعظيم . مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٧ .

٦٨ - ديوان ابن الساعاتي ابي الحسن علي بن محمد (- ٦٠٤ هـ) تح : أنيس المقدسي المطبعة الامركانية . بيروت ١٩٣٨ .

ديوان السري الرفاء . نشر مكتبة القدسي . القاهرة ١٣٥٥ هـ
ديوان ابن سهل الاندلسي . تقديم د.احسان عباس . دار صادر . بيروت ١٩٦٧
ديوان الشريف الرضي . دار صادر . بيروت ١٩٦١
ديوان ابن شهيد . جمع . يعقوب زكي . قرطبة ١٩٧٥
ديوان الصبابة لابن ابي حجلة أحمد بن يحيى المغربي (-٧٧٦هـ) بهامش تزيين الاسواق للانطاكي المطبعة البهية . القاهرة ١٣٠٢هـ .
ديوان الصنوبري . تحقيق د . احسان عباس . دار الثقافة . بيروت ١٩٧٠
ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام للسان الدين بن الخطيب . تحقيق د. محمد الشريف قاهر ط١ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر ١٩٧٣ .
ديوان طرفة بن العبد بشرح الاعلم الشنتمري . تحقيق . درية الخطيب ولطفي الصقال مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٥ .
ديوان بن عبد ربه . تحقيق د . محمد رضوان الداية ط١ . مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٧٩ .
ديوان العجاج . تحقيق د . عبد الحفيظ السطلي . المطبعة التعاونية . دمشق ١٩٧١
ديوان عبيد بن الابرص . نشر أكرم البستاني دار صادر . بيروت ١٩٦٤
ديوان علقمة الفحل بشرح الاعلم الشنتمري تحـ : لطفي الصقال ودرية الخطيب ط١ دار الكاتب العربي . حلب ١٩٦٦
ديوان عنترة بن شداد . تحـ.محمد سعيد مولوي . المكتب الاسلامي . القاهرة ١٩٧٠
ديوان كشاجم . تحقيق خيرية محفوظ . مطبعة دار الجمهورية بغداد ١٩٧٠.
ديوان المتنبي ابي الطيب . تصحيح . عبد الوهاب عزام . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٤ .
ديوان مجنون ليلى . جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج دار مصر للطباعة . مصر ١٩٧٩
ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم . دار المعارف . مصر ١٩٥٨ .
ديوان ابن المعتز (- ٢٩٦ هـ) بشرح محي الدين الخياط . مطبعة الاقبال بيروت ١٣٣٢ هـ
ديوان المعتمد بن عباد . جمع وتحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . المطبعة الاميرية . القاهرة ١٩٥١
ديوان مهيار الديلمي . ط١ دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٥
ديوان ابن النقيب (- ١٠٨١ هـ) تحقيق عبد الله الجبوري . المجمع العلمي العربي دمشق ١٩٦٣ .

٩٠ - ديوان أبي نواس . تحقيق . أحمد عبدالمجيد الغزالي . مصر . ١٩٥٣ .

٩١ - ديوان ابن هانئ الاندلسي (- ٣٦٢ هـ) شرح كرم البستاني . دار صادر . بيروت السنة (؟)

٩٢ - ديوان الوأواء الدمشقي . تحقيق . د. سامي الدهان . المجمع العلمي العربي . دمشق . ٥٠

٩٣ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابي الحسن علي بن بسام الشنتريني (- ٥٤٢ هـ) تحقيق د . احسان عباس . دار الثقافة . بيروت ١٩٧٩ .

٩٤ - ذو الرمة شاعر الحب والصحراء . د . يوسف . خليف . دار المعارف . القاهرة . ١٩٧٠

٩٥ - رايات المبرزين وغايات المميزين . لابي الحسن علي بن سعيد المغربي (- ٦٨٥ هـ) تحقيق . د النعمان عبدالمتعال القاضي . مطابع الاهرام التجارية . القاهرة ١٩٧٣ .

٩٦ - رسالة الشقندي (انظر فضائل الاندلس واهلها)

٩٧ - رسالة ابن عبدون (انظر ثلاث رسائل في آداب الحسبة)

٩٨ - الروض المعطار في خبر الاقطار لمحمد بن عبدالمنعم الحميري تحقيق د . احسان عباس دار القلم بيروت ١٩٧٥

٩٩ - الرومانسية في الادب الاوربي . تأليف بول فان تييغم ترجمة صباح الجهيم . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٨١ .

١٠٠ - ابن الرومي في الصورة والوجود . د.علي شلق ط١ دار النشر للجامعيين - ١٩٦٠

١٠١ - زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر لابي بحر صفوان بن ادريس المرسي (- ٥٩٨ هـ) نشر وتعليق عبدالقادر محداد . بيروت ١٩٣٦ .

١٠٢ - ابن زيدون عصره وحياته وأدبه . د.علي عبدالعظيم ط١ مطبعة الرسالة القاهرة ١٩٥٥ .

١٠٣ - سرور النفس بمدارك الحواس الخمس لأحمد بن يوسف التيفاشي (- ٦٥١ هـ) . تهذيب ابن منظور . تحقيق د . احسان عباس . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٨٠

١٠٤ - شرح ديوان لبيد . تحقيق د . احسان عباس . مطبعة الحكومة . الكويت ١٩٦٢ .

١٠٥ - شرح ديوان المتنبي . عبدالرحمن البرقوقي . المطبعة الرحمانية . القاهرة ١٩٣٠

١٠٦ - الشعر الاندلسي تأليف غارثية غومث ترجمة د . حسين مؤنس ط٣ . مكتبة النهضة الحديثة القاهرة ١٩٦٦ .

١٠٧ - الشعر الاندلسي في عصر الموحدين د. فوزي سعيد عيسى ط١ . الاسكندرية ١٩٧٩ .

١٠٨ - الشعر والبيئة في الاندلس . د . ميشال عاصي . ط١ المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٥ .

١٠٩ - الشعر والتجربة تأليف أرشيبالد مكليش . ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي . دار اليقظة العربية . بيروت ١٩٦٣ .

١١٠ - شعر الطبيعة في الادب العربي . د سيد نوفل ط٢ . دار المعارف ، مصر ١٩٧٨ .

١١١ - شعر ابن اللبانة جمع وتحقيق د . محمد مجيد السعيد . منشورات جامعة البصرة ١٩٧٧

١١٢ - صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق تأليف الشريف الادريسي عبدالله محمد بن محمد (- ٥٦٠ هـ) نشره ر. دوزي . ليدن بريل ١٨٦٦

١١٣ - الصلة لابن بشكوال خلف بن عبدالملك (- ٥٧٨ هـ) . الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ .

١١٤ - صلة الصلة لابي جعفر بن أحمد الزبير (- ٨٠٧ هـ) نشره إ. ليفي بروفنسال . المطبعة الاقتصادية الرباط المغرب الاقصى ١٩٣٨ .

١١٥ - صناجة العرب الاعشى الكبير . د . مصطفى الجوزو ط١ دار الطليعة . بيروت ١٩٧٧ .

١١٦ - صناعة الكتابة . تأليف د . أسعد علي و د . فكتور الكك . ط٤ دار السؤال . دمشق ١٩٨١

١١٧ - كتابة الصناعتين لابي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (- ٣٩٥ هـ) ط٢ نشر محمد علي صبيح مصر السنة ؟

١١٨ - الصورة الادبية د . مصطفى ناصف ط٢ دار الاندلس بيروت ١٩٨١

١١٩ - طبقات الأمم لابي القاسم صاعد بن احمد الاندلسي (- ٤٦٢ هـ) مطبعة السعادة مصر السنة ؟

١٢٠ - أبو الطيب المتنبي تاليف د . ر بلاشير ترجمة د . ابراهيم كيلاني وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٥ .

١٢١ - الطبيعة في الشعر الاندلسي . د . جودت الركابي مكتبة أطلس . دمشق ١٩٧٠

١٢٢ - الطبيعة في الشعر الجاهلي . د . نوري القيسي ط١ . دار الارشاد للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٠ .

١٢٣ - العجاج حياته ورجزه . د . عبدالحفيظ السطلي . مكتبة أطلس دمشق ١٩٧١ .

١٢٤ - العروض وموسيقا الشعر العربي د . محمد علي سلطاني . المطبعة الجديدة دمشق ١٩٨١

١٢٥ - العمدة في صناعة الشعر ونقده لابي علي الحسن بن رشيق القيرواني (- ٤٦٣ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . ط١ مطبعة حجازي . مصر ١٩٣٤ .

١٢٦ - العفيف التلمساني شاعر الوحدة المطلقة . د . عمر موسى باشا . دار الجليل للطباعة دمشق ١٩٨٢ .

١٢٧ - عيون الأنباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم (- ٦٦٨ هـ) تحقيق د . نزار رضا . مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٥

١٢٨ - غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلي بن ظافر الازدي (- ٦١٣ هـ) تحقيق د. محمد زغلول سلام. ومصطفى الصاوي الجويني. دار المعارف القاهرة ١٩٧١.
١٢٩ - الغيث المنسجم في شرح لامية العجم لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (- ٧٦٤ هـ) ط ١. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٥.
١٣٠ - فرحة الانفس في تاريخ الاندلس. قطعة منه - لابن غالب محمد بن أيوب الغرناطي تحقيق د. لطفي عبد البديع. فصلة من مجلة المخطوطات المجلد الاول. الجزء الثاني ط. ١٩٥٦.
١٣١ - فضائل الاندلس وأهلها (لابن حزم وابن سعيد والشقندي) نشرها د. صلاح الدين المنجد ط ١ دار الكتاب الجديد ١٩٦٨.
١٣٢ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي د. شوقي ضيف طه دار المعارف بمصر ١٩٦٦.
١٣٣ - فهرسة ما رواه عن شيوخه لابي بكر محمد خير الاشبيلي (- ٥٧٥ هـ). طبع وتحقيق الشيخ فرنسشكة قداره وخليان ربارة طرغوه ط٢ دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩.
١٣٤ - في الشعر الاوربي المعاصر. د. عبد الرحمن بدوي ط ٢. المؤسسة العربية للطباعة والنشر. بيروت ١٩٨٠
١٣٥ - القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي ط٢ المطبعة المصرية ١٩٣٣.
١٣٦ - القـرآن الكريم.
١٣٧ - قصة الأدب في الاندلس. د. عبد المنعم خفاجي ط١ المطبعة المنيرية. مصر. ١٩٦٢
١٣٨ - قلائد العقيان في محاسن الاعيان لابي الفتح بن خاقان (- ٥٢٥ هـ او - ٥٣٦ هـ). قدم له ووضع فهارسه محمد العنابي. دار الكتب الوطنية تونس ١٩٦٦
١٣٩ - قيام دولة المرابطين. د. حسن أحمد محمود. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٧.
١٤٠ - كولردج. د. محمد مصطفى بدوي. دار المعارف بمصر ١٩٨٠
١٤١ - لسان العرب لابي الفضل جمال الدين بن مكرم المعروف بابن منظور (- ٧١١ هـ) ط١ المطبعة الميرية بولاق مصر. ١٣٠٠ هـ
١٤٢ - مجلة العربي الكويتية العدد ١٤٤. السنة ١٩٧٠ - مقال: علماء الزراعة الاندلسيون لعبد الله عنان.
- مجلة العربي الكويتية العدد ١٥١ / ١٩٧١ - مقال: محكمة المياه ببلنسية. لعبد الله عنان
- مجلة العربي الكويتية العدد ٢٧٦ / ١٩٨١ - مقال: النقود العربية غزت أوربا القرون الوسطى للدكتور أمين توفيق الطيبي.

١٤٣ - مجلة المجمع العربي بدمشق مجلد ١١ لسنة ١٩٣١ . مقال ابن خفاجة الاندلسي لاحمد الاسكندري .

مجلة المجمع العربي بدمشق مجلد ١٢ السنة ١٩٣٢ تتمة مقال : ابن خفاجة الاندلسي لاحمد الاسكندري .

١٤٤ - المجمل في فلسفة الفن تأليف . كروتشه . ترجمة د . سامي الدروبي ط٢ الاوابد دمشق ١٩٦٤ .

١٤٥ - مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي (- ٦٦٠هـ) المكتبة الاموية بيروت . دمشق ١٩٧٨ .

١٤٦ - مسائل فلسفة الفن المعاصر تأليف جان ماري جويو . ترجمة د . سامي الدروبي ط٢ دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٥

١٤٧ - المطرب من أشعار أهل المغرب لابي الخطاب عمر بن حسن بن دحية (-٦٣٣هـ) تحقيق د . ابراهيم الابياري و د . حامد عبدالمجيد ود . أحمد أحمد بدوي . دار العلم للجميع القاهرة ١٩٥٤

١٤٨ - مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس لابي نصر الفتح بن خاقان . مطبعة السعادة . مصر ١٣٢٥ هـ

١٤٩ - مع شعراء الاندلس والمتنبي تأليف ا . غرسية غومث . تعريب د . الطاهر احمد المكي ط٢ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٨ .

١٥٠ - معاهد التنصيص لعبدالرحيم بن أحمد العباسي (- ٩٦٣) تحقيق الشيخ محمد محي عبدالحميد . دار السعادة . القاهرة ١٩٣٧ .

١٥١ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد بن علي المراكشي (- ٦٤٧هـ) تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٤٩

١٥٢ - المعجم في أصحاب القاضي لامام الصدفي لابن الابار محمد بن عبدالله القضاعي . دار الكاتب العربي . القاهرة ١٩٦٧ .

١٥٣ - معجم البلدان لابي عبدالله شهاب الدين ياقوت الرومي الحموي (- ٦٢٦ هـ) دار صادر بيروت ١٩٥٧ .

١٥٤ - المغرب في حلى المغرب لابي الحسن علي بن موسى المعروف بابن سعيد المغربي (-٦٨٥هـ تحقيق د . شوقي ضيف دار المعارف بمصر ج ١- ١٩٥٣ ، ج ٢ ١٩٥٥

١٥٥ - مقالات في الشعر الجاهلي . يوسف اليوسف ط٢ دار الحقائق بيروت ١٩٨٠

١٥٦ - مقدمة ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد . تحقيق د . علي عبدالواحد وافي ط١ لجنة البيان العربي القاهرة ١٩٦٢ .

١٥٧ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لابي الحسن حازم القرطاجني (- ٦٨٤ هـ) تحقيق محمد الحبيب الخوجة تونس ١٩٦٦

١٥٨ - منهج الفن الاسلامي . محمد قطب دار الشروق بيروت السنة (؟)

١٥٩ - الموسوعة في علوم الطبيعة . إدوار غالب . المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥

١٦٠ - موسيقا الشعر . د . ابراهيم انيس . ط ٤ دار القلم . بيروت ١٩٧٢ .

١٦١ - موسيقا الشعر العربي د . شكري محمد عياد ط١ دار المعرفة القاهرة ١٩٦٨ .

١٦٢ - كتاب النبات لابي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (- ٢٨٢ هـ) - نشره ب . لوين برنهارد .

كتاب النبات - قطعة من الجزء الخامس . بريل . ليدن ١٩٥٣

= = - الجزء الثالث . فرانز شتاينر . فسبادن ١٩٧٤ . وبدار القلم بيروت ١٩٧٤

١٦٣ - كتاب النبات لابي سعيد عبدالملك بن قريب الاصمعي (- ٢١٦ هـ) تحقيق عبدالله يوسف الغنيم مطبعة المدني . القاهرة ١٩٧٢ .

١٦٤ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب تأليف الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني . تحقيق . د . احسان عباس . دار صادر بيروت : ط ١٩٦٨ -

١٦٥ - نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر . (- ٣٣٧ هـ) . تحقيق كمال مصطفى بمكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٧٩

١٦٦ - نقد النثر لابي الفرج قدامة بن جعفر . تحقيق طه حسين وعبدالحميد العبادي مطبعة الكتب المصرية . القاهرة ١٩٣٣ .

١٦٧ - ابن النقيب شاعر الطبيعة في العصر العثماني . د . عمر موسى باشا . ط١ المكتبة العباسية دمشق ١٩٧٠ .

١٦٨ - نهاية الأدب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (- ٧٣٣ هـ) المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر . القاهرة السنة (؟)

١٦٩ - الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي . نشر . س . ديدرينغ . دار صادر بيروت ١٩٧٢ .

١٧٠ - الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (- ٣٩٢ هـ) تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . ط١ . دار احياء الكتب العربية مصر ٤٥

١٧١ - الوصف . تأليف لجنة من أدباء الأقطار العربية . دار المعارف بمصر . القاهرة دون ذكر السنة .

١٧٢ - ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر جمع وتحقيق د . حسين نصار . دار مصر للطباعة السنة (؟)

١٧٣ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لابي منصور الثعالبي (- ٤٢٩ هـ) . تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . دار السعادة ١٩٥٦ .

٢ - مراجع أجنبية :

1- La civilisation arabe en Espagne . Vue générale, nouvelle édition. E. Levi Provençal. Paris - 1948

2- La description de l'Espagne Par AL-RAZI Ahmed. Traduction française par (E. Levi Provençal) . Al - Andalus , Vol. 18, fasc : 1/1953

3- Encyclopédie de l'Islam . t. 3 et 4 Leiden E. J. Brill Paris 1971 et 1978.

4- Le grand Larousse encyclopédique . Librairie Larousse Paris 1962.

5- Histoire de L'Espagne (Que sais-je ?) par Pierre Villar Presses universitaires de France . Paris 1947.

6- Histoire des Musulmans d'Espagne , t. 3 et 4 . (Dozy. R) edit. par E. Levi Provençal Leyde - E. J. Brille 1932

7- La poésie Andalouse en Arabe classique au 11e siècle, ses aspects généraux , ses principaux thèmes et sa nature documentaire. 2e édition. Par Henri Pérès , Maisonneuve Paris - 1953.

تصويبات

(١)

ص	سطر	خطأ	صواب
٦	١٥	فكشفوا بذلك على	بذلك عن
٧	٣	ودافع	ورافع
٩	٢	حقيقية	حقيقة
١٤	١٠	والمرية	والمرئية (٢)
″	١٨	الإسلام	الإسلام (١)
١٧	١٥	أنه	قد
١٨	٣	الصنائع	الصانع
٢٤	٦	المتونة	لمتونة
٢٤	٦	أثبات	أثبتت
٢٥	٢	عمرك	غمرك
٢٦	٦	يتفقدهم	يتقدمهم
″	١١	بمرتبته	بمرثيته
٢٨	٤	بلاطه	بلاط
٢٩	٨	من البصرية	من البصري به
٣٠	١	على مدحه	عن مدحه
٣١	١٠	أساب	أصاب
٣٥	٧	أنفسهم	أنفسهم (٤)
٤٠	١٦	فبهذا	فبهذا ق
٤٢	٥	أسمه لانصرافه على	أسمه ... عن
٤٣	هامش (٣)	للغرض	إضافة للغرض بإضافة ٩٩
٤٣	٢	جو مساعدا	جوا
٤٦	١٢	وانتشاف	وانتساف
٤٧	١٤	قوى	قوي
٦٢	١	صور	صدر
٦٦	١٨	قوى من نوره	قوى من
٧٢	١	أثر إلى أثر	أثر أي أثر
٧٣	٢	الإنساني	الإنسان
٨٢	١٥	قدر طبع	قدر على طبع
٨٣	٧	اللبغاء	الببغاء
٨٥	٥	وروعها	وروعتها هذه
٨٤	٨	[illegible]	
٨٦	٢١	كما عني في تجميل	... بتجميل
٨٩	٩	وصف	وصفا
٩٠	٩	الشعرية	الشعورية
″	١٣	وتمتع	وتقتنع
٩٦	١٠	الموصفات	الموصوفات
١٠٠	١	جاباتها	جباياتها
″	٩	الأنسا	الإنسان
١٠٣	٤	البرق	[illegible] البر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
″	١٠	يحيي	يحكي
″	١١	في سير	وفي سير
١٠٥	١	ثم يذكر	ثم يذكر
١٠٩	١٤		البرق الأول لحذف
١١١	١٣	تعمد المسار	ذات المسار
١١٢	١٧	لم يحل	لم يخل
١١٤	١٤	أثر	أكثر
٢١٩	٧	التلذذ والتلذذ	التلذذ والتبلد
٢٩٧	٢٤	العروض وموسيقا الشعر	العروض و--
٣١	٢	كأنه عمر بن يوسف	كأنه عمر يوسف
٣٥	١٥	المسائل والاجوبة	الحدائق
٤٤	٤	جيء بها	جاء بها
٤٦	٢	لما وفي	مما وفي
٤٨	٤	تحدثنا على	تحدثنا عن
٥٣	٥	أو بالصرع	أو بالدراية
٥٦	٩	وانكاساتها	وانعكاساتها
٦٦	٨	يغد	يغذ
٨٥	١٥	محرما	محرما (٧)
٨٦	٢	فيها	ها
٨٧	٤	آثرها	آثارها
٨٨	١٦	والجلب	والجاب (٥)
٩١	١	قصورها	قصورها
١١٦	٥	أفسح	فسح
١١٨	تحت العنوان في وسط السطر	—	(٧)
٢١٩	هامش (٣)	٤٢	٤٢
٢٢٠	٢٢	فجلعه	فجعله
٢٩٦	١٩	ابن زويدن	ابن زيدون
٤٠	١٥	قدامه	قدامة
٢٢٧	١٨	وهو يحرص على التصريع — يلتزمه .... منه ... له	على التقفية والتصريع — يلتزمهما — منهما ... لهما —
″	١٩	وقد يصرع أبياتا	وقد يصرع أو يقفي —
٢٢٨	٢-٣	فيصرع الأبيات الثلاثة الأولى	فيصرع البيت الثالث ويقفي البيتين الأول والثاني —

تصويبات (تابع)

ص	سطر	خطأ	صواب
١١٨	٧	الأصلي	الأعلى
١٢٣	٨	يحد	يحث
١٢٧	٩	في بالأندلس	بالاندلس
١٣٥	١٠	وصقلية	وصقيلة
″	١٨	وثيقة	وثيقا
١٤٨	٧	ماظهر من جهاض...عادية	ماظهر على ... مادية
١٥٠	٤	لا تعدوا أن تكون مادية	لا يعدوا أن يكون ماديا
١٦٣	١٧	الصحاب ::	الصحا — ب لا
١٧٠	٥	الخضرة	المخضرة
١٧٢	هامش (٦)	٨٠	٨٥
١٨١	٣	يعدل عنه	يعدّل منه
″	٩	والشعر	والشاعر
١٨٢	الهامش	الجبل الشد	الشديد
١٨٦	٦	شبه الجزيرة الاندلس	شبه جزيرة الاندلس
٢٠٦	١٦	وقد ارتجز	قد ارتجز
٢١٠	١٤	الرتاج	المتاح
٢١٢	١٧	ما قاني	من قانية
٢١٥	١٥	حسنا	مسنا
٢١٧	٢	[illegible]	وبين حبيبه
٢٢٠	١٥	يهدف	يستهدف
٢٢٧	٩	والوطيس	الوطيس
٢٢٢	١١	فيتمثله	فيمثله
٢٢٣	١٧	من علي	من علي
٢٢٦	٩	ريثه	يثنيه
″	١٢	في أشقر	في أشقر
٢٤٩	هامش (١)	٥٨ - ٥٧	٢١٢ - ٢١١
″	هامش (٢)	١١٢	٥٨ - ٥٧
٢٥٥	١١	الحسه	يحسن
٢٥٦	١	إليه	اليد
٢٥٨	١٦	وذكرت	وذكر
٢٦٣	١	عزر	عزر
٢٦٤	١٤	لعت	نعت
٢٦٥	٣	سوّار	مقار
″	١٥	غصنان	غصنا
٢٧٣	١١	كما يذكر	كما يذكره
٢٧٦	١٤	تصيح	تصدع
٢٧٧	هامش (٢)	—	الديوان : ١٢٣
٢٧٨	٩	مشرقا	مشرقة

تصويبات (تابع)

٢٨١	١٨	اسعاراته	استعاراته
٢٨٣	١١	غرهم	غيرهم
٢٨٤	١١	هوة	[illegible]
٢٨٩	١٨	والمتنوعة	المتنوعة
٢٩٠	٢٠	العليك	العليل
٢٩٦	١٦	ذلولا	ذيولا
٢٩٨	٢٢	الطبيعة	طبيعية
٢٩٩	١٠	الغيث	العبث
٣٠٠	١٦	عتبة	عتمة
٣١٢	٧	وشيته	وشيه
٣١٤	١٣	سوسانٌ	سوسانِ
٣٢٠	هامش(٤)	—	وهذا البحث : ٤٣
٣٢٣	٤	على الحركة كان	على الحركة التي كان —
٣٣٠	١	ـع	ونتبع
٣٣٣	٨	مبسم يرق	مبتسم يروق
٣٣٧	٦	وتتأكيد	وتأكيد
"	٩	أبرز	أبرزه
٣٤٠	١٦	وقد	قد
٣٤١	١٠	يعفره	يغفره
٣٤٤	هامش(٦)	٣٢١	٣٢٠
٣٤٨	٢	يتفتق	يفتق
"	١١	فعني به	فعني بك
٣٥٢	٩	لا يطيب في	لا يطيب إلا في
٣٥٤	١٤	يعجب	يحجب
"	٢١	رمز حياة	رمز لحياة
٣٥٩	١٠	في تتبعه	وفي تتبعه
٣٦٣	[illegible]	الحسن ابن الخير	الحسن بن الخير
٣٦٤	١٣	المصورة	للصورة
٣٦٥	١٦	لنسج	لنسيج
[illegible]	[illegible]	أوهبنا	[illegible]

٢٢٧	٥ / ١٢	المستعار به	المستعار له .

Université de Damas

Faculté des lettres

Institut des lettres et

de langue arabe .

LA NATURE DANS LA POESIE D'IBN KHAFADJA AL ANDALOUSI

Thèse de Maîtrise

Préparée par

Kerroum Boumediene

Dirigée par le Docteur

Omar Moussa Bacha

CONCLUSION

On a commencé cette thèse par une introduction de laquelle nous avons éclairé l'époque du poète IBN KHAFADJA , du point de vue politique, économique, sociale et intellectuelle; et on a vu que l'Espagne Musulmane, durant les siècles 4 et 5 de l'hégire atteint un niveau de civilisation très élevé; mais la chutte du "KHALIFA OMAYYADE " a comme conséquence sa division en petites royaumes vivaient en état de compétition et de lutte; et l'apparition de la force Chrétienne au nord de l'Andalousie (ex : la reconquête) , qui assaillit ces royaumes faibles dans le but de récupérer toute le peninsule, a détourné la vie stable et tranquille de l'Andalousie en vie perturbée et instable, ils ont faillit recupérer l'Andalousie, mais l'intervention des ALMORAVIDES l'a empêché.

Les ALMORAVIDES sont venus comme aidants, mais apercevant que les "Moulouk de TAÏFAS" n'ont plus la force de se défendre, ils sont devenus des conquérants en forme de défenseurs de l'Andalousie; les ALMORAVIDES ont favorisé la paix durant leur existance en Espagne; mais l'apparition du "MAHDI" le chef des ALMOHADES au Maghreb, comme une nouvelle force compétente a boulversé les forces des ALMORAVIDES qui selon le MAHDI ne sont plus sur le régime exacte de l'Islam.

Affaibli par les guerres successives des Chrétiens et force du MAHDI au Maghreb, a poussé les Musulmans d'Espagne à se mettre contre eux et les remplacer enfin par les ALMOHADES.

Et malgré la dépression politique et sociale qu'a connu l'Espagne à cette époque, on trouve que la vie intellectuelle en ses differents domaines n'a pas changé, mais au contraire elle a été prospéré durant la période des "Moulouk TAWAIF " ainsi que pendant la période des ALMORAVIDES .

Nous avons consacré le premier chapitre sur la vie d'IBN KHAFADJA, du point de vue, éducation et naissance, sa personnalité, ses relations et ses voyages, et on a vu qu'IBN KHAFADJA, avec sa personnalité et ses caractères propres a pu se tendre vers la description de la nature et ses beautés. Puis nous avons étudié d'une façon globale la nature dans la poésie arabe avant IBN KHAFADJA et nous avons essayé d'apparaître les étapes de développement dans cet art durant les

époques historiques de la poésie arabe, et nous avons saisi la corrélation profonde du poète arabe avec son environnement ; mais son préoccupation sur les ressemblances objectives a influencé profondément sur la poésie descriptive en générale, et la poésie de la nature particulierement.

Puis nous avons abordé le chapitre principale dans cet mémoire c'est à dire, la nature dans la poésie d'IBN KHAFADJA , où nous avons décrit la nature de son pays natal, et nous avons essayé d'établir une relation entre sa vie , son humeur et sa poésie d'une part, et la nature où il viva d'autre part . Il avait un sentiment profond sur la nature de son pays, et cette relation lui a permit de faire son œuvre dont la description de la nature regne.

Puis nous avons étudié sa description générale de la nature , à travers la description des jardins qui exprime les sentiments du poète envers la vie et la femme d'une manière attentive. Et nous avons essayé d'analyser cette description globale des jardins et voire la signification de ces éléments descriptives avec lesquels il a réussi à exprimer sa vue envers la femme qu'il a vécu sans elle comme épouse, ainsi que son sentiment envers la vie qu'il l'aime profondément a été exprimée surtout par sa description sur l'arbre.

Et en ce qui concerne la description des montagnes, on a vu qu'il a déroulé un dialogue humain en essayant d'exprimer sa sensation de la mort et de la vie. Alors que sa descrition prolongée sur l'eau courant en ses differentes périodes nous donne l'impression qu'il vivait dans une nature pleine d'eau. Il a exposé la mer en état d'agitation signifiant la peur du poète, ainsi , il a décrit la neige, alors que sa vue envers le phénomène du grêle était comme un châtiment providenciel.

Pour sa description des phénomènes de l'univers, (la nuit, le jour, le soleil, la lune, les étoiles, le nuage, le tonnerre et l'éclair) nous avons conclu qu'il fuyait de la nuit, aimait le jour, et en ceci apparait sa sensation sur la vie et la mort. Pour la nature vivante, IBN KHAFADJA a exposé par sa description, le cheval et les

oiseaux chantants bien plus qu'autres éléments vivants, il nous a donné plusieurs images qui caractérisent les qualités psycosamatiques de son cheval, et se borna sur la description des chants d'oiseaux.

Ainsi, il a décrit quelques objets de sa civilisation, surtout l'épée , la bague, et la plume; le poète s'est intéressé sur la description de l'épée et le cheval dont il s'aperçoit de leur importance pour se défendre contre les agressions du mouvement chrétien (la reconquête).

IBN KHAFADJA a employé dans la description de la nature vivante et la nature artificielle la nature morte, et ceci apparaît clair dans tous ses sens poétiques; louange, élégie, blâme, la description du combat, du vin, des poèmes et la galanterie dont la description de l'amant a été basé sur la nature avec une grande proportion; de ceci nous avons saisi qu'il examinait la nature à travers les caractères vues de la femme, cette examination devenu -ici- pour la femme à travers la nature, et cette interference indique l'attachement du poète à la vie , en plus de son attachement au qualité esthétique qui les unit, il les considérait comme des symboles de la vie qu'il aimait, et s'attachait profondement.

Et le dernier chapitre comprend une étude globale sur l'art poétique d'IBN KHAFADJA où nous avons indiqué les sens suivants :

1- Il s'est pris soins de son style poétique, en choisissant des mots faciles, clairs, inspirants; et la musique a été bien entretenu; et grâce aux éléments précédants, sa poésie a eu un aspect facile à lire et harmonieux, en ajoutant que sa civilisation, sa culture vaste et sa sensibilité sentimentale ,l'ont aidé bien à accomplir sa tâche.

2- Il a trops employé les ressemblances et les métaphores jusqu'à les assembler dans un seul vers, et cette mé - thode rend ses sens poétiques un peu obscurs. Ainsi qu'il a inspiré ses ressemblances et ses métaphores à partir de la nature harmonieuse qui l'entour.

3- Ses images poétiques étaient un moyen d'exprimer ses sentiments et sa vue envers la vie, la mort et la femme.

4- Dans la plupart des cas , sa description sur la nature était objective.

5- Pour établir son image poétique , il entremêle la réalité et l'imagination, cet entremêlement apparaît de façon évidente en humanisant la nature .

6- Il a toujours essayé d'établir l'unité entre les diffé- rents éléments de la nature d'une part, et entre la nature et l'être humain d'autre part, et cette qualité nous donne la sensation d'admiration,et c'est rarement que le poète expose des images exprimants le sens de la lutte , et s'il arrive où on en trouve, c'est qu'il reflète le sentiment de lutte entre une vie qu'il l'aime et la mort qui l'effraye.

Enfin on a essayé de classer le poète IBN KHAFADJA entre ses confrères descripteurs de la nature dans notre poésie de l'antiquité; et c'est une tentative très difficile; où on a signalé de façon générale aux points de rencontre et de deversité avec ceux qui l'ont précédé et ceux qui l'ont suivi dans ce domaine; et nous avons conclu qu'IBN KHAFADJA constituait un anneau principale dans la description de la nature en poésie arabe antique, et on a constaté, aussi qu'il a devancé les poètes romantiques en utilisant des sens sur la description de la nature depuis six siècles.

Et j'espère que j'ai réussi à exposer en vue claire la nature dans la poésie d'IBN KJAFADJA comme il l'a senti et l'a exprimée.